أميركا في إسلامستان

تجارةٌ ثم نفطٌ فَدِماء

الدكتور عبدالحي يحيى زلوم

المحتويات

- تمهيد
- المقدمة
- الفصل الأول: من الغزو الثقافي إلى التجارة
- الفصل الثاني: من حملات التجارة الصليبية إلى الحملات السياسيه الصليبية.
- الفصل الثالث : السيطرة على النفط الإسلامي ... في مقابل أغنية.
- الفصل الرابع: خطوة فخطوه ... من السيطرة إلى الاحتلال.
- الفصل الخامس: الغزو الأميركي لأفغانستان والعراق.
- الفصل السادس: الرأسمالية الأميركية ... عبودية بأي لبوس أتت
- الفصل السابع: انهيار رأسمالية التمويل العالمية.
- الفصل الثامن: من أيقونة السلم البريطاني إلى أيقونة السلم الأميركي
- الفصل التاسع : ما بعد بريتون وودز ... نظام اللانظام.
- الفصل العاشر : ليست أزمة تباطؤ اقتصادي ، ولا هي أزمة ركود اقتصادي ... إنها أزمة نظام
- الفصل الحادي عشر: العولمة: مشروع حكومة العالم الواحد.
- الفصل الثاني عشر : العولمة كما يراها المسلم .
- الفصل الثالث عشر : العالم الذي قال لا للمعلومماليه.
- الفصل الرابع عشر: الاقتصاد الشعبي أم الاقتصاد الإسلامي.
- الفصل الخامس عشر: الظاهرون والأخفياء.

" لم يربح الغرب العالم بسبب تفوق أفكاره أو قيمه أو ديانته ، وإنما ربحه بسبب تفوّقه في استعماله للعنف المنظم ؛ والغربيون غالباً ما ينسون هذه الحقيقة ، أما غير الغربيين فلا ينسونها أبداً "

صامويل پى. هنتنجتون

لو عرف الناس مقدار الظلم الذي يعترى نظامنا المالي والبنكي لثاروا قبل أن ياتي صباح اليوم التالي[1]".

تمهيد

" منذ دخلت معترك السياسة ، عملت وبشكل رئيس على أن يفضي الرجال إلي بوجهات نظرهم على انفراد، إذ أن بعضاً من أكبر رجالات الولايات المتحدة في مجالات التجارة والصناعة كانوا يخشون شيئاً ما ، حيث كانوا يعرفون أن هنالك في مكان ما ، قوة ما ،

---

[1] Arthur M. Schlesinger Jr., *The Age of Jackson*, New York, Mentor Books, 1945, 6-7

بالغة التنظيم ، شديدة الدهاء والمكر ، شديدة اليقظة ، شديدة الترابط وشديدة الفساد. بحيث أنه من الأفضل لهم أن لا يتحدثوا عنها إلا همساً عندما يشجبونها "[2].

****

الرئيس وودر ويلسون " الحرية الجديدة – 1913 "

عندما قرّرت شبكة تلفزيون الجزيرة المعروفة عمل حلقتين وثائقيتين مدة كل منهما ساعة حول كتابي " حروب البترول الصليبية – أميركا بعيون عربيةً" ، قمت ومنتج الحلقات بوضع قائمة بالشخصيات التي سيتم مقابلتها ، استناداً إلى من تم الاستشهاد بأقواله من تلك الشخصيات في كتابي .. ومن بين هؤلاء كان جيمس إيكنز ، وهو سفير سابق للولايات المتحده لدى العربية السعوديه أوائل سبعينيات القرن الماضي ، خلال الصدمة النفطية الأولى .. وفي كتابي ذاك استشهدت بدراسة لكلية الدراسات العليا لإدارة الاعمال في جامعة هارفارد والتي ورد فيها أن احتلال حقول النفط العربية كان بديلاً سياسياً مطروحاً في أوائل السبعينيات ، وذكرت قصة كان رواها إيكنز حول نفس الموضوع ، وكان أن قابلت الجزيرة إيكنز لغرض المسلسل الوثائقي ، وفيما يلي النص الدقيق لما قاله:

" عندما طلع علينا كيسنجر بخطته لاحتلال حقول نفط الشرق الأوسط ، سُئلتُ عمّا كان قد نُشر في مقالة بمجلّة " هاربر " كُتبت من قبل كاتب مجهول دعا نفسه " الجندي المجهول" ولم يعرف أحد حقيقة هويته إلا بعد ردح من الزمن.

وكان كاتب المقالة اقترح على الولايات المتحده احتلال حقول النفط العربية من الكويت وحتى دبي، مع إحضار موظفين من تكساس وأوكلاهوما لتشغيل هذه الحقول وترحيل جميع مواطني هذه البلدان إلى نجد (في العربية السعودية) ، بحيث تخلو المنطقة بكاملها

---

[2] Woodrow Wilson, *The New Freedom,* (Charleston: BiblioBazaar, LLC, 2008), 18

من مواطنيها العرب ، ونقوم نحن بإنتاج النفط لمدة الخمسين أو السبعين سنة القادمة إلى أن تجف حقول النفط.

بحثت الخطة مع أرامكو (شركة النفط الأميركية السعودية) فارتعبوا ، إذ من السذاجة بمكان أن يجول بخاطر المرء مثل هذا الحلم ، وقد سألتني وسائل الاعلام الأميركية عن هذه الخطة ، وكنت حينها سفير أميركا لدى العربية السعودية ، فأبلغت وسائل الإعلام الأميركية بأن من يفكر بحل أزمة الطاقة الأميركية بهذه الطريقة إما أن يكون مجنوناً أو مجرماً أو عميلاً للاتحاد السوفياتي ، ويبدو ان هذه الكلمات لم تسّر ذاك الذي كتب مقالة " هاربر" ، وكنت أعتقده أحد حمقى وكالة الاستخبارات المركزية أو البنتاچون ، حيث لم أكن أعرف بعد من قد يكون ، وأخيراً عرفت : لقد كان رئيسي كيسنجر، حيث لم ألبث بعدها أن طُردتُ " [3] ***.***

إن كُهّان الرأسمالية وإعلام شركاتها ، استخدموا تعبير "الضربة الاجهاضية" أبكر كثيراً من الوقت الذي أصبحت فيه هذه الكلمة مشهورة بعد عقيدة بوش في الحروب الاجهاضية . حيث – كما يبدو – أرادوا إجهاض أي فكر حّر وسوقه بعيداً عن التحقيق في مؤامراتهم الحقيقيه ، ولهذا تغدو **" نظرية المؤامرة "** في حدّ ذاتها مؤامرة !

~~عندما ألقت الـ إف. بي. آي (FBI) القبض على بول كاستيلانو زعيم المافيا قال " لو كنت أنا الحكومة لزججت نفسي في السجن لألف عام ...ليس لأنني على خطأ ...دعك من هذا ... فنحن لسنا أطفالاً هنا ، فالقانون ليس سوى .. كيف أقولها : .. مسألة مواءمة .. مواءمة بالنسبة للبعض وعدم مواءمة بالنسبة للبعض الأخر ... فضلاً عن أنّه بمقدور القانون دائماً " أن يغيّر قناعته" ، فالجيوش من جماعات الضغط والمحامين مع ملايينهم من الدولارات~~

[3] , Andris Kurins, *Boss of Bosses: The Fall of the Godfather : the FBI and Paul* Joseph F. O'Brien *Castellano*, , New York, Dell, 1992, 326

~~موجودون لكي يضمنوا أن " يغير القانون قناعته"[4] بما يلائم الشركات وول ستريت ، وضد مصلحة وضد ما يلائم مين ستريت(عامةالناس).~~

في (الديموقراطية) الامريكية قاد رئيس مكتب الاتحاد الفيدرالي للتحققات (FBI) ادجار هوفر سياسي واشنطن لما فيهم رؤساء الجمهورية لاكثر من خمسين عاماً . دعنا نردُ ما ورد في تسجيل في البيت الابيض بين الرئيس رتشارد نيكسون وزير عدليته متشل .

الرئيس نيكسون : "لعدة اسباب يجب ان يستقيل (كان يتحدث عن هوفر).. يجب ان ينصرف ويكفينا شره .. استطيع الآن .. وأشك في ذلك .. ان اتصل به على الهاتف واتحدث اليه بشأن استقالته .. ان هناك بعض المشاكل .. فاذا استقال فيجب ان يكون قد استقال بمحض ارادته .. ولهذا ومن اجل هذا فنحن في مشكلة عويصة .. اعتقد انه سيظل رابضا على صدورنا الى ان يبلغ المائة من عمره" .

وزير العدل : "انه سيظل في منصبه الى ان يدفن هناك .. في الخلود.."

الرئيس نيكسون : "اعتقد انه يتعين علينا ان نتحاشى الموقف الذي يجعله ينصرف مفجراً وراءه قنبلة كبيرة .. فربما يكون هذا الرجل قادرا على جر الجميع معه اذا سقط .. بمن فيهم .. أنا .. وستكون مشكلة عويصة" .

كان تقدير الرئيس ووزير عدليته للموقف صحيحا لأن رئيس جهاز FBI بقي في منصبه الى ان رحل عن هذه الدنيا . وعندما سمع الرئيس نيكسون الانباء قال : "يا إلهي .. يا إلهي هذا الفاسق العجوز .." .

وقد جاء هذا في كتاب – أشبعه كاتبه بحثاً عن هوفر تحت عنوان "الحياة السرية لادجار هوفر The Secret Life of J. Edgar Hoover" ، فقد تربع ادجار هوفر على عرش احدى منظمات ومؤسسات الامن القومي قرابة خمسين عاماً – أي ما يعادل ربع العمر الاجمالي للجمهورية الاميركية منذ تأسيسها . ولقد تصور البعض بأن رؤساء الدول الاجنبية يخشون مؤسسة الامن القومي الاميركية ولكن لم يخطر ببال احد ان الرؤساء الامريكيين انفسهم ومنهم نكسون Nixon وكذلك قادة آخرون كثر ، ومسؤولون كبار

---

[4] Ibid., *191* [4]

ومشرعون منتخبون ، كلهم اعربوا حرفياً عن تخوفهم من منظمة الامن القومي الاميركية ، تلك المنظمة التي يفترض انها معنية بالامن الداخلي لا بترويع القادة والرؤساء .

لاختفاء مصداقية على لجنة تحقيق في اغتيال الرئيس كنيدي kennedy ، طلب الرئيس الامريكي جونسون من رئيس المحكمة العليا القاضي إيرل وارن (Earl Warren) رئاسة التحقيق لكنه رفض بشدّه . وفجأة تغيير موقف وارن ، وتعجبت الناس عن سبب هذا التغيير المفاجئ.

حسب تسجيل صوتي بين الرئيس جونسون والسناتور ريتشارد رسل (Richard Russel) كما هو في مكتبة الرئيس جونسون ، وكما ورد في كتاب " عائلة الاسرار" كما يلي

" رفض وارن طلبي لرئاسة اللجنة بشكل قطعي ...جاء لمكتبي مرتين واخبرني ذلك. عندما أعلمته عن حادثة حصلت معه في مدينة نيو مكسيكو كان قد أطلعني عليها هومر (مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي) ..عندما بدأ (وارن) يجهش في البكاء وقال لي ، لن أخذلك – سأفعل أي شي تريده مني." [5] عندما قام عميل اف بي اي آندى كورينز بالتدقيق في الدفعات التي يتلقاها " مستشار " كاستيلاّنو (زعيم احدى عصابات النافية) دون ان يبدو بأنه يؤدي عملاً مقابل ذلك ، أظهر الأخير بوضوح معاداته للنفاق الذي يتمتع به النظام ، إذ أخبر عميل إف بي آي ***" ... إذا كنت تعتبر هذه جريمة يا آندي فإنه من الأجدر بكم إذن أن تبنوا سجوناً أكثر مما لديكم بكثير ، لأنه سيتوجب عليكم سجن أكثر من نصف سكان هذا البلد البائس بدءاً بعصبة الزنابير الصغيرة (كناية عن البيض الأنكلوساكسونيين البروتستانت) بصناديقها المالية ، ثم وكلاء مضاربات الأسهم، وإذا بقي لديك متسع بعد ذلك في السجن البائس ، عندها تعال وتشاجر مع " شخاخ " مثلى بدولاراته الأربعمائه وخمسون في الأسبوع " .. ، فأجابه آندي كورينز .. " ولكن يا جو أنت تتحدّث عن سُلّم رواتب بينما أتحدّث أنا عن مؤامرة إجرامية " ، عندها أجاب رجل المافيا ذو الشعر الابيض بصوت كالفحيح "مؤامرة ! تقول مؤامرة ؟! تلك هي كلمتكم السحرية ايها الفتيان ...! ولكن دعني اسألك شيئاً .. ما الذي ليس مؤامرة...؟ السياسة***

---

[5] Family of Secrets, p 46, by Russ Baker [Bloomsburry Press,New York 2009

؟ دعني من هذا ! شارع المال (وول ستريت) ؟ كلانا يعرف أنه ليس سوى رخصة للسرقة ... لا يا آندي ، إنها كلها ليست سوى مؤامرات ، والفرق الوحيد في ذلك أنكم تقومون بكشف البعض منها ، بينا تتسترون على البعض الآخر " [6] .

مصداق ذلك مؤامرة رجل شارع المال (وول ستريت) برنارد مادوف والذي أصبح رئيساً لسوق أسهم ناسداك ، دون أن يكتشف أمره لأكثر من أربعين سنة ، حيث اختلس ½64 بليون دولار دون أن يُقبض عليه من أحد ! لقد قام هو بذاته بتسليم نفسه ! اما عقوبة مادوف فكانت سجن (خمسة نجوم) به ملاعب للتنس وبرك سباحة ونادي رياضي ومكتبة ...

لا اعتذار منّي هنا عن الاستشهاد بأقوال شخصيات مافيا بارزه ، ذلك أن مؤسسات الأعمال الكبرى اليوم ، على الأقل .. البعض منها ، كانت بالأمس مؤسسات عمل مافيوزيه ، ولنأخذ آل كنيدي كمثال ، حيث يمثلون واحدةً من أفضل الصور التي خلقها صنّاع الصور الاجتماعية ، إذ لا يذيع زعيم المافيا كوستيللّو سّراً عندما يؤكد بأن جوزيف كينيدي إنما صنع ثروته كنتيجة لتحالف بينه وبين الجريمة المنظّمة خلال فترة تحريم الخمر وتهريبه في أميركا ، ولم يكن الرئيس روزفلت يعطي الكثير من الاعتبار لجو كينيدي ، فقد وصفه بأنه " لصّ ، وواحد من أكثر الرجال الأشرار المقززين الذين عرفهم " ومع ذلك فإنّ هذا اللص الشرّير المقزّز ، كما تم وصفه من قبل الرئيس روزفلت ، قد عيّن في واحد من أهم المناصب في ذلك الوقت وأكثرها حساسية ..سفيراً لدى المملكة المتحده خلال الأيام الحرجة للحرب العالمية الثانية. وللمرء أن يستغرب ممارسة الرئيس لهذه الازدواجية وان يتساءل عن ماهية القوى التي جعلته يمارسها . أمّا ترومان فاعتبر جو كينيدي محتالاً كبيراً ، بينما عين أيزنهاور - تمشيا مع رأي أسلافه من الرؤساء - جو كينيدي عضواً في مجلس إدارة المخابرات الأجنبية وهي واحده من أكثر إدارات المؤسسة الحاكمة نفوذاً .

---

[6] Ibid., 192 [6]

إن ثقافة المافيا هي بحق ثقافة الرأسمالية ، فكلاهما مبنيٌ على الابتزاز والاكاذيب والحروب ، واحدتها بين العصابات ، بينا الأخرى بين الأمم ، وكلاهما : المافيا والرأسمالية ، لا يلتزمان أي قانون أخلاقي يضبطهم ... يقول ليستر سي . ثورو استاذ معهد ماساشوستس للتكنولوجيا في كتابه " مستقبل الرأسمالية ":

" لسوء الحظ فإنه لا الرأسمالية ولا الديموقراطية تعتبر أيدلوجيا ذات طبيعة موحّدة و جامعة ، إذ ليست أي منهما سوى مجموعة مناهج (processes) ،فهما تؤكدان أنه إذا اتبع المرء المنهج الموصى به، فسيكون أحسن حالاًمما لو أنه لم يفعل ، ولا تقدم أي منهما أهدافاً مشتركه يمكن للجميع أن يتضامنوا للعمل على تحقيقها ، وكلتاهما تؤكدان على الفرد وليس على الجماعة . وفي أقوى التعبيرات الأخلاقية للرأسمالية ، فإن الجريمة ، ببساطه ، ليست سوى نشاط إقتصادي آخر صادف أنه ذو ثمن باهظ (السجن) في حالة تعرّض المرء للقبض عليه، ولا يوجد هنا ما " لا يجوز " للمرء أن يقوم به ، فالواجبات والالتزامات لا وجود لها ، فقط عمليات السوق هي التي لها الاعتباروالوجود. " [7]

أليست تلك بالضبط هي ماهية المافيا؟ إذا كانت " الجريمة " في أخلاقيات الرأسمالية ليست - ببساطة - سوى نشاط اقتصادي آخر صادف أن له ثمناً باهظاً هو (السجن) في حالة إلقاء القبض على الفاعل ، فلدى المافيا بالتأكيد ، والحالة هذه ، الرغبة في أن تدفع ذلك الثمن، إذا ما ألقي القبض على الفاعل.

وإذا كانت الجريمة المنظمة تقوم بقتل قلةٍ من الناس ممّن يمكن أن يعترضوا طريقها ، والذين يكونون في أغلب الحالات من داخل منظمات المافيا، فإن مؤسسات الراسمالية وحكوماتها يمكن لها قتل الملايين من الناس الأبرياء ، فصناعة التبغ كانت تستهدف الأصغر سناً كي يدخنوا ، حتى بعد أن ثبت في ستينيات القرن الماضي ، بأن السجائر

---

[7] Lester C. Thurow, *The Future of Capitalism: How Today's Economic Forces Shape Tomorrow's World*, New York, W. Morrow, 1996, 159

تسبب الادمان وأنها قاتلة وتسبب السرطان ، حيث بلغ عدد ضحايا صناعة التبغ – المشروعة قانوناً - 400 ألف أميركي سنوياً ، وإذا كانت الحروب التي يقتل فيها مئات الآلاف بل الملايين من الناس إنما تُشن لتمهيد الطريق أمام شركات مثل إيكسون وبكتل ، كما حدث مؤخرّاً في حربي العراق وأفغانستان ، فلماذا الاهتمام إذن ببضع حوادث مافيوزيه هنا وهناك ، تحدث بين الحين والآخر ؟.. ويبدو من الراجح لهذا السبب ، بأن جيه. إدچار هوڤر مدير إف.بي.آي. لأكثر من نصف قرن ، لم يعط المافيا اعتبار الجريمة الكبرى ، حيث كان يعلم أن رؤساء أميركا انما كانوا يُنْتخبون بعد أن يَحظَوْا باستجابة المافيا لطلب الدعم منهم ، كما كان يعلم بالعلاقة الوثيقة التي أقامتها المخابرات المركزية الأميركية مع المافيا لإغتيال زعماء آجانب . ولذا فإن جيه. إدجار هوڤر لم يكن راغباً في إضاعة وقته بممارسة النفاق ... على الأقل بخصوص هذا الموضوع . اذ كان يعتقد بأن من الأفضل له ان يسمّي الأشياء بأسمائها ، حيث لم يكن يرى جريمة منظمة في بلاده ، وإنما رأى منظمات الأعمال الكبرى ، وكان يدرك بأنها أكبر من الحكومة.الم يقل الرئيس الامريكيRutherford B. Hays رذرفورد هيز في القرن التاسع العشر **"لم تعد هذه حكومةُ الشعب ومن الشعب ومن اجل الشعب بل اصبحت حكومة الشركات من الشركات ومن اجل الشركات!"**

رئيس امريكي اخر قال :

" في المجالس الحكومية يجب أخذ الحيطة ضد امتلاك النفوذ غير المرغوب فيه - سواءً بقصد أو بغير قصد - للمجمع الصناعي العسكري ، إذ أن الاحتمال الكارثي لصعود قوة غير مؤهله هو احتمال قائم وسوف يتزايد ، وعلينا أن لا نترك أبداً المجال لمثل هذا المزيج الخطركي يهّدد حريّاتنا ومناهجنا الديموقراطية ، وعلينا أن لا نأخذ شيئاً على أنه أمر مسلّم به " [8] .

---

[8] Dwight Eisenhower's Farewell Address , January 17,1961, Michael Waldman, *My Fellow Americans: The Most Important Speeches of America's Presidents, from George Washington to George W. Bush,* Volume 2, Naperville, Sourcebooks, Inc., 2003, 156.

دوايت دي. آيزنهاور

إن آيزنهاور يطلب من النظام أن لا ينسجم مع ذاته ، فالاقطاعيون والممّولون هم من فصّل النظام كي يكون في خدمتهم – من جورج واشنطن إلى جورج بوش ، فالرؤساء وكبار الرسميين الحكوميين يتم اختيارهم وانتخابهم عبر تسويق وبفلوس هذه المصالح الخفية عن الأنظار ، واليكم بعضاً مما قاله هؤلاء العارفون بعد أن اصبحوا رؤساء أو رسميين كباراً عن تلك القوة الخفية:

" لو أن الناس فقط أدركت مدى المستوى الظالم لنظامنا النقدي والمصرفي ، فإن ثورة عارمة كانت لتنشب قبل بزوغ الصباح "

الرئيس آندرو جاكسون

" وراء كل حكومة ظاهرية تجلس حكومة متوجه غير مرئية ، لا تملك ولاءً أو تدين بمسؤوليةٍ تجاه الشعب . إن تدمير هذه الحكومة غير المرئية ، وفض التحالف غير المقدّس بين المصالح الفاسده والسياسة الفاسده ، هو أول مهام رجالات الدولة لهذا اليوم " [9]

الرئيس ثيودور روزفلت

" توجد هناك حكومة خفيّة ، تملك قوتها الجوية الخاصة ، وبحريتها الخاصة ، وآلية تجميع المال الخاصة ، والقدرة على متابعة فهمها الخاص للمصلحة الوطنية ، طليقة من أي روادع وتوازنات ، متحررة من القانون . وليس لدى المرء أولدى الشعب الأميركي أي فكرة عما يدور في هذه الحكومة ، ولو حصل وعرفوا فإن ثورة ستجتاح هذا البلد " [10]

---

[9] , *Theodore Roosevelt: An Autobiography*, New York, The Macmillan company, Theodore Roosevelt 1913, 625

[10] http://georgewashington2.blogspot.com/2009/03/with-one-word-bernanke-reveals-who.html

جون كوناللي حاكم تكساس المطّلع على جوهر السياسة

" الحكّام المقيمون في واشنطن غير مرئيين ، ويمارسون نفوذهم من وراء الستار"

قاضي المحكمة العليا فيلكس فرانكفورتر 1952

إن المسلمين ما برحوا يقاسون لا أخلاقية الرأسمالية الغربية من أمثال شركة الهند الشرقية في 1600 ، وحتى شيفرون وأيكسون وأشباههم في يومنا هذا ، إذ أن غزو العراق وتدميره إنما تم لصالح شركات كهذه. وفي آخر زيارة قام بها الرئيس جورج بوش للعراق المحتل ، قذفه صحافي عراقي هو منتظر الزيدي ، بفردتي حذائه وبقوة ، الفردة تلو الآخرى ، وكاد يلطمه بها في وجهه. وبعد أن أنهى عقوبة سجنه كتب في الجارديان (2009/9/19) :

" لست بطلاً ولكن لي وجهة نظر ، ولي موقف ، إذ أذنني أن أرى وطني يهان ، وأن أرى بغدادي تحرق وأهلي يُقتّلون ، فآلاف الصور المأساوية بقيت في رأسي ... تجوّلت في أرض بلادي المحروقة ، ورأيت بأم عيني آلام الضحايا ، وسمعت بأنني عويل الأيتام اللّطماء ، وتملكني شعور بالعار كاسمٍ قبيح بسبب كوني لا حول لي ... رغبت في أن أعبّر عن رفضي لأكاذيبه ، ولاحتلاله لوطني ، وعن رفضي قتله أبناء شعبي " [11]

تساءل جورج مرةً قائلاً " لماذا يكرهوننا ؟ " هل يكمن فيما سرده منتظر الزيدي عن دوافعه الجواب الكافي ؟.

يتناول هذا الكتاب التدخلات الأميركية في العالم الاسلامي منذ أيام الإستقلال الأميركي وحتى يومنا هذا ، ويوضح الأسباب الحقيقية لأسباب حرب الإرهاب كما تبدو في عيون مسلم ، ويخلص إلى أن سباقاً يستهدف **" تغيير النظام الحكومي الاجتماعي "** في الغرب

[11] Muntazer al-Zaidi, "Why I threw the shoe", *Guardian*, September 17,2009, http://www.guardian.co.uk/commentisfree/2009/sep/17/why-i-threw-shoe-bush

أصبح الأن مطلباً ملحّاً قد آن أوانه ، حيث تعاني الرأسمالية أزمة نظام عميقه ، كما أن لعبتها قد شارفت على الانتهاء.

تقديم

"تعاني الرأسمالية من سرطانٍ في ال :

" المشاكل التي نواجهها اليوم لا يمكن حلّها من قبل نفس العقول التي خلقتها "

ألبرت آينشتاين

حدثان وقعا في العام 1492 أعادا صياغة العالم ، ففي كانون الثاني من تلك السنة ، تمّ قهر آخر معاقل الإسلام في أوروبا الغربية من قبل الملك فرديناند والملكة إيزابيلاّ ، وجلجلت أجراس الكنائس فرحاً عبر أوروبا ، بينما شاهدت الجماهير الراية المسيحية ترفع على غرناطة ، آخر المدن الاسلامية . وبين الحشود كان كريستوفر كولومبوس .. مؤرخ يهودي كتب فيما بعد بأن فقدان إسبانيا الإسلامية كان حدثاً مأساوياً في التاريخ اليهودي ، حيث أن اليهود... حالهم حال المسلمين كانوا يخيّرون بين الترحيل والمنفى أو اعتناق المسيحية. وكان أن غادر الكثيرون من اليهود إلى أراضي المسلمين حيث التسامح مع اليهودية ؛ بينما اختارت قلة أخرى منهم تغيير ديانتها ، حتى ولو أنها

حافظت على اليهودية في سريرتها ، حيث كان تحوّل اليهود إلى المسيحية ممارسة ً يقوم بها بعض اليهود الأوروبين لتفادي الاضطهاد . وقد اعتاد كريستوفر كولومبوس التباهي بعلاقته بالملك داڤيد ، كما كان يلتزم بالخزعبلات اليهودية ، ويبحث عن رفقة اليهود من أصل أسباني[12] (المصدر : الحرب المقدسة ، تأليف كارين آرمسترونـچ – صفحة 458)

في شهر آب من نفس تلك السنة -1492- وبتمويل من ملك وملكةً إسبانيا ، أبحر كريستوفر كولومبوس قاصداً الهند ، إلا أنه ونتيجةً لأخطاء حسابية ملاحية حطّ في أميركا ، واستناداً لما ورد في مذكراته ، فإن كولومبوس كان يأمل في إقامة دولة في البلاد الجديدة يشن منها حملةً صليبيةً جديدة لاستعادة القدس من المسلمين . وبحسب المؤرخ مايكل أورين:

" إن صور العداء للشرق قد عبرت إلى العالم الجديد في أذهان أوائل الأوروبيين الذين جاسوا خلاله كأعداء لطائفة محمد (ماهومت)".

وقد أقلع كرستوفر كولومبوس في 1492 كي يكتشف طريقاً جديداً إلى الديار المقدسة - حتى أنه اصطحب معه مترجماً عربياً لهذا الغرض - وبقصد ***" انفاق جميع المكاسب الناشئة عن هذه المغامره في سبيل فتح القدس "***[13] (عن كتاب "القوة ، الايمان والوهم." لمؤلفه مايكل بي. آورين – صفحة 42)

إلاّ أن من قام باستقبال كولومبوس كانوا "الآراواك" ، وهم من الهنود الحمر مواطني البلد الأصليين ، والذين أحضروا للقائه - له ولبحارته - الطعام والماء والهدايا . وقد أعجب

---

[12] Karen Armstrong, *Holy War: The Crusades and their Impact on Today's World*, Toronto, Random House of Canada, 2001, 458.

[13] Michael B. Oren, *Power, Faith, and Fantasy: America in the Middle East, 1776 to the present*, New York, W. W. Norton & Company, 2007, 42.

كولومبوس وبحارته بكرم ضيافتهم وبحس المشاركة لديهم ... وهي سماتٌ على نقيض ما تميزت به الحضارة الغربية من سماتٍ محكومةٍ بجنون المال.

وكتب كولومبوس إلى بلاط مدريد بأنه وصل إلى آسيا (كانت كوبا) ، كما ذكر بأنه وصل إلى جزيرة قرب سواحل الصين (وكانت تلك هي هاييتي وجمهورية الدومينيكان) .

**" *هناك الكثير من التوابل ومناجم الذهب العظيمة ...* " كان هذا مما كتبه لإسبانيا *..."أما أهالي البلاد" أو الهنود كما أصر كولومبوس على تسميتهم "فهم سذّج شديدوالبساطة ومتساهلون للغاية فيما يخص ممتلكاتهم ... إذ عندما تطلب منهم شيئا يمتلكونه فإنهم لا يقولون لا أبداً ، بل على العكس ، يعرضون أن يشاركوا أي شخص" . وهكذا فقد وعد صاحبي الجلالة بأنه سيجلب لهم في رحلته القادمة " كل ما يحتاجونه من ذهب ، وكل ما يطلبونه من عبيد* " وأضاف *" فالرب إلهنا ، يمنح النصر لأولئك الذين يتبعون طريقه..."* [14] . وهكذا كان الإله والعبيد والذهب مختلطين معا ً، منذ ايام كولومبوس وحتى أيام جورج دبليو بوش لإنتاج نمطٍ من الفرانكنشتاين الذي ، لأسباب ترويجية ، أتخذ أسماء أخرى مثل الديموقراطية في بعض الأحايين ، والحرية أو العولمة في أحيان أخرى ... وهذا الفرانكنشتاين ، تحت اي أسم أتى ، إنما ازدهر على العبودية ، والإباده الجماعية ، والحروب.

ويمكن للمرء أن يحاجج بأن معظم الثروة التي تم تكديسها في أميركا فيما قبل عصر التصنيع إنما ارتكزت إلى مؤسسة العبودية العرقية وغير الإنسانية ، والتي بقيت واستمرت قانونية لأكثر من إثني عشر جيلا والى أن تم انهاؤها رسميا باصدار التعديل الثالث عشر للدستور عام 1865 لاحقاً للحرب الأهلية الأميركية. وليس من المغالاة القول إن الأرباح التي جنيت من العبودية ومن تجارة العبيد خلال الأعوام 1600 إلى 1860 قد أسهمت إلى حدٍّ كبير في بروز أوروبا الغربية والولايات المتحده كأممم

[14] Letter to King Ferdinand of Spain,1493, http://xroads.virginia.edu/~hyper/hns/garden/columbus.html

مسيطرة على العالم ، ومع أن البرتغاليين والإسبان والهولنديين سيطروا على معظم تجارة العبيد إلى أميركا للفترة من 1500-1700 ، إلا أن التجار الانجليز والأميركيين الشماليين دخلوا معترك هذا العمل بقوة بعد العام 1730 .[15] وكانت منتجات العصر الزراعي الرئيسية ألا وهي القطن ، السكر ، التبغ والرز قد تم تطويرها على أيدي المستعبدين من الأفارقه وسكان البلاد الأصليين ، وبذا فإن الثروة التي خُلقت لم تكن ناشئةً بالتأكيد عن التنوير ، وإنما كانت نتيجة للوحشيه اللاإنسانية والقسوه ، وحتى فيما بعد حرب الاستقلال فإن معظم من كان لهم دور في وضع وكتابة الدستور – بمن فيهم جورج واشنطن نفسه - اقتنوا العبيد في مزارعهم بوصفهم ممتلكات خاصة .

وفي كتابه " روح الرأسمالية " كتب المؤلف وليام جريدر يقول : *" تذكرّ أن الجمهورية الأميركية قامت بموجب دستور يقر صراحةً الحق في اقتناء الناس بصفتهم ملكية خاصة ، بينما كانت مؤسسة العبودية بوصفها موجودات رأسمالية منتجه تحظى بحماية القانون*[16] " صفحة 61 ، ويستمر جيردر قائلا بأن إرث علاقة السيد والعبد لا زال منزرعا ً في المؤسسة الحديثة ، فالشركات اقطاعيات تراتبية التكوين إلى حد كبير ، وغير ديموقراطية بطبيعة تكوينها ، و حقيقة أن العامل قبل ، أو أنه اضطر لأن يقبل علاقة السيد والعبد هذه ، لا يسبغ الشرعية على هذه العلاقة ، فإذا كان عبيد المزارع يباعون ويشترون على أنهم موجودات ، فإن العمّال في الشركات الرأسمالية يُشترون ويباعون كموجودات للشركة ، في حالات الاندماج والاستملاك ، تحت تسمية الموجودات البشرية .

---

[15] Ronald L.F. Davis, Ph.D., California State University, *www.**slavery**inamerica.org/history/hs_es_overview.htm*

[16] William Greider, The Soul of Capitalism: Opening Paths to a Moral Economy, New York, Simon & Schuster, 2003, 61.

One can notice that the ills of American Capitalism were and are the same in the country's short history. If one reads what a populist wrote in the 19th century, one might think it was written today:

...we meet in the midst of a nation brought to the verge of moral, political and material ruin. Corruption dominates the ballot box, the Legislatures, the Congress, and touches even the ermine of the bench ... The newspapers are subsidized or muzzled, public opinion silenced, business prostrated, homes covered with mortgages.... From the same prolific womb of governmental injustice we breed the two great classes – tramps and millionaires. [17]

Expansionism by Hook and Crook

إن النظام الرأسمالي الأميركي قد بني ، حرفيّاً ، على العبودية والتوسّع بكافة الطرق ، وعلى الحروب والإبادة الجماعية ، وكان التوسع الإقليمي في الولايات المتحده لازماً للتوسع الاقتصادي، ولتحقيق هذا الانجاز كان لا بد من خوض أكثر من مائتي حرب

[17] Ignatius Donnelly, Populist Party Forum,1892, http://historymatters.gmu.edu/d/5361/

وتدخّل بالقوة أو بالتهديد باستعمالها. ولا ننسى هنا الإباده الجماعية ضد الأميركيين الأصليين .

وفي العام 1803 ، اشترى الرئيس ثوماس جيفرسون من نابليون 2.1 مليون كيلو متر مربع -وهي مساحة تزيدعن مساحة فرنسا - بمبلغ 15 مليون دولار ، وفي الوقت الحاضر تضم هذه المساحة المشتراه خمسة عشر من الولايات . كذلك تم شراء فلوريدا وكاليفورنيا من إسبانيا مقابل 7.5 مليون دولار ، كما عرض على المكسيك شراء منطقة نيومكسيكو ، ولكن عندما قُوبلَ العرض بالرفض قامت الولايات المتحدة باحتلالها على أية حال . أما في العام 1893 ،فقد قام جنود المغامرات الأميركان (يُسمون اليوم مقاولين) بخلع ملك هاواي والسيطرة عليها ، ومن ثمّ قاموا ببيعها للولايات المتحده بمبلغ 60 مليون دولار .

عندما أرادت الولايات المتحده التخلص من مواطنيها الأفارقة السّود ، وافق الكونجرس على شراء قطاعات كبيره من الأرض في أفريقيا أسمتها ليبريا وأسمت عاصمتها مونروفيا ، نسبة الى الرئيس جيمس مونرو ، وهكذا وحرفيّا ً، فإنّه – طبقا للرأسمالية الأميركية - فان الشعوب والأوطان وقادتها ، يُباعون ويُشترون ... فهم ليسوا سوى موجودات تظهر على صفحات الميزانية العمومية.

وبعد أن امتدّت الولايات المتحده من المحيط الى المحيط ، بدأت ممارسة دورها الاستعماري فيما وراء البحار بدءاً بالحروب الأميركية الاسبانية في العام 1898 . وعبر القرن العشرين ، استمر الإرث الضمني لعلاقة السيد – العبد، وأصبح التعبير عنها أكثر وضوحاً ، وخاصة في ربع القرن الأخير تحت مسمى العولمة. وفي محاضرتي بجامعة هارڤارد – مدرسة كيندي للحكومة -بتاريخ 18 آذار 2008 ، عرّفت العولمة على انها النهج الذي بواسطته تحوّل الأمبراطورية الأميركية ، الدول القومية ذات السيادة الى جمهوريات موز في خدمة الأمبراطورية.

American Democracy!

In a lecture in New York, in 2003, the well known Indian writer Roy Arundhati wrote:

ولكن ماذا عن الديموقراطية ؟ ... في محاضرة في نيويورك العام 2003 ، قالت كاتبة هنديةٌ katEBAH hindiyyah mashmhoorah مشهورة:

" غير أنّ الديموقراطيات الحديثة موجودة الأن منذ بعض الوقت ، وقد كان هذا الوقت كافياً لليبراليين الجدد من الرأسماليين كي يتعلموا كيفية الانقلاب عليها . لقد أتقنوا تكتيكات التسلّل واختراق أدوات الديموقراطية : القضاء " المستقل " ، الصحافة " الحرّه " ، البرلمان ، وتعلّموا كيفية إعادة قولبتها بما يخدم أغراضهم .. لقد فكّ مشروع عولمة الشركات الشيفره ، وأضحت الانتخابات الحرّه والصحافة الحرّه والقضاء المستقل ّ تعني القليل ، بعد أن قلّص السوق الحر دورها إلى مجرّد سلع برسم البيع لأكبر مزاود.

لقدأصبحت الديموقراطية كلمة حق يراد بها باطل بالنسبة لرأسمالية الليبراليين الجدد...وفي بلدان العالم الأول فقد تم قلب آليّة الديموقراطية بفعاليّه .. وها هي أكبر ديموقراطيات العالم تقاد من قبل رجل ٍ لم ينتخب على نحوٍ قانوني ، وإنما تمّ إهداؤه وظيفته من قبل المحكمة العليا الأميركية . ولكن أيّ ثمنٍ دفعه الشعب الأميركي لهذه الرئاسة المزوّرة وغير الشرعية ؟!"[18]

"With Us or Against Us"

But who is "us"?

Is it Exxon and Chevron, or Citigroup and Goldman Sachs?

Or is it the oppressed Americans who just

---

[18] Arundhati Roy, "Instant-Mix Imperial Democracy", May 13,2003, http://www.commondreams.org/views03/0518-01.htm

lost their jobs and homes, and whose tax money

had been generously doled to their oppressors?!

The very same people who caused them

homelessness and misery bestowed

upon them by a President , only the naïve

would have thought him to be of service

to them, and not to their oppressors, those

very people who paid him his way to

presidency, so that he 'll be their fall guy in bad times!

كان يمكن للكثير من شعوب العالم أن تكون راضيةً وسعيدة بترك أميركا وشأنها ، لولا أن أميركا لم تتركهم وشأنهم ، فقد شُنّت ضدّهم الحروب استناداً إلى أكاذيب ، وغُزيت أوطانهم ونُهبت ، فيما فُرضَ عليهم واحد من خيارين " اما معنا واما ضدّنا " ... ، ولكن من المقصود ب "نا" ؟.. هل هي إكسون أم شيڤرون أم سيتي چروب أم جولدمان ساكس Goldman Sachs ، أم لعلّ المقصود بها هم الأميركيين الذين فقدوا وظائفهم وبيوتهم وتمّ منح ما دفعوه من أموالهم للضرائب ، إلى ظُلاّمهم وقامعيهم – بسخاء – مع أنهم هم نفس الناس الذين سببوا لهم التشردّ والبؤس والتعاسة ، وعلى يدي رئيس يمكن للسذّج فقط أن يعتقدوا بأنه قد يخدمهم هم ، وليس أولئك الذين دفعوا عنه كي يصل سدّة الرئاسة ، ليكون رجلهم في أوقاتهم العصبية.

ما الذي يمكن لنظام الرأسمالية الأميركي أن يظهره لشعوب العالم كي " تصبح معه " ؟ إن الوقائع والإحصائيات ليست معه ، إذ أن أكثر من 40 مليونا من الأميركيين مصنفون رسمياً كفقراء في أغنى بلاد الأرض!... وبينما بلغت نسبة الأطفال الفقراء لدى الولايات

المتحدة 22.4% ، فإنها لا تتجاوز 5.1% في الدنمارك ، 4.4% في بلجيكا ، 4.3% في إنجلترا و 2.6% في السويد.

وفي تقرير أوردته النيوزويك ، يدلّل أندرو مورافشيك - وهو أستاذ للعلوم السياسية في جامعة برنستون - على أن الإحصائيات والوقائع تؤيد نماذج أخرى غير أميركية مثلل تلك الأوروبية واليابانية، والتي هي أكثر ديموقراطية ، كما تقدم نظاماً تعليمياً أفضل ، وبحبوحة ، وشبكة ضمان اجتماعي ، فالأوروبيون يعملون ساعات أقل ويحصلون على إجازاتٍ أطول ، وهم أقل قلقاً وأكثر رضى من الإميركيين الرازحين تحت أعباء الديون ، ولكن وبعد انهيار الشيوعية كان على هذه النظم أن تجابه تحدّي " إجماع واشنطن " والذي يهدف إلى فرض النموذج الأميركي للرأسمالية والقيم الأميركية عليهم . وفي مقالةٍ أخرى للأستاذ مورافشيك ، كتبها بالاشتراك مع مايكل ماير محّرر مجلة نيوزويك الأوروبية ، معلقاً على إعصار كاترينا ، في زاوية وجهة نظر العالم:

" هذه هي السّمة الأميركية الأصعب على الفهم بالنسبة للأجانب ، ألا وهي ما يبدو وكأنه الاختيار المتعمد من قبل الحكومة لتعريض مواطنيها (خاصة ً الأضعف منهم) للخطر . ومع أن الولايات المتحده تبقى صاحبة الاقتصاد الأعظم إنتاجيّةً كما أنها تتفوق على كل البلدان الأخرى مجتمعةً في الإنفاق على الدفاع ، إلا أن النموذج الأميركي ليس محبوباً في الخارج ، وغدا أيضاً أقل شعبية بعد اعصار كاترينا . "

إن الديموقراطيات الأخرى المتقدمه تعتبر التأمين الطبي والتعليم ذي المستوى والمواصلات العامة الكفؤه ومظلة الأمن الاجتماعي سماتٍ أساسيّة لمجتمع عادل ، ومع ذلك تبدو اميركا مصممة ً ***" على القضاء حتى على أنواع الحماية الأقل "*** [19]ً

---

[19] Andrew Moravcsik and Michael Meyer, “The Wonderful World of Oz”, *Newsweek*, September,19,2005,

The Military Industrial Complex's Committee for the "Invasion" of Iraq

ومن جملة التحضيرات لغزو العراق قام روبرت جاكسون ، وهو مُصنّع أسلحة سابق وموظف رفيع لدى شركة لوكهيد مارتين ، بإنشاء " لجنة تحرير العراق " ، وكان من بين مؤسسي هذه اللجنة أعضاء نافذين في المجمّع الصناعي العسكري الأمريكي منهم وزير الخارجية السابق جورج شولتز (ويعمل الآن لدى شركة بكتل) ، إضافةً إلى الكثيرين من قادة المحافظين الجدد.

لذا يجب أن لا يفاجئ الأمر أحدا بأنه لدى ترسية عطاءات إعادة أعمار العراق ، تالياً للحرب ، وجدت هذه الشركات جميعاً نفسها في مقدمة الطابور ، وعلى نحوٍ غريب ، تبين أن مبدأ التجارة الحرّة والمنصفة يتلاشى عندما تكون المصالح الأميركية على المحك ، إذ عُهد إلى شيڤرون تكساكو بمسؤولية بيع النفط العراقي ، بينما أعطيت بكتل وهاليبرتون عقود الإنشاءات ، وهذه ليست سوى قمة جبل الجليد ، وبحسب الفاينانشال تايمز ، لم يكد يمر عام على غزو العراق حتى تبين أن عائدات هاليبرتون قد ازدادت بنسبة 80% وبكتل 158% ، أما شيفرون تكساكو فصعدت أرباحها بين الربع الأول لسنة 2003 والربع الأول لسنة 2004 بنسبة 90% ، وصعدت أسهم لوكهيد مارتن بنسبة 300% بين عامي 2000 (السنة التي انتخب فيها جورج بوش للمرة الأولى) و2004 ، وبحسب السناتور رون وايدن ***" إن نهج الحصول على العقود في العراق يشبه مدينة دودج (دوج سيتي) ، ولكن قبل وصول رجال القانون (المارشالات) إليها "*** وبينما كانت هذه الشركات تزدهر ، كان رجال الخدمة العسكرية وعائلاتهم يغوصون في الديون أكثر فأكثر ، وفي عدد 31 آب 2006 ، نشرت يو.إس.إيه تودى (جريدة الولايات المتحدة اليوم) بالخط العريض على صفحتها الأولى ***" البنتاچون يرى خطراً في مديونية القروض للجند : مقرضو يوم المعاش يفترسون العسكر".*** وتقول الجريدة ***" واحد من بين كل خمسة في الخدمة المسلحة يقع ضحية افتراس من قبل مراكز الإقراض المقامة قرب القواعد***

العسكرية ، والتي بمقدورها احتساب فائدة تصل نسبتها إلى 400% أو أكثر على الأسر العسكرية المفتقرة إلى النقود " وذلك حسبما توصل إليه البنتاجون في تقرير حديث له.[20] وهكذا فإن طفرة الأرباح هذه والتي أفادت مجرّد حفنةٍ من الشركات ، إنما تمّ دفع كلفتها من دماء أميركيين فقراء ، وأبرياء عراقيين وأفغان وفلسطينيين ولبنانيين ، وغيرهم آخرين ، كما تم تمويلها عن طريق عجوزات ماليّةٍ غير مسبوقة ...إ ان الحرب حقيقةً هي عربدة الابتزاز ... فمن الذي يحارب حروب أميركا نيابةُ عنها ؟! ... إنهم الفقراء الأميركيون ، فعندما صيغ قانون الخدمة الاجبارية - خلال الحرب الأهلية - كان بمقدور الأغنياء الحصول على الإعفاء منها ، في حال دفع واحدهم 300 دولار ، حتى أن روبرت - ابن لينكولن - لم يؤدّ الخدمة في الجيش ، وكذلك كان شأن أي واحد من الأغنياء بمن فيهم روكفيلر وأمثاله ، أما اليوم فإنهم الفقراء ثانيةً في جيش " المتطوعين " !!.. ومن بين جميع أعضاء الكونغرس ، هناك فقط إبنٌ لواحدٍ منهم يقاتل في العراق ، أما بقية الجيش فيتكون من اللاتين والأميركيين من أصول أفريقية ، ومن الآسيويين ، والبيض الفقراء . ويكاد يكون ثلث الجيش الأميركي مكونا من السود ، بينما لا تتعدى نسبتهم الى مجموع السكان 12% ، وبالمناسبة فإن مليونين من الأميركيين خسروا حقهم الانتخابي بسبب أحكام قضائية ، 1.2 مليون منهم من السود ، مما يظهر عدم تناسبٍ فادح.

Living on Borrowed Time and Money

وتجد الرأسمالية الأميركية نفسها في مأزق ، فمن ناحية فإن اقتصادها مؤسس على مبدأ النماء(النمو المستمر) ، النماء الذي على – الأغلب - وقوده النفط والديون ، وبينا تنخفض احتياطيات أميركا من النفط فإن وارداتها منه تبلغ 60% من اجمالي حاجتها الاستهلاكية ، ومن ناحية أخرى فان معظم احتياطيات العالم من النفط - على الاقل70% منه - هو في

[20] William M. Welch, http://www.usatoday.com/news/nation/2006-08-30-military-loans_x.htm

جوف أراضٍ مملوكة للمسلمين ، لذا ، وعلى نحو ملائم - باجتراحها شعار " الحرب على الإرهاب "- قامت الرأسمالية الأميركية بغزو العراق وأفغانستان ، وكان لديها قائمة طويلة بآخرين لولا المقاومة غير المتوقعة والتي نعتوها بالعصيان المسلحّ .

ما هو الإرهاب ؟ سأل أحد القادة المسلمين ... لكن اجابة ما لم تعط له إ.. هل الاحتلال الاسرائيلي للفلسطينيين ، وإذلالهم وسجنهم ومصادرة أراضيهم واغتيالهم هو إرهاب ؟! ... لم تعط إجابة.. ذلك أن الولايات المتحده وإسرائيل يمارسان أسوأ أنواع الإرهاب . وفي مقابلة له مع ايمي جودمان بتاريخ 28 تموز 2006 يقول إدوارد بك ، وهو رئيس سابق للبعثة إلى العراق ، ونائب مدير القوة الخاصة ضد الإرهاب التابعة للبيت الأبيض في إدارة الرئيس ريغان ، يقول ***:" طلبوا منا الإتيان بتعريفٍ للإرهاب يمكن استعماله على نطاق الحكومة بكاملها ، وكان أن أتينا بستة تعاريف تم رفضها جميعا ، وذلك لأن قراءتها بعناية يمكن أن تشير إلى أن بلدنا ذاته كان منغمساً في بعض مثل هذه الأنشطة"*** [21].

إن مؤدّى فرض قيم الرأسمالية الأميركية على العالم قد تم التعبير عنه كأفضل ما يكون من قبل الراهبة السّابقة والكاتبة والناشطة النسائية كارين آرمسترونـچ - والتي ألفت عدداً من الكتب في المسألة الدينية - حيث تعتقد بأن النظام الثقافي ، الديني ، القيمي في المجتمع الإسلامي يختلف عنه في المجتمع الغربي ، فعندما تخضع حضارة مختلفة إلى نفس النهج المدعو بالحداثة والعلمانية والعولمة ***" فمن غير المحتمل أن الناتج النهائي سيتوافق مع ما يعتبره الغرب النموذج المرغوب فيه " كما تضيف: " عندما لا تكون مكوّنات الكعكة موجوده ، ويستخدم الرز بدلاً من دقيق القمح ، والبيض المجفف بدلاً من الطازج ،***

21

http://www.democracynow.org/2006/7/28/national_exclusive_hezbollah_leader_hassan_nasrallah

والبهارات بدلاً من السكرّ ، فإن النتيجة ستكون كعكة مختلفه عمّا تم وصفه في كتاب الطبخ " [22] ففرض القيم الأميركية على العالم سيؤدي فقط إلى كعكة كهذه .

إن مبدأ بوش في أن "من ليس معنا فهو ضدّنا" ليس سوى صدىً لجورج الثالث الذي قال *"أنا لا أريد شيئاً سوى الخير ، لذلك فإن أي شخص لا يرى رؤيتي ليس سوى خائن ونذل* " ، وكان أن فقد المستعمرات الأميركية في العام 1783 . إن سكان العالم قاطبةً يرغبون في أن يروا أميركا تقود حرباً عالميةً ضدّ الجوع والفقر ، وحيث أن فعل الخير إنما يبدأ بالبيت فإنهم يتمنون حدوث ذلك أولاً في أميركا ، ولكن الإشكال هنا أن نظامها لا يمكنه فعل ذلك من دون تغيير النظام ذاته.

ليست المشكلة هي بيل كلينتون أو جورج بوش ، وانما النظام الذي أنتجهما ، وسوف لن يكون باراك أوباما بمختلف عنهما ، ذلك أن النظام الذي يصنّع الرؤساء أعطاه أغلى حملة انتخاباتٍ في التاريخ، وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع على تنصيبه ، زار أوباما مدينة إلكهارت في إنديانا ، وذلك بتاريخ 12 شباط 2009 - وهو الشهر السابق على فقدان 600.000 أميركي لوظائفهم - حيث قام واحد منهم بتقديم أوباما لإلقاء خطابه الذي قال فيه:

" إن لم نقدم على التصرف فوراً ، فإن أمتّنا ستغرق في أزمةٍ قد نصبح فيها ، عند نقطةٍ ما ، غير قادرين على إعادة عكس اتجاهها وردّه " ! .. نعم ، إن الحاجة للتصرف قائمة ، ولكن لمساعدة من ؟ لقد قدّم التعاطف " للعائلات التي فقدت البيت الذي كان بمثابة ركنها الخاص من الحلم الأميركي " و " أولئك الشباب الناشئين الذين أعادوا وضع رسالة القبول من الجامعة في مظروفها وأعادوها إليها لمجّرد كونهم ماديّاً غير قادرين " [23] كلاّمٌ جميل ! إن أحداً ما لم يساوره الشك في قدرة خرّيج كلية حقوق هارڤارد هذا

---

[22] Karen Armstrong, *Islam: A Short History*, Toronto, Random House of Canada, 2002, 145.

[23] Barack Obama, Address before a joint session of Congress, February 24, 2009, http://www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php?pid=85753&st=&st1

على الكلام المُنمق ! وفي اليوم التالي توجّه إلى مدينة فورت مايرز حيث قدّم ، ثانية ً ، تعاطفه إلى عائلةٍ فقدت بيتها ، وكانت تعيش في سياره . إلا أن هؤلاء الناس كانوا بحاجةٍ إلى ما هو اكثر من التعاطف ! إنهم بحاجةٍ إلى حكومةٍ تنقذهم ! و بمجرد عودته إلى واشنطن استلّ دفتر شيكات دافعي الضرائب وباشر بكتابة الشيكات ... ولكن لاستنقاذ من ؟ .. لانقاذ شارع المال (وول ستريت) وليس شارع النّاس ! ... كانت ذاكرته تتوهج امتناناً لأولئك الذين دفعوا كي يربح الانتخابات ... حوالي 700 مليون دولار ، إذ بالمقارنة ، ما الذي يستطيعه ناس إلكهارت العاطلون عن العمل ، وناس فلوريدا ممّن فقدوا بيوتهم ، ما الذي يستطيعون عمله من أجله ؟! أو بحسب النيويورك تايمز فإن شيكات أوباما قد استعملت لشراء موجودات " سامّة ، نعم ، سامّةً من ذات تلك المؤسسات والشركات المالية التي كانت السبب وراء بطالة إلكهارت وفلوريدا.

كتبت نيويورك تايمز تقول :

" فضلاً عن حزمة إنقاذ ال 700 بليون دولار المعروفة "تارب" ، والتي استخدمت لإنعاش البنوك وشركات السيارات ، فقد خلقت الحكومة مجموعةً أخرى من البرامج لدعم النظام المالي المتخبّط ، وحتى تاريخ 30 نيسان كانت الحكومة قد رتبت على نفسها إلتزاماتٍ بحوالي 12.2 تريليون دولار وأنفقت 2.5 تريليون "[24]، وللتعبير عن ذلك ببساطة نقول إن أوباما ارتهن ما يعادل كامل الدخل القومي الإجمالي لأميركا عن سنةٍ كامله من أجل إنقاذ شارع المال (وول ستريت) ، وهو أمرٌ لا سابقة له في أي وقت ... في أي مكان في التاريخ.

Some of the money went to buy toxic assets, a process Nobel Laureate Joseph Stiglitz coined as cash for trash, but I

---

[24] "Adding Up the Governments Total Bailout Tab", *New York Times*, February 4, 2009.

call it trash for trash, as the fate of the American dollar is heading to be trashed as the world reserve currency, as pumping so much money into the system will only lead to its demise.

The paradox is that while America is generously writing checks to Wall Street, and at a time its per capita gross domestic production (GDP) is around $54 000, its survival is dependent on China, with a per capita GDP of $2400, to finance its deficits to sustain its present standard of living! Such ridiculous interdependence is maintained through the vulnerable processes of globalization.

Mass Production of Goods and Unhappiness

الإنتاج الكبير للبضائع و...للتعّاسة هو ما يميز الرأسمالية ، وطبقاً لمجلة تايم (عدد 17 آب 2009-صفحة 6) " فقد أظهرت دراسة حديثة أن الزيادة في عدد الأميركيين الذين يتعاطون الحبوب المضادة للكآبه قد ارتفع بنسبة 100% بين العامين 1996 و 2005 " [25] كما أوردت **" التايم "** في عددها لكانون الثاني 2008 نتائج دراسةٍ أجرتها جامعة

---

[25] *Time Magazine*, August 17, 2009, 6.

كولومبيا بالاشتراك مع معهد الصحة الوطني ومعهد نيويورك النفسي ، حيث أظهرت الدراسة ان حوالي 50% من تلك الفئات في سن الالتحاق بالكليات يعانون من اضطرابات نفسية ، وأن أقل من ربعهم يستحصلون على المساعده الطبيه . لقد عبّر آلان چرينسبان ، رئيس بنك الاحتياط الأميركي لمدة ستة عشر عاماً ونصف العام ، عبّر في العام 1999 أمام المجلس الأميركي للتعليم عن حيرته كيف أنه وفي عمق كساد 1981 فإن 12% من العاملين قد عبروا عن مخاوفهم من احتمالات فقدانهم لوظائفهم ، بينما في العام 1999 ، والذي يفترض بأنه كان أفضل سوق عمالةٍ في جيلين ، فإن نسبة المتخوفين من فقدان وظائفهم قد ارتفعت حتى 37% ، وقد أجرى الاستطلاع في الحالتين نفس المؤسسة ، وهي المؤسسة العالمية للاستطلاعات . والسيد چرينسبان هذا ، والذي سبق ونُصّب كأنجح رئيس لبنك الاحتياط الأميركي ، عبّر عن حيرته أيضاً تجاه الوضعيّة التي آلت اليها الأمور في الأزمة المالية الراهنة ، إذ قال في شهادةٍ له أمام الكونـچرس في تشرين الأول 2008 بأنه لا يعرف ما الذي سبّب الأزمة كما أنه لا يملك جواباً عن كيفية حلّها ! لماذا يتوجب على العالم أن يؤمن بهكذا خبير عندما يتعلق الأمر بنقوده وأمواله؟ !

قلّة ٌهم من سيجادلون في حقيقة أنه لا مثيل للرأسمالية الأميركية في خلق الوفرة الماديه ، إلا أنه يصح القول بأن قلةً أيضاً هم من يجادلون بأن هذه الوفرة انما ترتبط بوفرة البؤس والحروب والفقر والتوزيع غير العادل للثروة ، وهذه ببساطة هي منتجات النظام ، والتي عليك تقبّلها أو ترك النظام ! إلا أننا نُبلّغ بأن علينا الأخذ " بالنظام " وإلاّ...؟! وعلى العموم فإن المسلمين يرغبون بترك هذا النظام ، حيث يعتقدون بأن لديهم نموذجاً بديلاً للحياة يزاوج بين الأخلاقيات والماديّات ، إلاّ أن المشكلة هنا تتمثل فيمن عيّن نفسه شرطيّاً للعالم وخصّ نفسه بدورٍ " أمني " لضمان أن لا يسيطر نموذج آخر عوضاً عن نظامه ، ليس لأن لدى هذا الشرطي العالمي آية حُجّة فكرية لصالح أيدلولوجيته ، إن جاز لنا إطلاق هذه التسمية على مناهج الرأسمالية ، وإنما بسبب من قناعته بأن القوة هي الحق ، حيث خالطه الاعتقاد بأن قوّته دون حدود ، ولاسابق له على نحوٍ يمكنه معه فرضها على العالم . إلا أنه كان عليه أن يتلقّن الدرس وبالطريقة الأقسى في بلاد المسلمين ؛ بحيث أدرك بأن لغطرسة القوّة حدودها .

لقد عرف المسلمون والكثيرون في العالم بأن " حرب الإرهاب ! " تفوح منها رائحة النفط ، وفي أخلاقيات الراسماليين " كل شيء جائز " فالنمو يبرّر وسائل الحصول عليه. يقول جون مينارد كينز وهو أحد أيقونات الرأسمالية في القرن العشرين " *يجب أن*

نتظاهر امام انفسنا وأمام الآخرين بأن ما هو صحيح خطأ ، وما هو خطأ صحيح." غير أنه بالنسبة للمسلمين وكل الأيدلوجيات الأخلاقية فإن الخطأ هو الخطا والصحيح هو الصحيح."

إن وفرة الرأسمالية تفتقر إلى الأخلاق ، حيث أن هذه الوفرة وعلى الرغم من سوء توزيعها تضمن التعاسة لكافة قطاعات المجتمع ، وذلك لاستنادها إلى إطلاق الدوافع البشرية الخسيسة من عقالها مثل الجشع والأنانة بشكلهما الوحشي ، تلك الدوافع والغرائز التي روّضتها وهذّبتها جميع الديانات ، ومنها الإسلام ، والتعاسة في هذا المضمار لاتحابي بارونات اللصوص حيث يمضون حياتهم بين حدّي غريزتى الجشع والقلق .

وبينما كان يعاني سكرات الموت بسبب مرض السرطان كتب لي آتووتر في عدد شباط 1992 من مجلة لإيف :

" لقد ساعدني مرضي على أن أدرك أن ما نفتقده في المجتمع هو نفس ما ينقصنى في ذاتي : القليل من رقة القلب ، والقليل من مشاعر الأخوّه ، فالثمانينات كانت سنوات الاستحواذ على الثروة ، أعرف ! أعرف ... لقد حُزت من الثراء والنفوذ والجاه أكثر مما حازه معظم الناس ، إلا أنه يمكن للمرء أن يحوز ما يشاء ، وأن يبقى مع ذلك يعيش الخُواء ... لقد تطلّب الأمر مرضاً ممينياً لوضعي وجهاً لوجه مع تلك الحقيقه ، لكنها حقيقه يتوجب على بلادي الضالعة في طموحاتها الجبروتيه وتآكلها الأخلاقي أن تأخذها عني ، ولا أدري من سيقودنا في التسعينات ، إلا أنه يجب إلزامهم بالإفصاح عن الخواء الروحي في قلب المجتمع الأميركي ، هذا السرطان في الروح" [26].

في رسالةٍ بعث بها بتاريخ 1 كانون ثاني 1989 إلى ميخائيل چورباتشوف ، كتب آية الله الخميني ليبين أن أمراض الاشتراكية والرأسمالية إنما مردّها الى افتقارهما كلتاهما للقيم الروحيه . قال:

---

[26] Lee Atwater and T Brewster, "Lee Atwater's Last Campaign," *Life Magazine*, February, 1991,67

" انه من الممكن بالطبع وكنتيجةٍ لسياسات ٍاقتصادية خاطئه من قبل السلطات الشيوعية السابقة ، أن يبدو العالم الغربي - الجنة الوهمية - مثيراً للإعجاب .. إلا أن الحقيقة تقع في مكان آخر ، وإذا كنت تأمل في هذا المفترق أن تقضي على العُقد الاقتصادية المستعصية للاشتراكية وللشيوعية ، عن طريق الالتجاء إلى مركز الرأسمالية الغربية ، فإنك فضلاً عن عدم معالجتك أيّاً من أمراض مجتمعك ، ستقترف خطأً سيترتب على من يخلفونك محوه ، ذلك أنه إذا كانت الماركسية قد وصلت إلى طريق مسدود في سياساتها الاشتراكية والاقتصادية ، فإن الرأسمالية أيضاً قد أصبحت عاجزةً عن التقدم في هذه وغيرها من الأمور ولو على نحوٍ مختلف.. " [27]

ولا ضير إذا كان آية الله الخميني قد استشهد بالدين كي يعظ چوربا تشوف ، فهو رجل دين، أما رأس العلمانية ، رئيس الولايات المتحدة ، فقد لجأ لاستخدام " الرَّبّ " ترويجا " لحربه على الإرهاب " مستخدماً لذلك كلاّ من الإله والشيطان و يأجوج ومأجوج للترويج لحربه على العراق ، فقد صرّح الرئيس الفرنسي جاك شيراك ببعض مما أبلغه إياه الرئيس بوش Bush في محادثة لهما على الهاتف : (24)

" إن يأجوج ومأجوج ناشطين في الشرق الأوسط ، فتنبؤات الكتاب المقدّس تتحقق ، وهذه المواجهة هي مشيئة الله الذي يريد استخدام هذا الصراع لاستئصال أعداء شعبه ، قبل أن يبدأ عهد آخر "

ولم يستجب الرئيس الفرنسي المدهوش لطلب بوش ، وبدلاً عن ذلك طلب ، موظفوه إلى ثوماس رومر ، وهو رجل لاهوت في جامعة لوزان ، أن يقوم بتحليل الطلب الغريب

---

[27] http://almusawwir.org/resistance/2008/08/12/remember-russia/

. وكان أن قام الدكتور رومر في العام 2007 بإعادة وصف سلوك بوش في مجلة لوزان أللیه ساڤـوار . [28]

ولو لهذه المرّه ... چوربا تشوف على صواب !

يشرح عدد آذار 2009 من المجلة الربعيّه لكلية الأعمال بجامعة هارڤـارد ، النشرة (بوليتن) ، ما يقوم به أساتذة الكلية للمساعدة في تشخيص وإعانة الاقتصاد الأميركي على استعادة عافيته .. وما ان استلمت نسختي حتى أرسلت ردّي إلى المحرّر ، مبيناً أن هارڤـارد قد لاتكون قادرة على اعطاء حلولٍ للأزمة ، كونها تحصر نفسها في صندوق الرأسمالية ، التي دأبت على إنتاج مثل هذه الأزمه ، وقد نشرت الرسالة في عدد حزيران 2009 تحت عنوان " شارع المال مقابل شارع الناس" :

"في نظام الرأسمالية الأنجلو- ساكسوني / الأميركي هناك خاصتان هامتان للسوق الرأسمالي : الاولى فك الارتباط ما بين المادّية والأخلاق ،والثانية قاعدة لعبة الحظ بقطعة النقود " الوجه " ... شارع المال يربح... " القفاً " ..شارع الناس يخسر .. أي أن شارع الناس هو الخاسر دائما في الحالين ، وذلك حسب هذه المعادلة التي تحدد العلاقة ما بين شارع المال وشارع الناس ، وعلاوةً على ذلك تتعهد الحكومة هذا النظام لصالح فاحشي الثراء في أوقات الأزدهار ، بينما تتكفلهم في أوقات الفاقة الازمات al azamat ... ففي هذه الأيام لدينا حكومة بنوك ، من أجل البنوك وبواسطة البنوك ، يتوجب إنقاذها على حساب دافعي الضرائب.

وبحسب جورج سوروس في كتابه أزمة الرأسمالية العالمية : " تطيع الرأسمالية والديموقراطية قوانين مختلفة .. كما أن المصالح التي يفترض فيها أن تخدمها مختلفة .. فهي المصالح الخاصة في الرأسمالية ، بينما هي المصلحة العامّه في الديموقراطية ،

---

[28] James A. Haught, “A French Revelation, or The Burning Bush”, http://www.secularhumanism.org/index.php?section=library&page=haught_29_5

أما في الولايات المتحدة فتتجسّد رمزية هذا التوتر بالصراع المشهور بين شارع المال وشارع الناس " . ولكي يكون بمقدور أساتذة كلية الأعمال في هارڤارد الإسهام في حل الأزمة الاقتصادية العالمية ، فان عليهم أن يتجاوزوا في تفكيرهم النظام الذي أوجدهم ليكونوا في خدمته ، فهل بإمكان كلية الأعمال في هارڤارد وفي بقية كليات الأعمال مواجهة التحدي؟ "

ربما في المرة القادمة ، هذا فيما إذا كان هناك مرةً قادمة! [29]

ويبدو أخيراً أن چورباتشوف قد تحرّر من سحر الرأسمالية الأميركية ، ففي نفس الوقت الذي نشرت فيه تعليقاتي في مجلة بوليتن الصادره عن كلية الأعمال في هارڤارد في حزيران ~~2006~~ 2009كتب چوربا تشوف - كما روت الواشنطون بوست - في عددها بتاريخ 7 حزيران 2009:

"في الغرب ، يُنظر إلى تفكك الاتحاد السوڤياتي على أنه نصرٌ كامل يثبت أن الغرب ليس بحاجةٍ إلى ان يتغير.. فاجماع واشنطن ، ومبدأ تحرير السوق ، وعدم التنظيم ، والميزانيات المتوازنة باي ثمن ، قد أُطعِمت لبقية العالم بالقوّة ... ولكن أتت الأزمة الاقتصادية عامي 2008 و 2009 وأصبح واضحاً بأن النموذج الغربي ليس سوى سراب أفاد بشكل رئيس أولئك الأكثر ثراءً "، وإنه لمما يثير الاهتمام أن كلاً من چوربا تشوف والخميني قد استعملا نفس الكلمة لوصف الازدهار الرأسمالي بالوهم أو السراب . ويتابع چوربا تشوف:

" ولكن إذا كانت جميع الحلول والاجراءات المقترحة ، لم تتمخض سوى عن مجرّد إعادة تلميع للنظام القديم ، فإن من المقدّر لنا أن نشهد كارثة أخرى ، وربما كانت هذه

---

[29] Mikhail Gorbachev, "We Had Our Perestroika. It's High Time For Yours", *Washington Post*, June 7,2009. http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2009/06/05/AR2009060501966.html

المرة أضخم ... فالنموذج الحالي ليس بحاجةٍ إلى تعديل ، بل إنه بحاجةٍ إلى التبديل .. إن النموذج الآن يتصدع .. ولا بد من استبداله إن عاجلاً أم آجلاً ، وسيكون ذلك عملية ً في غاية التعقيد والإيلام للجميع بمن في ذلك الولايات المتحدة " [30]

من الذي زعم بأنه لا يمكن لـچوربا تشوف أن يكون على صواب ، ولو على الأقل لمرّةٍ واحده ، هذه المرّه ؟

الفصل الأول

من الغزو الثقافي إلى التجاره

" تعود الجذور العميقة لاستكشاف القيم اليهودية / المسيحية (المؤرخون) إلى "الإصلاح البروتستانتي" .. ففي السياق الأميركي ، يستخدم المؤرخون مصطلح اليهودية / المسيحية للإشارة إلى تأثير "كتاب اليهود المقدّس" و "العهد الجديد" على التفكير البروتستانتي وقيمه ، وبالأخص الموروث "البيوريتاني البريسبيتارياتي" و "الإيڤانجليستاني" ، حيث نظرت تلك الأجيال من الأباء المؤسسين من الأميركان إلى نفسها على أنها وارثة كتاب اليهود المقدّس .. وهذه الأفكار من كتاب اليهود المقدس والتي أدخلت الى التاريخ الأميركي من قبل البروتستانت ، فينظر إليها على أنها الأرضية التي تستند إليها الثورة الأميركية وإعلان الاستقلال ودستور الولايات المتحدة ، ويهتم

---

[30] Mikhail Gorbachev, "We Had Our Perestroika. It's High Time For Yours", *Washington Post*, June 7,2009. http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2009/06/05/AR2009060501966.html

مؤرخون آخرون باستقصاء المعتقدات الدينية للآباء المؤسسين للأميركان ، مؤكدين على التأثيرات اليهودية والمسيحية في معتقداتهم الشخصية ، وكيف تمت ترجمة ذلك في عملية خلق المؤسسات والشخصية الأميركية[31] .

موسوعة ويكيبيديا - الانترنت

العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب بشكل عام ، بمن في ذلك الولايات المتحدة، تحكمها خمسة عوامل (تبدأ بالحرف G وهكذا أسميناها أحرف G الخمسة) وهي :

- **الـرب :** مع أن الديانات الثلاث ، اليهودية والمسيحية والاسلام ، هي ديانات إبراهيمية نشأت فيما يسمى بالشرق الأوسط ، فإنها تتشارك في معظم قيم الوصايا العشر ؛ ولكنها تتمايز في أن كلاّ من اليهودية والمسيحية تناديان بأن ما لله ، وما لقيصر .. لقيصر . أما الإسلام فليس لديه مثل هذا التفريق ، إذ ينادي بأن ما لقيصر هو أيضاً لله .

- **الجغرافيا :** يمتد العالم الاسلامي من مرّاكش على الأطلسي إلى حدود الصين ، ويتخذ موقعاً استراتيجياً على مفترق الطرق بين ثلاث قارات بما في ذلك معظم أوراسيا ، والتي كانت مركز الإمبراطوريات في التاريخ ، لدرجة القول إنه بدون السيطرة على أوراسيا فإن الاشتراطات الأولية للامبراطورية ستكون ناقصة.

- **الجيوبوليتكس (علم السياسة الطبيعية) :** نظراً لموقع أوراسيا ، فان الامبراطوريات المتنافسه ، كانت تحتاج للهيمنة عليها ، كجزء من سياسات الجيوبوليتكس ، إلى حد أن الامبرطوريات - وهي القوى العظمى في القرن التاسع عشر ، لم تكن لتسمح للامبراطورية العثمانية الإسلامية الضعيفة بالانهيار بسبب عدم اتفاقها على الإسلاب .

- **الجيولوجيا والذهب :** على نحو أساسي الذهب الأسود ، النفط ، حيث أن العالم الأسلامي يملك 70% من احتياطيات النفط ، ولذلك فإن من يسيطر على هذه الإحتياطيات وعلى

---

[31] Encyclopedia Wikipedia: Judeo-Christian culture

واردات النفط يمكنه ممارسة نفوذٍ وسلطات هامه ، في حضارة تعتمد على النفط في معظم مناحي حياتها ، كما أن إعادة تدوير ثروة العائدات النفطية إلى البنوك العالمية بطريقة أو بأخرى ، هو أمر حيوي آخر في نظامٍ يقوم على نقود لا تغطية لها ، اذ يتم تبادل هذه السلعة الثمنية مقابل عملةٍ ورقيةٍ ، يصار على الأغلب الى تحويلها لنوع آخر من الورق هو : سندات الخزينة.

- **العولمة :** كما هو موضح في مكانٍ آخرٍ من هذا الكتاب ، فقد عينت الولايات المتحدة نفسها مديراً عالمياً لتزويد الأمن (الحروب) ، للحفاظ على التدفقات اللازمة للعولمة كي تبقى فعّالة هي ومتعلقاتها . ولقد قررت أميركا والغرب أن قيم الإسلام وأخلاقياته بما في ذلك رفضه للرّبا - العمود الفقري للرأسمالية ، يجب أن تتغير ...! وحتى يمكن للعولمة أن تعمل ، فإن على المسلمين أن يغيرّوا قيمهم ، على اعتبار أن القيم الأميركية والغربية صالحة لكل شخص في كل مكان مع تهديد مؤداه ان " من ليسوا مع قيمنا فهم ضدّها "

- لقد حكمت هذه العوامل الخمسة علاقة الولايات المتحدة بالعالم الإسلامي منذ يوم استقلالها وحتى يومنا هذا.

أول تدخلات وحروب أميركية مع المسلمين

في الوقت الذي أعلنت فيه المستعمرات الأميركية استقلالها كانت الدولة العثمانية هي الدولة الإسلامية المركزية يرأسها خليفه عُرف أيضاً بالسلطان ، والذي هو ، طبقاً للإسلام ، القائد السياسي والديني لديار المسلمين . ففي الإسلام ما يعود لله فهو لله ، وكذلك فإن ما يعود لقيصر فهو أيضاً لله . أما الثورة الفرنسية وتوأمها الثورة الأميركية والتي قاد الماسونيون كلتيهما فقد أيدتا العلمانية : أي الفصل بين الدولة والكنيسة ، وإذا كان هذا جائزاً في المسيحية ، حيث حقيقة ً توجد – حقبقة - شخصيتان اعتباريتان ، دولة وكنيسة ، فإن هذا لا ينطبق على الاسلام الذي ليس فيه هيئة دينية (كنيسة) ولا طبقة رجال دين ، فالفعاليتان هما نفس وذات الشيء ، ولذا فإن الطلاق بين الدولة والكنيسة اتخذ شكلاً نهائياً رسمياً . ولكن بالنسبة للمسلمين الملتزمين فإن العلمانية أو فصل الإسلام عن الحياة اليومية هو بمثابة مطالبة الاسلام بأن يكون متضادا مع ذاته.

وقد اعتقد فقهاء المسلمين وما زالوا بأن القوى الغربية تهدف لفرض العلمانية ، الاختراع اليهودي المسيحي الماسوني على العالم الاسلامي ، ولتحقيق هذا الهدف عملت البعثات

التبشيرية الغربية جنباً الى جنب ويداً بيد مع الاستعماريين الغربيين ؛ وفي مراتٍ كثيرة كانوا أسبق منهم في تمهيد الطريق أمام الاستعمار والامبريالية الغربية ، وأضحى تحقيق العلمانية في الأراضي الإسلامية هدفاً امبريالياً غربيّاً تمت متابعته بشكل حثيث إلى أن أمكن تحقيقه رسميّاً في العام 1924.

تشكلت الدولة العثمانية المسلمه في العام 1776 كفيدراليه مستقلة ضمت معظم بلدان أوروبا الشرقية المعروفه اليوم بما فيها صربيا واليونان وبلغاريا وأجزاء من رومانيا وأوكرانيا وتركيا الحالية ودول الشرق الأوسط الحالية وهي سوريا ولبنان وفلسطين (واسرائيل) والعراق ودول الخليج ومصر وليبيا وتونس والجزائر ، وهكذا كان حوالي ثمانين بالمائة من شواطئ المتوسط خاضعاً للسيطرة الإسلامية ، وكانت الدول الاقليمية (الولايات) التابعة للدولة العثمانية الإسلامية وخاصة تلك الواقعة في شمال أفريقيا ، تعتبر البحر الأبيض المتوسط بحيرتها ، أي بحيرة إسلامية ، وأن على كل من يدخل بحيرتهم هذه أن يدفع رسماً كان يسمى آتاوه (ضريبه)، شيئاً أشبه ما يكون برسم عبور قناة بنما أو قناة السويس ، وكانت هذه حقيقة مسلّمٌ بها في عام 1776 ، حتى أن بريطانيا ومعظم شمال أوروبا كانت تدفع تلك الضريبة لدول شمال افريقيا ، والتي هي حالياً ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وكانت هذه الولايات تعرف ببلاد المغرب بالنسبة للمسلمين ، ولكن بالنسبة للغرب فكانت تعرف بدول البربر ، وقبل العام 1776 كان ينطبق على السفن الأميركية التي تدخل المتوسط نفس ما كان ينطبق على السفن البريطانية من ضريبة ، حيث أنها كانت تتبع بريطانيا في ذلك الوقت ، ثم لم يعد الأمر كذلك بعد أن انفصلت عن بريطانيا وأعلنت استقلالها.

لقد تعاملت المستعمرات الأميركية الشمالية تجارياً مع الشرق الأوسط منذ عهدٍ يعود للقرن السابع عشر ، ففي عام 1625 احتجز الأسطول المراكشي سفينة كانت قد أقلعت من إحدى المستعمرات الأميركية الشمالية ، وفي العام 1678 احتجز الأسطول الجزائري سفينة تعود لولاية ماساشوستس و13 سفينة أخرى تعود لـفيرجينيا ، ولكن مع حلول العام 1770 كان خُمس الصادرات الأميركية يذهب إلى المتوسط وكانت التجارة تنمو ، وحاولت الولايات المتحدة - المستقلة حديثاً - أن لا تدفع الضريبة ، وبما أنه لم يكن لديها أسطول رسمي ، والذي كان ما زال ينتظر موافقة الكونـجرس ، فقد قام المواطنون الأميركيون ، التجار خاصةً ، بتجميع أسطول بين 1776و1783 على شكل قوة بحرية غير رسمية لمواجهة الأسطول الجزائري ولحماية تجارتهم في المتوسط ، وكان أن أغرق الأسطول

المراكشي هذه القوة البحرية الخاصة بالكامل . وفي عام 1784 قبضت مراكش على السفينة الأميركية " بتسى" ، وبعد شهرين من ذلك التاريخ ألقي القبض على سفينتين أميركييتين أخريين ، دوفين وماريا ، من قبل الجزائر واعتقل 21 بحاراً أميركيا . وكنتيجةٍ لذلك أقّر الكونـچرس القانون بإنشاء الأسطول الأميركي في عام 1784 ، وكانت المهمة الموكولة لهذا الأسطول هي حماية التجارة في الشرق الأوسط ، ولكن الكونـچرس أوعز أيضاً بأن تكون هناك مفاوضات مع دول البربر لبحث موضوع دفع الضريبة لهم.

صدرت التعليمات للسفير الأميركي في لندن - رئيس الولايات المتحدة في وقت لاحق جون آدامز - بالمباشرة بإجراء مفاوضات دبلوماسية مع دول الشمال الأفريقي ، لذا قام في عام 1785 بمقابلة عبد الرحمن الآجار الممثل السياسي لباشا طرابلس ، وأوضح الآجار له منطق دول الشمال الأفريقي الكامن وراء سياسة تلك الدول حيال السفن التي تدخل المتوسط ، والذي وصفه الآجار على أنه بحر إسلامي " ليس بمقدور أية أمة الإبحار فيه دون معاهدة سلام معهم " ، وخلُص الى أنه على الولايات المتحدة أن تدفع ضريبة مقدارها مليون دولار ، وهو مبلغ جسيم إذا ما عرف المرء أن كامل ميزانية الولايات المتحدة في ذلك الوقت لم تكن تجاوز العشرة ملايين دولار فقط ، وانضم وليام جفرسون ، والذي أصبح هو أيضاً رئيسا للولايات المتحدة فيما بعد ، انضم الى ادمز وأجرى محادثات مع الآجار ممثل تونس ، إلا أن حظه معه لم يكن بأفضل من حظ آدامز ، وكانت توصية آدامز لواشنطن أن تدفع الضريبة ، والتي فضّل تسميتها بالرشوه ، إذ أن البديل كان يعني الحرب ، والتي لم يكن بمقدور الولايات المتحدة آنئذٍ الإقدام على خوضها بسبب عدم قدرتها على كسبها ، وكتب في مذكراته بطريقةٍ حاقدة : ***" لقد جعلت المسيحية من جميع بحارتها جبناء .. نسبة لأعراف محمد "*** [32]. وفي حزيران 1786 أمر الكونـچرس آدامز وجفرسون وفرانكلين أن يعقدوا سلاماً مع مراكش ، ووقعت معاهدة

---

[32] Encyclopedia Wikipedia, Abdul Hamid II, http://en.wikipedia.org/wiki/Abdul_Hamid_II.

السلام وأفرج عن السفينة بتسي وتمّ دفع 20.000 دولار ضريبة ، كما تم تعيين قنصل في طنجه ، إلا أن السفينة بتسي أعيد احتجازها ولكن من قبل تونس في هذه المرة .

وفي 1786 أوفدت الولايات المتحدة جون لامب مبعوثاً لها إلى الجزائر للعمل على إطلاق سراح المساجين الأميركيين الذي كان ألقي القبض عليهم قبل ذلك بسنتين ، غير أن مهمته انتهت الى الفشل لعدم قدرته على إجابة المطلب الجزائري ، وكان أن جرى استغلال مسألة تهديد الشمال الأفريقي للأمن القومي الأميركي إلى أقصى حدودها ، وحتى ذلك الوقت لم يكن للولايات المتحدة دستور بعد، وإن كان لكل ولاية دستورها الخاص بها .

ولقد تم تضخيم التهديد الشرق أوسطي لأغراض سياسية داخلية ، وحقق استخدام هذا التهديد المبالغ فيه نصراً لأولئك المنادين بحكومة وجيشٍ اتحاديين قويين ، وعلى ذلك يعلّق المؤرخ ثوماس بيلي بأنه وعلى نحوٍ ما يعتبر خليج الجزائر " أحد الأباء المؤسسين للدستور" ، ولربما أمكن تسمية مسلمي أفريقيا الشمالية آباء البحرية الأميركية ، حيث أن الشمال الإفريقي كان حجة السياسيين الأميركين للمبادرة بإنشاء البحرية الأميركية ، حيث نص قرار الكونـچرس عام 1794 بإنشاء البحرية الأميركية ، نصّ تحديداً على أن مثل هذه البحرية يجب أن تكون كافية لحماية تجارة الولايات المتحدة ضد القراصنة الجزائريين.

وفي عام 1790 أصبح ثوماس جفرسون وزيراً للخارجية الأميركية ، ومع وجود أسطول أميركي ، كان يتوق لخوض حرب مع دول البربر ، وأوصى للكونـچرس بأن تشن الولايات المتحدة حرباً على الجزائر ، إلا إن الكونـچرس رفض ووافق عوضاً عن ذلك على دفع 140.000 دولار إتاوة ، وفي 27 آذار 1794 وقع جورج واشنطن مشروع قانونٍ يجيز بناء ست فرقاطات . وكانت " جورج واشنـطن " أول سفن البحرية الأميركية التي تدخل المتوسط ، وكان ذلك في العام 1800 وعلى متنها 500.000 ألف دولار إتاوة للجزائر ، وكانت الجزائر على الرغم من تمتعها بالحكم الذاتي جزءاً من الدولة العثمانية الإسلامية ولذا كانت تسهم في تمويل استانبول ، وفي مدينة الجزائر كانت الهلال السفينة ذات ال 36 مدفعاً تنتظر ، وكانت هذه السفينة جزءاً من إتاوة سابقة دفعتها الحكومة الأميركية للجزائر ، وبعد أن قام قائد جورج واشنـطن بتسليم مبلغ ال 500.000 دولار إلى "داي تونس" تم إبلاغه بأن رحلته لم تنته بعد وأن عليه أن ينقل موادّاً إلى السلطان / الخليفة في استانبول ، وبسبب مخاوفة من أن تصادر سفينته إذا

رفض ، لم يربدّاً من الإذعان . وبذا تم تحميل جورج واشنـطن ب150 خروف والكثير من النّعام والبيغاوات والحلوى وأكثر من مليون دولار من الذهب والمجوهرات والبضائع ، وطيلة مدة الرحلة إلى استانبول كان قائد السفينة يتعذب ، إذ ضايقه جداً وهو يلحظ دقة الجزائريين في المحافظة على مواعيد صلواتهم الخمس وأدائها تحت كافة الظروف في خضم الأمواج الهائجة ، ثابتين وهم يؤدون صلواتهم متوجهين نحو مكة.

كان جفرسون ، وقد أصبح الآن رئيساً للولايات المتحدة ، مهتماً بمواجهة الشمال الافريقي ، حيث يملك الآن أسطولاً ، ومع أن الكونـچرس كان لا يزال ضد اعلان حرب ، إلا أنه تجاوز الكونـچرس وأصدر أمراً للأسطول الأميركي الجديد ببدء أعمال دوريات بوليسية في مياه المتوسط ، وأمر الأسطول بصدّ أي عدوان عن طريق " إغراق أو حرق أو تدمير سفنهم " ، وهكذا أصبح الذهاب إلى الحرب دون موافقة الكونـچرس سنّة اتبعها الكثيرون من الرؤساء اللاحقين ، وإلى ذلك كان جيفرسون يريد إخضاع يوسف كرامنلى ، باشا طرابلس بشأن الإثاوه ، فما كان من كرامنلى إلا أن أستشاط غضباً إلى حد أن جنود الباشا ذهبوا في 14 آيار 1801 إلى القنصلية الأميركية في تونس وقصوا عامود سارية العلم الأميركي ، وهو فعل يعتبر بمثابة إعلان حرب.. كان هذا ما يريده جيفرسون وهاهو قد حصل عليه ، فأرسلت الولايات المتحدة الأميركية أسطولاً مكونا من إيسكس وبرزيدنت وفيلادلفيا وانتربرايز ، مع تعليمات بحصار ميناء طرابلس وقصف المدينة لإخافة كرامنلي ودفعه إلى الاستسلام ، وكانت لابد تلك هي استراتيجية " الصدمة والرعب " على الطريقة الجيفرسونية ، ولكن قبل قرنين كاملين من استعمالها من قبل جورج بوش ، وكانت أوامر قائد الأسطول هي " استخدام أنجع ما لديه لإبقاء سفن العدو في الميناء وإخضاعها وأسر أي واحدة منها تحاول الفرار وأخذها غنيمة ".

بدأت البعثة البحرية عملياتها بأن رفعت السفينة الحربية "الانتربرايز" العلم البريطاني ، وبذا أمكن لها التقدم بحيث أصبحت "السفينة طرابلس" في مرمى نيرانها المباشرة ، وفجأة رفعت الانتربرايز العلم الاميركي ومن ثمّ قصفت وداهمت "السفينة طرابلس" فقتلت 30 من بحارتها الثمانين وأسرت قبطانها الريّس محمد سوسا ، وقامت بجلده وضربه فلقة أمام الجمهور ، ثم أنزلت البعثة فريقا إلى الشاطئ ، وقام هذا الفريق بإحراق سفينة محملة بالقمح وكان ذلك بتاريخ 25 أيار 8001 ، وما أن استفاق الليبيون من صدمة الهجوم المفاجئ حتى تدبرت سفن كرامنلي أمر فكاكها من الحصار ، وما لبثت أن فرضت هي حصارها الخاص على الأسطول الأميركي ، أما قوة المارينز التي نزلت إلى الشاطئ فقتل

خمسة عشر من أفرادها ، وهم أول قتلى للمارينز في الشرق الأوسط ! وكان على قائد الأسطول الأميركي أن يستسلم لكرمانللي رافعاً علماً أبيض بيده .

وفي آب 1803 دخل أسطول أميركي تقوده السفينة الأميركية الحربية فيلادلفيا المتوسط ، فكان أن صادفت السفينة المراكشية "المركوبا" فهاجمتها واعتقلت ركابها ، وفي طريقها إلى طرابلس هاجمت قوارب طرابلسيه قبالة سواحل طرابلس فانسحبت القوارب الطرابلسية - في حركةٍ تاكتيكيه على الأغلب - إلى مسافةٍ أقرب من شواطئها ، ولكنها توبعت من قبل فيلادلفيا ، التي زعم قبطانها بأنه اصطدم بحيد مرجاني ، إلا أن تسعة من القوارب الطرابلسية أطبقت في ذلك الوقت من بعد ظهر 31 تشرين الأول 1803 على الفيلادلفيا واعتقلت قبطانها مع 307 من المارينز ، وتم تجريدهم جميعاً من ملابسهم وسيقوا أسرى إلى الشاطئ ، بينما قطرت القوارب الطرابلسية الفيلادلفيا إلى الشاطئ أيضا ، حيث أعاد باشا طرابلس تسميتها إلى " هبة الله " ، إلا أن الأميركيين أعادوا الكرّة على متن السفينة الأميركية الحربية " إنتربيد " في ليلة 16 شباط 1804 ، حيث قامت مجموعة من المارينز الأميركيين ، متنكرين بزي بحّارة مالطيين ، بالوصول إلى الفيلادفيا وأشعلوا فيها النار ، واعتبر البابا بيوس السابع هذا العمل " بأنه أعطى للمسيحية أكثر مما أعطته أمم المسيحية القوية لها منذ عصور".

وعرض على كرمنللي مائة ألف دولار لاطلاق سراح قبطان الفيلادلفيا وطاقمها إلا أنه رفض وطلب 1.5 مليون دولار ! ولذا تم استدعاء البحرية الأميركية ثانيةً للعمل ضد طرابلس . وتحت جنح الظلام وصل فريق من المارينز يقوده جوزيف اسرائيل إلى مقربة من شواطئ طرابلس على ظهر الانتربيد ، والتي كان على متنها أيضاً 15.000 رطل من بارود المدافع ، حيث كانت المهمة هي تدمير اسطول كرمنللي في الميناء تحت غطاء الليل ، ويبدو من الواضح أنه تم كشفهم من قبل السفن الطرابلسية، فتم قتل القوة التي هبطت إلى الشاطئ ، و تفجير الانتربيد بحمولتها من بارود المدافع ، مرسلة شعلات النيران تنير ظلمة السماء بينما تدوى أصوات انفجاراتها كالرعود ، وعندما طلب قائد الأسطول من كرمنيللي الإذن لدفن قتلى طاقمه رفض كرمنيللي وأصر على أن تترك جثثهم للكلاب.

أول خطة تغيير حكم أميركية في الشرق الأوسط

كان جون إيتون - المغامر بطبعه - والذي حارب الأميركيين الأصليين من أهل البلاد بحماس ، هو من وقع عليه الاختيار ليكون اول قنصل لأميركا لدى تونس في عام 1799 ، وكان أن أحضر معه الأتاوه إلى تونس والتي كان من ضمنها سفينتين حربيتين أمريكيتي الصنع، وعومل باحترام طبقاً للأعراف الدبلوماسية مع تحيةٍ بإطلاق المدفعية ، ولكن باي تونس مع ذلك قدّم له فاتورة ب 800 دولار هي ثمن البارود الذي استعمل للمناسبة ، لذا أصبح إيتون مقتنعاً بان الحلّ لمشاكل أميركا مع الشمال الأفريقي إنما يكمن في قيام قوة من المارينز الأميركان باحتلال واحدة من تلك الدول لزرع الرعب في قلوب حكامها ، وكان أن ترك موقعه في تونس وعاد إلى واشنطن حيث روج هو ومناصروه من أنصار الخط المتشدّد لهذه الرؤيه ، وتبلورت أفكاره أخيراً على شكل خطة لتغيير حكم يوسف كارامانلي . وكانت الخطّة تقضي باستخدام حامد شقيق يوسف المنفي إلى مصر بعد استيلائه على السلطة من أخيه يوسف ، وهكذا وبوقوف حامد إلى جانب المؤامرة الأميركية يمكن لإيتون أن يشكل جيشاً يعتمد على قلة من الأميركيين ومرتزقة آخرين ، وقد شجّع الرئيس ماديسون إيتون على أن يشعر بحرية اتخاذ القرار حسب " حماسته..وحساباته " لمساعدة حامد في خلع أخيه ، وعلى أيتون أن لا يتوقع لعمليته السرّية أن تحظى بتدخلٍ أميركي علني . ولإعطائه الحماية الدبلوماسية تمت تسميته وكيلاً للولايات المتحدة لدى دول البربر ، وما لبث أيتون أن أبحر إلى مصر بعد ذلك بقليل .

وكان أول عملين قام بهما إيتون هما العثور على حامد كرامانلي ، والذي عثر عليه في برج العرب ، ثم أعطاء نفسه رتبه جنرال ! وباشر بعدها تجميع جيشه والذي بلغ تعداده في الختام حوالي الأربعمائة ، منهم عدد غير معروف من مشاة البحرية الأميركان ، و90 طرابلسياً و63 مرتزقاً أوروبيّاً (أو مقاولاً حسب المصطلحات الحالية) فضلاً عن 250 بدوياً ، وتعهد حامد بإطلاق سراح السجناء الأميركيين لدى تسلمه مركز أخيه . وتميزت الرحلة عبر الصحراء بالطقس القاسي والمناطق الوعرة والمؤن الشحيحة والاقتتال المتفرق بين الجنود المسلمين والنصارى في جيشه ، وفي أكثر من مناسبة كاد البدو في جيش إيتون أن يثوروا ، وحتى حامد نفسه كان يعيد النظر في ميزات مهتمه ضد أخية ، وكان إيتون قد أعد بترتيب مع البحرية الأميركية قيام سفينة حربية أميركية بملاقاته في خليج بومبا ، على مسافة ثلاثين ميلاً غربي طبرق ، وهي محملة بالمؤن والذخائر ، ومصداقاً لذلك وصلت السفينة الأميركية آرجوس محمّلةً بالمؤن والطعام ، وبوصول المؤن الجديدة والإحساس بالانتعاش تابع جيش إيتون مسيرته إلى درنه ثاني أكبر ميناء في المنطقة ، وكانت الخطة تقضي باستخدامها كمنصة انطلاق إلى طرابلس ، وفي 15

نيسان وصل جيش إيتون إلى أبواب مدينة المرفأ ، حيث قام الجنرال العصامي الهمام بالطلب من حاكمها تسليم مدينته، إلا أن جواب حاكمها كان ***" إما رأسي أو رأسك "***. عندئذٍ ، ولما كانت سفن القتال الأميركية (آرچوس ، وهورنيت ونوتيلوس تجول في مدى الرماية من درنا .. باشرت بقصف دفاعات المدينة ، كما بدأ إيتون هجومه حيث أصيب بطلقةٍ في رسغه ، كما قتل أو جرح اثنان من المارينز مع الكثيرين من أفراد جيشه ، وفجأة وصل قرابة ثلاثة آلاف من جند كرامانلي وقاموا بتطويق إيتون وجيشه وباشروا هجوماً مضاداً نتج عنه مصرع ستين من جيش إيتون في الهجمة الأولى وأصبح إيتون وجيشه الآن تحت الحصار ، وبات لزاماً على الولايات المتحدة عقد اتفاق مع كارامانلي ، وعين الرئيس ويليام جيفرسون .. توباياس لير كممثل للولايات المتحدة ، وقد قدّر لير أنه فقط عبر السلام مع يوسف كارامانلي يمكن لأميركا أن تحظى بإطلاق سراح سجنائها وتطبيع العلاقات مع طرابلس ، لذا تفاوض مع يوسف واتفق معه على تبادل مائة من السجناء الطرابلسيين مقابل إطلاق سراح 296 أميركياً وقائدهم من المارينز إضافة إلى دفعة نقدية مقدارها 60.000 دولار . ومع نهاية أيار أبلغت السفينة الأميركية " كونستاليشن " إيتون – المحاصر - بالاتفاقية ، وسلّم حامد إلى اخيه الذي عاش بعدها بسلام في طرابلس ، وبتاريخ 4 حزيران 1805 وصلت السفينة الأميركية " كونستيتيوشن " إلى ميناء طرابلس حيث قامت بنقل الأسرى الأميركيين وقائدهم ، وهكذا انتهت المحاولة الأميركية المسلحة الأولى لتغيير نظام حكم في الشرق الأوسط بالفشل ، ومع ذلك و حتى هذا اليوم يتضمن النشيد الخاص بالمارينز - مشاة البحرية الأميركية - عبارة " إلى شواطئ طرابلس " ، على الرغم من أنه لا يوجد لديهم الكثير مما يتباهون به بخصوص معركة درنا.

ولكن الولايات المتحدة ازدادت قوة وضخامة ، وفي عام 1815 أرسل الرئيس جيمس ماديسون أسطولاً إلى الجزائر وتونس وطرابلس مجبراً إياهم على وضع حد لمهاجمة السفن الأميركية ومنهياً بذلك حرباً استمرت على مدى ثلاثين عاماً بين أميركا ودول شمال أفريقيا المسلمه.

بعد قرنين من هجوم المارينز على درنا : لماذا يكرهوننا ؟

إن الإجابة على سؤال جورج بوش لماذا يكرهوننا؟!.. يمكن إيضاحها بسهوله من الاستقصاء الذي أجرته مجلة النيوزويك في عددها العالمي الصادر في 12 أيار 2008

صفحة 30 وعنوانه "الاستشهاد: هو وجهتي" ، وكان هدف التقرير أن يبين لماذا كانت مدينة درنا ، والتي كان المارينز - مشاة البحرية الأميركية - قد قصفوها قبل قرنين من الزمان، لماذا كانت مهداً للكثيرين من الانتحاريين خلال حرب العراق . ففي 2007 ، عندما داهم المارينز مقر رئاسةٍ لإحدى مجموعات المقاومة العراقية - مجلس شورى المجاهدين - بمدينة سنجار شمالي العراق ، قاموا بتحليل الملفات والجنسيات وخلفيات حوالي 606 من المقاتلين ، وذهلوا عندما وجدوا أن 112 منهم قدموا من ليبيا وأن 52 منهم هم من مدينة درنا الصغيرة ذات الـ50.000 نسمه ، وبينما بلغ عدد السعوديين 244 إلا أنه على أساس تناسب التعداد السكاني ، فقد مثّل الليبيّون النسبة المئوية الأعلى ، بينما مثلت مدينة درنا - وبما لا يقارن - أعلى نسبة لإنتاج انتحاريي تفجيرات الجهاديين . خذ على سبيل المثال حالة عبد السلام بن علي ، البالغ من العمر عشرين سنة والذي ولد ونشأ في درنه .. كان أعمى إحدى العينين ، تخرج كبيطري ، وهوعاطل عن العمل. ومع أن ليبيا بلد ثريّ بالنفط ، ألا أن بلدة عبد السلام ومعظم ليبيا الشرقية بقيت متخلفة للغاية .. ولقد شاهد عدة مرات ، أسد الصحراء " وهو فيلم أنتج في 1981 ، يروي قصة المقاومة الليبية ، من بطولة أنطوني كوين الذي مثل دور عمر المختار ، المحارب الإسلامي المقدس ذي الشخصية الساحرة والرداء الأبيض والذي قاد الثورة ضد الاحتلال الإيطالي الوحشي ، والذي أصبح يعرف بأسد الصحراء ، وبقي محاربوه من الأنصار ينهكون بغاراتهم القوّات الإيطالية إلى أن أمسكته في العام 1931 .

" كانت الممارسات الإيطالية وحشية ، وطبقاً لأحد الاحصاءات الليبية فقد هوى تعداد السكان المحليين من 1.2 مليون في 1912 إلى 825.000 في 1933 كنتيجة مباشرة للسياسة الإيطالية " ، كما يقول رونالد بروس سانت جون ، وهو عالم مرموق متخصص في الشأن الليبي ،يضيف قائلاً بأن التكتيكات الايطالية تضمنت معسكرات اعتقال ، والتجويع المتعمّد ، والإعدامات الجماعية التي قاربت حد الابادة الجماعية .[33]

[33] George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*, Philadelphia, JB Lippincott Company, 1938, 69.

كانت درنا موقع المعركة الأولى للمارينز في الشرق الأوسط ، بدعم من المرتزقة " المقاولين" حيث قصف الأسطول الأميركي المدينة في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، وإذا كان ما زال بمقدور المارينز أن يتذكروا في أنشودتهم "شواطئ طرابلس " وحتى هذا اليوم ، فان أهل درنا يمكنهم – أيضا - تذكّر القصف الأميركي لمدينتهم . كذلك فإن عبد السلام كان يشاهد الجزيره وغيرها من القنوات الفضائية العربية ، وكان يرتعب مما يراه من جراح ودمار يصيب العراقيين وبناهم التحتية ، فاخبر والدته يوماً بأنه يريد الذهاب لمحاربة الأميركيين في العراق ، ولكنه عاد فتراجع ليهدئ والدته عندما رأى أنها اضطربت، ثم في أحد الأيام .. اختفى ، وبعد عدة أسابيع تلقت العائلة منه اتصالاً قال فيه إنه الان في الرمادي .. " أنا الآن في العراق " .

وبسبب قلقها من عدد الليبيين المنضمين إلى المقاومة العراقية ، أوفدت الخارجية الأميركية في تشرين ثاني 2007 وفداً برئاسة الجنرال دل ديلي إلى طرابلس لمقابلة مسئولين ليبين بارزين ، وفي البداية لم يصدّق الليبيون الأرقام التي زودهم بها الأميركيون إلى أن أطلعوهم على الوثائق من سنجار ، وطبقاً لتقاريرأميركية لاحقة ، فقد كان الأميركيون مسرورين بمستوى التعاون الذي أبدته السلطات الليبية في مكافحة الإرهاب . وخلص تقرير النيوزويك إلى أنه :

" وعلى الرغم مما تكشّف في سنجار فإن قلّةً من المسؤلين الأميركيين اعتقدوا بأن القذافي كان يرسل مقاتلين إلى العراق ، حيث أن موجةً من الجهاديين الليبين العائدين من العراق بمهارات جديدة ستكون على الأقل كابوساً له بنفس حجم ما ستكونه للأميركيين .[34] إن المقاومة المعادية للأميركيين عميقة الجذور كما يمكن استنتاجه من المقابلات التي أجرتها نيوزويك مع أقارب المجاهدين ، وعندما أبلغ المراسل عمدة درنا عن عدد مواطنيه الذين تطوعوا كمجاهدين لم يصّدق إلى أن ووجه بالوثائق وعندها قال العمده:

---

[34] Kevin Perraino, "The Jihadist Riddle: Destination Martyrdom", *Newsweek*, April 28,2008,

" إذا كان هذا الرقم صحيحاً فهو أمر سئ للغايه ، إنه سئ للسياسة ، ولكن ليس سيئاً للمسلمين أن يؤدوا واجبهم ، فأميركا قالت ان هذه الحرب هي من أجل الحرية ولكنها ليست كذلك " . كان مؤذن مسجد مدينة درنا "النوري الحسدي" ذي الستين عاماً ، قادماً لتوه من صلاة العصر عندما أوقفه مراسل النيوزويك ليسأله عن قريبه أشرف البالغ من العمر 18 عاماً ، والذي تطوع كمجاهد ، وموجود الآن في العراق . بدايةً لم يكن النوري راغباً في الإجابة ، إلا أنه انفجر فجأةً " النفط ... النفط ! " ثم صاح " أميركا بحاجةٍ إلى النفط ، إنها غلطة أميركا " .

في أواخر ربيع 2007 تسلل عبد الحكيم العوكلي ذي الأربع وعشرين عاماً مغادراً درنا ، ومع أن أقاربه طلبوا من مكتب الهجره رفض إعطائه إذن سفر ، خوفاً منهم أن يذهب إلى العراق ، لاحظوا بأن عبد الحكيم يزداد ضيقه بما اعتبره وحشيه الأميركان المحتلين للعراق ، وهو ينحدر من أسرة ثريةٍ للغاية ، وكان لديه فرصة الانضمام إلى عمل الأسرة ولكنه أصرّ واختار تلبية نداء الجهاد ضد الغزاة الأميركان .

ويقول عبد الحميد شقيق عبد السلام العلي بأن بمقدوره الآن التعايش مع حقيقة وفاة أخيه "عندما قتل .. كنت – حقيقةً – سعيداً للغاية " يقول عابساً وهو يفرك يديه : " ففي رأيي كان محقاً في ذهابه .. إنه محق في ذهابه ، فنحن نرى الناس تقتل للاشيء .. وكنت أنا نفسي أفكر في الذهاب" وعبد الحميد الآن هو المعيل الوحيد لأسرته ويقول بهدوء " ليس بمقدوري الذهاب الآن ، فأنا الوحيد الموجود لاعالة الأسرة الآن ".

حملات الثقافة الأميركية الصليبية : تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية المسلمة

بعد قليل من إرسال الرئيس ماديسون الأسطول لإخضاع دول الشمال الافريقي ، ثم التخطيط لغزوٍ ثقافي للشرق الأوسط ، حيث شكلت مجموعة من رجال الدين والصناعيين ورجال الأعمال الأميركيين في العام 1810 مجلس المفوضين للإرساليات الأجنبية ، بهدف رعاية المراكز التبشيرية في العالم غير البروتستنتي ، فلأميركا كما ادعوا ، دور عهد به إليها الاله ، لتتصرف "كنور للأمم " . فبالنسبة للأميركيين البروتستانت فإن المسيحيين الشرقيين والأورثوذكس اليونان والأرمن ، كانوا مضللين روحيّاً إلا أنه

بالإمكان استردادهم ، وهم يصفونهم بأنهم "مسيحيين بالاسم فقط" ، بينما المسلمين - كما اعتقدوا - فهم روحيّاً ليسوا على شيء وينتظرون الخلاص بفارغ الصبر.

وبدأ الكثيرون من رجال الدين يدعون إلى تحويل اليهود إلى مذهب الإيفانـجليكانية ، وتوحيد إسرائيل القديمة بالجديدة ، وقد صرح آسا ماكفارلاند ، وهو أحد أتباع مذهب البرسبارتينيه من ماساشوستس :

" عندما نخرج تلك الامبراطورية (العثمانية) .. فسوف يبدأ اليهود الالتحاق بفلسطين .. وعندها سيتسنمّ المسيح سلطانه وحكمه " [35]

وفي 1816 كتب في أحد أعداد نايلز ويكلي رجستر أنه عندما يتم " إزاحة الضعفاء المعتوهين " من فلسطين ، تقصد العثمانيين ، فسيعود اليهود إليها ، وبسرعة سيجعلون الصحراء " تتفتح كالورود" . لقد كانت تلك أجندة بروتستنتيه تبشيريه مقرّرة سلفاً من أجل تفكيك الدولة العثمانية المسلمة حتى يصبح بالإمكان تحقيق حركتهم الاحيائيه .

قبل مغادرتهم بوسطن إلى الديار المقدسّة ليصبحا بذلك أول بعثة تبشيرية إلى الشرق الأوسط ، خطب اثنان من الوعّاظ البالغين 25 سنة من العمر في جمهور في كنيسة جنوب بوسطن القديمة ، ليصبح ما قالاه البرنامج التبشيري في العالم الإسلامي ... وكان ليـڤاي بارسونز هو الذي تحدث أولاً :

" إن أولئك الذين علّمونا طريق الخلاص كانوا يهوداً " .. كانت تلك بداية خطبة بارسونز ، ثم أردف مواصلا خطبته " ولقد حافظوا بإخلاص على الكتاب المقّدس ، وعملوا وقاسوا وماتوا دفاعاً عن ديانتنا" فربّنا هو ربهم ، وسماؤنا هي سماؤهم " والأهم من ذلك كلّه - كما استذكر بارسونز - أنهم زودوا البشرية بمخلّصها " نعم أيها الإخوة ، فذاك الذي يشفع لكم الآن أمام عرش الرب هو ... يهودي ! " ولإظهار امتنائهم للسخاء اليهودي ،

---

[35] Michael Oren, *Power, Faith and Fantasy: America in the Middle East, 1776 to the present*, New York, W.W. Norton and Company, 2007, 89

استخلص بأن على المسيحيين بذل قصارى جهدهم لتمكين ذلك الشعب من استرداد سيادته في وطن أجداده التوراتي .

وأوضح بارسونز كيف أن اليهود ، ولمدة ثمانية عشر قرناً كانوا يعيشون في ضياع سياسي ، مشردين بلا وطن ومحرومين من الاستقلال ، وها قد حان الوقت ، على كلّ حال ، لمعالجة هذا الظلم ، واسترسل قائلاً : ***" علينا الاعتراف بأنه تكمن في صدر كل يهودي رغبة عارمة لا تقهر لسكنى الأرض التي منحت للآباء ، رغبة لا يمحوها ولا حتى اعتناق المسيحية " ، وهذه الأرض هي فلسطين والتي كانت مزدهرة يوماً ، أما الآن فليست دولة مستقلة ولا هي حتى مقاطعة مميزة وليست سوى مكان تركي مهجور ، بالكاد يكون مسكوناً وهوينتظر ملاّكه الشرعيين لاسترداده ، وسيتحقق ذلك ، ما أن يختفي الاحتلال العثماني لفلسطين " فلا شيئ يمكن له أن يحول دون عودتهم (اليهود) الفورية سوى معجزة "*** [36].

وأضاف بارسونز بأن عودة اليهود إلى فلسطين شرط لازم لظهور حكم المخلّص اليهودي ، وهكذا يتم استيفاء الشرط الاستباقي " للمجئ الثاني " . أما الواعظ الثاني بلايني فيسك ، فتحدث عن افتداء فلسطين منهيا الخطاب بقوله " كل العيون مثبتة على القدس " فما كان من جمهور الكنيسة إلا أن انفجر بالبكاء ، وهكذا ، ومن هذه الكنيسة ، والتي كانت مسرحاً لتحريض الأميركيين على إلقاء شاي شركة الهند الشرقية في البحر وإشعال الثورة الأميركية المقودة من قبل الماسونيين ، من هذه الكنيسة تم إشعال فتيل الحملة الصليبية الجديدة ، ولكن هذه المرة من بوسطن في الولايات المتحدة الأميركية . وطاف الواعظان أرجاء البلد كلها حيث أحسن استقبالهم أينما حلّوا ، وتلقوا التبرعات من مختلف الكنائس لحملتهم الصليبية ، بما لم يكن فيه أي اختلاف عن جولات البابا قبل الحملة الصليبية الأوروبية الأولى ، أما جون آدامز والذي سيصبح رئيساً في المستقبل، فقد كتب طبقاً لموردخاي نوح في 1819" أتمنى لليهود أمة مستقلة ثانيةً في يهوذا" . لقد كانت صهيون

---

[36] Ibid. 8o.

هي أميركا بالنسبة للحجاج الأوائل ، أما صهيون الآن فقد غدت فلسطين بالنسبة لأولئك الصليبيين الأميركان.

وهكذا أصبحت أجندة البعثات التبشيرية واضحة : تدمير الدولة العثمانية الاسلامية وعودة اليهود الى فلسطين .. فلسطين المحتلة طبقاً لرؤية المبشرين . وهكذا بدأت الحملة الصليبية الجديدة ، وكانت الإرساليات التبشيرية رأس الحربة لهذه الحملات الصليبية ، وبعد ثمانٍ وتسعين عاماً احتلت فلسطين من قبل البروتستانت الأنجلوساكسونيين على الجانب الآخر من الأطلسي ، البريطانيون ، والذين كانوا صدروا أوائل المهاجرين المعبئين بالعاطفة المضادة للإسلام إلى أميركا ، وكان احتلال بريطانيا لفلسطين ذو هدفٍ حربي محدّد ، هو إنشاء دولة يهودية في فلسطين ، وعلى ذلك قال الجنرال أللنبي عندما دخل القدس عام 1917 :" الآن انتهت الحروب الصليبية".

ولتحقيق ذلك ، عملت الإرساليات بصبر وخططت ونفذت غزواً ثقافياً ساعد ، بالإضافة لعوامل أخرى ، في فرط الامبراطورية العثمانية المسلمه . ومن بين هذه المعالم الثقافية البارزة كانت الكلية السورية البروتستانية ، والتي أسّست في أوائل العقد السابع من القرن التاسع عشر ، من قبل الواعظ البروتستاني دانيال بليس .. مع معهد مماثل في تركيا في ذات الفترة تقريباً . وقد لعب المعهدان دوراً رئيساً في خلق القوميه التركية على أحد الجوانب والقومية العربية على الجانب الآخر . وفي عام 1920 ، غيّرت الكلية الأميركية البروتسنتية اسمها إلى اسمها الحالي ، الجامعة الأميركية في بيروت ، مخفية الدلالة الدينية (بروتستانت) ، كذلك أزيلت كلمة السورية حيث أن بيروت لم تعد ضمن الإقليم السوري ، وإنما ضمن شخصية اعتبارية أخرى تم خلقها حديثاً تدعى لبنان .

الغزو الثقافي مدعّماً بالأسطول الأميركي

وقف معظم الأميركيين إلى جانب الثورة اليونانية بسبب معتقداتهم الدينية في أن اليونانيين لم يكونوا شيئاً أقل من صليبيين متأخرين ، وأن الحرب هي بين المسيحية والاسلام ؛ لذا نبتت مجموعات الدعم والتأييد في المدن الرئيسية وفي الجامعات ، وحصل اليونانيون على مساعدات سريّة من أوروبا . ولكن حين عاودت القوات العثمانية والمصرية التجمع من أجل سحق الثورة ، قامت قوة بحرية غربية مشتركة مكونة من بريطانيا وفرنسا وروسيا بالتدخل علناً ، وأغرقت معظم القوة البحرية العثمانية المصرية في 20 تشرين الأول 1827 في خليج ناڤارينو ، مرجحين بذلك الكفة لجانب اليونانيين .. ولم يكتف

الأميركيون العاديون بالتهليل فقط للعدوان الأوروبي في ناڤارينو ، بل اعتبر وزير الخارجية الأميركي جون كوينسي آدامز بأن الثورة اليونانية هي جزء من الصراع الأبدي بين المسيحية والمسلمين ، ذوي الديانة " المتعصبة والمزوره " والتي تتبنى "مبدأ العنف والشهوه (الجنسيه) " ، ولم يكن برنارد لويس بأكثر من صدى لهذه المدركات نفسها عندما ردّدها - حرفيّاً تقريبا -ً امام محافظيه الجدد ، عملاء إدارة بوش.

فاوض الأميركيون سلطاناً تمّ إضعافه على معاهدةٍ للملاحة والتجارة في 7 أيار 1830 ضمنت الولايات المتحدة بموجبها حقوقاً وامتيازات خاصة في الامبراطورية العثمانية ، وهكذا تمتعت الإرساليات التبشيرية والتجار الأميركيون بالحماية الأميركية حتى ضمن مناطق الأمبراطورية العثمانية السياديّة ، وأصبح داڤيد بورتر أول مسؤل أميركي لرعاية المصالح الأميركية في استانبول ومن ثم أول سفير ، وكان التفاوض بشأن المعاهدة قد قام به قائد أسطول الولايات المتحدة في المتوسط ؛ وبحلول العام 1830 أصبحت القوة البحرية الأميركية في المتوسط تساوي قوة الأسطول البريطاني ، ولربما تتفوّق عليها كما اعتقد البعض .

بداية جديدة

يمكن اعتبار العام 1840 سنة فارقة .. إذ فيها قررت بريطانيا طرد إبراهيم باشا من سوريا بما فيها فلسطين ، حيث رأت في محمد علي تهديداً لمخططاتها في المنطقة ، لأنه كان يتطلع لإيجاد امبراطورية إسلامية ناطقة بالعربية ، كما أنه غدا قوة عسكرية واقتصادية يعتد بها ، تجاوزت الحدود المسموح بها من قبل القوى الأروبية ، فضلاً عن أن امبراطورية عربية مسلمة يمكن لها أن تهدّد تماسك الامبراطورية العثمانية ، التي أرادوا الاحتفاظ بها الى أن يأتي يوم يتيح فيه ميزان القوى لبريطانيا أن تستحوذ على الاراضي التي ترغب فيها لنفسها من تلك المنطقة .. وبمساعدة ضئيلة من قوات السلطان العثمانية ، طرد البريطانيون إبراهيم باشا من سوريا ، وبذا تم استرداد الاستقرار للمنطقة ، واستعاد العثمانيون سيادتهم على سوريا بما فيها فلسطين ، وحافظوا على حقوق متساوية لغير المسلمين ، وأباحوا للأجانب الإقامة في القدس ، واعترفوا بالبروتستنيته كديانةٍ اخرى (ملّه) . وأما بالنسبة للإرساليات التبشيرية فقد أصبح اليوم يومهم ، فقد عادت إلى بيروت الإرساليات التي كانت قد هجرتها وأعادت إنشاء مدارسها ، وبدأ إيلاي سميث ترجمةً عربيةً للكتاب المقدس ، كما أحضر مطبعةً وباشر إنتاج 50.000 كتاب سنوياً .

اشتدّ ازر الإرساليات ، وبعد عودتهم استمروا في نعت الإسلام بأنه دين خداع ، كما استمروا في وصف أشكال المسيحيّة الشرقية بأنها متآكلة وبائره ، وكان رجال الكنيسة المحليين ، وبخاصةٍ المارونيين ، غير سعداء بعودة الإرساليات وبجرأتهم المسترده حديثاً ، وفي عام 1941 كتب البطريرك الماروني استرحاماً إلى السلطان ، يطلب فيه طرد الإيفانجيليين من الأمبراطورية وأن يصدر أمراً بإبعادهم ، أما السلطان فطلب تعليق السفير الأميركي على الموضوع ، فما كان من السفير إلا أن طلب من الارساليات عدم استفزاز الموارنه والمسلمين ، وبخلاف ذلك فإن ما سيقومون به سيكون على مسؤليتهم الخاصة " . وأدى ذلك إلى اهتياج المجلس الاميركي للارساليات وتدخله لدى واشنطن ، مما دفع بوزير الخارجية وبستر الى أن يعكس قرار السفير الأميركي بورتر ، وأمره بألا " يدع سانحة " تمر .. دون أن يبذل "العون الصحيح " إلى الإرساليات . ومثّل تحدي الإرساليات للسفير بورتر بداية لتحالف دائم بين قادة الكنيسة وصانعي القرار في الولايات المتحدة الأميركية ، وكان هذا - على الأغلب - بسبب اعتناق أميركا لعقيدة التوسع ، والتي تم تسويقها في الولايات المتحدة تحت شعار " قدرنا الواضح " ، ويحدث ذلك الآن في الشرق الأوسط ... لقد استخدم الساسة الرب لأغراضٍ غير ربانيّة ، خاصة في أربعينيات القرن الثامن عشر .

لقد قررت الطبقات الحاكمة والثريه في الولايات المتحدة غزو ما بقي من أميركا الشمالية زيادةً على الولايات الست والعشرين الموجودة حتى ذلك الحين ، إذ منحتهم أيدلوجية " قدرنا الواضح" حقاً إلهيّاً في فتح بقية أرضهم الموعودة والتي هي أميركا . وهكذا قاموا بغزو مناطق إلى الجنوب وإلى الغرب حتى غطى توسعهم ما بين السّاحل والسّاحل . وهذه الأيديولوجية أعطت أميركا حقّاً إلهيّاً منحته لنفسها ذاتيّاً لنثر بذور مبادئ علمانيتها ودينها على العالم كلّه ؛ وحسب المبشّر إيلاي سميث فإن الولايات المتحدة دولة قوية وقد حان الوقت لجعل المسلمين يشعرون بذلك ، وبذأت الإرساليات تطلب من واشنطن ليس المساعدة الدبلوماسية فقط ، لا بل الطلب إلى السفن الحربية الأميركية في المتوسط ، أن

تتدخل لحمايتهم أو لإظهار القوة فيما إذا أحست بأنها لازمة .. وقد طافت السفينة الأميركية اندبندنس الموانئ المصرية وكانت أوامرها كالتالي :

" السؤال عن سلامة ورخاء البعثات ... وأن تقدّم لهم المساعده التي يحتاجونها " [37]

وأيضاً في العام 1840 هبط سايروس هادلين في اسطنبول ، حيث حصل على إذن بفتح مدرسة في بيبك قرب استانبول ، إلا أن البطريرك الآرمني احتج عندما التحق بعض الأطفال الأرمن بالمدرسة . إلا أن نفوذ الإرساليات تصاعد عندما أسسوا للسلطان عبد الحميد مدرسة لتعليم الطلبة العسكريين ، على غرار المدارس الأميركية المماثله.

أما جوزيف سميث مؤسس العقيدة المورمونيه ، فقد أوفد أورسون هايد إلى القدس عام 1841 كممثل شخصي له ، وهناك صلى داعيا الله " لعودة مملكة إسرائيل ، وإقامة القدس عاصمة لها ، وأن يستمر شعبه كأمةٍ وحكومة متميزة"ً .ولقد أصبحت أفكار المتجددين - والتي أيدها المهاجرون والمستعمرون الأميركيون الاوائل - أصبحت جزءاً من التيار الأيديولوجي الأميركي الرئيسي ، إذ تم تبنيها بقوة من قبل الميثوديين ، والأبرشانيين ، والبريزبيتاريين .

أحد المتجددين - وهو أستاذ للعبرية في جامعة نيويورك - و يدعى جورج بوش ، وهو الجد الأقدم لاثنين من الرؤساء الأميركيين الذين يحملون اسمه ، كتب سيرةً للنبي محمد دعاه فيها بالنبي الزائف ، وفي 1844 وضع كتاباً بعنوان "وادي الرؤيا : إحياء عظام اسرائيل الجافة" ، وفي هذا الكتاب دعا جورج بوش لخلق دولة يهودية في فلسطين قائلاً إن مثل هذه الدولة ستكون بمثابة الوصلة ما بين الرب والانسانية .

---

[37] American Board of Commissioners for Foreign Missions, *The Missionary Herald, Vol. 46*, Boston, Press of T. R. Marvin, 1850, 379

ولقد كان متجدّد بريطاني آخر ينتسب لتلك الحقبة واسمه اللورد شافتزبري ، هو الذي صك عبارة " أرض بلا شعب لشعبٍ بلا أرضٍ" ، وذلك في وقت أبكر كثيراً من استعارة الحركة الصهيونية لها كشعار لتسويق آيدلوجيتها .

بدايـة الاستعمار اليهودي لفلسطين

بدأ أول جهد يهودي لاستعمار فلسطين عام 1851 عندما أبحرت كلورينا ماينور ، التي تنتمي إلى الابيسكوباليانية ، وزوجة أحد رجال الأعمال الأميركان الأثرياء ، إلى الأراضي المقدسة لتعريف اليهود " بالوقت المحدّد" لمساندة صهيون . وبعد وقت قصير من وصولها يافا قابلت اليهودي من أصل بريطاني جون ميشولام وقرّر كلاهما تشجيع اليهود وتعريفهم " بأوجاع الوضع والميلاد النشط " ، وحصلوا على دعم مالي من المتمول الإنجليزي البريطاني البارون موسى مونتيفيوري، ومن بعض المتبرعين الأميركان ، ومن ثم اشتروا قطعة أرض في قرية أرطاس قرب بيت لحم وأقاموا عليها مدرسة زراعية لليهود . وبعد مرور سنتين فشل المشروع في إيجاد يهود مهتمين بالزراعة وتم التخلّي عنه ، لكن ماينور لم تستسلم ، فانتقلت إلى مزرعة للبرتقال قرب يافا ، ومرةً ثانية قام مونتيفيوري بالدفع ، وأسمت المشروع جبل الأمل (ماونت هوب) الا أنه فشل مرةً أخرى ، وماتت ماينور في العام 1855 ، واستولى واردر كريسّون - الذي كان يقيم في فلسطين - على المشروع ، ثم تخلّى عن المسيحية واعتنق اليهودية وأعطى نفسه اسماً يهوديا : مايكل بواز اسرائيل . ولكن مع فشل مشروعه الزراعي الاستعماري ، غادر فلسطين وعاد إلى عائلته في الولايات المتحده . وإلى جوار جبل الأمل (ماونت هوب) ، أسس أميركي آخر اسمه ديكسون مستعمرة لليهود اسموها البعثة الزراعية الأميركية ، ولما أظهر الفلسطينيون المجاورون للمشروع عداءهم له طلب ديكسون المعونة من الأسطول الأميركي في المتوسط ، وردّ الأسطول إيجاباً وزود ديكسون بالسلاح ، وهكذا كانت هذه أول شحنة أميركية يتم تسجيلها لمشروع استعماري يهودي .

وبينما كان الأميركيون في تلك الأيام يمارسون " قدرهم الواضح " ، والذي فصّلوه على مقاس حروب الإبادة التي شنوها ضد سكان أميركا الأصليين ، ولشن حروبهم التوسعية والعدوانية على الآخرين .. وبينما كان سدس السكان الأميركيين عبيداً دون أية حقوق إنسانية ويعاملون كالحيوانات في مزارعهم ، كان لا يزال لدى الأميركيين القُحّة للحديث عن التحرير والحرية وإنقاذ الأرواح ، ناسين مثلهم الشهير الذي ينص على أن عمل الخير

يبدأ في البيت ! .. مثل هذه الازدواجيه والنفاق أصبحا سمات لا يمكن فصلها عن الأميركيين "ولا يمكنهم مغادرة المنزل بدونها".

وهؤلاء الزوار القادمين من مهنٍ وخلفيات مختلفه ، وكما المبشرين ، كانوا يتطلعون إلى شرقٍ أوسطٍ بدون المسلمين ، أو على الأقل بدون الاسلام الذين أجمعواعلى تسميته بالعقيدة الزائفة. أما ساره هايت ، فدعت إلى " حملة صليبية سياسية " على مستوى عالمي ، ربما لم تكن لتختلف كثيراً عن حملة جورج دبليو . بوش الصليبية بعد ذلك الوقت بقرن ونصف القرن ، لإخضاع الاسلام وهدم الامبراطورية العثمانية ، كما قال دالتون كولتون القس البحري في 1838 بأن الأسلمة ، هي قبر الحقيقة والحرية " وأضاف بأن "صولجان ومذبح وعرش الهلال يجب أن تغرق معاً" . أمّا جيمس كولي فقد فكّر وقدر بأنه " على المسلمين أن يتبنوا معتقداً أكثر تنورّاً واتساقاً " حتى يتاح لهم بذلك الانضمام إلى "الأمم المتحضرّة " . أما وليام إتش بارتليت - وهو فنان - فقد كتب بعد زيارته للقاهرة عام 1849 :

" مصر متهاوية وعاجزة وخاضعة لوطأة الظلم ولعقيدة زائفة ، بينما أميركا تصعد يومياً إلى القوة .. أرض للنور والحرية والمغامرة والمسيحية". إلا أن المبشرين تعلّموا بالطريقة الصعبة كيف أنه ليس من الممكن تحويل المسلمين إلى المسيحية ؛ فجهودهم على مدى ثلاثين عاماً لم تسفر سوى عن ثلاثة مشبوهين تحولوا عن الاسلام ! ولذا توصلوا إلى القرار بأن أفضل شيء اخر يمكن لهم أن يفعلوه ، هو تغيير القيم الإسلامية وأمركة المسلمين .. بحيث يصبحون مسلمين بالاسم فقط ، لا سيما وأن المبشرين اعتبروا المسيحيين الشرقيين .. مسيحيين بالاسم أيضاً ، وتطلب هذا من المبشرين الانطلاق بغزوٍ ثقافي جديد من الصفر ، بدأ من دور الحضانة وحتى الجامعة ، لتغييرهذه القيم ، وربما يتسنى لهم في جيلٍ أو جيلين أن يلمسوا النتائج ، وقد حصل .

وهكذا فقد شهد الشرق الأوسط غزواً ثقافيّاً من المبشرين ، ليس فقط من أميركا ، بل من بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا ، غير أن الأميركيين مع ذلك كانوا الأوائل في الموارد البشرية والمالية.

الهدف الجديد : العلمانية عبر القومية

عرف المبشرون التاريخ العربي جيّداً ، فعلموا أن العرب - وحتى قبل الحقبة المسيحية - اخترقوا سوريا والعراق ، وشكلوا سلالات في هذه المناطق كما أقاموا ممالك عربية في تدمر والحيرة في القرن الثالث للميلاد ، وكانت الوطأة الثقافية للعرب قبل الإسلام في حدود دنيا ، حيث بقيت الحضارات القديمة على حالها دون تغيير ، يونانية / أرمنية في سوريا ، وساسانية في العراق ويونانية قبطية في مصر . أما كمسلمين ، وقد تسلّح العرب الآن بقوة الإسلام الدافعة ، فقد انتشرت قوة عقيدتهم في كل اتجاه ، فما أن انقضت مائة عام على وفاة النبي محمد ، حتى وصلوا حدود الصين في الشرق وتقدموا شمالاً حتى الأناضول قريباً من القسطنطينيه ، أما غرباً فقد احتلوا شمال أفريقيا وعبروا مضيق جبل طارق إلى إسبانيا ، ومن ثمّ عبروا جبال البيرانيه إلى فرنسا حتى وصلوا ضواحي باريس . وخلافاً لما حصل مع عرب ما قبل الإسلام فقد أفسحت الحضارات القديمة المجال أمام حضارة المسلمين العرب الجديدة ، وأصبحت لغة أقطار امتدت ما بين بلاد فارس وحتى مراكش .. والتي أصبحت تعرف بالعالم العربي . أما العالم الإسلامي فكان يتكون من العالم العربي إضافةً إلى البلدان المسلمة التي لم تتحول إلى العربية كلغةٍ أمّ لها . وبينما كان العرب المسلمون يدخلون الأقطار ، كان هناك نهجان يتفاعلان ويعملان في نفس الوقت : نهج التحوّل إلى الإسلام ، ونهج التعريب ، وكان النهج الأول هو الغالب بينما عمل نهج التعريب بدرجات متفاوتةٍ من النجاح في المناطق المختلفة ، وكانت إحدى هذه المناطق التي لم يتمكن منها نهج التعريب بقوة كافية هي منطقة الأتراك العثمانيين الذين تبنوا الإسلام وابقوا العربية لغةً للقرآن والتعاليم الدينية ، وليس لغة للدولة.

قدمت الإرساليات إلى الشرق الأوسط ولديها هدفان : الأول تحويل المسلمين بالدرجة الأساس ، وكذا المسيحيين الشرقيين " الفاسدين " - بحسب وصف تلك الإرساليات لهم - إلى المسيحية ، أما الهدف الثاني فكان هدم الامبراطورية العثمانية .. دولة القلب للعالم الإسلامي في ذلك الوقت . فقد أرادوا رؤية شرق أوسطٍ علمانياً يتخلى عن الرابط الوثيق بين الإسلام في الحياة العامة وبين الحكم ، وهي السمة التي تعطى الإسلام وضعه الفريد . ولكن تحويل المسلمين عن دينهم أثبت أنه مهمة مستحيلة ، فالمؤلف هنري فيلد يعتقد بأن " البعثات التبشيريه لم تحدث أثراً في الإسلام أكثر من ذلك الذي أنزلته رياح الصحراء بصخور جبل سيناء " ، ولقد أثبتت الاحصائيات صحة ما ذهب إليه فيلد ، فعلى مدى أربعين عاماً من العمل الشاق - والذي نتج عنه وفيات أحياناً – فقد تم تسجيل ما معدّله : أقل من متنصّر واحد في العام و بتكلفة جسيمة بلغت 16000 دولار للمتنصر الواحد ، ولذا فإنهم إن لم يقدروا على تحويل المسلمين ، فإنهم سيقبلون بتحويل المسلمين عن

ممارسة الإسلام في الحياة - كما نصت عليه المبادئ الإسلامية ضمن دولة إسلامية . وأصبحت كلمة " العلمانية " شعار المرحلة .. وفصل الإسلام عن شؤون الدولة الهدف الرئيسي ، وباختصار أرادت الإرساليات فصل نهج التعريب عن نهج التحول إلى الإسلام باعتبار ذلك الطريق لتدمير الخلافة الإسلامية كما كانت تجسّدها الدولة العثمانية المسلمة ، أما وسيلة تحقيق هذا الهدف فكانت خلقُ حركةٍ قوميةٍ عربية ، وهذا يعنى تدمير دولة الخلافة العثمانية ، والتي - ولو على نحوٍ غير مثالي - كانت تمثل الرابط الإسلامي الدنيوي والروحي . وتحقق هذا الهدف عندما دمرت "تركيا الفتاة " الخلافة العثمانية المسلمة ، وعندما أصبحت العلمانية - حقيقة - شعار الدستور في كل دولة أو دويلة عربية جديدة تم خلقها من قبل الغرب بعد هزيمة الخلافة العثمانية، ولقد كان الإسلام المادة التي حفظت للعرب تماسكهم ، وكان لابد لفصل العُرى بين التعريب والأسلمة أن يقضي على الوشائج الرابطة بين أجزاء المناطق المكونة للعالم العربي ، وواقع اليوم هو البرهان الحيّ على ذلك . وعبر مدارسهم روّجوا الآيدلوجية العلمانية الغربية ، واستخدموا القومية مركبةً توصلهم إلى أهدافهم ، وكانت أدواتهم لتحقيق ذلك هي المدارس والكليات ، وكانت الكلية البروتسنتية الأميركية هي التي فاقت الجميع ، وأعيدت تسميتها في وقت لاحق بالجامعة الأميركية في بيروت . وفي حوالي نفس الوقت تقريباً أسس معهد مماثل في الأناضول أقامه المدعو سايروس هاملين تحت اسم كلية روبرتس .

وصل المبشر دانييل بْليسْ إلى بيروت في العام 1855 وهو في السابعة الثلاثين ، وكان عليه في البداية إقامة إرسالية في جبل لبنان ، إلا أنه في 1860 تخلى عن ذلك بسبب القتال الذي نشب بين الموارنة والدروز ، ولدى عودته إلى بيروت وبعد التشاور مع المبشرين المحليين الأكبر سناً في اليوم الأول من 1862 ، طلب الإذن بفتح كلية تغرس روح القومية في دراسات المدارس التبشيرية ، على أن تكون العربية لغة التدريس ، وأسميت الكلية بالكلية الأميركية البروتسانتية، وأبلغ بْليسْ المجلس الأميركي بأنه وحيث أن الإرساليات لم تكن لها القدرة على توريد ديانتها إلى المنطقة ، فلا أقل من القبول بنفث قيم العلمانية الأميركية كبديل ، وسيؤدي نشر العلمانية عبر القومية إلى إيقاظ العرقية النائمة ، أو حتى المسائل القبلية ، بين مختلف المجموعات العرقية في الامبراطورية العثمانية ، محققاً بذلك الهدف الثاني للإرساليات ألا وهو هدم الدولة الاسلامية الأم .. الامبراطورية العثمانية ، وبذا أصبحت الكلية البروتستانتيه الأميركية ، والتي غيرت اسمها في 1920 إلى الجامعة الأميركية في بيروت ، أصبحت مهد القومية العربية ، ومنها تخرج معظم قادة الحركات القومية العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين .

وفي 1919 وكنتيجة للرضا عن الإنجازات التي حققتها الكلية البروتستانتية الأميركية ، أقام إلأيڤانجيليكان في 1919 الجامعة الأميركية في القاهرة لتحذو حذو سابقتها وتنشر رسالتها . وعلى الرغم من أنه في مدة عشر سنوات بين 1885 و 1895 تضاعفت ميزانية المعاهد التبشيرية سبع مرات مع إنشاء أكثر من 400 مدرسة والتحاق أكثر من 20.000 طالب بها ، ومع وجود مطابع الارساليات التي أنتجت أكثر من أربع ملايين كتاب مدرسي ، فان التقدم الذي أحرزته القومية كان بطيئاً جداً - على كل حال - خلال القرن التاسع عشر بأكمله.

كتب أورن : " العرب المسلمون ، على كل حال، والذين رفضوا لفترة طويلة التعاليم الدينية للمبشرين ، لم يشعروا سوى بالقليل من المحبة للأفكار العلمانية الغربية ، إذ أن لديهم أمة ينتمون اليها هي الأمة الإسلامية (الأمة) كما تجسدها الدولة العثمانية " وأضاف أورن : " وعوضاً عن الانفصال عن الامبراطورية ، فضلوا الحصول على حقوق إضافية ضمنها ، وتحقيق الوحدة .. ليس من خلال فلسفةٍ غربية ، وإنما عن طريق العودة إلى الإسلام المحلّي" [38].

[38] Oren, *Power, Faith and Fantasy*,

الفصل الثاني

من الحملات الصليبية التجارية إلى الحملات الصليبية السياسية

" بينما استطاع البريطانيون إشعال ثورة عربية ضد تركيا وتجميع الكثير من القوميين حول قضيتها ، إلا إن محفّز الثورة في الحقيقة لم يكن العروبة بقدر ما كان الرغبة في إحياء خلافة عربية مستقلة عن الأتراك المتفرنجين " وكان قائد الثورة .. الشريف حسين .. يعتقد بأنه لا يمكن للعرب أن يتوحدوا سوى تحت راية الإسلام ، وليس تحت أية راية عرقية أو ثقافية " [39]

" القوة ، الإيمان ، والوهم " لمؤلفه مايكل بي . أورن – دبليو. دبليو . نورتون وشركاه – نيويورك ، 2007 – صفحة 169

في ثمانينيات القرن التاسع عشر تجاوزت صادرات أميركا إلى الشرق الأوسط وارداتها منه بأربعة عشر مثلاً ، وأخذت الأهمية التجارية للشرق الأوسط بالتصاعد ، بينما تزايدت أهميته الجغرافية والجيوبوليتيكية ، وبينما كانت التجارة الأميركية العالمية وقوتها الصناعية في نهوض مستمر ، باشرت الولايات المتحدة توكيد سلطانها عسكريّاً واقتصادياً

---

[39] Michael Oren, *Power, Faith and Fantasy*, New York, W.W. Norton & Co., 2007, 169

. وفي تصريح له مستخدماً الدين لدعم ودفع هذه الأجندات ، يقول جوزيف سترونـج ، المنتمى للحركة الأبرشية المسيحية بأنه " يجب على الأميركيين أخذ زمام القياد ، في آخر صراعات المسيحية لتقدم العالم " ولتبرير الحرب الأميركية الإسبانية ، وبصفتهم كهاّناً للرأسمالية دافع الوعاظ عن " الاستعمار المستنير " وعن درجة تعقيد "عبء الرجل الأبيض" (في التصدي للارتقاء بالأجناس الأخرى – المترجم) و"قدرنا الواضح" (في التوسع والاستحواذ على القارة الأميركية بمجملها – المترجم) .

وحيث أن العسكرية في أميركا هي دائماً في خدمة الأعمال ، وصلت أميركا في هذا الوقت إلى قناعةٍ مؤداها أن من يسيطر على الشرق الأوسط سوف يسيطر على العالم، ولذلك باشرت ببناء 16 سفينة حربية من أحدث طراز، أصبحت تعرف باسم الأسطول الأبيض العظيم حيث تم تكليفه بالبحر الأبيض المتوسط ، وبذا أصبح القوة البحرية المقاتلة الأولى لأميركا على مستوى العالم ، وفي وقت أبكر كثيرا من الوقت الذي دعيت فيه هذه القوة الأسطول السادس .. كاانت هذه هي أميركا حوالي الوقت الذي كان فيه السلطان عبد الحميد الثاني ، سلطان الدولة العثمانية المسلمة.

عبد الحميد الثاني ... أجندة مختلفة

كان السلطان عبد الحميد الثاني هو السطان الرابع والثلاثون في الامبراطورية العثمانية ، وامتدّت فترة حكمه منذ ارتقائه العرش بتاريخ 31 آب 1876 وحتى تاريخ خلعه في 27 نيسـان 1909. وفي 1876 استلم الخزينة خاويةً ، وكان حال تركيا في ذلك الوقت ، شبيهاً لحال مصر مع صندوق النقد الدولي اليوم ؛ فقد فرضت التجارة الحرة على الامبراطورية العثمانية ، فكان أن أوصلها سوء الإدارة إلى الحال الذي وصلت إليه ، إذ كان عليه الاذعان للرقابة الأجنبية على المديونية الوطنية . وهكذا ، فإن جزءاً كبيراً من عائدات الإمبراطورية كان يسلمّ إلى إدارة الدين العام ، لمصلحة حاملي صكوك الدين الأجانب .

كان عبد الحميد مصرّاً على عدم الاستمرار في سلوك نهج من سبقه من ضعاف السلاطين ، وصمّم على اعادة توحيد الدولة العثمانية تحت راية الإسلام ، أي على العكس تماماً مما كانت الإرساليات والغرب يعملون من أجله لعقود ، وبذا أصبحت المواجهة ماثلةً ويجرى الاعداد لها . وكان تفكير الإرساليات أن العلمانية عبر برنامج القومية كانت مجرد البداية للحدث الكبير ألا وهو تفكيك الدولة العثمانية المسلمة ، وقد عبّر هنري جيساب ، وهو

مبشّر محنّك في بيروت عن ذلك بالقول : " في الحرب ضد الإسلام ما زلنا في مرحلة ارتداء الدروع ، ولسنا على أي نحوٍ جاهزين بعد للتلويح برايات النصر " . وقد أثمرت جهود الإرساليات حتى الأن أكثر من 100 كنيسة في سوريا الكبرى وأكثر من 200 مؤسسة ومعهد ، ومع ذلك لم يصبحوا مخلّصين للأرواح ولا منتجين للمتنصرين ، ولخيبة أملهم فلقد اعتنق أليكساندر رسل ويب ، قنصل أميركا في الفيلبين الاسلام متحولاً عن البريسبتاريه في العام 1888 ، وعاد إلى بلدته نيويورك حيث بنى أول مسجدٍ في أميركا وأنشأ أول صحيفة إسلامية هناك .

ما مّيز السلطان عبد الحميد الثاني عن غيره من سلاطين القرن التاسع عشر هو معرفته أن "العثمانيين الفتيان " أو " تركيا الفتاه " كانت حركات مدعومه من الأجانب ومستندة إلى إيدلوجيا أجنبية . وكرجل ورع ، ولكن كاستراتيجي أيضاً ، كان مقتنعاً بالآيدولوجية المحلية .. الإسلام ، والتي حققت الأمبراطورية العثمانية أوج علوها على أساسه ، ومنذ العام 1517 كان السلاطين أيضاً خلفاء ، ولذلك أكدّ على دور الإمبراطورية بصفتها دولة المركز بالنسبة للإسلام ومستقرّ الخلافة الاسلامية ، كما اعتبر هجوم " القوى العظمى " على امبراطوريته هجوماً على الإسلام ، وقلّص من حجم امتيازات الأجانب والتي اعتبر أنها تستهدف وحدة الدولة ، فيما أرسل مبعوثين إلى المناطق النائية حاثاً على الوحدة الإسلامية تحت سلطة الخلافة . لقد كان تعبيراً عن كل شيء لا تريده الإرساليات ولا يريده الغرب أن يكونه ، وعلى الأخص المسائل التي تخصّ الإسلام وفلسطين . ولقد رفض عرضاً من ثيودور هرتزل بأن يسدّد عنه معظم الديون العثمانية في مقابل صك يسمح لليهود باستعمار فلسطين ، وكان رده على هرتزل:

" لأن يقطّع السكين بدني .. لهو أقلّ إيلاماً عليّ من أن أرى فلسطين تجتث من دولة الخلافة ، وهو أمرٌ لن يحدث .. ليحتفظ اليهود بملايينهم ، وإذا حصل وقطعّت أوصال الخلافة يوماً ، فعندها يمكنهم أخذ فلسطين دون مقابل " [40].

---

[40] Encyclopedia Wikipedia, Abdul Hamid II, http://en.wikipedia.org/wiki/Abdul_Hamid_II.

الصهيونية المسيحية تصبح أكثر عدوانية من الصهيونية اليهودية

كانت الهجرة اليهودية الكثيفة من بلدان أوروبا الشرقية إلى الولايات المتحدة هي أيضاً إحدى العلامات الفارقة التي ميزت عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، أرضهم الموعودة الجديدة والتي دعوها بلغتهم اليديشيه "دي چولدن مدينة" - أي الأرض المرصوفة بالذهب - والقلة القليلة منهم - على كل حال - هم الذين هاجروا إلى أرضهم الموعودة .. فلسطين .

ولقد موّل أميركيون أثرياء إنشاء البنية التحتية والضواحي السكنية لهؤلاء المهاجرين في فلسطين ، فقد اشترى ناثان شتراوس ، وهو أحد الشركاء مالكي محلّ ماسيز (Macy's) المشهور قطعة أرضٍ كبيرة قرب يافا ، بنيت عليها مدينة ناثانيا والتي سميت كذلك تيمّناً باسمه . ولم تكن أغلبية الأميركيين مجرّد محايدين بالنسبة للصهيونية ، وإنما كانوا ضدّها ، ففي عام 1885 شرّع اتحاد الجماعات الاصلاحية المستقله " بأننا لم نعد نعتبر أنفسنا أمّة ، وإنما مجتمعاً دينيّاً" ، كما قام أبرام إس. آيزاكس بتذكير اليهود بان الصهيونية من أقرباء الحركة التجديدية المسيحية والتي تنادي بتحوّل اليهود إلى المسيحية ، ولربما أظهر الإقبال الضعيف لليهود الأميركيين على حضور المؤتمر الصهيوني الأول افتقارهم للاهتمام بالصهيونية ، اذ لم يأت إلى بازل في سويسرا لحضور المؤتمر سوى أربعة مندوبين من حوالي المائتين ، إلا أن المجدّدين هم الذين استمروا في الضغط من أجل القضية الصهيونية .

كان تي. دي. وت تالماج ، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، هو المعادل لبيلي چراهام في القرن العشرين ، وقد أعطي تالماج وضعاً رفيعاً من قبل وسائط الإعلام ، وكان له جمهور واسع من المستمعين والأتباع.. لقد كان المستشار الروحي للرئيس چروڤر كيلڤلاند ، وكانت تصريحاته تنشر على نطاقٍ واسعٍ في الصحافة .. زار تالماج القدس سنة 1889 ، وعلى نحو ليس مخالفاً تماماً لبقية أبناء جلدته .. عبر عن كراهيته للامبراطورية العثمانية ، والتي وصفها "لعنة الأمم تلك .. الشنطة القديمة المحشوة بالسنين" , وحثّ الأميركيين على قيادة العالم وانتزاع فلسطين من الإسلام حتى يصبح بالإمكان جعلها دولة لليهود .

بعد زيارته إلى القدس ، كتب وليام يوجين بلاكستون المجدّد المتطّرف رسالةً إلى الرئيس ينجامين هاريسون ووزير خارجيته في 15 آذار 1891 ، وفي رسالته أوضح أنه على

الولايات المتحدة أن تحذو حذو أوروبا بفصل فلسطين عن الإمبراطورية العثمانية واعطائها لليهود ، اقتداءً بما فعله الأوروبيون باقتطاع صربيا وبلغاريا ، وما هو أغرب من الرسالة نفسها كان الموقعون على الرسالة ، والذين ضموا تالماج – بالطبع - بالإضافة إلى الشخصيات المرموقة في عالم الأعمال والمال والكهنوت والصحافة من أمثال جون دي. روكفلر ، وجيه. بي. مورغان . ومنذ 1881 أخذ الرؤساء الأميركيون بالضغط على السلطان عبد الحميد للسماح للمزيد من اليهود بالهجرة إلى فلسطين ، ولكن المجددين والسفراء الأميركيون اليهود مثل أوسكار شتراوس شقيق ناثان أحد ملاّك ماسيز ، وسولومون هيرش – كلاهما يهودي – لم يتمكنوا من نسف تصميم عبد الحميد ، الذي أنهى إليهم بأن فلسطين تخص كل المسلمين ، وليس بمقدور أي سلطان السماح بإجراء أي تغيير في وضعيتها أو وحدتها . ولمدة عقدٍ من الزمان تقريباً - منذ اندلاع المذابح الروسية في 1881 - دأبت واشنطن على حث الباب العالي لفتح فلسطين أمام الهجرة اليهودية ، وأوعزت وزارة الخارجية الأميركية إلى سفيرها في استانبول لو والاس ، لبحث الأمر شخصياً مع السلطان عبد الحميد الثاني ، وكمجدّد مكرّس ، لم يألُ والاس جهداً في الضغط لإعادة توطين اللاجئين اليهود في فلسطين ، وتابع خلفاؤه - أوسكار شتراوس ، وسولومون هيرش - نفس الموضوع ولكن دون جدوى ، إذ لم تسفر أيُّ من جهودهم عن نتيجة . وكان تخوف العثمانيين من الصهيونية ومن أي مسمى قد يؤدي إلى تفكيك امبراطوريتهم مبررّاً ، وقد وضع العثمانيون قيد التنفيذ .. قيوداً صارمة ومتزايدة على هجرة اليهود إلى فلسطين ، أما القوى الأوروبية فمن جهتهم لم يظهروا أي ميلٍ للتدخل لصالح اللاجئين ، أو أن يجاروا مبادرات الأميركيين بخصوص فلسطين .

نشطت الإرساليات في أرمينيا ، وهي مقاطعة عثمانية يتواجد فيها أعداد مهمة من السكان المسيحيين ، وشجعتهم على الثورة ضد إستانبول ، وكان أن أخمدت الأمبراطورية العثمانية الثورة دون رحمه ، مما حدا بالدبلوماسيين الى شجب هذه الإجراءات وشبهوها " بمحاكم التفتيش" و " أنها بغيضه بشكل مطلق.. ومناهضه لدستورنا ". ولكن استمرت المذابح دون توقف ، وفي هذه الأثناء أبلغ أبرام إيلكاس ، وهو محامٍ يهودي من نيويورك خلف مورجنتاو كسفير ، أبلغ وزارة الخارجية أن الأتراك يتبعون دون هواده " سياسة إفناءٍ عبر التجويع والانهاك والوحشية في المعاملة ، بشكلٍ لا نظير له حتى في التاريخ التركي ".

وطيلة الفترة الأعظم من القرن التاسع عشر , كان الذين قبلوا الفكرة القومية فئة قليلة من بعض الأقليات ، فبالنسبة للعرب المسلمين ، فان صرخة إبراهيم اليازجي ، الماروني الذي انقلب إلى البروتستانتيه ، في قصيدته " ألا هبّوا واستفيقوا أيها العربُ " فقد ذهبت أدراج الرياح ، فبالنسبة لهم فإن الدولة العثمانية برئاسة خليفة مسلم هي حصن الإسلام ، إلا أن كل هذا قد تغيّر في 1908 عندما استولى انقلاب - قاده الماسونيون واليهود بدعمٍ غربي - على استانبول ... ولم يعمل على تأكيد الأفكار الغربية حسب ، وإنماً على التفرقة العرقية ضد العرب أيضا ؛ ولذلك أصبح حدوث رد فعل أمرا مفروغا منه .

لم يبق أمام السلطان عبد الحميد سوى القليل من الخيار ، ولذ فكّربإمكانية مصادقة الامبراطورية الألمانية ، وكان أن حلّ القيصر ويلهلم الثاني ضيفاً على عبد الحميد في استانبول في 21 تشرين الأول 1889 ، وبعد ذلك بتسع سنوات وعلى وجه التحديد في 5 تشرين أول 1898 استخدم الضباط الألمان في إعادة تنظيم الجيش العثماني ، كما استقدم خبراء ألمان لإعادة تنظيم الشؤن المالية العثمانية ، كما قدّمت ألمانيا قروضاً لعبد الحميد ، وبنت شبكة سكك حديدية ، بما فيها سكة حديد بغداد وسكة حديد الحجاز .

وبالرغم من حرصة في التعامل مع الغرب سياسياً ، فإنّ عبد الحميد في مسعاه نحو الحداثة اعتمد على الغرب في ميدان التكنولوجيا كما في مجال إصلاح القضاء والتعليم ، من أجل الحصول على موظفين عموميين أكثر كفاءةً لإدارة الأمبراطورية ولتامين التقدم والتطور . ولقد حسّن نظام التعليم العام من أجل الحصول على موظفين عامين أكفاء وعلى طبقة متعلمة من الرسميين ليحلّوا محلّ الجهلة والفاسدين منهم . ولتحقيق ذلك أعاد تنظيم "مولكيي" أول مركز في الامبراطورية يُعلّم الخدمة المدنية ، وقد تضاعف عدد الملتحقين به إلى اثنى عشر مثلاً لعدد المتنسبين إليه في عهد والده ، كما قام بتوسيع كلية الحرب ، "الحربية" ، وكذلك الهندسة البحرية والعسكرية وكليات الطب للأغراض المدنية والعسكرية.

ومن أجل الحدّ من امتيازات الأجانب القضائية ، أصدر عن طريق وزارة العدل قوانين جديدة الغرض منها الحد من تأثير الامتيازات الصادرة بموجب اتفاقيات الإذعان وإلغاؤها تماماً ، ولكنّ هذه القوانين رفضت من قبل الإرساليات التي أصرت على الاحتفاظ بامتيازاتها خارج التشريع المحلى كالسابق . وعبر إدخال وسائط إعلام جديدة وتوسيعها ، مثل الجرائد والدوريات والكتب ، تم إيجاد جمهور قارئ وتوسيع آفاقة . وجميع هذه

الانجارات تمّ تحقيقها في وقتٍ كانت خزانته فيها خاوية و الامبراطورية مقصّرة في تسديد ديونها وقت تسنمه مركزه .

وفي عهد عبد الحميد ، في 1888 ، تمّ وصل تركيا بأوروبا الغربية - لأول مرة - عن طريق القطار ، بوصول القطار العابر من ڤينا إلى استانبول ، والذي هو جد قطار الشرق السريع..

وهذا ليس سيئاً بالنسبة لسلطان ورث خزينة خاوية ، ومع ذلك تآمر السفراء الأميركيون سرّاً ، كما سنرى ، لخلع السلطان عبد الحميد ، خاصةً بعد رفضه عرض ثيودور هرزل.

أميركا في مصر

لم تظهر الولايات المتحدة والإرساليات الكثير من الاهتمام بمصر طيلة النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حيث أصاب البرود العلاقات الأميركية المصرية عندما تعاونت مصر مع الفرنسيين وأرسلت قوّاتاً إلى المكسيك خلال الحرب الأهلية الأميركية ، في خرق لمبدأ مونرو.

وعندما شك الخديوي اسماعيل في دوافع البريطانيين والفرنسيين ، وهما القطران اللذان – تقليدياً – ساعدا مصر عسكريّا ، اتصل في 1868 بالولايات المتحدة طالباً عوناً عسكرياً على شكل مستشارين عسكريين ، ومثل هؤلاء الخبراء العسكريين كانوا متوفرين بأعداد كبيرة بعد انتهاء الحرب الأهلية ، ووصل العديد من الضباط الأميركيين السابقين لإعادة تنظيم الجيش المصري ، قرابة الوقت الذي افتتحت فيه قناة السويس ، وكان اسماعيل في تلك الأثناء قد تكبّد حوالي مائة مليون دولار من الديون ، وهو رقم ضخم في تلك الأيام ، وأنشأ الأميركيون الأركان العامة لأول مرة في تاريخ الجيش المصري ، كما أحضروا مطبعة وأنشأوا مكتبة وبنوا في العباسية مدرسةً للغة العربية للضباط وعائلاتهم . وبحلول عام 1873 أصبح لدى مصر جيش على الطراز الغربي بما في ذلك كلية بحرية ومراكز قيادة وسيطرة ، وهو نظام لإصدار وإيصال الأوامر ، ولكن مع ديون متصاعده ... افتقر كل ذلك إلى قاعدةٍ اقتصادية تواكبه ، مما اضطر اسماعيل إلى بيع حصة مصر من الأسهم في قناة السويس . وفي حزيران 1878 أوصى الأوروبيون القائمون على أمر الاقتصاد المصري باحداث تخفيضات جسيمه تضمنت صرف المستشارين العسكريين الأميركان وإغلاق المدارس التي تم بناؤها تحت حجة التخفيضات في الميزانية .

وخلال ثلاث سنوات أشهرت القوى الأوروبية إعسار مصر ، وعزلوا الخديوي اسماعيل ونصّبوا الخديوي توفيق بدلا منه ، وأدت الإجراءات الاقتصادية الجائرة ، والنفوذ والتدخل البريطاني المباشر في الشؤن المصرية ، إلى ثورة بقيادة صاحب أعلى رتبه عسكرية مصرية الكولونيل أحمد عرابي . وفي 1882 أصبحت مصر تحت الاحتلال البريطاني ، وفي هذه الآناء .. في العام 1881 ، عبرت القوات الفرنسية من الجزائر إلى تونس واحتلّتها .

وبناءً على طلبٍ من وزارة الخارجية الأميركية انضمت سفن حربية أميركية إلى القوة البريطانية البحرية الغازية لمصر ، وكانوا متواجدين في المياه المصرية قبالة شواطئ الاسكندرية خلال الهجوم البريطاني ، وحيث أن أوامرالقائد البريطاني كانت هي القصف وليس الاحتلال ، لذا كان المارينز الأميركيون هم من وصل الشاطئ أولاً في الهجوم البريطاني على مصر ، مدعين ، كما دائماً ، أنهم إنما يهدفون لحماية المدنيين ، ولربما كان هذا أول تدخل عسكري بريطاني/أميركي مشترك في العالم الإسلامي .

السياسات الإسلامية والعربية كانت تعمل جيّداً ... ولكن !

لا يوجد في الإسلام طبقة رجال دين أو كهّان ، كما لا يوجد فيه كنيسة ، والدولة والكنيسة في الإسلام كيان واحد ، ولكن الغرب افترض أن الخلافة هي صنو البابوية .

" وهذه النظرة إلى الخلافة إنما استخلصت جزئياً من تشبيه زائفٍ لها على أنها نظير البابوية، وكان هذا التشبيه خاطئاً برمته ، حيث انه تجاهل أن الإسلام - الدين والدولة معا – نسيج واحد وثيق ، وأن مصطلح ' خليفه ' مضاه في التطبيق لمصطلح ' الحاكم ' . وكانت خطة عبد الحميد هي استعادة الخلافة لمكانتها ووضعها الصحيحين " [41].

---

[41] George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*, London, H. Hamilton, 1939, 69

وإليكم كيف أوضح ذلك المؤرخ فرومكين :

"ومنذ تلك اللحظة بقي العلماء منشغلين في التوضيح لطلبة الدراسات الشرق أوسطيه من الغربيين ، أن الفصل بين السطتين الروحية والدنيوية (الزمنيه) ، والذي شوّة علاقة البابا بالامبراطور وجعله ضدّه ، مثل هذا الفصل لم يحدث في عالم الإسلام ، وكان كل من كيتّشينر ، ووينجيت ، وكلايتون وستورز على خطأ ، لاعتقادهم أن الخليفة ليس سوى قائد روحي فقط ، ففي الإسلام ، الحياة كلها بما فيها الحكومة والسياسة ، إنما تقع ضمن حاكمية القانون المقدّس ؛ ولذا فإن المسلمين السنّة من أمثال السلطان العثماني وأميرمكة ، يعتبرون أن نطاق سلطة الخليفة بصفته راعي القانون المقدّس (الشريعة) هو نطاق شامل ، وكان الأمر الذي لم يره البريطانيون هو أن الخليفة كان أميراً أيضاً : حاكم وقائد في المعركة ، تماماً كما هو إمام الصلاة وقائدها " [42].

ومع كل مشاكلها ، نظر المسلمون إلى الدولة العثمانية المسلمة كمعادلٍ موازنٍ للإمبرياليه الغربية وكمحيي للإسلام ، ولقد مارس عبد الحميد الشعائر الدينية ومنع بحزم جميع الممارسات غير الإسلامية - مثل السُّكر - في قصره ، كما أحاط نفسه بالعلماء المسلمين وأصغى لنصحهم ومشورتهم ، وأنشأ كليّة لتدريب مبشّرين مسلمين وأوفدهم إلى الأصقاع النائية ، وقدّم تبرعات سخيّة للمدارس الدينية داخل وخارج الدولة العثمانية ، ولقد أثرت سياسته كثيراً في المسلمين من غير الأتراك ، وخاصّةً العرب الذين تضامنوا مع هذه السياسات الجديدة ، كما أنفق بسخاءٍ على معاهد العلم العربية ، وشكّل كتيبة من العرب حرّاساً شخصيين له ، كما عيّن عرباً لإشغال مناصب حكوميّة مهمّة ، فعيّن عرباً في القصر ، حتى أن البعض زعم أن النفوذ العربي فاق نفوذ الموظفين الأتراك ، وكان من بين هؤلاء العرب عزّت باشا العبد والذي خدم 13 سنة حتى سقوط عبد الحميد في 1908 ، وكان ينظر إليه على أنه أعظم الرسميين نفوذاً في الامبراطورية ، وقد أشرف على

---

[42] David, Fromkin, *A Peace To End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and The Creation of The Modern Middle East*, New York, Henry Holt & Company, 2009, 104

إنشاء سكة حديد الحجاز والتي بدأ العمل فيها في ربيع 1901 ووصلت المدينة في 1908 ، وبعد تنحية عبد الحميد ، فإن الخط إلى مكة لم يكتمل أبداً ، كما ألحق الخراب بالخط من قبل لورنس وعصاباته ، وبعد قرنٍ من الاجتماعات بين سوريا والأردن والعربيّة السّعودية فإن الخط لم يعد للعمل .

وقبل سنةٍ من خلع عبد الحميد ، كتب السفير البريطاني إلى استانبول أن سياسة عبد الحميد الاسلامية ***" والتي أوجبت على السلطان أن يقف أمام 300.000.000 من أتباع محمد بصفته الخليفة القائد الروحي لديانته ، وبعد أن بث مواطنيه مشاعره الدينية موقظاً لديهم حماساً وطاقةً مشابهين ، بإنشائه سكة حديد الحجاز ، والتي ستوفر - في المستقبل القريب – لكل مسلم فرصة الحج إلى الأماكن المقدّسة في مكة والمدينة ... وكانت النتيجة أنه حصل وبدرجةٍ غير مسبوقة على الطاعة العمياء من رعاياه وأصلح الأمور معهم إلى حالةٍ من الحكم المطلق ، ربما إلى درجة لم يسبق لها مثيل في مجرى التاريخ كله "*** [43] .

وكانت هذه الرؤيا ، هي رؤيا عبد الحميد منذ أول سنة حكمٍ له ، وقد فعّل هذه الاستراتيجية بكدّه، عبر توسيع اتصالاته مع مختلف المجتمعات الإسلامية داخل وخارج الدولة ، وظهرت سياسته الإسلامية عبر تعيينه رئيساً للوزارء ، ليس من الترك ، وإنما من الشراكسه هو الجنرال خير الدين ، وبيّن السلطان قناعته الكافية وراء هذا التعيين ، كما جاء في الفرمان ، بانه استخدم صلاحيته كخليفه في الاستفاده من خدمات أعظم الكفاءات المسلمة أينما كانت عبر بلاد الإسلام ، ووضع نصب عينيه أن يشغل المناصب الرفيعة بمسلمين من جميع الاعراق ودون إعطاء تفضيل للأتراك ، وقد كشف عن اهتمامٍ مدققٍ في المجتمعات المسلمة في أراضيه التي كانت سابقاً مسيحية ، وفي بلدان أبعد من

---

[43] George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*, London, H. Hamilton, 1939, 74

ذلك ، وعزم على أن يصبح رجل آسيا القوي بدلاً من رجل أوروبا المريض " ، ولكنّه بفعله هذا أغضب أوروبا وعالم الغرب المتحضّر بأكثر مما فعل بالسابق ".

وبذا ، استخلص الغرب بمن فيه الولايات المتحدة والصهيونية بأن خططهم في شرق أوسط علماني ودولة يهودية في فلسطين غير قابلة للتحقّق طالما بقي عبد الحميد في السلطه ، ومثل هذه الأحلام يمكن الحصول عليها فقط عن طريق "تغيير النظام" وازاحة عبد الحميد . وكان أول اجتماع تم عقده للإطاحة بعبد الحميد قد تمّ بعد فترة قصيرة من رفضه عرض هرتزل بمقايضة ديونه مقابل صك بالتخلي عن فلسطين .

واستمر أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في إخفاء أجندتهم المعادية للإسلام ، الا أن أفعالا كافية صدرت عنهم كشفتهم على حقيقتهم ، مما أدّى إلى شجبهم بعنف من قبل " العلماء والذين اتهموهم بمحاولة تغيير الإسلام إلى شكلٍ آخر ، وخلق ديانة جديدة مع الاستمرار بتسميتها الإسلام " . وفي الحال اندلعت ثورة مضادة " لجمعية الاتحاد والترقي " في 1909 ، وانضمّ إلى الجنود والضبّاط جماهير مسلمة من جمعية محمّد ، واستخدم ضباط " جميعة الاتحاد والترقي " المدفعية لساعات ضد المدنيين السيئي التسليح من أنصار الثورة المضادة ، ومع أنه لم يتوفر من دليل على صلة السلطان عبد الحميد بما حدث ، إلا أنها استغلت لخلعه واستبداله بأخيه كرأس للدولة الى أن قامت جمعية الاتحاد والترقي بحل الدولة العثمانية المسلمة ، واستبدلتها بجمهورية علمانية. وطبقاً لدائرة معارف ويكيبيديا على الانترنت :

" فلقد تمّ الحفاظ على حياة السلطان ، ونقل ليلاً إلى محطة القطار.. ومن هناك إلى سالونيكا ، حيث ... فرضت عليه الإقامة الجبريه في ڤيلا اللاتيني ، وهو منزل يملكه أحد اليهود" [44].

---

[44] *The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire*, Baron Patrick Balfour Kinross , Cape, 1977, 578

دور الولايات المتحدة في خلع السلطان عبد الحميد

في كتابه " سلام ينهى كلّ سلام" كتب البروفسور دافيد فرومكين أستاذ التاريخ في جامعة بوسطن عن جذور جمعية الاتحاد والترقي - والتي عرف أعضاؤها مع آخرين من أعضاء منظمات سريّةٍ شقيقة - عرفوا بمجموعهم باسم تركيا الفتاة ". كتب فرومكين :

" كان ينظر إليهم (جمعية الاتحاد والترقي) بعطف من قبل وزارة الخارجية في لندن ، إلا أنهم كانوا مكروهين مزدرين في السفارة البريطانية في القسطنطينية ، إذ – على ما يبدو – أن السفير – السير جيرارد لوثر- قد وقع تماماً تحت تأثير فيتزموريس مترجمه الأول ومستشاره للشؤن الشرقية ... وكان تفسير فيتزموريس للأحداث التي وقعت في 1908 متأثرا بحقيقة أنها وقعت في سالونيكا ، والتي كان كان نصف سكانها البالغ تعدادهم 130.000 نسمة إما يهوداً أو " دونمه " (أعضاء طائفه يهودية تحولت إلى الإسلام في القرن السابع عشر) ، وكانت سالونيكا مدينة تحوي الكثير من المحافل الماسونية ، وكان عما نويل كاراسو - وهو محامٍ يهودي - أسس محفلاً ماسونيّاً إيطالياً ، والذي كان على ما يبدو- قد سمح لجمعية طلعت السرّية ، بالاجتماع لديه خفيةً عن عيون الشرطة السرّية للسطان ، ولهذا استنتج فيتزموريس بأن جمعية الإتحاد والترقي ليست سوى مؤامرة يهودية ماسونية عالمية متأثرة باللاتين ، وكان أن نقل لوثر هذه المعلومات إلى وزارة الخارجية في لندن حسب الأصول ، وكان لوثر يسمي " جمعية الاتحاد والترقي " بـ "جمعية الاتحاد والترقي اليهودية " . وفيما بعد ، أجرى فيتزموريس تحقيقه الخاص حول جمعية الاتحاد والترقي ، والتي ضمن نتائجها تقريرا سريا أرسله لاوثر باسمه ، بتاريخ 29 أيار 1910 إلى الرئيس الرسمي لوزارة الخارجية السير تشارلز هاردينـج ؛ وفي تقريره أشار لاوثر إلى كلمات (الحرية ، الإخاء ، المساواة) وهي كلمات مستوحاه من الثورة الفرنسية ، والتي كانت أيضاً شعار الماسونيين الأحرار - ومن هنا محفل كاراساو ، وحركة تركيا الفتاة - التي ادعى أنها تقلدّ الثورة الفرنسية وأساليبها غير الربّانية والهدّامة .

وفي تقريره المفصّل المكوّن من أكثر من 5000 كلمة ، ادعى لاوثر بأن اليهود استولوا على شبكة ماسونية ... و سيطروا عبرها على الامبراطورية العثمانية ، ومن بين قادة حلقات المؤامرة اليهودية الماسونية - طبقاً للاوثر - كان السفير الأميركي إلى تركيا ، اوسكار شتراوس (والذي كان يهوديّاً) ، والذي كان أخوته يمتلكون محلات ماسيز وأبراهام أند شتراوس " [45]

ومن الجدير بالملاحظة أن الولايات المتحدّه عيّنت يهوداً لمناصب القناصل والسفراء لدى الدولة العثمانية ، طيلة الجزء الأعظم من القرن التاسع عشر وحتى الأيام الأخيره للدولة العثمانية. وكذلك كان السفراء الذين تلوْا شتراوس في استانبول في القرن العشرين يهوداً أيضاً ، بمن فيهم مورچاتناو ، وأبرام إيلكس . وما دعاه السفير البريطاني لدى استانبول " بالمؤامرة اليهودية الماسونية " ، والتي ادعى فيها بأن اليهود سيطروا على الدولة العثمانية عبر شبكة من المحافل الماسونية والجمعيات السّرية ، والتي نتج عنها خلق " الاتحادّ والترقي " وتركيا الفتاه ؛ نتج عنها أيضاً " العروبة الفتاه " ، والتي كان الكثير من قادتها اما ماسونيين أو مسيطر عليهم من قبل الماسونيين ، وكانت أول جمعية سرية تأسست في العالم العربي تعود إلى سنة 1875 ، حيث نشكلت من خمسة شباب عرب ، جميعهم من خريجي الكلية الأميركية البروتستانتيه والتي سميت فيما بعد بالجامعة الأميركية في بيروت ، وكانوا جميعهم مسيحيين .

لقد أشعل البناؤون الأحرار (الماسونيون) والزّنابير (البيض الأنـچلوساكسونز البروتستانت) وكلاهما على اتصال وثيق بأجندات الصهيونية ، أشعلوا وقادوا الثورات الفرنسيّة والأميركية ، وكانت تلك القوى ذاتها هي التي أشعلت وقادت تفكيك دولة الخلافة الإسلاميّة العثمانية . وبدءاً من الاستقلال وحتى حلول القرن العشرين استخدمت الولايات

---

[45] David, Fromkin, *A Peace To End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and The Creation of The Modern Middle East*, New York, Henry Holt & Company, 2009, 41

المتحدة القوة الناعمة ، فيما عدا بعض الحروب العرضيّة في شمال افريقيا ، واستعراض القوّة البحرية والسياسية لحماية البرنامج التبشيري .

ولقد رأينا كيف أن الامبراطورية العثمانية ، وهي دولة اسلامية مهيمنه ، لديها رؤيتها الاجتماعية الاقتصادية الخاصة بها . ويختلف النموذج الاسلامي عن الرأسمالية في أنه يعوق التراكم المفرط للثروة ، كما يختلف عن الاشتراكيه في أنه يعترف بحقوق الفرد في الملكية والتملّك ، بما يتيح تأمين التآلف والانسجام الاجتماعي عبر حسّ من المسؤلية المشتركة ، ولهذا السبب وحسبما يراه المسلم ، فإن التناقض هو بين الاسلام والرأسمالية ، وليس بين الإسلام والمسيحية . ويقرّ المسلمون بأنّ الممارسة الحكومية تحت السيطرة العثمانية لم تكن مثاليه ، فالحكّام على وجه التخصّيص لم يتمكنّوا من تطوير نظم إدارية قادرة على تطبيق رؤيتهم الإسلامية ، ولكنه كان من الأفضل بدرجة كبيرة لو أن إصلاح الروح الإسلامية قد تم من الداخل ، بدلاً من تدميرها واستبدالها بشيء أجنبي تماماً – وهو ما حدث مع نهاية الحرب الأولى.

تقطيع أوصال العالم العربي

عندما قام مهندسو اتفاقية سايكس – بيكو السرية بين بريطانيا وفرنسا بتقطيع الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وتخطيط دول الشرق الأوسط الجديده ، بدأ واحد من أكثر الفصول عاراً في تاريخ المنطقة ، فهاتان القوتان الغربيتان ، و بموافقة أميركية ضمنيه ، خلقوا دولاً عالةً وصغيرة ، ودون أي اعتبار للموازنة بين أعداد سكانها والموارد المتاحة لكلٍّ ، وبنية السيطرة من الخارج على المورد الاقتصادي الرئيسي للمنطقة . وأدى تقسيم العالم العربي إلى دويلات واشباه دول إلى أن تقام الدول ذات الموارد النفطية ، في مناطق ذات ندرة سكانيه لضمان بقائها عالة على القوى الاستعمارية ومعتمدة عليها ؛ بينما خصصت المناطق ذات الموارد الضئيلة للدول ذات الكثافة السكانية العالية ، مما أدى في المآل إلى تدمير مستقبل ذلك الجيل ، وألقى ظلاً طويلاً بارداً على مستقبل الأجيال القادمه.

وكان أن أصبحت المقاطعات العثمانية الثلاث : الموصل وبغداد والبصره بلداً واحداً هو عراق اليوم ، أما الكويت والتي كانت في السابق منطقة تابعة لمقاطعة البصره ، فأصبحت محمية بريطانية ذات كينونة منفصلة ، وترك العراق دون مياه عميقه على ساحله الخليجي ، مع ساحل صغير كأسلوب للتحكم في شحناته النفطية المستقبلية ، بينما دعيت مناطق بين

العراق والسعودية والكويت من قبل البريطانيين بمناطق محايده ، وقسمّت طرق التجارة إلى الخليج وخارجه على نحوٍ لا يمكن فيه لأي بلدٍ الحصول على طريق جيد ، سوى – بالطبع – قوى الاحتلال البريطاني والفرنسي ، وهي وصفة لنزاعات مستقبلية بين الجيران .

أما قطر فقد تم تخطيطها على نحوٍ لا يترك لها من معبر أرضي سوى عن طريق العربية السعودية، ولكن ليس الساحل المتصالح ، وأعطي الرأس الأرضي لمضيق هرمز إلى عمان بدون رابط مع أرض عمان الرئيسية ، بينما أعطيت العربية السعودية شريطاً صغيراً على ساحل الخليج، يكاد يسمح (أو يعرقل عند الحاجة) شحنات النفط المستقبلية ، كما فصل الجزء الجنوبي لشبه الجزيرة العربية عن البحر بواسطة عدن المحمية البريطانية ، بينما قسم الطرف الشرقي لخليج عدن ، والذي يتحكم بالبحر الأحمر ، بين عدن واليمن ، أما جانبه الغربي فقسم بين ثلاث جهات ، وأما خليج العقبة فقسم بين أربعة بلدان : الأردن بمنفذه البحري الوحيد والذي لا يزيد طوله عن بضعة أميال ، والعربية السعودية ومصر وفلسطين (الآن ايلات التابعة لاسرائيل) .

ولم يكن هذا كل ماهناك .. فقد قسم ساحل المتوسط الشرقي إلى دول جديدة لأقليات يمكنها البقاء عبر تحالفها مع القوى الغربية واعتمادها عليها . فأعطيت سوريا منفذاً إلى البحر عبر اللاذقية وهي منطقة مأهولة بالعلويين وهي أقلية طائفيه ، واقترح الفرنسيون إقامة دولة علوية قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكنه كان من الواضح ان مثل هذه الدولة لن تكون قابلة للحياه .

ومباشرةً إلى الجنوب من ساحل اللاذقية السوري ، صُممّ لبنان ليكون دولة مسيحية مارونيّة ، وإلى الجنوب من لبنان فلسطين التي تمّ وعد اليهود بها كوطنٍ قومي لهم ، وهكذا تمّ عزل ساحل المتوسط الشرقي عن قلب البلاد .. سوريا الكبرى والعراق ، وأدت هذه الترتيبات الجديدة المصطنعة إلى منع أي اتصال على اليابسة بين الشرق الأوسط الآسيوي الإسلامي وبين شمال أفريقيا العربي المسلم.

أميركا تموّل المشروع اليهودي في فلسطين

حمل جيش اللنبي معه جيشا يهوديا بقيادة جابوتنسكي ، وحكومة ظل دعيت بالوكالة اليهودية بقيادة حاييم وايزمان ، أما مجندو جابوتنسكي فكانوا من الولايات المتحدة ، وكذا كان مصدر معظم التمويل للوكالة اليهودية .

" إن تكوين الوكالة قبل وقت طويل من قرار الحكومة البريطانية البقاء في فلسطين ، وقبل وقت طويل من تسلمها قرار الانتداب من عصبة الأمم بحكمها للبلاد ، وعلى الرغم من اعتراضات رجال الجيش في الميدان ، يعكس مرّة ثانيةً القوة المفترضة للصهيونية في لندن." [46]

طلب وإيزمان من الصهاينة الأميركيين جمع تبرعات بمليون دولار لتمويل الوكالة ، وخلال ثلاث سنوات ونصف من استقرارها في القدس أنفقت الوكالة 4 ملايين دولار ، وانتقلت من المنح المباشره للفقراء من اليهود ، إلى المشاريع المولّدة للوظائف ، وأراد وايزمان استخدام التبرعات بشكل خاص لجذب المتدينين المتشددين من اليهود إلى مشروعه الصهيوني الذي لم يحظ بدعمهم، وتغيير تعليمهم من لغة اليديش إلى اللغة العبرية ، إذ أراد خلق لغة قومية بدونها لا يمكن للدولة أن تقام . وكان إنشاء جامعة في القدس لإحياء اللغة العبرية والقومية اليهودية قد تقررفي المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 ، واشترت الوكالة قطعة أرض على جبل المكبّر ، وحدّد وايزمان 24 حزيران عام 1918 تاريخا لوضع حجر الأساس للجامعة في احتفال ، واعترض أللنبي في البداية قائلاً إن الحرب لم تنته بعد وسياسياً فلا يبدو التوقيت مواتياً ، إلا أن وايزمان أبطل اعتراضه بتجاوزه والالتجاء إلى رئيسه بلفور في لندن ، ووضع إثني عشر حجر أساس يمثلون قبائل (أسباط) اسرائيل الاثني عشرة ، كما وضع حجرا ثالث عشر يمثل الحركة الصهيونية أرساه وايزمان . واجتمع حوالي ستة آلاف ضيف في الموقع ، وأحضر اللنبي وايزمان معه في سيارته الرولز رويس ، وأبرق بلفور مزجياً تهانيه.

وفي مؤتمر السلام ، اقْتُرح تشكيل لجنة للتشاور حول من يريد الفلسطينيون كسلطة انتداب لحكم بلدهم . وكان المسلمون الفلسطينيون يشكلون قرابة 90% من سكان فلسطين في ذلك الوقت ، وتم تشكيل لجنة عرفت باسم لجنة كنـچ - كرين ، برئاسة هنري تشرشل. (كنـچ

---

[46] Tom Segev, Haim Watzman, *One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate*, New York, Henry Holt, 2001, 65

رئيس كلية اوبرلين في أوهايو والذي كان ناشطاً كنائسياً وتبشيرياً وقائداً في جمعية الشباب المسيحيين واي. إم. سي. إيه. ، وتشارلزكرين ، وهو صناعي ورجل أعمال من شيكاغو وصديق للرئيس ويلسون) ، واستخلصت اللجنة أن الغالبية العظمى من سكان فلسطين يريدون حكم الأميركان ، وكان أن أوصت بذلك . ولم ير ويلسون التقرير أبداً ، بل غشيه المرض وبطريقة ما تفاداه التقرير ووجد طريقه للحفظ ، ولم يدر الناس به إلا بعد أن أظهرت صحيفة أميركية محتويات التقرير على أنّه سبق صحفي .

وكان النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة آخذ في أن يصبح قوّة ذات شأن ، فشنّ حملة دعائيةً فعّالة ، تصمُ أولئك الذين يعادون المشروع الصهيوني باللاساميه ، في وقت كان الأميركيون فيه متعاطفين مع المأساه اليهودية في أوروبا خلال الحرب . وفي ثلاثينيات القرن العشرين وأوائل أربعينياته ، لم يصرّح روزفلت عن أي التزام مباشر تجاه دولة يهودية في فلسطين بغضّ النظر عن النفوذ اليهودي في الولايات المتحده ، وفي عام 1943 أكد روزفلت للملك عبد العزيز آل سعود أن العرب واليهود سيستشارون قبل أن تقرر القوى العظمى مصير فلسطين ، وحتى عندما كان الكونـچرس على وشك إصدار قرار مشترك عام 1944 بدعوة بريطانيا لالغاء الكتاب "الأبيض" ، ومساندة اقامة دولة يهودية ، تدخل البيت الأبيض استنادا التوصيات من عدة دوائر تابعة للادارة وأقنع الكونجرس بسحب قراره ، وخلال النصف الثاني من العام 1944 ، ضمّن كل من الحزبين الأميركيين برامجه موادّا تمالئ الصهيونية ، حتى أن المرشح الجمهوري " الحاكم ديوي " صرّح بأنه يدعم إقامة دولة يهودية في فلسطين . وحتى روزفلت كان مع الصهيونية مع أنه امتنع عن إعلان صهيونيته على العموم .

ومع ذلك ، في يالتا ، في شباط 1945 ، وصف روزفلت نفسه في حديث له مع جوزيف ستالين بأنه صهيوني ، فانضم الدكتاتور السوڤياتي إليه بالقول ***" وأنا أيضاً " ، ولكنه بعد هنيهة أضاف بأن اليهود (وسطاء واستغلاليين وطفيليين).***[47] وبعد موت روزفلت

[47] Benny Morris, *1948: A History of the First Arab-Israeli War*, New Haven, Yale University Press, 2008, 24

المفاجئ قدم هاري ترومان إلى البيت الأبيض ، وبشكل واضح ومحدّدد رفض ترومان تأييد برنامج حزبه المؤيد للصهيونية، ويروى أنه أبلغ مجلس وزرائه في تموز 1944 " أن لا نفع فيهم (اليهود) له ، وأنه لا يأبه بما يحدث لهم " ، غير أنه في آب 1945 ، في بوتسدام أيد إعادة توطين اليهود المهجرّين في فلسطين.

في 13 تشرين الثاني 1945 تم تعيين لجنة إنكليزية/أميركية ، فطلب البريطانيون استبعاد مطلب اعادة توطين 100.000 شخص مشرّد من الشروط المرجعيّة للجنة ، فرفض الأميركيون ذلك ، فصرّح بيڤن علناً بأنه يأمل في أن تقترح اللجنة إعفاء بريطانيا من الانتداب وأن تعهد به إلى وصاية دوليّه ، حيث يتم بعدها إقامة دولة أغلبية عربية مستقلّة ، إلا أن اللجنة الانكليزية/الأميركية أوصت أن يسمح بدخول 100.000 مهاجر الى فلسطين . وكنتيجة لذلك اقتحّم مركز المعلومات الأميركي في بيروت وأضرمت فيه النيران ، ودعت الصحافة في بغداد إلى الجهاد لإنقاذ الأرض المقدسة ، أما الوكالة اليهودية فلم تقبل خطة اللجنة الأنكليزية/الأميركية إلا في جزئيتها التي سمحت بالهجرة اليهودية .

وفي محاولة أخيرة للعثور على تسويةٍ وسط ، وبعد التداول في تقرير اللجنة الانكليزية/الأميركية توصل الأميركيون والبريطانيون إلى خطة " سلطة موقته " .. أو كما أسموها خطة موريسون/جرادي ، وتركت الخطة الدفاع والخارجية والاقتصاد بأيدي البريطانيين بينما عُرض على اليهود والعرب حكم ذاتي محلي ، ووافقت الخطة على النقل الفوري ل 100000مهاجر الى فلسطين ، كما وعدت باستقلال آتٍ لفلسطين ، ورسميّاً رفض ترومان الخطّة بعد أن قام الصهاينة برفضها.

في السابع والعشرين من كانون الثاني 1947 دعت بريطانيا إلى مؤتمر في لندن ، فوصل المندوب العربي إلا أن المندوب الصهيوني لم يصل ، وبالمثل رفضت الولايات المتحدة إيفاد ممثل لها ، وبذا وصلت السياسة البريطانية إلى نهاية طريق مغلق ، فكان أن قرّر

مجلس الوزراء البريطاني في 14 شباط 1947 إحالة المشكلة برمتها إلى الأمم المتحدة . ولهذا السبب قررت الحكومة البريطانية في شباط 1947 تسليم الانتداب إلى الأمم المتحدة التي شكلت لجنة لدراسة المشكل ، فقررت اللجنة أن توصي إلى الجمعية العامة بتقسيم فلسطين .

وأدى هذا القرار إلى حملة عالمية شملت الضغوط والتهديدات والوعود والرشاوى ، كما هيّأت الوكالة اليهودية مليون دولار لحملتها الخاصة بها من الرشاوى والتي تم تخصيصها حسب المصطلح الرسمي ***" لأنشطة سياسية غير اعتيادية"*** [48] وفاز القرار بأغلبية 33 مقابل 13 مع امتناع 10 عن التصويت من ضمنهم بريطانيا ، ومع أن مساحة الدولة اليهودية كانت تساوي مثلي ما كان البريطانيون قد اقترحوه قبل الحرب الثانية فإن عدد السكان العرب ضمن الدولة اليهودية جاوزنصف مليون نسمة وهو أكبر من عدد السكان اليهود ! وكان اليهود قد أكملوا بناء وتدريب جيشهم ، بينما كان الفلسطينيون سيئي التجهيز وسيئي التدريب ، حيث قتل منهم ستة آلاف ثائر وناشط سياسي خلال ثورتهم ، وكانت قيادتهم متصدّعة ، وتنظيميّاً مفككه ، فالكثيرون منهم إما في السجن أو منفيون ، بينما لم يتوفر لدى المجتمع الفلسطيني سوى موارد مالية ضئيلة مع تدريب عسكري وذخائر محدوده .

وعلى النقيض ، كان لدى المجتمع الصهيوني في فلسطين إمكانية الوصول إلى الجيوب العميقة لليهود حول العالم وفي مقدّمتهم يهود الولايات المتحده ، ومنذ 1945 قام بن غوريون بتجنيد 18 مليونيراً يهودياً للمساعدة في تزويد الهاچاناه بحاجاتها من النقود والمعدّات ، ولكن وقد أصبحت الوكالة اليهودية متأكدّة من أن التقسيم آتٍ فقد قامت باتخاذ خطوات جادّة لتحقيق إعادة الهيكلة والتنظيم للمجموعات اليهودية المسلحة في نهاية عام 1947 ، وكان لدى الهاچاناه في ذلك الوقت حوالي 35 ألف عضوٍ مدرّب موزعين على

---

[48] Tom Segev, Haim Watzman, *One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate,* New York, Henry Holt, 2001,496

المستوطنات ، وكان البالماخ والبالغ تعدادهم 2000 ، هم الجنود الوحيدون المكرّسون بدوامٍ كامل.

وعندما أرسل بن غوريون چولدا مايرسون لجمع التبرعات للهاچاناه ، كان يهدف لجمع 20 مليون دولار ، وبين كانون الثاني وآذار 1948 جمعت 50 مليون دولار . وفي رحلةٍ ثانية في أيار وحزيران جمعت 50 مليونا أخرى ، والتي سددّت صفقة الأسلحة التشيكية ، التي لعبت دوراً حاسماً في ترجيح كفة الحرب لصالح الهاچاناه عام 1948.

ومنذ أن خُلقت ، كان حبل حياة إسرائيل يسري من الولايات المتحده . " وفي 2005 كانت مساعدات الولايات المتحدة المباشره لإسرائيل – اقتصادية و عسكرية – قد بلغت 154 بليون دولار (بدولارات 2005) ، معظمها على شكل منح وليس قروضاً ، أما المجموع الحقيقي فأعلى من ذلك بشكل هام ، وذلك بسبب من أن المساعدات الاميركية المباشره كانت تمنح على نحو تفضيلي و تحت شروط ميسّره بشكل غير اعتيادي ، كما زودت الولايات المتحدة إسرائيل بأشكال أخرى من المساعدات الماديّة لا تندرج في موازنة المساعدات الخارجية [49].

ومن المثير للسخرية ، أن هذا يبلغ حوالي 100.000 دولار أميركي لكل أسرة اسرائيلية مكونة من أربعة أفراد ، في وقت يصنف فيه 45 مليون أميركي على أنهم فقراء ، من قبل مكتب إحصاءات الولايات المتحدة الرسمي في واشنطن ، وهذا عكس المثل الأميركي الدارج "بأن الصدقات تبدأ بأهل البيت" أو " بأن الأقربين أولى بالمعروف " .

الفصل الثالث

---

[49] John J. Mearsheimer, Stephen M. Walt, *The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy*, New York, Farrar, Straus and Giroux, 2007, 24

آذنت نهاية الامبراطورية العثمانية بنهاية امبراطورية أخرى أكبر ، هي الامبراطورية البريطانية ، ولم تكن أميركا سعيدةً أبداً بما أجمعت عليه شركاتها واعتبرته ممارسات تقييديّة من قبل شركة البترول التركية ، وكانوا دائماً يطالبون بقضمةٍ من الكعكة ، ولقد زوّدتهم نهاية الحرب الأولى بتلك الفرصة.

في نيسان 1920 التقى مندوبون عن بريطانيا وفرنسا في سان ريمو على الريـڤيرا الإيطالية ، وهناك قرروا بأن لفرنسا أن تحوز حصة دويتش بانك في شركة البترول التركية ، كتعويض عن أضرار الحرب ، وأيضاً كثمن للتخلّي عن الموصل (بموجب اتفاقية سايكس بيكو الأصلية ، حيث كان من المفترض أن تكون الموصل جزءاً من دائرة النفوذ الفرنسي) .

وبمجرد أن وصلت أخبار هذا الاجتماع لرئاسات شركات النفط الأميركية حتى بدأت الضغط على وزارة الخارجية الأميركية كي ترفض نتائج اجتماع سان ريمو ، ومبدئياً مورس الضغط على الحكومة البريطانية للسماح بحقوق استكشاف لشركة ستاندارد أويل أوف نيوجرسي في المناطق العثمانية السابقة ، واستمرت أميركا بالإلحاح حتى 1927 عندما أذعن البريطانيون والفرنسيون .

وكانت النتيجة أن طويت صفحة شركة البترول التركية وتشكلت شركة جديدة هي شركة نفط العراق (آي. بي. سي.) لتخلفها ، ووزعت الحصص بالتساوي 23.75% لكلّ : أي للشركة الإنجليزية الفارسية ، شل ، الفرنسيون و الأميركان ، أما الـ5% الباقية فقد ذهبت إلى كالاوستي چالبنكيان ، وهو وسيط أرمني ساعد على ترتيب الصفقة ، وافتتحت شركة الآي. بي. سي. أول بئر نفطي في تشرين الأول 1927 قرب مدينة كركوك ، بمعدل تدفق غير مسبوق بلغ 95.000 برميل في اليوم ، وهكذا.. وأخيراً وضعت الولايات المتحدة قدمها في الباب الذي انفرج عن أفق نفط الشرق الأوسط المغري .

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد ، إذ حدثت المواجهة الثانية بين المصالح الأميركية والبريطانية في البحرين ، إذ كان أعضاء كونسورتيوم آي. بي. سي. قد اتفقوا على السيطرة على الشرق الأوسط ، فيما غدا يعرف باتفاقية الخط الأحمر ، والتي غطت تقريباً كل الشرق الأوسط عدا الكويت ، غير أن هذه الاتفاقية لم تتضمن شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورينا ، وهي شركة نفط أميركية رئيسية أخرى لم تكن جزءا من آي. بي. سي ، ويمكنها – نظرياً – أن تقوم باستكشافاتها النفطية الخاصة بها . وفي عام 1929 أرسلت

الشركة فرد أليكساندر ديفيس إلى البحرين لتقييم احتمالات التنقيب هناك وفي الحسا ، في شبه جزيرة العرب .

وعقدت الشركة صفقةً - بدت واعدة - مع ابن سعود من فوق رؤوس البريطانيين ، ومن المثير للسخرية أن الشركة قد تمت مساعدتها من قبل دبلوماسي بريطاني سابق هو هاري سانت جون فيلبي ، والذي أصبح مستشاراً مقرّباً وموثوقاً للحاكم السعودي (فيلبي - وهو شخصية متعدّدة السمات - هو والد العميل البريطاني المزدوج كيم فيلبي) .

وفي أيار عام 1932 عثرت شركة كاليفورينا على النفط في البحرين على عمق 2000 قدم ، وهو ما دعّم الاعتقاد بأن تشكيل قبّة الدمّام الرسوبيّة ، البادئة في قفقاسيا جنوبي روسيّا ، تمتد كل المسافة إلى شبه جزيرة العرب . وكان كارل إس. توتشل ، وهو جيولوجي عمل عدداً من السنوات لدى ابن سعود ، قد سبق وذكر عدة كشوفات مشجعة كنتيجة لمسوحاته للتشكيلات الجيولوجية . وكان أن اتخذته ستاندارد أويل مستشاراً لها.

وبدت الصفقة - لابن سعود - جذّابة للغاية : إذ كان بلده الناشىء في ذلك الوقت يعتبر من أفقر بلاد العالم ، وبدون أي بنيةٍ تحتيةٍ تذكر . وكان فيلبي هو من قام بالمفاوضات ودبّر تحسين العرض الأميركي عن طريق لفت انتباه الشركة الانجليزية الفارسية إلى الصفقة الوشيكة بين العربية السعودية وستاندارد أويل . وتضمنت الشروط النهائية التي توسط فيها فيلبي ، دفعة مقدمّة لابن سعود مقدارها 5000 جنيه استرليني ذهباً مقابل استئجار الأرض اللازمة لأعمال الإستكشاف وإنتاج النفط ؛ 30% من كل أرباح أي اكتشافات ، فضلاً عن 100.000 جنيه استرليني تدفع ذهباً ومقدّماً عن تلك الأرباح . وسرعان ما استعمله الاميركيون مستشارا لهم بأعطياتٍ مجزية.

وتشكلت شركة جديدة هي شركة ستاندارد أويل الكاليفورنية العربية (والتي أصبحت فيما بعد شركة الزيت العربية الأميركية – أرامكو) ، وعيّن ديفيس رئيساً لها . ولم يخب الظن في قبّة الدمّام . إذ تمّ ضخ النفط إلى الناقلة الأميركية سكوفيلد في أيار 1938 كأول شحنة نفط من العربية السعودية إلى أميركا .

الأعنّة في أيدٍ أخرى

وأتى التحدّي التالي للتفوق البريطاني في الكويت ، من قبل شركة جلف أويل الأميركية ، حيث كانت الحكومة البريطانية - كما فعلت مع بقية مشيخات الخليج تحت " الحماية "

البريطانية - قد ضمّنت اتفاقيّاتها معها " فقرة الجنسية " ، والتي بموجبها استبعدت من الامتيازات النفطيّة أي شركة ليست بريطانية الجنسية أو لم توافق عليها الحكومة البريطانية . وكان مثل هذا الالتزام قد تمّ الحصول عليه من حاكم الكويت عام 1913 . وعلى كل حال ، فإن شركة چلف أويل كانت قد حصلت على امتياز للتنقيب في الكويت . وتحت ضغطٍ من الخارجية الأميركية ، نحّتْ الحكومة البريطانية فقرة الجنسية ووضعتها جانباً ، مما أشعل حرب مزاودات بين شركتي الأنكلو فارسيّة وچلف أويل على نفط الكويت ، وعينت الحكومة الأميركية أندرو ميلون والذي تملك أسرته أغلبية أسهم چلف أويل سفيراً لها لدى لندن لإيقاف عملية المزاودات ، وتوصلت إلى تفاهم مع الأنكلو فارسيّة. وهكذا تقدّمت الشركتان معاً لحاكم الكويت باسم شركة نفط الكويت ، ووقعتا اتفاقيةً مع المحميّة في كانون أول 1934 ، وبعد عدة سنوات من ذلك التاريخ عثرت الشركة الجديدة على النفط في حقل برقان – أكبر الحقول النفطية في العالم آنذاك .

وكانت هذه أوقاتاً حاسمة بالنسبة للطموحات الأميركية . وفي بريطانيا يؤكد السياسي الجيوبوليتيكي البريطاني بيتر جيه. تيلور بأن "النظام الجيوبوليتيكي الذي سبق الحرب الباردة ، قد اصطلح على تسميته بالنظام العالمي لخلافة بريطانيا " ، وكان كل من المانيا النازيه والولايات المتحده يخوض غمار صراع من أجل الهيمنة العالمية لوراثة النظام الجيوبوليتيكي " السلم البريطاني " ، وهكذا يفسّر تيلور الحربين العالميتين على أنهما "مبارزتان بين ألمانيا والولايات المتحدة على وراثة بريطانيا ". ومع نهاية الحرب العالمية الثانية تنحّت الامبراطورية البريطانية لصالح الأميركية . وتفصل وقائع الاجتماعات السرّية والتي عقدت بين وزارة الخارجية الأميركية والمجلس الأميركي للعلاقات الخارجية ، بدءاً من العام 1939 ، تفصّل بوضوح دور الولايات المتحدة كوارثٍ لبريطانيا : ***" إن الامبراطورية البريطانية على الحال الذي كانت عليه في الماضي لن تعاود الظهور أبداً .. وربما توجّب على الولايات المتحدة أن تأخذ مكانها .. " وتتابع إلى أن تفصح عن أن الولايات المتحدة " يجب أن تتبنى صورة عقلية تجاه***

استقرار العالم بعد هذه الحرب بما يمكننا من فرض شروطنا الخاصة وبما يمكن له أن يقابل : " السلم لأميركي " [50].

وعرّف إيساياه بومان - كبير جيوبوليتيكيي فرانكلين ديلانو روزفلت - أهداف سياسة الولايات المتحدة الخارجية بأنها متابعة سياسة خارجية عالمية لتحقيق " المجال الحيوي " الأميركي ، وذلك كاستجابة مماثلة لجهود ألمانيا النازية في متابعتها " لمجالها الحيوي " . حتى أن بومان ، وبالتعاون مع هاميلتون فيش آرمسترونـج ، اعتمد مقالةً كتبها مؤسس الجيوبوليتكس الامبرياليه البريطانية – (السيرهالفورد ماكايندر) - حول خطر اتحاد سوڤياتي قوي ، وقد نشرت في "الفورين أفيّرز" ، وهي مجلة مجلس العلاقات الخارجية ، تحت عنوان " العالم الدائري وربح السلام " . ويناقش ماكايندر بشكل أساسي تحويل الامبراطورية البريطانية للتبعية الأميركية ، واقامة هيمنة أميركية في أوروبا.

وفي نيسان 1944 أوضحت مذكرة لوزارة الخارجية الأميركية الفلسفة وراء مفهوم الغرب في "الوصول إلى الموارد " ، والتي تتضمن " الحفاظ على الوضع الراهن بصورة مطلقة ، وبناءً عليه الحماية اليقظة للامتيازات الحالية بيد الولايات المتحدة ، مع الاصرار على مبدأ سياسة "الباب المفتوح " والذي يمنح الشركات الأميركية فرصاً مساوية في المناطق الجديدة " . وبكلمات أخرى حق مساو يمكنّ الشركات الأميركية - وليس الآخرين - من الوصول إلى الموارد العالمية ، بالإضافة إلى تحكم الولايات المتحدة بالإنتاج الصناعي في نصف الكرة الغربي ، بينما يتم تنويع ممتلكات الولايات المتحدة في أماكن أخرى . وربما كان لزاما أن يأتي النفط على رأس قائمة الموارد الاستراتيجية ، ويأتي معه التصميم الأميركي المخيف للسيطرة على احتياطيات الشرق الأوسط.

---

[50] Noam Chomsky, *The Essential Chomsky*, Palgrave Macmillan, 2008, 170

عـامل النـموّ

كان النجاح الأميركي صاعقاً في تحديه البريطانيين في مناطق نفوذهم الخاصة ، حيث كان الحكّام المحليون نقاوة أيدي البريطانيين ، كما كان لديهم – أي البريطانيين - شبكاتهم السياسية والاستخبارية ، مع قواتٍ عسكرية على البّر وبحرية في الخليج . ولم يؤمن الأميركيون لأنفسهم حصة في نفط العراق حسب ، بل أصبح لديهم الآن نصف نفط الكويت ، وكل نفط البحرين وكل نفط ابن سعود ، وبقى النفط الإيراني وحده مملوكاً لبريطانيا بمفردها...ولكن ليس لوقت طويل .

ولقد قبل الأميركيون ، ولمعظم فترة النصف الأول من القرن العشرين ، قبلوا حقيقة ان إيران تقع ضمن نطاق النفوذ البريطاني ، حيث كان البريطانيون هم من يحب الإيرانيون أن يكرهوه ، إذ نظروا إليهم على أنهم المستعمرين الذين يستغلون ثروتهم النفطية ، وكان الإيرانيون المتعلمون العاملون في صناعة النفط يتقاضون رواتب أقل من رواتب أندادهم من البريطانيين. وسجلت الانكليزية/الفارسية(والتي اصبحت الانكليزية/الايرانية ثم بريتش بتروليوم) ، 250مليون جنيه استرليني أرباحا بين عامي 1945 و 1950 ، في حين استلمت الحكومة الايرانية 90 مليون جنيه استرليني فقط ، وهو مبلغ أقل مما كانت تدفعه الانكليزية/الايرانية وقتها للحكومة البريطانية.

إلا أن السيطرة البريطانية على إيران لم يكن مقيضاً لها الدوام ، إذ بعد الحرب العالمية الثانية ، وعندما بدأت حرب ثالثة – الحرب البارده – ، بدت احدى السمات التي تختص بها الامبراطوريات تتضح بشكل متزايد في الولايات المتحدة ، وطبقاً للمؤرخ الاميركي هوارد زن ، فإن واحداً من الاسباب الرئيسية لخوض أميركا الحروب ، بما فيها الحرب البارده ، هو التوسع ، وما أن ارتدت الولايات المتحدة مسوح القوة الامبريالية الجديدة حتى دفعت بايران إلى رأس أجندة سياستها الخارجية .

وتم اختيار جورج ماكـچي ، ذي الـ37 عاماً ومساعد وزير الخارجية الأميركية على أنه رجل هذه المهمّة ، فاقترح على البريطانيين زيادة حصة إيران من الضرائب على نفطها ، وحاول البريطانيون تجاهل ماكـچي ، إلا أن اتفاقية عام 1933 بين إيران والإنكليزية/الإيرانية قد تم – في نهاية المطاف – تعديلها عبر اتفاقية فرعية تم التوصل إليها صيف 1949 ، والتي منحت فيها إيران ضرائب أكبر . ومع أن الحصة الجديدة كانت - على كل حال - مقبولة لمحمد رضا شاه بهلوى ، شاه إيران ، وللإنكليزية/الإيرانية

، إلا أنها لم ترض البرلمان الإيراني – المجلس – الذي دعا إلى إلغاء الاتفاقية وأوصى بتأميم شركة النفط الانكليزية/الإيرانية ، فكان أن استقال رئيس الوزراء الإيراني ، الذي سرعان ما استبدله الشاه برئيس أركان الجيش .

وفيما لام رئيس الانكليزية/الإيرانية ، السير ويليام فريزر ، الأميركان على مشاكل شركته ، أمسك محمد مصدّق ، رئيس اللجنة البرلمانية الإيرانية لشؤن النفط ، بمزاج مواطنيه مردّداً تأميم الانكليزية/الإيرانية ، أما رئيس الوزراء الجديد فهاجم التأميم في خطاب أمام البرلمان في شهر آذار 1951 ، وما لبث أن اغتيل بعد ذلك بفترة وجيزة[51].

وفي 28 نيسان 1951 ، اختار "المجلس" مصدق رئيساً للوزراء مع تخويله صلاحية البدء بمسار تأميم الشركة الانكليزية/الإيرانية في الحال ، ووقع الشاه القانون وأصبح نافذاً من 1 أيار 1951 ، وبذا اختفت الانكليزية/الإيرانية وحل محلّها شركة النفط الوطنية الإيرانية . ومبدئياً رأى الاميركيون في مصدّق زعيماً وطنيّاً ، ولكن أكثر من ذلك رأوا في تأميم النفط الإيراني فرصة لفك قبضة البريطانيين عن آخر معقل نفطي بريطاني في الشرق الأوسط ، وكانت فرصة عمل ناضجةٍ تنتظر من ينتهزها.

وفي هذه الآناء ، لم تكن بريطانيا لتستكين للتأميم الايراني ، حتى أن مجلس وزرائها بحث إمكانية التدخل المسلح ، اذ أن قناعتها كانت بأن اي أجراء عسكري يتخذ سوف لن يكون بأسوأ من عدم اتخاذ إجراء بالمّرة . أما الخارجية الأميركية فأتت نصيحتها ضد التدخل العسكري بوصفه ضاراً وغير مفيد . ولكن وبدلاً من معارضة بريطانيا علناً ، دعمّت واشنطن قرار بريطانيا الإطاحة بمصدّق في انقلاب عرف باسم " العملية آجاكس " ، والتي نسقتها وكالة الاستخبارات الأميركية وإم 16 البريطانية ، وعاد شاه إيران الذي فر أولاً إلى بغداد ثم الى روما ، عاد إلى طهران .

---

[51] Abdulhay Y. Zalloum, *Oil Crusades: America through Arab Eyes*, Pluto Press, 2007, 37

وكان أن أثمرت مقامرة واشنطن : فبدعمها بريطانيا كسبت لنفسها محلاّ في رأس الطاولة عندما يحين الوقت للنظر فيما يتوجب عمله حيال قرار تأميم النفط الايراني ، وكانت النتيجة هي تكوين كونسورتيوم أنجلو/أميركي من شركات النفط ليخلف الأنكليزية/الإيرانية . ووقعت اتفاقية الكونسورتيوم من قبل الشاه في تشرين أول 1954 ، حيث أصبحت الشركات الأميركية تملك الآن 40% أخرى ، بينما منحت شل 14% وسي. إف. بي. الفرنسية 6% ، وكان القصد واضحاً وهو أن جميع شركات النفط العاملة في الخليج سوف تسيطر مجتمعة على إنتاج النفط من الخليج ، وكان لهذا التجمع أن يضع الشركات النفطية الاميركية في وضع حرجٍ وشاذ ، حيث انها وبسبب تشكيلها لكارتل داخلي كانت تواجه تحقيقات بشأن مخالفتها قانون الاحتكار ، ولذلك طلب مجلس الأمن القومي إلى وزارة العدل إسقاط القضية ، فيما أعطت الإدارة إشارة صفو الجو لشركات النفط الأميركية للتقدم في إيران بفعالية وعلى شكل كارتل دون خشية ، مع ضمان بأن لا يلاحقوا بموجب مخالفات لقانون منع الاحتكار.

وفي أثناء الأزمة قوطع النفط الإيراني المؤمم حديثاً من قبل المستوردين ، وازدادت صادرات النفط من بلدانٍ خليجية أخرى من أجل إبقاء حجم النفط الذي يخرج من المنطقة ثابتاً ، وقيّض لهذا التواطؤ بين شركات النفط الرئيسية ، بشأن اتخاذ القرار حول عرض النفط على المستوى العالمي ، أن يستمر ، وغالباً دون معرفة البلدان المنتجة نفسها . وعندما أصدر عبد الكريم قاسم - والذي كان وقتها رئيساً - قانونه بتأميم جميع مناطق الامتياز التي لم يجر فيها الاستكشاف بعد ، قاطع حاملو أسهم شركة بترول العراق النفط العراقي ، مما أدى إلى خسارة العراق لعوائده النفطية ، بينما عوّض المساهمون الإنتاج من امتيازات أخرى في الخليج ودون حدوث نقصٍ في كمية الانتاج من الخليج بشكل عام ، واستعمل هذا التكتيك ثانيةً عندما قوطع الخام العراقي والكويتي بعد غزو العراق للكويت في حرب الخليج الأولى.

انتصارات سوداء:

وبحلول خمسينيات القرن العشرين كانت معظم حقول النفط الرئيسية في الشرق الأوسط قيد الانتاج عدا أبو ظبي (أكبرها) ، ودبي وقطر وعمان . ولكن هذه الأقطار كانت تنتظر في كواليس المسرح النفطي ، كي تسجل أرقاماً مدهشة في احتياطيات النفط وإنتاجه.

وكان كونسورتيوم آي. بي. سي. (شركة بترول العراق) قد حاز امتيازاً بترولياً في 1939 من الشيخ شخبوط حاكم أبو ظبي ، إلا أنه لم يتم العثور على النفط حتى العام 1958 عندما كانت أبو ظبي جزءاً من دول الساحل المتصالح تحت الحماية البريطانية ، كذلك حازت الآي. بي. سي. امتياز نفط دبي من 1937 وحتى 1961 ، بينما حازت سي. اف. بي. و هيسبان أويل ، امتيازاً في منطقةٍ غير مغطّاه من قبل آي. بي. سي . وفي عام 1963 تملكت شركة كونتنتال النفطية امتياز آي. بي. سي ، مشكلةً بذلك شركة نفط دبي ، وفي 1966 اكتشف النفط في دبي ، ولكن يتوقع لاحتياطياتها أن تنضب عام 2015 .

وتتشكل الإمارات العربية المتحدة هذه الأيام من سبع إمارات بينها أبو ظبي ودبي ، وتملك رابع أكبر احتياطيات نفطية في العالم ، وسترتفع طاقتها المؤكدة والبالغة 2.6 مليون برميل إلى 3 مليون برميل بحلول 2010 ، كما أن لديها 6.1 تريليون متر مكعب من الغاز ، جاعلةً منها خامس أكبر بلد في العالم في احتياطيات الغاز ، بعد روسيا وإيران وقطر والعربية السعودية .

وبعد معارك عديدة بين الشركات الأميركية وكونسورتيوم آي. بي. سي. أعطى شيخ قطر عام 1935 الامتياز إلى الشركة الانكليزية/الفارسية ، والتي بدورها ، أعطته لأحد فروع آي. بي. سي.، مع إعادة تسميتها بشركة قطر للبترول ، واكتشف حقل دخان النفطي في 1939 وبدأ الإنتاج في 1940 ، بينما حازت إحدى شركات شل الفرعية للنفط امتيازاً بحرياً في 1952 . وبعد المزيد من حقوق التنقيب البحرية والكشوف ، وبعد استقلال أبوظبي وقطر ، أسست كل من شركة أبو ظبي الوطنية للنفط (أدنوك) ، وشركة قطر الوطنية للبترول (QNPC) في عام 1971 ، وفي المحصّلة استخدم النموذج الإيراني من قبل جميع الدول المنتجة في الخليج.

وتنتج حقول نفط عمان أقل من تلك الحقول لدى جيرانها ، جاعلة من عملية الانتاج أكثر كلفة ، بينما احتياطياتها متواضعة بالمعايير الشرق أوسطية ، إذ لا تعدو مجرد 5 بلايين برميل . وباستثناء سوريا واليمن فإن بلدان الشرق الأوسط الآسيوية الأخرى لا تنتج أي نفط ... أو القليل منه فقط ، بينما يتوفر لدى سوريا طاقة تصدير ضئيلة . ومع ذلك ، وقعت سوريا في السنوات القليلة الماضية عدة امتيازات مع بلدان أخرى منها شركة CNPC الصينية.

وبعد الحرب العالمية الثانية ، تحققت كشوف نفطية رئيسية في أفريقيا وبحر الشمال وألاسكا ، وتصاعد حجم الداخلين الجدد عند ذاك إلى عالم الإنتاج النفطي بحيث أصبح وجود منظمة من شكل ما لتنظيم هذا الحال ضرورة مؤسسية ، وكان أن وجدت منظمة الأقطار المصدّرة للبترول (أوبك) وأثناء ذلك كله تمتعت الشركات النفطية الأميركية بالنصر تلو الآخر ، حيث - من لاشيء - برزوا بمجموعهم ، وخلال عقود أربعة فقط ، بصفتهم القوة النفطية القائدة في الشرق الأوسط ، وأخلت قوة بريطانيا التي - كانت تبدو - لا تقهر ، مكانها للقوة الأميركية الصاعدة والتي غدت قوة غاية في المنعة في العالم . وكما سنرى في الفصول اللاحقة فإن نفوذها هذا لم يكن ورما من النوع الحميد ، إذ كانت ، وتصرفت بلا حياء مثل كل الإمبراطوريات.

في مطاردة آفاقٍ جديدة

بعد الحرب العالمية الثانية ، بادرت الحكومات الفرنسية عموماً والجنرال ديغول على وجه الخصوص إلى سياسة البحث عن موارد نفطية جديدة ؛ على الأقل تكفي لسد حاجة الاستهلاك الفرنسي . وبما أن شركة البترول الفرنسية (CFP) كانت مشغولةً بأنشطتها الشرق أوسطيه ، فقد عهدت إلى شركتين حكوميتين جديدتين للقيام بالمهمة . وحققت شركة (BRP) كشفها النفطي الأول في الـجابون في غرب أفريقيا ، بينما اكتشفت شركة (RAP) النفط في الجزائر عام 1956 ، وتم تصدير أول شحنة نفط جزائرية إلى فرنسا عام 1958 .

وفي 1965 اندمجت الشركتان BRP وRAP لتشكلا معاً شركة ELF-ERAP والتي قدر لها ان تصبح أحد كبار اللاعبين ، و لتكتشف احتياطيات غاز رئيسية في فرنسا ذاتها . إلا أن أفريقيا أثبتت بأنها مصدر أغنى في خمسينيات القرن العشرين ، حيث تمّ العثور على احتياطيات ضخمة في الجزائر والـجابون ، ولكن أيضاً في نيجيريا ، حيث اكتشفت شركة شل/بي. پي. النفط في نيجيريا في دلتا نهر النيجر .

وبدت ليبيا ، جار الجزائر القريب واعدةً في أن تصبح منتجاً عملاقاً ، ولم تضع - المؤشرات المبكرة على ذلك - هدراً على الولايات المتحدة ، إذ خلال الحرب أشارت المسوح الجوية التي أجراها سلاح الجو الأميركي المنطلق من واحدة من أضخم القواعد الأميركية – قاعدة ويلاس الجوية قرب طرابلس – إلى أن المزيد من أعمال الاستكشاف

يمكن له أن يحقق فوائد و عوائد ، ووضعت تلك التقارير بتصرّف شركات النفط الأميركية ، بينما رحبت ليبيا و بأذرعٍ مفتوحة.

ولتشجيع شركات النفط في الخارج أصدرت البلد في عام 1955 قانون النفط الليبي ، وكان هذا أكثر جاذبية من امتيازات الخليج ، خاصة وأنه ربط حصة الحكومة بالسوق وليس بالسعر المعلن، لكن خلافاً لامتيازات الخليج تم تقسيم البلد إلى قطاعات ، سامحةً بذلك للعديد من الشركات بدخول العطاءات ، وبحلول العام 1957 كانت 17 شركة - والكثير منها مستقلة – قد نجحت في الحصول على 84 امتيازاً في ليبيا . إلا أن المزيد كان منتظراً ، ففي نيسان 1959 اكتشفت شركة ستاندارد أويل أوف نيوجيرزي النفط في زلتن الواقعة على مبعدة 90 ميلاً من شاطئ المتوسط ، وما أن حلّ العام 1961 حتى كانت عشرة حقول نفطيةٍ ضخمة قد اكتشفت ، وتم تصدير أول شحنةٍ من النفط الليبي .

وعلى الرغم مما أثاره فوران الخام على المساحة المترامية للأرض الليبية من شهية ، إلا أن خطراً مائلاً كان يتهدّد هذا الكنز ، إذ استقر نصف الإنتاج الليبي في أيدي شركات نفطية صغيرة ومستقلة تعوزها وسائط النقل والتكرير والتسويق . وعنى هذا بالطبع إمكان إحداثهم إغراقاً نفطياً في أي وقت قد يتسبب في انهيارٍ للأسعار على مستوى العالم . وإدراكاً منهم لهذا الخطر المحدق ، فإن شركات النفط الرئيسية أضحت مهتمة في استباق الأحداث ، خاصة وأن السوفييت كانوا قد دخلوا – للتو- السوق النفطية العالمية ، مما تسبب في زيادة عرض النفط وخفض أسعاره .

كان ما يلزمهم هو منظمة تحكم الإنتاج في الأقطار الغنية بالنفط ، وتمارس الحق السيادي للدول القومية ، والذي قد يمكن عبره السيطرة على الشركات الصغيرة المستقلّة ، وهم يعرفون هذا لأنه سبق لهم وأن خاضوا غماره ، ففي عقد الثلاثينيات من القرن العشرين ، خاض عمالقة النفط الأميركي الناشئين صراع قوةٍ مشابهاً ، ولذا ليس عليهم إعادة اختراع العجل عندما يتعلق الأمر بقرارهم في كيفية السيطرة على الوضعية الليبية.

أصداء أميركية

كولومبوس ماريون (داد) جوينر ، كان رجل نفطٍ تكساسيٍ أسطوري ، أقام - على الرغم من تحصيله العلمي المحدود والذي لم يتجاوز سبعاً من الاسابيع المدرسية الرسمية – مكتب محاماه، وانضم لمجلس الولاية التشريعي . وفي وقتٍ لاحق جمع – وفقد – ثروتين من العمل في نفط أوكلاهوما . وفي 1930 كان في السبعين من عمره ، إلا أنه كان ما

زال يتمتع بالإرادة وقوة التصميم ، وخلافاً لقناعة كل الجيولوجيين لدى شركات النفط الرئيسية ، قرر جوينر الحفر في شرق تكساس .

وفي 3 تشرين الأول 1930 تدفق بئره ديزي برادفورد رقم 3 مرسلاً عاموداً من النفط والماء أعلى من برج الحفر ، واستمرت شركات النفط على شكوكها لأشهر ، إلا أن الكثير من الشركات المستقلة ، والائتلافات الأصغر ، وبالضرورة المغامرين ومحبي المخاطرة ، اندفعوا إلى المكان. والحاصل - كما تبين - هو أنهم كانوا على صواب : ففي أقل من ستة أشهر وصل الإنتاج اليومي إلى 340.000 برميلاً . وسمّي حقل النفط هذا بالعملاق الأسود ، إذ بلغ طوله 45 ميلاً وعرضه عشرة أميال . وكان بذلك أكبر خزان نفطي تم العثور عليه على الاطلاق . ومع بداية حزيران 1931 كانت ألف بئر قد تم حفرها ووصل الإنتاج 500 ألف برميل في اليوم ، وانهار السوق بعنف بسبب فائض الإنتاج .. حيث بلغ سعر الخام في 1930 دولاراً واحداً للبرميل ، بينما هوت الأسعار إلى 15 سنتاً في أيار 1931 ، ووصلت اثنين من السنتات لفترة وجيزة . وفي هذه الظروف كان متوسط تكاليف الإنتاج في حدود 80 سنتاً . وحدث خلل كبير في التوازن بين العرض والطلب عندما أغرق نفط شرق تكساس - الذي يقع تحت سيطرة الشركات المتسقلّة - السوق ، واستعرت حرب أسعار ، و طال أمد النزاع بين شركات النفط الرئيسية والمستقلين ، وبدا أن لا نهاية للأزمة ، بينما استمر الإنتاج في التصاعد حتى وصل مليون برميل يوميّاً في آب 1913 ، وهو ما يعادل نصف الاستهلاك اليومي للبلاد .

وأدى الازدهار النفطي لتكساس إلى الإخلال والإضرار بما هو أكثر من السوق ، واتهمت شركات النفط الكبرى صغار المنقبين المغامرين بأنهم وبسببٍ من لهفتهم على الإثراء السريع من التخمة النفطية ، فإنهم يخلقون فوضى اجتماعية وحالة من عدم الانضباط القانوني (الخروج على القانون) ، وكان هناك القليل مما يمكن عمله لضبط الأمور ، وكانت هيئة سكك حديد تكساس هي الوكالة الوحيدة التي تملك شيئاً من الولاية على النفط في تكساس ، إلا أنه لم يكن لديها أي دور تنظيمي حقيقي لموازنة العرض مع الطلب . وأما في أوكلاهوما المجاورة - والواقعة الآن في قبضة ازدهارها الخاص – فقد كان لديها وقاية أكبر : إذ عُهد إلى " هيئة الشركات " لديها في عام 1915 بمسؤولية تنظيم إنتاج النفط لمقابلة الطلب .

وأدى جنون النفط في ثلاثينيات القرن العشرين لوضع هيئة أوكلاهوما موضع الاختبار ، ففي آب 1931 ، كان قاضٍ اتحادي اميركي يحاول اتخاذ قرار حول صلاحية الهيئة في

تقنين النفط ، على أساس أنه ليس من شأن الدولة (الولاية) التدخل في قوى العرض والطلب للسوق ، وكان أن اعلن حاكم أوكلاهوما - وليام موراي - الأحكام العرفية في مدينة أوكلاهوما وحقول سيمينول ، وأمر ميليشيا الولايات باحتلال وإغلاق حقول النفط إلى أن يرتفع سعر البرميل حتى دولار واحد ، وما عتم حاكم تكساس - روس ستيرلنج - أن أقدم على الفعل نفسه في ذات الشهر .

كان ستيرلنج هو مؤسس ورئيس شركة همبل للنفط . وكان مواطنو تكساس – على كل حال - ودون مدعاةٍ للاستغراب ، هم أبطال الشركات الصغيرة المستقلّة ، مما يجعل من القيام بأي عمل ضدهم غير شعبي سياسيّاً ، إلا أن ذلك لم يفت في عضد ستيرلنج وتابع نهجه معلناً شرق تكساس في حالة من التمرّد والثورة المفتوحة ، وأرسل عدة آلاف من قوى تكساس رينجررز والحرس الوطني إلى المنطقة ، حيث اوقفوا كل إنتاج خلال بضعة أيام . وباشرت هيئة سكة حديد تكساس بإصدار كوتا تقنين لكافة المنتجين ، مع أنها تفتقر للتفويض اللازم للقيام بذلك ، وفي نيسان من السنة التالية ارتفع سعر النفط حتى 98 سنتاً . عند تلك النقطة اعلنت المحاكم عدم قانونية جميع أوامر التقنين ، مما اضطر ستيرلنج لاستصدار قانون عبر جلسة خاصة لمجلس تشريعي تكساس وأصبح – أخيراً – بمقدور هيئة سكة حديد تكساس تحديد الكوتا.

إلا أن التدخل الحكومي وحده لم يكن كافياً ، ففي أيار عام 1933 انهار سعر الخام ثانية ، وهبط سعر شركة نفط تكساس المعلن من 75 سنتاً إلى مجرّد عشرة سنتات للبرميل ، وكان هناك عاملان يدفعان باتجاه فائض الانتاج ، أولهما أن هيئة سكة حديد تكساس قد حددت الكوتا القانونية بما يقرب من مثلي ما يجب أن تكون عليه ، والثاني هو النفط غير القانوني الذي كان يجري إنتاجه فوق الكوتا ، اذ كان هناك ما يقدرّ بـ 500 ألف برميل يجري تهريبها عبر حدود الولايات، وكان أن تم تفجير عدد من خطوط أنابيب النفط والمنشآت النفطية من قبل أشخاص مجهولين . ومع تجذرّ العفن حقيقةً وفعلاً ، وجدت تكساس أن لا بد من التوجه نحو واشنطن طلبا للعون .

أصبحت الوضعيّة الآن خارجة عن سيطرة سلطات الولاية ، وفي 5 أيار 1933 هوى سعر النفط إلى 4 سنتات للبرميل ، وبدأ هارولد إل. آيكس - وزير الداخلية - بتخصيص كوتا للولايات المنتجة، وأرسل محققين اتحاديين إلى شرق تكساس لضمان تطبيق صحيح لأوامر التقنين مع عقوبات قاسية تطال المخالفين.

انتهت السيطرة الاتحادية سنة 1935 عندما قلبت المحكمة العليا التشريع بحيث يسمح للحكومة بتخصيص كوتا وتنظيم صناعة النفط . ومن أجل تنظيم كوتا الإنتاج للولايات المنتجة ، شكلت "هيئة عبر الولايات لميثاق الغاز والنفط" في العام 1935 ، والتي اعتبرتها أوكلاهوما بمثابة كارتل بين الولايات المنتجة ، أما تكساس فنظرت لها كمعاهدة . وبغرض وقف جميع الطاقات الفائضة ، فرضت أيضاً تعرفة على الخام الأجنبي المستورد ، وكانت ڤنزويلا التي تصدر 55% من إنتاجها إلى الولايات المتحدة أكثر البلدان تضرّراً .

تواطؤ أم تنظيم ؟

ولقد قدمت فترة الاضطراب المجنون في تاريخ النفط الأميركي هذه درساً مفيداً للمصالح الأميركية بعد قرابة ربع قرن من الزمن ، فالافتقار لأنظمة تضبط الانتاج ، وتخصيص كوتا للمنتجين ، والأمساك بزمام المستقلين ، ترك عالمهم النفطي الأصغر في حالٍ من الفوضى ، مما ولدّ لديهم الخشية من حدوث نفس النتائج في المعترك الدولي ، وفضلاً عن السيناريو الليبي كانت الشركات المستقلة قد ثبتت نفسها في الشرق الأوسط : فشركة الزيت الأميركية المستقله ، وشركة چتى أويل ، قد دخلتا المنطقة المحايدة السعودية الكوتيية ، كما كان هناك امتياز نفطيٌّ جديد حصلت عليه شركة أجيب AGIP الفرنسية في إيران ، عدا عن أن الاتحاد السوفيتي كان يغرق السوق بالنفط الرخيص ، وكان لا بد من إحكام السيطرة على " الخوارج " .

ولكن كان هناك عامل آخر يكمن وراء استعجال شركات النفط الكبرى ، إذ أنهم يخضعون حاليّاً لتحقيق تجريه وزارة العدل الأميركية حول التواطؤ للسيطرة على الانتاج وعلى الأسواق العالمية ، وجعل هذا من الحاجة إلى ترتيبات مختلفة لتنسيق عرض وطلب النفط أمراً ملحاً .

في عام 1928 وقع عمالقة النفط اتفاقية الوضع الراهن "as-is" أو آكناكاري Achnacarry والتي اتفقوا بموجبها على إنهاء المنافسة فيما بينهم ، ووقف فائض الإنتاج وتقسيم أسواق العالم على أساس " الوضع الراهن ، كما اتفقوا على أشياء أخرى . واستعملت " هيئة التجارة الاتحادية" صلاحيتها في استخدام مذكرات الاستدعاء للحصول على وثائق الشركات ، وحسب الأصول توصلت إلى إنتاج أكثر التحليلات التاريخية تفصيلاً للعلاقات الدولية بين الشركات تم نشره على الاطلاق ، ويعتبر التقرير " كارتل

البترول الدولي " معلماً ودراسةً مميزة ما زال الطلبة يستخدمونها ، طبقاً لدانيال يرچن في " الجائزة : ملحمة البحث عن النفط ، النقود والسلطة" . وأرادت كلّ من وكالة المخابرات المركزية ووزارتي دفاع وخارجية الولايات المتحدة الأميركية تطويق التقرير على أساس مصلحة الأمن القومي ، مدّعين بأن المعلومات التي يتضمنها يمكن لها " ان تساعد والى حد كبير الدعاية السوفياتية " ، كما أن الناس في البلدان المنتجة سيكونون غير سعداء بمضمونها ، وخاصة حقيقة أن معدّلات الانتاج - والتي تشكل موردهم وعوائدهم الأساسية - انما تقررها الشركات الاجنبية دون علمهم ، وبذا تشكل انتهاكاً لسيادتهم . أما الرئيس ترومان فصنف الوثيقة على أنها سريّة للغاية ، بينما قررت ادارة العدل أن التقرير يشي بوجود كارتل نفطي يعود بتاريخه إلى عام 1928 ، مما يستدعي اتخاذ إجراء قانوني . وطبقاً لدراسة حالة رقم 903830096 ، الإصدار رقم 3/83 ، صفحة 9 ، في كلية أعمال هارڤارد :

تشير الحقائق بقوة (حسبما ترى إدارة العدل) إلى أن السياسة العليا الممثلة بقانون شيرمان (منع التجمعات المالية الضخمة) قد تمت مخالفتها بصورة متواصلة مع سبق الإصرار والترصد ، بأنشطة سبق وأن قررت المحكمة العليا عدم قانونيتها منذ وقت طويل ، ولذا يجب ملاحقة الكارتل جنائياً إذا كان يفترض وجود عدالة متساوية تحت القانون ، وكان الاحترام للقانون ولإدارته المنصفة وغير المتحيزة ، واجب الاعتبار والديمومه[52] .

وتم رفع دعاوى جنائية ومدنية ضد الشركات الأميركية المشتركة في اتفاق 1928 ، وعلى أية حال ، وتأسيساً على توصية رئاسة الأركان ومجلس الأمن القومي ، وقبل أيّام قليلة من انتهاء رئاسته في كانون ثاني 1953 ، طلب ترومان من إدارة العدل التخليّ عن

---

[52] Harvard Business School case study 9-383-096 Rev. 8/83, 9

تحقيقاتها الجنائية ، ومع ذلك فقد رغب في أن تستمر الدعوى المدنية ضد التجمع المالي . وبقيت القضية تحجل حتى 1968 عندما قامت الحكومة أخيراً بطي خيمتها عليها.

وعدا ما حصل في حالة ليبيا فإن البلدان المنتجة تجبي حصتها من الإنتاج طبقاً للسعر المعلن ، وكان ذلك 55 سنتاً للبرميل فيما لو كان السعر المعلن 1.10 دولار ، وإذا ما خفضت شركات النفط الأسعار ، جدلاً ، إلى دولار واحد ، فإن الأقطار المنتجة تستمر في الحصول على 55 سنتا بينما تهبط حصة شركات النفط الى 45 سنت . ولذا ودون تنظيم فإن انخفاض الأسعار يقع على كاهل شركات النفط ، لأن حصة حكومة القطر المنتج إنما تتقاضاها محسوبةً على اساس السعر المعلن ، وكان هذا هو الترتيب مع منتجي الخليج ، وكانت ليبيا هي الاستثناء ، ولذا يمكن المحاججه بأن خلق أوبك كان ذو أهمية فائقة لشركات النفط الغربية متعدّدة الجنسية .

الطريق إلى إوبك

بدت أوبك - ومنذ البداية - كما لو كانت نادياً لدول الخليج للنفط ، أقيمت استجابة للقلق المتزايد من أن شركات النفط الكبرى تقوم باستغلالهم . ولكن من الواجب التذكّر أن فنزويلاّ كانت إحدى الدول المؤسسة لأوبك ، وأن فنزويليا هو جوان بابلو بيريز الفونسو ، كان مع صحفي تشيكى هو واندا جابلونسكي ، من الشخصيات الرئيسية في الجهد المؤدي لخلقها ، وكلاهما كان له صلات قويّة مع الولايات المتحدة .

فيما يتعلق ببيريز ألفونسو فقد درس الطبّ في جامعة جون هوبكنز ودرس القانون في فنزويلا ، وما لبث أن دخل معترك السياسة وأصبح وزيراً للتنمية . وفي 1948 تلقى اتصالاً هاتفياً من السفير الأميركي في كاراكاس يحذّره من أن انقلاباً على وشك الحدوث ، ويعرض عليه حماية السفارة الأميركية ، وقد فاحت من هذه الدعوة رائحة " علاقة خاصة " ، ولكن بيريز ألفونسو فشل في الوصول إلى السفارة وتمّ سجنه أثناء الانقلاب ، وبعد اطلاق سراحه بوقت قصير انتقل الى واشنطن .

وما أن اصبح هناك حتى شغل نفسه في دراسة وثائق أزمة نفط شرق تكساس في مكتبة الكونجرس ، وكان طموحه هو خلق منظمة للدول المصدرة للنفط تقوم بضبط كوتا الإنتاج ، وعندما أطاح رمولو بيتا نكورت - الرئيس الفنزويلي السابق – بحكم 1958 لفترةٍ رئاسيّةٍ ثانيةٍ له كرأسٍ للدولة ، دعا بيريز الفونسو للعودة كوزير للمناجم والهايدروكاربونات ، فقبل بيريز الفونسو العرض ، واحتفظ في الوزارة بأميركي كي يقدّم

له النصح حول كيفية الإفادة من نموذج هيئة سكة حديد تكساس في إنشاء منظمة حماية مشابهة على المسرح الدولي.

وفي 1959 كانت العاصمة المصرية ، القاهرة ، هي المركز المعترف به في الشرق الأوسط لصنع القرار العربي ، وفيها انعقد مؤتمر النفط العربي في نيسان من ذلك العام ، وحضر بيريز الفونسو الاجتماع كمراقب ، وفي عشية ذلك الاجتماع خفضت بريتش بتروليوم أسعارها ، وفسّرت الحركة كاستفزاز من الدول غير الغربية المنتجة للنفط ، ووفرّت سبباً وجيها لتبيان لماذا تحتاج الدول المنتجة للنفط والمصدّرة له لإقامة منظمة مثل أوبك . واستشاط المندوبون غضباً وطالبوا بإجراء تتخذه الدول المنتجة للرد على وموازنة التخفيضات المماثلة في المستقبل . ويمكن للمرء المحاججة بأن بريتيش بتروليوم تنسّق اعتياديّاً في موضوع الأسعار مع الشركات الرئيسية ، وأنها بالتأكيد تعرف ماذا ستكون عليه نتائج قراراتها ، وربما لم يكن توقيت زيادة السعر مباشرة قبل انعقاد المؤتمر بريئاً ، وإنما كان مغرضاً ولهدفٍ ما ، وكان بيريز ألفونسو على أية حال يعرف بالضبط ما يريد والسبيل التي يتوجب عليه سلوكها لتحقيقه.

كذلك لا يمكن اتهام واندا جابلونسكي - والتي كانت أيضاً تحضر المؤتمر - بالجهاله ، وكانت واندا ، إبنة جيولوجي تشيكي عمل لشركة سوكوني فاكوم (موبيل فيما بعد) ، وهي إحدى شركات ستاندارد أويل ، وتعرف أعلى المسؤلين في مجال النفط بما في ذلك تجلياتهم الشرق أوسطيه ؛ وإضافة لذلك ، كانت تشغل منصب رئيسة تحرير بتروليوم ويك . وكان عبدالله الطريقي واحداً من أوائل السعوديين الذين درسوا في الولايات المتحدة ، وتخرّج في الجيولوجيا والكيمياء من جامعة تكساس ، وعمل بعدها جيولوجيّاً متدرّباً مع شركة تكساكو ، وفي 1955 عين مديراً عاماً لدائرة شؤون النفط والمناجم المشكلّة حديثاً ، وكانت قناعة الطريقي هي ان بلاده نستغفل ، وأنها مهُمّشه من قبل الكونسورتيوم الأميركي الذي تمثله شركة النفط العربية الأميركية (أرامكو)، وكان يرغب في عمل شيءٍ ما حيال ذلك ، ومن بين أفكاره سيطرة السعودية على أسعار ومستويات إنتاج نفطها .

ورتبت جابلونسكي لبيريز ألفونسو اجتماعاً غير رسمي مع الطريقي خلال مؤتمر القاهرة ، حيث اتفق الرجلان اثناءه على عقد لقاء سرّي لمصدرّي النفط الرئيسين في نادي اليخوت بالمعادى في القاهرة ، وتوصل المندوبون في اللقاء إلى اتفاق جنتلمان يوصي المندوبون بموجبه لحكوماتهم إنشاء هيئة استشاريه نفطية لحماية أسعار النفط ، وإنشاء شركات نفطية وطنية .

وخلال أشهر قليلة ، أجرى الرئيس الجديد لشركة ستاندارد أويل أوف نيوجرسي خفضاً في أسعار النفط المعلنة قدره 7% ، دون استشارة أي من الدول المنتجة ، وكردّ فعلٍ على ذلك عقد الطريقي وألفونسو اجتماعاً آخر ، وفي أيلول 1960 اجتمع في بغداد ممثلون لكل من العربية السعودية ، وفنزويلا ، والعراق ، وإيران ، والكويت ، وصاغوا اتفاقية لتشكيل كيان جديد يكون بمقدوره مجابهة شركات النفط والتصدّي لها ، بما يمكنهم من إدارة الإنتاج والأسعار . وكان هذا إيذاناً بميلاد أوبك.

وللمرء أن يتساءل ، عند هذه النقطة ، كيف تسنّى للكويت والتي كانت ما تزال تحت الحكم البريطاني المباشر (أعُلن استقلال الكويت في 1961) ، أن تشارك في توقيع الاتفاقية بينما كان رب انتاجها الوحيد هو شركة نفط الكويت المملوكة لشركتي چلف أويل وبريتيش بتروليوم ! ويمكن لمن يعرف نهج صنع القرار في كويت ما قبل الاستقلال أن يفترض باطمئنان ، حصول موافقةٍ ضمنية صامتة من كلٍّ من چلف وبريتيش بتروليوم .

وتدفق سيل غامر من النفط في السنوات التي تلت اجتماع بغداد ، كثرةٌ منه من ليبيا ؛ وفي 1965 أصبحت ليبيا سادس أكبر مصدر للنفط في العالم ، وبحلول 1969 كانت تصدر فوق 3 ملايين برميل يومياً – متفوّقة بذلك على إنتاج العربية السعودية في ذلك الوقت ، إلا أن إنتاج الشرق الأوسط ككلّ ارتفع الى 13 مليون برميل يوميّاً . ومع هذا الإغراق حدث هبوط لا يمكن تفاديه في الأسعار ، استمر طيلة العقد كله ، حتى بعد أن انضمت ليبيا إلى أوبك في 1962 ، وفي الفترة ما بين 1960 و 1969 هوت الأسعار بما يقارب 40% ، وبدون كوتا من أوبك للتخفيف من وطأة الحالة ، فإن أزمة نفط شرق تكساس ربما كانت قيد التكرار.

كان الاستهلاك يتصاعد أيضاً بمنحىً حاد ، وفيما عدا البلدان الشيوعية ازداد الطلب العالمي بما مقداره 21 مليون برميل يوميّاً في عقد الستينيات من القرن العشرين ، وبالنسبة للولايات المتحدة على الأقل كانت هذه السرعة مسبّبة للشلل ، إذ كانت طاقة البلد الاحتياطية لإنتاج النفط تتآكل بينما تصاعد الاعتماد على نفط الشرق الأوسط . وقد اعتبرت القدرة على مواجهة " التدفق" المفاجيء والمفرط هذه دائماً جزءاً حيوياً من الأمن القومي ، واثبتت دورها ولزومها خلال عددٍ من الأزمات بما فيها الحرب العالمية الثانية وحروب كوريا والسويس وحرب الأيام الستة ، ومع ذلك ادرك رجل واحد على الأقل وفي وقت غاية في البكور 1955 أن النفط مورد قابل للنضوب.

تنبؤ إم .كنـج هوبرت : إنتاج الولايات المتحدة يصل ذروته في العام 1970

تنبأ ام كنج هوبرت ، وهو جيولوجي أميركي كان يعمل في مركز ابحاث شركة شل في هيوستون بأن انتاج الولايات المتحدة النفطي سيبلغ ذروته في 1970 وسيبدأ الانخفاض بعد ذلك . وكان تنبؤه صحيحاً جدّاً : ففي 1971 بلغ الإنتاج حدّاً أعلى مقداره 11.3 مليون برميل يومياً ، وتابع بعد ذلك الانخفاض بثبات . وعندما أعلنت وزارة الخارجية الأميركية خلال اجتماع لـOECD في باريس في 1968 ، أن الولايات المتحدة سوف لن يكون لديها - وخلال وقت ليس بالبعيد - طاقة احتياطية نفطية ، أصيب الأوروبيون بالصدّمة ، إذ يكون الأوربيون – بذلك - قد فقدوا " سند " أمنهم النفطي الأميركي والذي اعتمد الأوروبيون عليه ، وخدمهم خلال حربين عالميتين . وحتى العام 1963 كان لدى الولايات المتحدة طاقة فائضة تقدر بحوالي 4 ملايين برميل يومياً ، وفي عام 1968 نقصت هذه الطاقة الفائضة بمقدار مليون برميل في اليوم .. ثم أصبحت صفراً في 1971 وأضحى من الملحّ بالنسبة للولايات المتحدة وأوروبا أن يكون لديهما مواردهما المستقلة عن نفط الشرق الأوسط وأوبك ، غير الثابتين سياسياً.

وفي حركةٍ استندت الى سياسة غير معلنة تهيأت الشقيقات السبع ، وزادت من جهودها وسرعتها في الاستكشاف والإنتاج . وكما شاهدنا كانت فرنسا والولايات المتحدة منشغلتان في أفريقيا في خمسينيات وستينيات القرن الماضي ، واندفع اللاعبون الكبار إلى المناطق غير التقليدية في مسعىً لتطوير موارد نفطية لا تعود لأوبك ، فشركة إكسون وحدها خصصت 700 مليون دولار للتنقيب ، حيث عثرت على النفط في جنوب شرق استراليا ، وعلى حقول جديدة في دلتا نهر ماكنزي في كندا ، فضلاً عن بحر الشمال وألاسكا . ولا يعود فضل اكتشاف نفط ألاسكا إلى إكسون والتي جلبتها شركة أتلانتيك إليه (عرفت لاحقاً باسم آركو) ، حيث أن آركو تفتقر إلى التمويل اللازم لتطويره وإلى النفوذ اللازم - في واشنطون - للتغلب على أية معارضة من جماعات حماية البيئة.

وحتى قبل تشكيل أوبك تضامنت شل وإكسون في خمسينيات القرن الماضي في الاستكشاف في الأراضي المنخفضة ، وفي 1959 عثرتا على الغاز في چرونـچن ، مما أعطى الاقتصاد الهولندي دفعة ضخمة ، إلاّ ان شركات النفط أرادت اتفاقاً بين هولندا والبلدان المحيطة ببحر الشمال كي تكون أية اتفاقيات امتياز يتم الحصول عليها في

المنطقة قد انعقدت على أسس واضحة . وقد تم إنجاز ذلك في عام 1964 بصدور قانون الجرف القاري والذي قرّر الحدود القانونية لبحر الشمال.

وبحلول 1965 عثرت بريتش بتروليوم على الغاز الطبيعي مقابل سواحل المملكة المتحدة ، وبينما كانت بريطانيا تعاني من خلل في ميزان مدفوعاتها في ذلك الوقت ، أرادت جذب شركات النفط وقدمت شروطاً مغرية لذلك ، وكان أول كشفٍ نفطي في بحر الشمال قد قامت به الشركة الأميركية المستقلة فيليبس بتروليوم ، في كانون الأول 1969 ، وفي 1970 اكتشفت بربتش بتروليوم حقل فورتيس شمال أبردين ، وفي 1971 اكتشفت إكسون وشل معاً حقل برنت العملاق قبالة شتلاندز ، وبرهنت التكنولوجيا على قدرتها على قهر الظروف القاسية لبحر الشمال ، إلا أن تكاليف الإنتاج كانت مرتفعة – وبفارق هام عن أسعار الخام.

وكانت ألاسكا مشروعاً من عيار مختلف كليّةً ، ففي 26 كانون الأول 1967 عثر ائتلاف آركو/همبل على النفط في البئر رقم 1 في خليج برودهو ، وأكبر بئر آخر تمّ حفره على مبعدة 6 أميال من البئر الأول أظهر أن الحقل هو أكبر الحقول التي اكتشفت على الاطلاق في أميركا الشمالية ، وثالث أكبر الحقول في العالم بعد حقلي غوار في العربية السعودية وبرقان في الكويت ، وكان بمقدور برودهو إنتاج ما يقارب مليوني برميل يوميّاً .

وبينما تقرر تحديد 1972 موعداً مبدئياً لتدشين المشروع ، إلا أن ذلك جاء مثقلاً بحزمة من المشاكل ، فقد فرضت البيئة والطقس في ألاسكا تحدّياتٍ تكنولوجية خطيرة ، إذ تهبط درجات الحرارة أحياناً إلى ما دون 60 فهرنهايت ، كما أن المواصلات كانت تحدّياً آخر ، فخط أنابيب كان قيد الاعتبار ، ولكن - وبمعزل عن الكلفة - كان الخط يتطلب الكثير من الإبداعات الهندسية ، كما كانت الاعتراضات من ناشطي البيئة تشكلّ عقبةً كأداء أخرى يتوجب التغلب عليها .

ولكن بريتيش بتروليوم عندئذٍ اكتشفت نفطاً في ألاسكا ، فحشدت آركو وبريتيش بتروليوم وستاندارد أويل أوف نيوجرسي وعدد آخر من الشركات الصغيرة في ذات الموقع من المنحدر الشمالي ، حشدت مجتمعة ، قواها لبناء خط أنابيب "عبر ألاسكا" ، واشتروا جميع المعدّات اللازمة للبدء في تمهيد الطرقات اللازمة لبناء خط الأنابيب ، وقاموا بشحنها إلى ألاسكا.

وكان هناك موضوع حسّاس لابد من حلّه قبل أن يصبح نفط ألاسكا مناسباً اقتصادياً...ذلك الموضوع هو سعر النفط ، وبينما حث جيولوجيو چلف أويل إدارتهم على الإقدام في ألاسكا ، مؤسسين توصياتهم على التقييمات الفنية فقط ، رفضت إدارتهم الاستجابة ؛ إذ كانت كلفة البرميل تتجاوز 5 دولارات بينما سعر بيعه - في ذلك الوقت - يكاد بالكاد يصل إلى نصف ذلك المبلغ .

وعند هذه النقطة انضم شخصٌ فرد إلى جوقة المسرح العالمي . كان هنري كيسنـچر قد أمضى أواخر الستينيات من القرن الماضي في إسداء النصح لحاكم نيويورك نيلسون روكفلر في محاولته الحصول على تسمية الجمهوريين له لمنصب الرئاسة (كان نلسون ، بالطبع ، سليل الأسرة التي أنشأت ستاندادر أويل وسيطرت عليها منذ نشأتها) ، وفي 1973 كان كيسنجر مستشار الأمن القومي في إدارة نيكسون ، ووزير الخارجية المنتظر ، ومثل الكثيرين من نخبة القوة في الغرب ، كان يحضر بانتظام اجتماعات مجموعة خاصة طاغية النفوذ عرفت باسم مجموعة بيلدربرغ.

الفصل الرابع

خطوة فخطوة : من السيطرة إلى الاحتلال

حصلت مجموعة بيلدربرغ على اسمها من اسم الفندق الذي انعقد فيه أول اجتماعاتها في أوستربك في هولندا في شهر أيار 1954 . وكان المدعوون جميعهم من أميركا الشمالية و أوروربيون غربيون ، ومعظمهم من كبار القادة الإداريين للشركات متعددة الجنسية ، وقادة قوميين وسياسيين . وعلى نحوٍ متباين ، اعتبرهذا التنظيم " حكومة العالم " السرية في جانبٍ منه ، ومنتدىً إعلامياً للأغنياء والمشاهير في جانبه الأخر ، ولكن ما هو مؤكدً نسبياً هو كونه أداة قوية - ضمن محاولات الغرب - للسيطرة على النظام العالمي . وتحاول الشخصيات الأميركية والأوروبية ذات الوزن الاقتصادي والسياسي الثقيل - ممن يؤمون المؤتمرات غير الرسمية للمجموعة - الوصول إلى صياغة قرارات السياسات ، وخلق الإجماعٍ المطلوب لتشكيل أجندات عامة لعمل تشريعات مستقبلية ، أو لتنفيذ هذه الأجندات . وإذا أخذنا بالاعتبار النفوذ الجماعي الذي يتمتع به المشاركون ، يتبين كم هي كثيرة السبل المتاحة لهم لهذا الغرض.

وفي كتابه " قرن من الحروب " يوثق إف. وليام إنجدهال اجتماع بيلدربرغ في أيار 1973 المنعقد في سالتس جو بادن قبالة ساحل السويد في ڤيلا أسرة والينبرغ العريضة الثراء (في 1997 كانوا يسيطرون على موجودات شركات مبيعاتها السنوية 100 بليون دولار) ، وكان كيسنـچر حاضراً مع كبارمدراء شركات النفط الكبرى والمؤسسات المالية متعددة الجنسيات والبنوك.

صفحة 107

ومن بين النجوم كان روبرت أندرسون رئيس شركة أتلانتك ريتشفيلد للنفط ، وزملاؤه الأقطاب سير إريك دريك من بريتش بتروليوم ، وباي. جي. كولادو نائب رئيس إكسون ، ورينيه جرينر دي ليلياك من سي. إف. بي ، والمصرفيون البارون إدموند دي روتشلد ، وماركوس وولنبيرغ ، وكريستر ويكمان ، ومن السياسيين أولاف بالمه رئيس وزراء السويد ، ودئيس هيلي من المملكة المتحدة ، وهيلموت شميت وزير مالية ألمانيا الغربية في ذلك الوقت . ومثل رجال النفط جميع الشركات التي حققت كشوفاً وطورت حقول النفط

في ألاسكا وفي بحر الشمال ، أما البيت الأبيض فمثّله هنري كيسنجر وجيمس إيكنز وهو خبير نفطي .

وكان كيسنجر قد أمضى ردحاً من الوقت في التحضير لهذا الاجتماع ، وفي كانون ثاني من تلك السنة عين نيكسون جورج شولتز وزير الخزانة الأميركية مساعداً للرئيس للشؤون الاقتصادية ، وكنتيجة لهذا التعيين أصبح جورج شولتز - والذي كان فيما سبق تاجر صكوك في وول ستريت - رئيساً للجنة سياسات النفط . وفي شباط شكلت اللجنة الخاصة لشؤون الطاقة التابعة للبيت الأبيض من كلّ من هنري كيسنجر وشولتز وجون إيهرليخمان ، وكان لهذه اللجنة شأن كبير في التحضير لاجتماع بيلدربيرغ .

كانت هذه هي السنة التي أدت التوترات فيها بين العالم العربي وإسرائيل إلى حرب أكتوبر (والتي عرفت أيضاً بالحرب العربية الاسرائيلية ، وحرب رمضان ، أو حرب يوم كيبور) . وفي 1972 أعلن الرئيس أنور السادات جهاراً بأن بلاده ملتزمة بمحاربة إسرائيل ، كما كرّر تهديده في نيسان 1973 . وكانت " الدبلوماسية المكوكيه " أو اتصالات الوساطة التي تلت الحرب ، قد تم وضع تفاصيلها الدقيقة من قبل هنري كيسنجر ، وكانت خارجية الولايات المتحدة تعتقد بأن على إسرائيل الانسحاب لحدودها عام 1967 ، إلا أن كيسنجر كان لديه خطة أخرى . وقد جاء في كتابه "سنوات الهياج " :

"كانت نقطة البداية لدي تقع عاطفياً لدى الجانب الآخر .. وعلى الرغم من عدم ممارستي شعائر عقيدتي الدينية ، فلم يكن بمقدوري نسيان أعضاء أسرتي الثلاثة عشر

صفحة 108

الذين ماتوا في معسكرات الاعتقال النازيّة ، ولم يكن في قدرتي احتمال هولوكوست آخر من قبل سياسات حسنة النية يمكن لزمامها الإفلات من السيطرة" [53] .

---

[53] Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval*, B D D Promotional Book Company, Incorporated, 1996

كانت أجندته تختلف عن أجندة الرئيس أيضاً !

شارك نيكسون الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى في كاليفورنيا - والتي كانت قد اجتثت بينما تحدّر هو منها - شاركها تحاملاتها وضغائنها ، فقد اعتقد أن اليهود يشكلون مجموعة قوية متجانسة داخل المجتمع الأميركي وأن سيطرتهم على وسائط الإعلام تجعل منهم خصوماً خطرين ، وفوق كل شيء فانه يتوجب إرغام إسرائيل على تسوية سلمية وأنه لايجوز السماح لها بتعريض علاقات أميركا العربية للخطر.

إلا أن كيسنجر ثابر على فعل الأشياء على طريقته هو ، فباشر مفاوضاتٍ مع السادات دون معرفة إدارتي الخارجية والدفاع .. ولا حتى البعثة الدبلوماسية الأميركية في القاهرة ، ولم تكن لدى كيسنجر الرغبة في الاعتماد على خبراء الشرق الأوسط لدى الخارجية ، والذين كان ينظر لهم بصفتهم " مستعربين " ، وصمم على تحاشيهم جميعاً .

إبقاء الأمور طيّ الكتمان

عندما طرد السادات عشرات الآلاف مع المستشارين السوفيات من مصر كجزء من خطة بلاده للابتعاد عن الاتحاد السوفياتي ، حث ميلفن ليرد وزير الدفاع نيكسون على بدء مفاوضاتٍ سرّية مع السادات ، غير مدركٍ أن القنوات كانت مفتوحة – أصلا - على وسعها منذ بعض الوقت . وفي هذه الأثناء ارتقى كيسنجر بمستوى صلته المصرية الخاصة ، ففي زيارة لحافظ اسماعيل – مبعوث السادات - الى الولايات المتحدة في شهر شباط 1973 ، قام بوضع برنامج يمكنه من الاجتماع خفيةً بكيسنجر بعد انتهاء واجباته الرسمية ، فتالياً لاجتماعاته بنيكسون وممثلي الخارجية - كان اسماعيل - كما كتب كيسنجر في كتابه " سنوات الهياج ":

109ص

" ... سوف ينسلّ بنفسه في 25 شباط إلى نيويورك ، ومن هناك يتوجه إلى موقع اجتماع سري في الضواحي .. بيت خاص استؤجر لهذا الغرض – حيث هو وأنا نتباحث ليومين في مراجعة كاملة وخاصة للعلاقات المصرية الأميركية" [54] .

وأضاف كيسنجر : ***" لا أنا ، ولا أي عضو من معاونيّ ، كان ضمن مناقشات إدارة الخارجية ، بينما إدارة الخارجية حتى لم تعرف بلقائي السرّي مع اسماعيل" .***

وقبل وصول اسماعيل إلى واشنطن كتب نيكسون إلى كيسنجر: ***" لقد حان الوقت للتخلّي عن الانصياع لموقف اسرائيل المتصلّب ، فقد قادتهم تصرّفاتنا في الماضي إلى الاعتقاد بأننا سنقف إلى جانبهم بغض النظر عن مدى لا معقوليتهم ."***

ومع ذلك فإن خطة كيسنجر كانت - والى حدٍّ كبير - متمشيّةً مع قرار اسرائيل ، والذي نصّ في حزيران 1967 ، على أنه يمكن بحث جبهتي مصر وسوريا والتفاوض حولهما ، اما الضفة الغربية وغزّة فلا ، والتي كان مجلس الوزراء الإسرائيلي قد أصرّ على ضمهّا الى اسرائيل ، وحيث أن الضفة الغربية كانت جزءاً من الأردن قبل حرب 1967 ، فقد عمد كيسنجر إلى استبعاد الأردن من مفاوضات الخطوة خطوة ، وخطط للسادات وللعرب الآخرين من " أصدقاء " الولايات المتحدة المعروفين ، باستبعاد الأردن كلية عن مسألة مفاوضات الضفة الغربية الفلسطينية .. وكما تم تنفيذه فعلاً في الرباط في مراكش في وقت لاحق.

وفي 6 آذار 1973 ، تم تزويد السعوديين بإيجاز عن اجتماع كيسنجر مع اسماعيل ، وذلك على أساس " العلم بالشيء في حدود ما يلزم فقط " ، حيث أن العربية السعودية - البلد النفطي الرائد - سوف يكون لها دور في حظر النفط وزيادة سعره مستقبلاً .

---

[54] Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval*, B D D Promotional Books Company, Incorporated, 1996

وفي ذلك الشهر زارت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل الولايات المتحدة ، وعارضت وبشكل مطلق موقف نيكسون ، ورفضت أية ضغوط لتعديل موقف اسرائيل المتشدّد ، كما أبلغت نيكسون بأنه ليس لدى العرب خيارعسكري ، وأن الأمور لم تكن بأفضل مما هي عليه الآن بالنسبة لإسرائيل.

ص 110

وفي 11 نيسان انعقد اجتماع آخر بين اسماعيل وكيسنجر ، وكانت القوات العربية وفي معظمها من البلدان الأشد تحالفاً مع الولايات المتحدة قد بدأت في شباط 1973 التحرك ، بما في ذلك طائرات سعودية إلى مصر وقوات مراكشية إلى سوريا . وتوافق المصادر العليمة على أن مثل هذه القرارات لم يكن لها لتتخذ دون موافقة – ضمنية على الأقل - من طرف الولايات المتحدة . وفي 20 نيسان أفادت تقارير المخابرات المركزية الأميركية بأن بدء العمليات العسكرية قد أصبح وشيكا .

وكان اجتماع بيلدربرغ والذي انعقد قبل أقل من انقضاء شهر على ذلك التاريخ ، فرصة قد أحسن توقيتها لوضع التفاصيل السياسية والمالية لرفع سعر النفط و كما تم اقتراحها في ورقة قدّمها وولترليـڤاي . وبعد وقت قصير جدّاً من تلك الحرب ، أي في ذات شهر تشرين الأول ، قفزت الأسعار فوق الـ 5 دولارات ، وهي كلفة إنتاج برميل النفط في ألاسكا ، وفوق 7 دولارات كلفة إنتاجه من بحر الشمال . وهكذا أضحى إنتاج النفط من كلا

المنطقتين في النهاية ملائماً ، وهكذا أنجز ، ما كانت إدارة چلف أويل تعتقد أن إنجازه سوف يستغرق عمراً .. في بضعة أشهر .

ولم تعُد ألاسكا مجرّد حُلمٍ وهمي ، على الرغم من أن محكمةً أميركية اتحادية كانت قد أصدرت حكماً ضد بناء خط الأنابيب استناداً لأسس بيئية ، إذ ما لبث هذا الحكم أن نقض بإنفاذ قانون طوارئ، تذرعاً بالأزمة التي تلت حظر النفط بعد حرب تشرين الأول ، كما أوجبت مقتضيات الأمن القومي ضرورة تطوير إنتاج النفط ضمن الأراضي الأميركية . وهكذا – وأخيراً - أعطيت الشركات الأميركية إشارة البدء . وبحلول العام 1977 كان خط الأنابيب الذي يبلغ 750 ميلاً طولاً قد أنجز ؛ وما عتمت أول شحنة عبره إلى ميناء ڤالديز أن تحققت . وفي عام 1978 ، كان مليون برميل من النفط تتدفق عبره يومياً لترتفع إلى مليونين بعد ذلك بوقت قصير . وفي هذه الأثناء ، في 1975 بدأ نفط الشمال بالتدفق إلى بريطانيا.

وراء القنـاع.

ص 111

لقد كان ارتفاع الأسعار بعد حرب تشرين هبة السماء لكافة الأقطار المنتجة وربما شعر الكثيرون -بالضرورة - أن أوبك هي التي هندست ذلك . إلا أنه - وكما شاهدنا - فإنه لا فضل لأوبك بذلك ، وإنما رأى الصنّاع الحقيقيون لرفع الأسعار - في أوبك - كبش فداءٍ ملائماً جماهيرياً .

وحيثما تعلق الأمر بأوبك - على كل حال - فإن الولايات المتحدة ومصالح الشركات النفطية الرئيسية أرادوا الإفادة من اللعبة في الاتجاهين ؛ فلم يكن لمنظمة أوبك دور في الأحداث التي أدّت إلى حرب تشرين ، إلا أن ارتباط الولايات المتحدة بالعربية السعودية قد أثرّ بشكل كبير في أنشطة أوبك . وبالتعاون مع الولايات المتحدة استعملت طاقتها الفائضة فيما أصبح يعرف باسم " قوة الترجيح " التي تملكها السعودية ، وهذا أمر هائل . أما الشيخ أحمد زكي

اليماني - وزير النفط السعودي الذي خلف الطريقي – فقال: " لإلحاق الإفلاس بدول أوبك الأخرى ، فإنّ كل ما علينا فعله هو أن نقوم بالإنتاج بطاقتنا القصوى ، ومن أجل إلحاق الإفلاس بالدول المستهلكة ، فان كل ما علينا عمله هو خفض الإنتاج "[55].

وهذه قوة لها ثمنها ، حيث وجّه طالب في كلية البترول في الظهران السؤال التالي لليماني في كانون الثاني 1981 :

إن المواطن السعودي الذي يتأمل السياسة النفطية الحالية لبلده ، سيجد أن بلده ينتج أكثر من احتياجاته الاقتصادية ، وأنه يبيع بأسعارٍ أخفض من الأسعار الجارية ، وحتى أنها أخفض من الأسعار التي تتقاضاها بلدان الخليج الأخرى ، ومثل هذه التضحية تكافأ بهجومات وتهديدات عدائية من قبل الصحافة وأجهزة الإعلام ، وحتى من قبل شخصيات رسمية حكومية رفيعة في البلدان الغربية .. ألا تعتقدون بأنه قد حان الوقت لنا كي نتوقف عن التضحية بأنفسنا لصالح مستهلكي النفط ؟! [56]

الأطوار الأربعة لاحتلال الخطوه خطوه الاميركي للنفط الإسلامي .

ص112

وبعد أن بلغ إنتاج نفط الولايات المتحدة ذروته كما كان متنبأً به ، والذي تزامن مع عدم قدرة الولايات المتحدة على الوفاء بالتزاماتها بموجب اتفاقية بريتون وودز المتعلقة بتحويل الدولارات إلى ذهب بنسبة ثابته وغبّ الطلب ، أصبح تأمين احتياطيات النفط للولايات المتحدة متطلّباً استعماريّاً ملحّاً وضروريا لاستمرارية مجمعها الصناعي العسكري وهيمنتها العالمية . وكانت الخطوة الأولى هي تحويل احتياطات ألاسكا وبحر الشمال

[55] John Malcolm Blair, *The Control of Oil*, New York, Pantheon Books, 1976, 281

[56] Abdulhay Y. Zalloum, *Oil Crusades: America Through Arab Eyes*, Pluto Press 2007, 108

الضخمة - ولكن غير الملائمة اقتصادياً - إلى احتياطيات اقتصادية ، وهو أمر تمّ تأمينه عبر زيادة أسعار النفط ، والذي أنجز بصورة مسرحية من خلال حرب تشرين/يوم كيبور في 1973 . وكان أيضاً من الضروري ضمان أن تتدفق البترودولارات الى الدول المنتجة على نحو مسيطر عليه ، فيما اصبح يعرف بإعادة التدوير من المنتجين إلى البنوك الغربية . وعملياً فإن النقود لم تكن تغادر المصارف الغربية أبدا ، حيث كان يجري تحويلها من حسابٍ إلى آخر ، بينما يسمح لقطرات من النقود - لا تزيد عمليّاً عن الفائدة - أن ترشح إلى البلدان المنتجة ، كي تنفقها في استهلاك منتجات غربية ، وفي شراء أسلحة فائضة قديمة الطراز.

وعبر ترتيبات خفية مع دولٍ منتجة رئيسية من عملائها مثل شاه ايران ، تمّ إغواء أوبك أن تسعّر بالدولار فقط . وبذا تم خلق طلب هائل على الدولار ، تمخض عنه طباعة أوراق عديمة القيمة بكلفة 5 سنتات للورقة على أنها ورقة نقدية من فئة 100 دولار . وكان هذا سبب آخر للولايات المتحدة لرفع درجة اهتمامها بحقول النفط من مجرّد مستوى السيطرة إلى الاحتلال المباشر.

عقد سبعينيات القرن العشرين : المفاضلة بين الخيارات ، تطوير الخطط

ذكرنا في مكان آخر من هذا الكتاب مقولة سفير سابق لأميركا لدى العربية السعودية ، والذي زعم فيه أن الاحتلال المباشر لحقول النفط في الخليج كان خياراً عرضه مهندس الدبلوماسيّة الأميركية ومؤسسة الأمن القومي الأميركية هنري إيه. كيسنجر . أمّا أن مثل هذا الخيار كان تمّ اعتباره جديّاً، فقد ورد ذكر ذلك في دراسة لكلية الدراسات العليا للأعمال في هارڤارد تحت عنوان : السيطرة على النفط

ص 113

العالمي . وعلى الأغلب ونظراً للمخاطر التي ينطوي عليها مثل هذا التصرف في عالم ثنائي القطبية - وبالتأكيد ليس لاعتباراتٍ أخلاقية - فقد تم تبني نهج الخطوة خطوة ، كما أطلقت الولايات المتحدة العنان لنظامٍ مالي عالمي جديد بعد إلغاء قابلية تحويل الدولار إلى ذهب في 1971 ، مما أدى إلى إحداث متغيرات اقتصادية ومالية كثيرة في الولايات المتحدة وعبر العالم .

وعلى الجانب المالي ، استخدمت السبعينات في معظمها لتثبيت " نظام – اللانظام " العالمي الجديد ، والذي يقضي بطباعة كميات ضخمة من النقود ، دون تغطية ، سوى أن العالم كان مجبراً على استعمال هذه الدولارات - عديمة القيمة - في دفع ثمن النفط . وهكذا ، وفي المآل ، أصبح النفط ، أي الذهب الأسود .. ضمانة للدولار كبديل للذهب الأصفر . وأيضاً - وكي يتاح للنقود أن تخلق - فإنه لابد للديون أن تخلق . وهكذا تم إثقال كاهل معظم الدول النامية بعبء الأسعار الفاحشة للنفط ، وكان على هذه الدول أن تقترض لتدفع ، من البنوك الغربية العالمية التي تخزّن البترودولارات ، ويالها من حلقةٍ مفرغةٍ شريره.

والهند مجرّد واحد من الأمثلة . ففي 1974 كانت الهند تملك احتياطيّاً مقداره 629 مليون دولار ، وكان نصفها يكفى لدفع فاتورة نفطها بأسعار 1973 ، إلا أن الفاتورة أتت بقيمة بليون و 241 مليون دولار . وبشكل عام تكبدّت الدول النامية بمجموعها ما مقداره 34 بليون دولار من الديون في عام 1974 ، وهي قيمة غير متوقعة ولا سابقة لها ، وأما دولارات أوبك فأعيد تدويرها إلى بنوك نيويورك ولندن ، وأصبح بمقدور هذه البنوك أن تقررّ أي البلاد هو الذي يمكن منحه قرضاً وبأية شروط . وفي هذه الأثناء استمرت المديونية في التفاقم ، وكمثال ، فإن ثلثاً بالتمام والكمال من مجموع ميزانية الأردن السنوية ينفق على خدمة ديونها ، بينما لا ينخفض أصل الدّين ذاته . وعلى أساس سعر 20 دولار للبرميل بلغت فاتورتها النفطية 20% من قيمة ناتجها القومي الاجمالي لعام 2005 ، بينما بلغت فاتورة الولايات المتحدة النفطية لنفس الفترة نسبة مريحة ، هي 2.5 % من قيمة ناتجها القومي الإجمالي .

وتفاقمت ديون البلدان النامية في هذه الفترة ، واستعبدت الاقتصادات النامية من قبل المؤسسات المالية العالمية ، وخصصت هذه الاقتصادات الكثير من مواردها

ص 114

الوطنية لمجرّد خدمة الديون ، مع بقاء أصل الدين مستقراً في أحسن الحالات ، إلا أن اصل الدين ازداد في حالات كثيرة . وحيث أن صندوق النقد الدولي والبنك الدولي كانا أنشئا ضمن نطاق نظام الصرف الثابت العائد لاتفاقية بريتون وودز ، فيكون دورهم – عملياً – قد تلاشى . وتمّ إيجاد دور جديد لهم من قبل الولايات المتحدة ، وباشروا العمل بالتوافق مع وزارة الخزانة فيها لإدارة هذه الديون المستحدثة لحماية قروض المؤسسات المالية العالمية ، و ضد مصلحة الدول النامية وبما فيه أذيتها في معظم الحالات . وبصفتهم شبكة السلامة والنجاة لوول ستريت فقد ضمنوا له أن تسدد قروضه بالتنسيق مع الذراع الطويلة الطائلة للولايات المتحدة في مجالات السياسة والقوة العسكرية .

وعلى الجانب العسكري أنشأت الولايات المتحدة قيادة قوة الانتشار السريع في فلوريدا ، وهي القوة التي أنشئت ودربت وجمعت ليمكن نشرها بسرعة في الخليج ، في حال بروز أي داع لحماية ما تعرّفه أميركا على أنه مصلحتها في المنطقة. وصبغت القوة أسلحتها بألوان الصحراء ، وأما أفرادها فتم تدريبهم على حرب الصحراء ، وأصبحت هذه القيادة تعرف فيما بعد باسم القيادة المركزية (سنتكوم).

وكان أن أعدت الخطط العسكرية والمناورات الحربية للتدخل الأميركي . ومما يثير السخرية أن السيناريو الدقيق لحرب عاصفة الصحراء كان قد أعدّ في 1978 على أساس الافتراض بحدوث هجوم عراقي على الكويت واحتمال رد أميركي عليه . وفي عدد 7 أيار 1979 لمجلة فورتشن ، تم نشر سيناريو لمناورة حربية تصف خططا و ردّاً عسكرياً أميركيا ممكناً في حالة غزو عراقي للكويت يرتكز على نزاعات حدودية أو غيرها ، وفي صفحة 158 ، وتحت عنوان " إذا غزا العراق الكويت.." قالت المجلّة: " القوات العراقية ، المجهزة بشكل رئيسي بأسلحة سوفيتية ، يمكن لها الأجهاز على أي البلدين بسرعة ؛ والمعونة إذا طلبت ، يمكن لها أن تتضمن ضربات جوية تكتيكية ضد الدروع العراقية وضد دعمها الجوي ، وربما أيضاً تهديدات بتدمير المنشآت النفطية العراقية ،

ص115

ولغرض دحر القوات الأرضية العراقية ، فإن ذلك سيتطلب مشاة بحرية من الأسطولين السادس والسابع ، ومشاة من الفرقتين الثانية والثمانون ومائة وواحد ؛ كذلك ارتأت الخطة " جيشاً في السماء " لنقل الجنود ، والإفادة من جسر إمداد القوة الجوية الاميركية الاستراتيجية – السبعين سي 5 إيه إس العملاقة ، و 234 ناقلة سي 141 الأصغر حجماً ، زائداً 700 كيه سي 135 صهريج لإعادة التزودّ بالوقود جوّاً ."[57]

وكان هذا كُتب في 1978 !!

وفي هذه الفترة ، تم بناء قواعد عسكرية أميركية ومدن بحرية ضخمة في الخليج ، على نحوٍ غير لافتٍ للنظر ، وتحت مختلف الحجج والأعذار الواهية.

---

[57] If Iraq Invades Kuwait or Saudi Arabia", *Fortune* Magazine, May 7,1979, 158

ثمانينيات القرن العشرين : تواجد عسكري أميركي متزايد وحروب بالوكاله.

ما أن خلف السلم الأميركي السلم البريطاني حتى كانت الامبراطورية الأميركية تتبع خطوات الامبراطورية البريطانية وتباشر دورها في خدمة المتموّلين العالميين ، وفي 1980 أصدر الرئيس كارتر مبدأه - مبدأ كارتر - والذي عملياً يعلن منطقة الخليج بحيرة أميركية ، تماماً كما فعل البريطانيون من قبله.

وأعلن كارتر:

" أي محاولة من أي قوة خارجيّة لحيازة السيطرة على منطقة الخليج الفارسي ، سوف تعتبر هجوماً على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأميركية ، وإن مثل هذا الهجوم سيتم صدّه بكافة الوسائل اللازمة ، بما فيها القوة المسلّحة."

أليس هذا بالضبط هو صدى وزير الخارجية البريطاني لانزداون ، الذي أصدر تحذيراً مماثلاً قبل 77 عاماً من كارتر ، حيث أعلن في 1903 وفور بدء الحفر للنفط في إيران أن الحكومة البريطانية :

" تعتبر إنشاء أي ميناء بحري محصّن في الخليج الفارسي من قبل أي قوة أخرى ، تهديداً بالغ الخطورة للمصالح البريطانية ، وأننا – بالتأكيد - سنتصدى له ونقاومه بكل الوسائل المتاحة لنا."

ص 117

وبعد ثورة 1979 الإسلامية بقيادة آية الله الخميني وخلع الشاه ، شجّعت الولايات المتحدة وحلفاؤها العراق على أن ينتهز الفرصة ويزعزع نظام الخميني ، وكانت الفكرة تتلخص في أن شطّ العرب يمكن له أن يصبح ممرّاً مائياً عراقيّاً خالصّاً ، وكان البكر معارضاً لهذا المخطط بينما أيّده صدّام ، وأصبح صدّام رئيساً في 1979 عندما استقال البكر ، وتمّ إعدام أعضاء حزب البعث المعارضين بعد ذلك بوقتٍ قصير.

وفي 1980 ، وبوجود طلبة أميركيين محتجزين كرهائن في السفارة الأميركية في طهران ، كانت الولايات المتحدة متلهفة لتوجيه ضربة ضد الثورة الإسلامية ، إلا أن محاولة

الرئيس كارتر لتحرير الرهائن بعملية خاصة انتهت بكارثه ، وفي هذه الآناء كان شيوخ النفط في الخليج متخوفين من تهديد الثورة لهم بالخلع ، في مصير مماثل لمصير المشاه .

كان صدّام حسين الآن قد ألغى اتفاقيته حول شط العرب ، فحرضت إيران على خلعه والانقلاب عليه. كذلك راجت ادعاءات حول قيام إيرانيين بمحاولات اغتيال لمسؤولين عراقيين . إلا أن ما رجح الكفة نحو حربٍ شاملة انما كان الموافقة الضمينة لواشنطن على أنشطة صدّام المعادية لإيران ، والوعد الذي قطعه شيوخ النفط والعربية السعودية لتمويل حربه ضدّ إيران . وجاء الإشعار الأخير لبدء الحرب خلال الزيارة الرسمية التي قام بها صدّام في 1980 للعربية السعودية ، وهي أول زيارة – إطلاقاً - من رئيس عراقي ، وطبقاً للمحقق الصحفي بوب باري في مقالته " تاريخ أميركي/عراقي مفقود ": ***" .. ويقول القادة السعوديون أيضاً انهم حثوا صدّام على نقل الحرب إلى النظام الإيراني المتشدّد ، كما أبلغوه أن قولهم يتضمن " ضوءاً أخضر " للغزو من الرئيس كارتر."*** [58] وكان أن غزا صدّام إيران في 22 أيلول 1980 ، وبعد مضي ستة أسابيع - لا أكثر - على زيارته الرسمية للعربية السعودية .

ص117

---

[58] Robert Parry, “Missing U.S.-Iraq History”, *Consortium News*, February 27, 2003, http://www.consortiumnews.com/2003/022703a.html

ودارت رحى حرب طاحنة بين العراق وإيران على مدى ثماني سنوات ، وكان الخط الرسمي للولايات المتحدة هو الحياد ، إلا أنه في الواقع بقي وفيّاً لمقولة كيسنجر المأثورة والمشهورة بأنه في الحروب يكون هناك - في العادة - رابح وخاسر ، أما في الحرب العراقية الايرانية فيجب أن يكون هناك خاسران .

عبر حلفائها أولاً ، ثمّ بصورةٍ مباشرة ، زودت الولايات المتحدة العراق بالمعلومات الاستخبارية من الأقمار الصناعية ومن مصادر أخرى لتمكينه من إيقاع افدح الخسائر بالإيرانيين ؛ ولكنها وفي نفس الوقت كانت تزود إيران بقطع الغيار وبالأسلحة ، كما تمّ الكشف عنه في فضيحة إيران/كونترا. كذلك باعت العراق تكنولوجيا ثنائية الاستخدام (يمكن استخدامها لأغراض عسكرية ومدنية) ، وتمّ نهب جيوب شيوخ النفط لدفع أثمانها . وفي مقالةٍ نشرتها نيوزويك في عددها المؤرخ 23 أيلول 2002 كشفت عن أن الرئيس ريغان سمح ببيع قواعد بيانات حاسوبية للعراق كان من الممكن استخدامها في تتبع خصومه السياسيين ، مع شحنات من المواد التي استخدمها في إنتاج الجمرة الخبيثة (الأنثراكس) ، وترسانات من الأسلحة الكيماوية . وبصفته مبعوثاً لريغان ، زار دونالد رمسفيلد العراق مرتين في 1983 و 1984 قابل فيهما صدّام حسين . وطبقاً للصحفيين موري واس وكريـچ أونـچر - في مقالةٍ لهما في النيويوركر بتاريخ 1992/11/2 - فإنه يُعتقد بأن بوش الأب،أثناء عمله نائباً للرئيس ريغان ، أشار على صدّام - عن طريق وسطاءعرب - بتكثيف عمليات القصف الجوي ضد إيران ، في مسعىً – على ما يبدو – القصد منه حث إيران على زيادة طلبها من أسلحة مقاومة الطائرات من صنع الولايات المتحدة .

ومن حيث الرقعة الأرضية ، فإن الحرب الإيرانية العراقية تركت البلدين في ذات الاماكن التي كانوا فيها عندما بدأت الحرب في 1980 ، إلا أنها تركت الاقتصاد العراقي ممزقاً غارقاً في الديون ، في حين كان يملك فائضاً قدره 30 بليون دولار عند بدء الحرب ؛ وزيادة على ذلك قتل أو جرح اكثر من مليون عراقي بينما وقع الكثيرون منهم في الأسر ، بينما قاست إيران خسائر مماثلة . وهكذا يبدو أن عبارة كيسنجر قد تحققت : كلا البلدين خرجا من الحرب خاسرين ، وكانت الولايات المتحدة تزيد من وجودها العلني في الخليج في ذات الوقت ؛ وإنه

ص118

لمن المرجح تماماً أن احتلال الكويت وحرب الخليج في 1991 انما كانتا نتيجة للحرب الايرانية العراقية .

وشعر صدّام بأن شيوخ النفط مدينين له بالكثير خلال الصراع مع إيران ، ولاسترداد عافية اقتصاده أراد منهم شطب ديون العراق ، إلا أنهم لم يكونوا راغبين في عمل ذلك ، فطلب من الكويت قرضاً بقيمة عشرة بلايين دولار .. إلا أنها رفضت . وفي الحقيقة فإن الكويت كانت تدفع بأسعار النفط إلى الانخفاض ، حيث أنها كانت تنتج كميات ضخمة من النفط من حصتها في حقل الرميلة ، وبأكثر من الكوتا المخصصة لها من أوبك ؛ ولا يوجد إلا جزء صغير من هذا الحقل ضمن حدود الكويت ، ومعظمه يقع تحت أراض عراقية . وأدى ذلك الى حنق صدّام ، إذ أن كل دولار من الانخفاض في سعر برميل النفط .. يعادل بليون دولار من العائدات للعراق.

ولقد كان تحريك صدّام لقواتٍ جنوباً صوب الحدود الكويتية ظاهرا ، ليس فقط للأقمار الصناعية الأميركية ، وانما حتى للمراسلين الغربيين ؛ إلا أن صدّام كان قد تم تضليله من قبل إبريل حلاسي سفيرة الولايات المتحدة لدى بغداد ، حيث أبلغته أن الصراعات العربية/العربية .. لم تكن لتعنى الولايات المتحدة . وعندما سئل أحد رسميي الإدارة في الكونـچرس عن رد فعل أميركا فيما لو تم غزو الكويت أجاب : ***" لا توجد لدينا اتفاقية دفاعية للدفاع عن الكويت ."***

وفي هذا النطاق ، فإن شهادة تحت القسم محفوظة في محكمة فلوريدا .. لها دلالة ذات مغزى كبير، وهذا التصريح تحت القسم من قبل هوارد تيشر - وهو موظف أمن قومي سابق في إدارة ريغان - قد أدرج لدى المحكمة بخصوص محاكمة جنائية في ميامي في عام 1995 . وطبقاً لتيشر فإن هجوم إيران في عام 1982 أقلق واشنطن ، فقرّرت أن تعطي من العون بما يكفي لمنع إيران من كسب الحرب الإيرانية /العراقية . وفي إفادته تحت القسم كتب تيشر :

في حزيران 1982 قرّر الرئيس ريغان أن الولايات المتحدة ليس بمقدورها السماح للعراق بأن يخسر الحرب لصالح إيران ، ولذا قرّر الرئيس ريغان أن الولايات المتحدة

ستفعل كل ما هو ضروري وقانوني لمنع العراق من خسارة الحرب مع إيران ، وكان أن صاغ الرئيس ريغان هذه السياسة بإصدار قرار أمن قومي توجيهي بهذا المعنى في شهر حزيران 1982، ولدي معرفة شخصية بهذا التوجيه لأنني شاركت في صياغته مع عضو آخر لمجلس الأمن القومي هو جيف كيمب ، وهذا التوضيح بما في ذلك رقمه المميز يعتبر سرّاً مكتوماً.[59]

وقال تيشر ان هذا التوجيه الذي وقعه ريـچان أجاز مساعدة الولايات الخفية لقوات صدّام حسين ، وتضمن ذلك ***" بلايين الدولارات من التسهيلات الائتمانية ، والمعلومات والنصح الاستخباري ، بما يؤمن للعراق حاجته من السلاح والمشورة الاستراتيجيّة العملياتية .***[60]

---

[59] The Teicher Affidavit, January 31, 1995, http://www.informationclearinghouse.info/article1413.htm

[60] Ibid.

وكان على رأس الجهود الرامية لتسليح العراقيين مدير المخابرات المركزية وليام كيسي ونائبه روبرت جيتس . وطبقاً لتيشر ***" .. فقد عرفوا عن ، ووافقوا على ، وساعدوا في بيع أسلحة وذخائر و مركبات عسكرية من منشأ غير اميركي للعراق."***

وبخصوص زيارة رمسفيلد لبغداد في 1984 كتب تيشر : " سافرت مع رمسفيلد إلى بغداد ، وكنت حاضراً في الاجتماع الذي أخبر فيه رمسفيلد وزير الخارجية العراقي عزيز عن عرض اسرائيل بالمساعدة ***" . وقد رفض عزيز حتى قبول الرسالة الاسرائيلية لحسين بعرض المساعدة لأن عزيز أعلمنا بأنه سيعدم على الفور من قبل حسين فيما لو فعل ذلك ."*** [61]

وأضاف تيشر :

وفي 1986 أرسل الرئيس ريغان رسالةً سرّية إلى صدّام حسين يبلغه فيها أن على العراق أن يصعد من حربه الجوية ومن قصف إيران ؛ وقد سلّمت هذه الرسالة من قبل بوش نائب الرئيس ، والذي أبلغها للرئيس المصري حسني مبارك ، والذي بدوره مرّر الرسالة إلى صدام حسين . وكانت مشورات مماثلة

ص 120

ذات طبيعة استراتيجية وعملياته تمرّر للرئيس صدّام حسين خلال اجتماعات مختلفة مع رؤساء دول أوروبيين وشرق أوسطيين. ولقد قمت بصياغة نقاط مباحثات بوش في اجتماع 1986 مع مبارك ، كما حضرت شخصيّاً اجتماعات عديدة مع رؤساء دول أوروبية وشرق أوسطيه ، حيث كانت تبلغ المشورة الاستراتيجية العملياتية . وقد هاجمت إدارة كلينتون تيشر وشهادته ، ثم مالبثت أن أعلنت شهادته وثيقةً سريّة ؛ وبذا حفظت تحت خاتم المحكمة .

---

[61] Ibid.

وبدءاً من العام 1983 تمّ توسعة قوات الولايات المتحدة ، وعرضت أن تقوم بمرافقة ناقلات نفط الكويت خلال حرب العراق/إيران ، وحشدت الولايات المتحدة 24 سفينة حربية رئيسية و 16,000 جندي تحت ذريعة المرافقة والحماية هذه ، وبالاسم الرمزي إيرنست ويل . وبعد التحاقه بمهمته الجديدة التحق شوارزكوف بمدرسة الخدمة الأجنبية في آرلنجتون بفرجينيا ، وقد أعجب بمهمته الجديدة في حماية تدفق النفط من الخليج الفارسي ، والذي يعتبر مصدراً لثلثي الاستهلاك السنوي لليابان ، وعشر استهلاك الولايات المتحدة ، و30 بالمائة من استهلاك أوروبا الغربية ، و65 بالمائة من الاحتياطيات المثبتة في العالم . وكان الإجراء الأول لشوارزكوف هو دراسة تاريخ الرئيس العراقي صدّام حسين ونمطه السيكولوجي ، وكذا دراسة الألة العسكرية العراقية .

عقد تسعينات القرن العشرين : قوة مطلقة منفردة ونظام نفطي جديد للعالم

وفي 1990 وجدت الولايات المتحدة نفسها في وضع فريد : لقد كانت القوة المطلقة الوحيدة في العالم بعد الانفجار الذاتي للاتحاد السوفياتي ، وأضحى الوقت ناضجا لخلق العولمة الاقتصادية وتوسيع " خطة المنطقة الكبرى " لتشمل العالم بأكمله ، " فإما الآن واما فلا ".

وأصبح لدى الولايات المتحدة الآن - بصفتها القوة المطلقة الوحيدة - سبب أكثر من أي وقت مضى للسيطرة على النفط.

ص 121

- ففي عام 1989 استوردت 45 بالمائة من نفطها ، كما أشارت دراساتها الى أنه ربما كان عليها أن تستورد أكثر من 65 بالمائة من نفطها مع نهاية عقد التسعينات من القرن العشرين.

- حوالي 40 بالمائة من عجز الميزان التجاري للولايات المتحدة عام 1989 ناشيء عن وارداتها النفطية ، حيث أن الطاقة النووية تعتبر عمليّاً غير موجوده كمصدر تزويد للطاقة في الولايات المتحدة - اذ تقف عند حد 7 بالمائة فقط . وفي 1989 كان النفط مسؤلاً عن تزويد ما نسبته 41,9 بالمائة من الطاقة ، بينما كان الغاز مصدر 24 بالمائة منها ، والفحم وفحم الكوك مصدر 23,3 بالمائة ، والطاقة المائية 3,5 بالمائة والمصادر الأخرى 0,5 بالمائة .

- يمكن الآن "مساعدة" جمهوريات آسيا الوسطى وبحر الخزر لتحقيق "الاستقلال" ، وبذا يمكن تأمين احتياطياتهم النفطية الضخمة والسيطرة عليها . هل كان مجرد صدفة أن تقوم المؤسسة الأميركية - عبر سحر إعلامها وتسويقها - بتسليم السلطة إلى فريق يملك خبرة نفطية من الطراز الأول ، ويتكون من خبراء مجربين عبر عقد التسعينات من القرن العشرين ، والذي ستشن فيه عمليات عسكرية سرية تحت هذا المسمى أو ذاك ، لإتمام دورة السيطرة الأميركية على موارد النفط؟! إنه لأمر يجدر بصاحب نظرية المؤامرة أن يتأمّله ويفكر فيه!!

- جورج بوش ، لا يفهم النفط فقط ، وإنما ملك - في وقت ما - شركة نفط ؛ وهو على دراية بهذا العمل ، ولذا فهو مؤهل للغاية لوظيفة مدير عمليات السيطرة على نفط العالم ، إلى جانب أنه – في وقت ما ايضا - كان مسؤلاً عن إدارة وكالة الاستخبارات المركزية ، ولذا يعتبر واحدا من أيقونات ورموز مؤسسة الأمن القومي الأميركي .

- وكذلك كان ديك تشيني وزير الدفاع ، أحد شخصيات المؤسسة لوقت طويل ، ومما يدعو للسخرية أنه بعد مغادرته واشنطن أصبح رئيساً تنفيذيا لشركة خدمات نفطية مقرها تكساس.

ص122

- كولن باول - رئيس الأركان - كان عضواً في مؤسسة الأمن القومي ، كما سبق له وعمل مستشارا للأمن القومي أيضاً .

- برنت سكوكروفت ، مستشار الأمن القومي .. كان نائباً لهنري كيسنجر في سنوات نيكسون ، وحتى عندما كان خارج الحكومة .. كان يعمل لحساب مشاركي كيسنجر.

- وهؤلاء الناس المؤهلون .. بمقدورهم الاسهام في سرٍّ مشترك ، وكان هذا السرّ هو إقامة نظام عالمي جديد لفترة ما بعد الحرب الباردة .. مؤداه جعل سيطرة الولايات المتحدة على النفط العالمي في قمة أولوياته.

وغزا العراق الكويت ، وهي بلد ينتج 2,1 مليون برميل من النفط يوميّاً ، وبين أشياء أخرى ادعى العراق بأن الكويت كانت تضخ نفطاً أكثر مما هو مقرر لها بموجب كوتا أوبك ، وتبيعه بسعرٍ أدنى من الأسعار المعلنة مكبدّة العراق بليون دولار من الخسائر في العام ، كما كانت تضخ النفط من حقل الرميلة عبر آبار موجهة ، وهذا الحقل كان - في معظمه - يقبع تحت أرضٍ عراقية ، وبهذا يمكن للمرء أن يفترض بأن إغراق الأسواق العالمية بالنفط قبيل حرب الخليج لم يكن فعل مصادفة ، وفي الحقيقة أنه كان مؤشراً على أن المخطط بكامله ودراما الغزو العراقي ، كانت قد افتعُلت لحشد 500,000 جندي أميركي في خطة من خطوة .. فخطوة ، بهدف السيطرة على نفط المسلمين والشرق الأوسط ، بعد أن كانت البنية التحتية اللازمة لمثل هذه القوات الضخمة قد تم إنجازها في عقد الثمانينيات ، فيما لم يكن إنتاج ما قبل الغزو العراقي وزيادة المخزون النفطي .. الا عملية تحضير للأسواق العالمية لاحتمالية مقاطعة النفط العراقي والكويتي ، وبما يمنع ارتفاعات حادّة في أسعار النفط كنتيجة لذلك . وكانت المناورات والخطط العسكرية لحرب عاصفة الصحراء قد أعدت في معظمها في السبعينيات طبقاً لما ذكرته مجلة فورتشن – وبوضوح - في عددها تاريخ 15 أيار 1978.

واستخدمت الولايات المتحدة.. الأمم المتحدة ، كمركبة مفيدة لدبلوماسيتها الخاصة بغزو الكويت ، على الرغم من أن الولايات المتحدة - وهي أغنى بلدٍ في العالم –(والتي كانت أيضاً وقتها

ص123

أكثر البلدان مديونيّة في العالم) ، كانت متخلفة عن دفع مستحقاتها للأمم المتحدة ! وتم تأمين القرارات اللازمة للتدخل ، وكان بمقدور الولايات المتحدة استخدام نفس النفوذ لوقف الغزو قبل حدوثه ، وكان بمقدورها فعل ذلك بمجرد تحذير يوجهه دبلوماسي درجة ثالثة في وزارة خارجيتها .

وكانت حرب الخليج فرصة للولايات المتحدة للتخلص من فائض مخزونها من السلاح ، مثلما كانت فرصة لاختبار نظم أسلحةٍ جديدة . وتم دفع معظم أثمان هذه الاسلحة من قبل الدول العربية المنتجة للنفط ، وكان العراق مسرحاً لكل هذا ، حيث أن من كتب سيناريو حرب الخليج الأولى لابد وأنه كاتب أفلامٍ لهوليوود من الطراز الأول.

ينطوي أحد المعالم الجديدة للنظام العالمي الجديد على إشراك ثاني وثالث أكبر اقتصاديات العالم أي اليابان وألمانيا في الحروب الاميركية ، حيث طلب اليها تحمل جزء من نفقات هذه الحروب ، لا بل إرسال جنود ؛ وعندما احتجت اليابان بأن دستورها - والذي وضعته لها أميركا نفسها (بعد الحرب العالمية الثانية) - لا يسمح لها بالاشتراك في مثل هذه الحروب ، تم إبلاغها بأن الدساتير يمكن تعديلها . وكانت حرب الخليج فريدةً من نوعها في التاريخ من حيث تم دفع كامل تكاليفها من قبل آخرين ، وليس من قبل المستفيد .

وتحت مظلة الأمم المتحدة ، شنّت الولايات المتحدة الأميركية حرباً ، على بلدٍ من العالم الثالث ، تعداد سكانه 17 مليوناً .. ويا للهول .. تصوروا .. انتصرت ! وتمّ إبلاغ الشعب الأميركي بأنه في مقدوره الآن دفن ظاهرة الأعراض الفيتناميّة ، والتي جلبتها عليهم حرب كبدتهم ما قارب 250,000 جندي أميركي خسروا أرواحهم أو جرحوا فيها . ومع نهاية حرب الخليج في 1991 كان كل شخصٍ في الشرق الأوسط .. والكثيرون ممن انضموا إلى هذه الحرب قد خسروا ، كذلك انخفض سعر النفط إلى مستويات أدنى من تلك التي كان عليها في سنوات ما قبل 1973 (بدولارات 1973 الثابتة) .

ومن أجل الترويج للحرب ، دافعت الولايات المتحدة ، عبر جيمس بيكر ، وأيدّت إنشاء " صندوق تطوير الشرق الأوسط " ، بمساهمة سنوية قيمتها 15 بليون دولار تدفعها الدول العربية

ص 124

المنتجة للنفط ، حتى يصبح بالإمكان توزيع الثروة النفطية بصورةٍ أكثر عدلاً ، وتمّ التلهّي والعبث بهذه الفكرة في دمشق من قبل عرب تحالف عاصفة الصحراء ، وذهبت هذه والقرارات الناشئة عن اجتماع دمشق أدراج الرّياح قبل أن يجف حبرها وفور انتهاء العمليات العسكرية لحرب عاصفة الصحراء ، وتركت فواتير الحرب التي قدّمتها الولايات المتحدة للدول العربية المنتجة للنفط ، وفواتير شراء فائض السلاح الأميركي اللاحقة ، لمواجهة التهديد العراقي الوهمي والذي استعمل كذريعةٍ مناسبة ، تركت خزائن تلك الدول خاويةً دون أن يتبقى لديها شيء تتبرع به أو توزعه.

ووجدت دول الخليج نفسها وقد استنزفت الحرب موجوداتها الاقتصادية ، وكان على حكوماتها إلغاء أعدادٍ من مشاريعها الرئيسية ، كما انهارت أسواق أسهمها ، وتم سحب نسبةٍ هامةٍ من ودائع البنوك من قبل المواطنين المذعورين ، وكان على الحكومات أن تضخ البلايين في نظمها المالية للحيلولة دون أن تتهاوى ، ومن أجل إعادة إسكان السعوديين الذين فروا من المنطقة الشرقية أثناء الحرب ، ومن أجل الإنفاق على 200,000 كويتي قدموا إلى السعودية بعد احتلال الكويت ، ولتغطية نفقات هجرة العمال الأجانب الجماعية ، كان عليها أن تنفق قرابة 4 بلايين دولار ، ومن أجل"تهيئة وتحضير" المملكة للحرب ، أنفقت العربية السعودية 13 بليون دولار على الأقل حتى نهاية عام 1990 ، وكان المخطط يقضي بإنفاق قرابة 17 مليون دولار تدفعها العربية السعودية لتخزين أسلحة في المملكة ، كما وافق الملك فهد في أيلول 1990 على تغطية نفقات القوات الأميركية المرسلة إلى عاصفة الصحراء " بالكامل .. داخل البلد " ، حيث زعمت الولايات المتحدة أن هذه القوّات إنمّا أرسلت لحماية المملكة السعودية ، وقدرت نفقاتها بـ500 مليون دولار شهريّاً ، وعندما اندلعت الحرب تعهّد الملك بـ 13,5 بليون إضافية لتغطية نفقات الحلفاء العسكرية وحتى آذار 1991 ، كما تعهد الملك فهد بالإسهام بـ 3 - 4 بلايين دولار إلى صندوق خزينةٍ أمريكي خاص لمساعدة أقطارٍ مثل تركيا على مواجهة أعباء ونتائج الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة على العراق ، وأعطت العربية السعودية بالاشتراك مع الكويت 1,5 بليون

دولار لمصر ، كما شطبت 6,6 بليون دولار مما لها عليها من ديون ، كما تم دفع بليون آخر لسوريا.

ص 125

وقبل الحرب كان معدّل إنتاج النفط 5,6 مليون برميل في اليوم ، وبعد الحظر على خام العراق ثم رفع الانتاج إلى 8,7 مليون برميل ، منها 300,000 برميل يتم تزويدها للقوات الحليفة يوميا، وهي كمية تعادل أكثر من ثلاثة أمثال الاستهلاك اليومي للأردن . وكانت الأموال التي تم جنْيُها نتيجة ارتفاع أسعار النفط إنما ربحها مضاربو نيويورك وليس البلدان العربية المنتجة ، حيث كان النفط يباع بموجب عقود طويلة الأجل ؛ وكمثال كانت السعودية تتقاضى 28 دولاراً للبرميل ، والتي منها كلفة الإنتاج والشحن ، بينما كان سعره في بورصة نيويورك التجارية 40 دولاراً للبرميل.

وكان لوول ستريت والممولين العالميين يومهم وفرصتهم أيضاً ، كنتيجةٍ للحرب ، عندما تم سحب 13,7 بليون دولار من وحدات مصارف الأوف شور للبحرين ، أي ما يعادل 21 % بالتمام من كامل موجوداتها ، بينما كانت بنوك الكويت قد اوقفت عملياتها نهائياً خلال فترة الاحتلال ، بينما بلغت المسحوبات في الإمارات العربية المتحدة 21% من مديونيتها .

وقبل الحرب كانت دول الخليج تستخدم عدداً كبيراً من المغتربين العرب ، والتي كانت تحويلاتهم المالية تشكل مصدراً رئيسياً من العملة الصعبة لبلدانهم ، وكان سيناريو الحرب الذي نشرته مجلة فورتشن عام 1978 قد ارتأى إبعاد و ترحيل الفلسطينيين واليمنيين عن الخليج في أول فرصة سانحة باعتبارهم يشكلون مخاطرةً أمنية ، وحين تمّ التنفيذ أثناء حرب الخليج و في فترة زمنيةٍ قصيرةٍ تاليةٍ لها ، سبب ذلك الكثير من المصاعب لمئات الألاف من الفلسطينين واليمنيين ، وكذلك لبلدانهم التي شهدت خفضاً جسيماً في تحويلات مغتربيها والتي كانت تشكل واحداً من أكبر المصادر لعائداتها القومية ، وبدلاً من مشروع " تنمية الشرق الأوسط" والذي كانت الولايات المتحدة قد وعدت به قبل الحرب ، تفاقم الفقر والبطالة والتفاوت في الثراء ، كما تم تشجيع حرب باردةٍ عربية/عربية .

ص126

وبعد غزو العراق للكويت في 1990 ردّت الولايات المتحدة بهجومٍ ذي شعبتين إحداهما اقتصادية والثانية على شكل هجوم عسكري ، وبمجرد انقضاء أيّامٍ قليلة على غزو القوّات

العراقية للكويت وتحت ضغط واشنطن ، فرض مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة أقسى عقوبات اقتصادية كان وافق عليها في تاريخه ، بما في ذلك تضمينها عقوبات على كافة الواردات الغذائية .

وكان الإجراء العسكري ذي تركيزٍ ساحق ، ففي 16 كانون الثاني 1991 ، أطلق البنتاچون العنان لستة أسابيع من قصفٍ جوي وبحري متواصل ودون هواده .. وأسقطت طائرات من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا وكندا وبلدان أخرى 88,500 طنّاً من القنابل ، مدمّرة بذلك بنية البلد التحتية ، بما في ذلك المصانع والجسور ومحطات القوى الكهربائية ومنشآت الريّ وأنظمة المجاري وكلّ شيء آخر ضمن نطاق القصف ، ثم أتبع ذلك بأربعة أيامٍ من " الحرب البرّية " .

وعندما زار مارتي أهتيساري - المقرّر الخاص للأمم المتحدة ورئيس فنلندا فيما بعد - العراق بعد حرب الخليج مباشرة ، كتب يقول : " لم يكن ممكنا لأي شيءٍ كنّا قد رأيناه أو قرأناه تهيئتنا لهذا النوع المتميز من التدمير والتخريب.. بلدٌ تمّ الاجهاز عليه وردّه إلى ما قبل العصر الصناعي وإلى فترةٍ طويلةٍ قادمة." [62]، وتكون الولايات المتحدة بذلك قد أنجزت هدفها. وكان وزير خارجية الولايات المتحدة في ذلك الوقت جيمس بيكر الثالث ، قد وعد - بذلك تماماً - طارق عزيز نائب الرئيس العراقي والمفاوض الرئيسي في جنيـڤا ، قبل أيامٍ قليلةٍ من الغزو.

إلا أن السؤال لا بدّ أن يُسأل : إذا كانت الولايات المتحدة معنية حقيقة بمجرد دحر القوات العراقية وإخراجها من الكويت .. فلماذا اذن انغمست وبمثل هذا الإفراط في تدمير البنية التحتية المدنية للعراق ؟! .. وإذا كان الهدف هو الإطاحة بصدّام حسين عن السلطة ، الأمر الذي كان بمتناول يدهم بعد الحرب ، فلماذا اتخذت الولايات المتحدة فجأةً سياسة خلفاً دُر؟!.. لذا يتبين أن حشد القوات الأميركية والحليفة لم يكن مكرّساً للإطاحة بصدّام ، وإنما - و بالنتيجة - للحفاظ عليه في السلطة .. لماذا؟!

---

[62] Felicity Arbuthnot, “Crimes in Iraq: Lest We Forget – Thirteen Years of Sanctions”, August,4, 2004, http://www.islamonline.net/english/In_Depth/Iraq_Aftermath/2004/04/article_03.shtml

ص127

في 1991 دعا بوش الأب شعب العراق للإطاحة بصدّام ، ولم يكن - على كل حال - يوجه دعوته للأكراد أو للشيعة أو إلى أية قوىً ديموقراطية ، وإنما .. إلى الجيش العراقي أو إلى حزب البعث ، وأوضح وليم وبستر المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية ذلك بالقول : " لو أننا كنا محظوظين فإن الجنود في جيشه أو الكوادر في حزبه كانوا تحركوا للقضاء عليه."[63] وكانت مخاوف واشنطن من ثورة شعبية على ما يبدو أكبر كثيراً من رغبتها في التخلص من صدّام .

لقد كان المحرّك الدافع لحرب الخليج – والتي هي افظع ممارسة وحشية للقوة الاستغلالية ، فرض على أي بلد أن يقاسيها في التاريخ الحديث - لقد كان هذا المحرك الدافع .. وبكلمة واحدة .. النفط . وحرب الخليج لم تكن سوى البداية فقط ، فالولايات المتحدة ، والتي تتفوق على العراق بشكل ساحق سواءً من حيث السكان أو القوة الاقتصادية ، ارتأت شن حربين

---

[63] Abdulhay Y. Zalloum, 44 *Oil crusades: America through Arab Eyes*, Pluto Press, 2007 ,

أخريين ضد هذا البلد المنتمي إلى العالم الثالث ، والذي صورته واشنطن وإعلام شركاتها على أنه قوة عملاقة مؤذية وضارة!

ويعتقد الكثيرون من المحلّلين بأن غزو العراق للكويت إنما شجعته الولايات المتحدة ، وبعد سنةٍ واحدة على بدء حرب الخليج كنت وعائلتي مسافرين جوّاً إلى استانبول لقضاء إجازة ، وكان التاريخ هو 5 كانون الثاني 1992 ، وكان دونالد ڤان إيتن - وهو أستاذ تاريخ في جامعة كاليفورنيا - مسافرا على متن نفس الطائرة في طريقة إلى تركيا لقضاء إجازةٍ هو الآخر .. وقد أبدى لي تساؤله حول مشاعري حيال حرب الخليج .

فأخبرته باعتقادي بأنه كان من المستحيل على الولايات المتحدة أن لا تكون قد " شاهدت "حركة مائة ألف جندي عراقي ، وما يزيد على 5000 دبابة ومركبة خلال غزو الكويت ، ولدى الولايات المتحدة الوسائل البشرية الإلكترونية وغيرها مما يلزم لتحديد ساعة الصفر المقررة للغزو ومن ثم القضاء عليه في مهده ، وكانت سلبية حكومتها الواضحة بهذا الخصوص قد تم تدعيمها بتصرفات سفيرها إلى بغداد - في ذاك الحين - إبريل جلاسبي ، وكانت قد أخبرت القيادة العراقية بإن نزاعها مع الكويت كان

ص128

شأناً عربيّاً/عربيّاً والذي لا تتخذ منه الولايات المتحدة موقفاً ، وقد غادرت إلى واشنطن قبل أسبوعٍ من الغزو حيث بقيت هناك .

وردّ ڤان إيتن بأنه كان بمقدور الولايات المتحدة أن تختار عدم التصرف ، كما كنتُ قد ألمحت ، فيما لو أنها اعتقدت أن غزو الكويت كان سيخدم مصالحها ، وذكر أنه كتب دراسة أسماها (.....) ، تظهر أن الولايات المتحدة لم تكن فقط تعرف مقدّماً عن قصف بيرل هاربر في 1941 ،وإنما كانت أيضاً تريد له أن يحدث ، وكانت بعض الاستفزازات التي قامت بها الولايات المتحدة تهدف إلى استعجال هجوم على بيرل هاربر ، لتمكينها من دخول الحرب العالمية الثانية .

" كنّا أهدافاً ساكنة " .. كان هذا وصف أحد الناجين من بيرل هاربر للإحساس العام على متن السفن الراسية قرب جزيرة فورد في شهر كانون الأول 1941 .. وكانوا فعلا كذلك، ولم يسمح " للأهداف " بأن تجد ملجأً على الشاطئ الغربي أو أن تختبئ في المحيط الواسع ، بل استبقيت في بيرل هاربر حيث تضطجع هدفاً مغرياً ، وقد أدوا ذلك فعلاً وخدموا

بلادهم ، حيث افتدت السفن والرجال الذين تمّت التضحية بهم العالم من سيطرة دول المحور ، ولا توجد واقعة أعظم لحفنةٍ من الرجال المضحّين ، أدت إلى إنقاذ هذا الكم من الناس.

لم يعرفوا أنهم طعم في مصيده .. كانت تلك حقيقة ، كما أنهم لم يتطوعوا لذلك الواجب المحتوم لإنقاذ المجتمع الذي يخدمون والذي أنكر عليهم شرف أدائهم .. لقد كان العسكريون في هاواي .. أبرياء من أي جريمة تتعلق بعدم الجاهزية والاستعداد ، لأنهم كانوا يجهلون جميع الظروف السابقة على الهجوم .. أما فرانكلين د.روزفلت فلم يكن جاهلاً بها ، ولذا ليس بريئاً .

ولم يكن فرانكلين ديلانو روزفلت عارفاً فقط بأن الهجوم على بيرل هاربور على وشك الحدوث ، وإنما تعمّد وعن قصد استعجال الحدث.

ص129

وبدون مناورات روزفلت الميكيافيلية فإن هجوم 7 كانون أول 1941 الياباني على بيرل هاربر ما كان له أن يحصل .

وكانت حرب الخليج الثانية هي ما يمكن نعته " بحرب مناطق حظر الطيران " والتي زُعم بأنها إنما بدأت لحماية الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال ، وعلى كلّ .. فلأولئك الذين يعرفون مواقع خزانات النفط العراقي ومنشآت إنتاجه كما أعرفها ، فانه لن يكون من الصعب عليهم الاستنتاج .. بأنه ليس من قبيل المصادفة أن منشآت إنتاج النفط إنما كانت تقع في ***" مناطق حظر الطيران " .***

وخلال هذا الصراع الذي دام من نهاية حرب الخليج الفعلية في 1991 وحتى2003 فإن جميع وسائل الدفاع الجوي والدفاعات الأخرى في هذه المناطق قد تمّ تدميرها من قبل القوات الجوية الأميركية والبريطانية . وعلى الرغم من تجاهلها وعلى نطاقٍ واسع من قبل وسائل الاعلام الأميركية والبريطانية فقد تصاعدت هذه الحرب بوتيرةٍ ثابتة ، ففي كانون أول 1998 ، على سبيل المثال ، تم شن هجوم ضخم ولأربعة أيام تحت اسم " ثعلب الصحراء" ، وخلال الأشهر الثمانية الأولى من 1999 ، أطلقت القوات الأميركية

والبريطانية 11000 قذيفة وصاروخ ضد 359 هدفاً عراقياً طبقاً لما أوردته صحيفة نيويورك تايمز في مقالة لها بتاريخ 13 آب 1999.

ومع نهاية التسعينات كان قد تم حشد 22000 عسكري أميركي و200 طائرة عسكرية و 19 سفينة حربية . ومن المعتقد ان 500.000 طفل عراقي قد قضوا نحبهم في هذه الحرب كنتيجة مشتركة للنتائج الصحية الناجمة عن العقوبات وعن الضربات الصاروخية ، وعندما سئلت مادلين أولبرايت وزيرة خارجية الرئيس كلنتون عما إذا كانت متابعة أميركا لأهدافها تستأهل هذا الثمن ، كان ردّها البذيء ***" أعتقد أن هذه مفاضلةً صعبة ، إلا أن الامر ـ كما أعتقد ـ يستأهل هذا الثمن "*** [64].

ص 130

[64] 60 minutes interview that aired on May,12,1996, CBS television program

الفصل الخامس

غزو أميركا لأفغانستان والعراق:

"واحد من أسباب عدم وجود خطة خروج من العراق هو اننا لم نكن أصلاً ننوي الخروج"

البروفيسور شالمرز جونسون ، جامعة كاليفورنيا في سان دييغو

ان الوجود الأميركي في آسيا الوسطى هو ببساطة واحدة من حلقات خطة " منطقة تلو منطقة " ، والتي كان أول ظهورها في 1992 خلال رئاسة جورج بوش الأب . ففي هذا الوقت أصبح واضحاً أن السياسة الأميركية ، ومنذ سقوط الاتحاد السوفياتي ، اتخذت من الإمبريالية العالمية هدفاً مركزياً لها ، وكانت المخابرات المركزية الأميركية واستراتيجيو صفوة متنفذي البلد من اليمين المتطرف في عام 1992 ، يعرفون جيّداً بأن حقول النفط الرئيسية خارج الشرق الأوسط وربما خارج الاتحاد السوفياتي السابق ، كانت آخذة في النضوب بسرعة ، لذلك أصبح احكام السيطرة على طرق الوصول إلى النفط ذا أهمية قصوى . وقدرت الولايات المتحدة أن الآن هو الوقت الملائم لماكينتها العسكرية الضخمة كي يدور رحاها في مرحلة جديدة من العمليات .. وكان تم عرض هذه الاستراتيجية الجامحة في ما دُعي بـ"مبدأ وولفوتز" - دليل التخطيط الدفاعي للبنتاجون ، والذي وضعه بول وولفوتز وكيل وزارة دفاع الولايات المتحدة للسياسات ، وبعد تسريبها إلى صحيفة نيويورك تايمز في آذار 1992 ، تم وعلى نطاق واسع ، تعريفها ووصفها بالامبريالية ، وبأنها تُحبّذ الإجراءات العسكرية الاستباقية لإخماد التهديدات في مهدها ، ولإعاقة حصول بلدان أخرى على وضعية قوة عظمى ؛ ولم يكن مفاجئاً

ص 131

ظهور عددٍ من توصياتها في وقتٍ لاحق ضمن مبدأ بوش ، وكان الجنرال نورمان شوارزكوف الذي قاد حرب الخليج 1991 لغزو العراق قد استبق وثيقة وولفوتز في

1990 عندما أبلغ الكونجرس : ***" بأن نفط الشرق الأوسط هو بمثابة دم الحياة للغرب فهو يزودنا بالوقود اليوم ، وبما أنه يشكل 77 بالمائة من احتياطات العالم الحر المؤكدة من النفط فسيبقى يزودنا عندما تنضب موارد بقية العالم."*** [65]

إن هدفنا الكلّي في الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا هو أن نبقى القوة الخارجية الغالبة في المنطقة ، مع الحفاظ على قدرة الولايات المتحدة والغرب في الوصول إلى مناطق النفط ، كما أننا نبتغي حماية حريتنا في الوصول إلى الأجواء والطرق البحرية الدولية . ***وكما أوضح غزو العراق للكويت ، يبقى مهمّاً وبشكل أساسي منع قوى هيمنةٍ أو تحالف .. من التحكم في المنطقة ، وينسحب هذا بشكلٍ خاص على شبه الجزيرة العربية ، ولهذا فإنه يتوجب علينا الاستمرار في لعب دور ، عبر تعزيز الردع والتعاون الأمني المتقدم."*** [66]

" مبدأ وولفووتز " دليل التخطيط الدفاعي للبنتاجون 1992

تورط أميركا في أفغانستان

تنشّأ محمد ضياء الحق البنجابي المسلم ككابتن في جيش المستعمرات البريطاني فيما كان يعرف باسم الهند ، وذلك قبل تقسيم شبه القارة الهندية إلى هند وباكستان هذه الأيام ، وكان والده موظفاً مدنياً من مريدى الانكليز.

وقد صنعت الباكستان بذريعة اسم الإسلام ، على الرغم من أن مؤسسها محمد على جناح كان علمانيّاً . ولا بدّ أنه كان ذا حظوةٍ عند السلطات البريطانية والتي أسبغت عليه لقب " سير"

---

[65] F William Engdahl, “The oil factor in Bush's 'war on tyranny'”, *Asia Times online*, March 3, 2005, http://www.atimes.com/atimes/Global_Economy/GC03Dj02.html

[66] “Excerpts From Pentagon’s Plan: ‘Prevent the Re-Emergence of a New Rival’, *New York Times*, March 8, 1992.

، وعلى كل حال فقد مات قبل أن يتمكن من ترسيخ مبادئة العلمانية ، كما أن خلفاءه الضعفاء لم يتمكنوا من إرساء مبادئه.

ص133

وبدأ أبو الأعلى المودودي حركةً إسلامية قيل بأنها متأثرة بحركة الإخوان المسلمين ، وضربت هذه الحركة بجذورها في الباكستان وأصبحت تعرف باسم الجماعة الاسلامية أو عصبة المسلمين ، وكان ضياء الحق متعاطفاً مع تعاليم هذه الحركة ، وفي أواخر السبعينيات من القرن الماضي ، وبينما كانت ثورة الخميني تعتمل ثم نجحت في خلع الشاه محمد رضا بهلوي .. أعلن ضياء الحق -والذي بلغ رتبة جنرال الآن وأصبح رئيساً للباكستان - أعلن الباكستان دولة إسلامية ، وعلى الرغم من أنه كان متديناً فانه لم يكن على أي نحو متطرّفاً . وفيما يلي كيف وصف ضابط مخابرات برتبة لواء من المخابرات الداخلية الباكستانية ضياء الحق:

" مسلم ورع ؟! .. نعم .. الا أنه كان سياسيّاً إلى حد لا يمكّنه من أن يحوز حماس التعصّب والتشدّد" . وأضاف :" وبدون ضياء الحق ، فلعلّه لم يكن وجود جهاد ناجح ممكنا..." . [67] وهكذا ، وفي أغلب الظن ، فان هذا كان سبب وجوده في سدّة الرئاسة !! فالرئيس ريغان ورئيس وكالة مخابراته المركزية بيل كيسي لم يكونا يتحدّثان عن العلاقات الاميركية السوفياتية بلغة الجيوبوليتكس وإنما بمصطلحات الخير والشر الدينية ، وقد ركز كل من كيسي وريغان على " دور العقيدة " والأخلاق المسيحية في دحر الشيوعية " . وأقنع ضياء الحق والولايات المتحدة ، العربية السعودية بالانضمام إليهم في حربهم السرّية ضد الشيوعيين الكفّار الذين غزوا أفغانستان ، وبهذا انعقد زواج مصلحي ، وتم شن حربٍ سريةٍ من نوع فريد ، ضم الجهاد الإسلامي وصليبية البيت الأبيض ، مدعومة بفلوس وكالة

---

[67] Steve Coll, *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and bin Laden, From the Soviet Invasion to September 10, 2001*, Penguin, 2004, 61

المخابرات المركزية وكفاءاتها ، وبالكثير من الدم الغزير للأفغان المسلمين . وأدى هذا التلاقي الغريب العجيب لهذه القوى ، إلى تحقيق نتائج عسكرية باهرة أضعفت اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، وكانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير! ولكنها أدت أيضاً إلى إطلاق العنان لنتائج هامة لم يكن مخطّطاً لها ، وربما ذات طبيعةٍ كارثية ، غالباً بسبب

ص134

قانون النتائج غير المتوقعة ، وكانت طالبان واحدة من هذه المنتجات ، وكان أسامه بن لادن والقاعدة واحدة أخرى .

وفي كانون ثاني 1984 أعطى بيل كيسي الرئيس ريجان إيجازاً مضمونه أن مقاتلي المجاهدين قتلوا أو جرحوا 170,000 جندي سوڤياتي ، وطبقاً لتقديرات سرية لوكالة المخابرات المركزية ، والتي كان كيسي يزود ريغان بأرقامه منها ، فإن السوفيات قد فقدوا من 350 إلى 400 طائرة في القتال ، كما دمّر المجاهدون قرابة 2750 دبابة وناقلة جنود سوڤياتية مدرّعة ، وحوالي 800 شاحنة وجيب وعربات أخرى ، وكإجمالي وحتى ذلك التاريخ كبدّ جهاد المسلمين الاتحاد السوڤياتي حوالي 12 بليون دولار.

وأما كلفة ذلك بالنسبة للولايات المتحدة فلم تتعدّ 200 مليون دولار ، بالإضافة إلى مبلغ مماثل دفعته المخابرات السعودية ، حيث كانت العربية السعودية قد تعهدت بمجاراة النفقات الأميركية الخفية دولاراً بدولار ، ولم يجد كيسي مناسباً أن يذكر كمية الدم المسلم المسفوح سوى كونها مجرّد أضرار غير مباشرة . واستمر الجهاد إلى أن نجح في طرد السوفيات من أفغانستان كما أدّى إلى إنهاك إمبراطوريتهم إلى حد الانهيار.

- ويبدو أن ذاكرة الغرب قصيرة كما أنه لا يتعلم أبداً من التاريخ ، ففي القرن التاسع عشر أسمى ملك أفغاني يدعى دوست محمد نفسه أميراً للمؤمنين ،(وهو نفس اللقب الذي أطلقه ملاّ عمر طالبان على نفسه)، وكان ذلك عندما أراد البريطانيون الامبرياليون احتلال أفغانستان كي تشكل منطقة عازلة ، بينهم في شبه القارة الهندية وبين روسيا ، إلا أن الثوّار الأفغان مسلحين بحماس الجهاد الإسلامي ذبحوا آلافاً من جيش الاحتلال البريطاني وأفياله وأرغموه على " تقهقرٍ مشين " .

ص135

وغاصت أفغانستان في العنف والحرمان بعد أن هجرت الولايات المتحدة المجاهدين ، كما تخلّت الولايات المتحدة عن كافة المساعدات لأفغانستان بعد سنتين من تسلم بيل كلينتون السَّلطة .

وبعد تفجّر الاتحاد السوفياتي داخليّاً اختفت أجندة أفغانستان من السياسة الأميركية ، حيث كانت إدارة الرئيس كلينتون منهمكةً في نشر إنجيل العولمة وفي دعم رأسمالية الشركات ، وبالنسبة لهم ، بدت المصلحة القومية الأميركية ، وكما كانت دائماً ، ولكن ... على نحوٍ أكثر عياناً الأن ، بأنها مصلحة الشركات الأميركية وليست مصلحة ال 45 مليون أميركي الذين أعلنهم مكتب الإحصاءات الرسمية في واشنطن تحت مستوى خط الفقر . وإذا عدنا إلى الوراء حتى عهد الرئيس الأميركي هيز في القرن التاسع عشر ، فسنجد أنه كان قد صرّح : " إن هذه الحكومة لم تعد حكومة الشعب ، وبالشعب ، ومن أجل الشعب ، وإنما أضحت حكومة الشركات ، وبالشركات من أجل الشركات."

وتُركت الأطراف الأفغانية المتحاربة وبنية أفغانستان التحتية المدمّرة لأقدارها ، وكان قدرها مع طالبان..سلالة دوست محمد وبرئاسة أمير المؤمنين الملاّ عمر ، ومع ظهور روسيا الجديدة فقد تشاركت مع الولايات المتحدة في قلقها واهتماماتها حيال الصحوة الإسلامية المتصاعدة في أرجاء العالم الإسلامي كله ، من شمال إفريقيا وحتى إندونيسيا بما في ذلك أفغانستان . وكان الملاّ عمر وطالبان هم الذين برزوا كقوّةٍ مسيطرة بعد احتلالهم لكابول عاصمة أفغانستان ، إذ كان يتلقى عوناً من المخابرات الباكستانية.

وبعد الانتصار الانتخابي الإسلامي في الجزائر ، والحملات الإسلامية ضد رئيس مصر حسني مبارك ، وصعود حزب الله في لبنان ، وحماس في فلسطين ، أصبحت هذه الصحوة الإسلامية مصدر القلق الأميركي في العالم الإسلامي ، وكانت إلى ذلك أمراً مزعجاً لحلفاء أميركا العرب والمسلمين.

ص 136

وحتى عندما اختار ياسر عرفات وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية المنتمية إليه السلام مع إسرائيل ، أصبحت حماس مشكلته:

" جمعت منظمة التحرير معلوماتٍ استخبارية حول جمع حماس للتبرعات في العربية السعودية ، وحول مدارسها الدينية في اليمن ، وشبكاتها لتهريب السّلاح في السّودان ، وقد تجمع إرهابيون عنيفون هم أحد فروع حماس ويدعون الجهاد الفلسطيني الإسلامي حول متمول سعودي في المنفى يدعى أسامة بن لادن ، وكان هذا ما أبلغته منظمة التحرير الفلسطينية لرئيس محطة المخابرات المركزية الأميركية في تل ابيب ، وكانت منظمة التحرير الفلسطينية تأمل في أن تنضم المخابرات المركزية الأميركية إليهم في معركتهم ضد الاسلاميين ، مقوّضة بذلك حماس" [68].

وفيما مثّله الملاّ عمر وحركة طالبان فان أميركا وحلفاءها يكونون قد حصلوا على مالا يريدون ، فعلى العكس من ضياء الحق ، كان الملا عمر مسلماً ملتزماً لا يساوم على مبادئه من أجل السياسة، كما لم يكن لديه أية مطامح شخصية ولا تهمّة المقتنيات الدنيوية ، وقد أوضح أن طالبان : " هي عصبة بسيطة من الشباب الصغار الذي كرّسوا أنفسهم وبتصميم ، لإقامة قانون الله في الأرض ، ومستعدين لبذل الغالي والرخيص لتحقيق هذا الهدف ."

---

[68] Ibid., 260

وأضاف " إن طالبان ستقاتل إلى أن لا يتبقى في أفغانستان دماء يمكن أن تبذل أو أن يصبح الإسلام طريقة شعبنا في الحياة" [69]

وأبلغت السفارة الأميركية في باكستان واشنطن أن طالبان تلقت مساعدات من عدد من المصادر بما فيها باكستان ، ولكنها سارعت إلى الاستخلاص بأن الراعين لذلك سرعان ما سيدركون بأنهم ***" قد خلقوا نمراً لديه أكثر من الارادة باتخاذ اجراءات مستقله وأنه لن يكون صنيعة أحد أو أداة له."*** ولكن مثل هذه الأراء لم تحدث فرقاً .. حيث أن أفغانستان وببساطة لم تكن على أجندة واشنطن كلينتون السياسية ، وبقيت الحال على ما هي عليه ، إلى أن فرضت مصالح النفط والغاز ضرورة الانخراط في الشأن الأفغاني مرّةً ثانية.

ص137

أونوكال ، وهي الشركة رقم 12 في ترتيب شركات الطاقة الأميركية آنذاك ، قدّرت أن مغامرةً تتعلق بنفط وغاز جمهوريات آسيا الوسطى التي كانت تابعةً للاتحاد السوفياتي السابق ربمّا عوضتها عن انتكاساتها الأخيرة في أعمالها، وقرّرت أن تركز جهودها على جمهورية تركمانستان الصغيرة التي استقلّت حديثاً ، والتي لا يجاوز عدد سكانها الخمسة ملايين نسمة .. ولكن مع 159 تريليون قدم مكعّب من الغاز الطبيعي غير المستغل ، و32 بليون برميل من النفط . وهذه الاحتياطيات الضخمة تدعى " النفط والغاز الجانح " ، حيث أن البلد محاط باليابسة ولهذا ومع انهم سيحتاجون لاستثمارات ضخمة لرسوم العبور ولإنشاء خطوط أنابيب نقل هذه الاحتياطيات ، فقد كانوا بحاجة الى بلد يسمح لهم بالعبور ، ومع أن إيران يمكن أن تبدو الخيار الأكثر منطقية ، فإن الاعتبارات الجيوبوليتكية أدت إلى استبعاد هذ الخيار ، كذلك تمّ استبعاد روسيا لنفس السبب ، وأفضى ذلك إلى أن تصبح افغانستان الخيار المفضل التالي . وأرادت مجموعة أخرى من شركات نفط غربية ، أميركية وبريطانية في معظمها ، أن تبني خط أنابيبٍ من باكو متفادياً روسيا وعابراً

---

[69] Ibid., 289

لجورجيا وتركيا ، ورحبت تركيا بالفكرة ، وأما جمهورية جورجيا الحديثة الاستقلال فيمكن اقناعها عبر ثورة ملونة ، اذ أصبحت ثورات وكالة المخابرات المركزية الأميركية الملونة تقليدا لتغيير نظم الحكم حيث يكون ذلك ممكناً ، وفي مجال أعمال النفط فإن شيئاً ما لا يتاتى بسهولة ، غير أن العوائد والجوائز تستاهل العناء .

واختارت أونوكال مارتي ميلر ، والذي كان يدنو من نهاية خدمته وكان يتطلع إلى شيءٍ فيه تحدّ محرزٍ يقوم به . وكانت رحلته الطويلة في إنشاء مشاريع أونوكال وتعزيزها قد بدأت في صيف 1995 ، ووصل ميلر آشخاباد عاصمة تركمانستان .. وحيثما حلّ كان يرى صورة الرئيس التركماني نيازوف تحدّق فيه ، فما كان منه إلا أن لجأ إلى السفارة الأميركية طلباً للمساعدة ، وكان أن دعا نيازوف رسميي أونوكال الكبار إلى قصره، وأثناء الكثير من احتساء الفودكا تم كسر الجليد . وقررت إدارة كلينتون دعم أونوكال وأيضاً جميع الشركات الأميركية الأخرى للاستحواذ على مصادر النفط الجديدة في جمهوريات آسيا الوسطى والتي ولدت من بين مراتب الاتحاد السوفياتي السابق ، ولهذا دعمّت أونوكال بحميّة.

ص 138

كانت إحدى شركات النفط والغاز الخاصة ، المملوكة لعائلة بولغاروني بيداس ومقرها بيونس آيرس، تتطلع إلى احتياطيات النفط والغاز الجانحة في تركمانستان قبل أن تفعل أونوكال ذلك ، وكانوا يعلمون بأن للعربية السعودية علاقات وطيدة مع باكستان ، ولهذا حصل كارلوس بولغارينو على مقابلة مع الأمير تركي بن فيصل رئيس دائرة المخابرات في السعودية ، فأعجب تركي بكارلوس ولكنه رفض المشاركة بنفسه ، ولذا قدّم كارلوس إلى رجل أعمالٍ سعودي كان راغباً في القيام بذلك ، وذهب كارلوس إلى باكستان ، وحيث

أنه قدّم من قبل صديق سعودي متنفّذ فقد قابل بنازير بوتو - رئيسة وزراء باكستان - وزوجها الألعبان ، والذي كان رجل أعمالٍ من كراتشي . وعقد زوج بوتو وكارلوس صفقة تقضي بأن تشتري باكستان ، والتي هي بحاجة إلى الغاز ، كل ما يمكن للشركة الأرجنتينية ضخه من الغاز من تركمانستان إلى باكستان .

ووظفت أونوكال نفوذ حكومة الولايات المتحدة ، وكذلك أشخاصاً ذوي نفوذٍ سابق بمن فيهم هنري كيسنجر، وكان كل من زالماي خليل زاده وحميد قرزاي من بين مستشاري أونوكال ، وبعد عدة جولات من التفاوض ومن مزج سطوة الولايات المتحدة مع سطوة أونوكال ، تم إبلاغ ميلر في أيلول بأن نيازوف قررّ أخيراً السيّر مع أونوكال . وبذا تخلّى عن عرض بولغاروني ، وتمّ توقيع اتفاقية مع أونوكال تقضي بأن تبنى أونوكال خطيّ أنابيب للغاز والنفط عبر أفغانستان وباكستان ، بكلفة إجمالية تبلغ 8 بلايين دولار ، وتبقى المشكلة في إقناع أفغانستان والباكستان بقبول الصفقة . وأثناء مفاوضاته مع نيازوف ، وفي وقت لاحق أثناء اتصالاته لكسب الباكستان وأفغانستان إلى جانب مشروعه ، اجتمع ميلر بانتظام في واشنطن مع شيلاهسلين ، مديرة مسائل الطاقة لدى مجلس الأمن القومي في الجناح الغربي للبيت الأبيض ، كما اجتمع مع

ص 139

وكالة المخابرات المركزية في لانجلي وفي تكساس . وهكذا أخذت وزارة الخارجية في العمل بجدّ على موضوع باكستان أولاً .

وأصبح إقناع الباكستان بإسقاط عرض خطوط الأنابيب الأرجنتيني سياسة الولايات المتحدة، وأخذ السفير الأميركي إلى الباكستان توم سايمونز بتثقيف نفسه حول التفاصيل ثم ذهب بنفسه لكسب المواقف لصالح أونوكال .

" يبدو أن بوتو وطبقاً للكثير من أصدقائها المتفرنجين – قد دخلت في علاقةٍ زوجية غير موفقه .. فزوجها آصف زرداري - وهو رجل أعمال من كراتشي - يبدو وكأنه يصمم طموحاته وينفذها على طريقة شخصيات العرّاب في أفلام قبضايات هوليوود ، وقد ساهمت الادعاءات بفساد صفقات أعماله إلى أول إقصاء لبوتو كرئيسة وزراء في 1990. "[70] كما كتب ستيف كولينز في كتابه "حروب الأشباح " في الصفحة 310 ، وقد ادّعت أونوكال بأن لديها معلومات تفيد أن بوتو سوف تستمر في دعم المشروع الأرجنتيني بسبب الرشوه المقدمة لزوجها "[71]. وبدأ أنصار أونوكال ينثرون التلميحات لسفارة باكستان في واشنطن بأن الشركة تعرف عن الرشاوى المفترضة ، وكان مؤدى الرسالة كما تمّ فهمه من قبل بوتو وحلفاؤها - على ما يبدو - جليّاً وواضحاً ، وهو أنه إذا أرادت بنازير بوتو تفادي المشاكل حول مسألة الفساد ، فيتوجب عليها المبادرة دون معيقات والتعاقد مع أونوكال. ص310 ، كذلك علمت السفارة الاميركية في الباكستان أن شخصاً ما في حكومة بوتو قد تلقى رشاوى تتعلق بالمشروع الأرجنتيني .

ومع نهاية عام 1996 زار توم سايمونز بوتو في مكتبها وأبلغها مباشرةً وبلهجةٍ صارمه بأن عليها أن توقع مع أونوكال ، وأن تتخلى عن مذكرة التفاهم مع شركة بريداس الأرجنتينية . وبدا الوضع كما لو كان يصدر إليها أمراً وليس اقتراحاً ، ومع أنها اظهرت عدم رضاها عن لهجة سايمونز ، فقد أبلغته بأنه ليس بمقدور باكستان أن تفعل ذلك حيث أن هناك عقدا قد تم توقيعه بالفعل.

ص140

---

[70] Ibid., 310

[71] Ibid., 310

فأبلغها سايمون بأن ذلك يدعى ابتزازاً ، بمعنى أنها لن توقع صفقة أونوكال ما لم تتم رشوة زوجها، فاهتاجت بوتو عند ذلك وطلبت إليه الخروج ، فقد عرف عنها الدفاع عن زوجها بانفعالٍ وعناد . وكان على ميللر الآن أن يحاول إقناع طالبان في أفغانستان . وفي وقت متأخر من ربيع 1996 ، توجه إلى قندهار لمقابلة طالبان وأطلعهم على صور وحاول التأثير فيهم بأرقام الوظائف والدولارات التي ستجلبها مشاريع خطوط الأنابيب لأفغانستان ، وكان قد أمن ترجمةً إلى لغة الباشتو للوحات التوضيحية التي استخدمها ، ولكونهم غير مسلمين فقد تم إبلاغ جماعة أونوكال أن ليس بمقدورهم مقابلة الملاّ عمر رئيس طالبان ، إلا أنهم قابلوا آخرين من قادة طالبان في غرفةٍ خلو من الأثاث إلا من بعض البُسُط على الأرض . وكان ميللر أحضر معه مسودة اتفاقية مبدئية ، إلا أنه اكتشف أن طالبان لم يكونوا في نهاية المطاف على تلك الدرجة من البدائية ، فقد أرادوا التعامل ولكن بموجب شروطهم الخاصة . فما كان من ميللر إلا أن حزم امتعته وغادر قاصداً حاكم طالبان في بلدة هيرات ، وقد اعتقد الحاكم أن ميللر كان طيباً للغاية ولذلك سأله : " لماذا لا تعتنق الاسلام؟" وبالتأكيد لم يكن ذلك ما حضر ميللر من أجل أن يفعله في أفغانستان ، ومع ذلك قابل أميركيّاً من نيوجرسي اعتنق الإسلام وتحول إلى طالباني مسلم ورع ، مع تبنيه اسماً إسلاميّاً هو سلمان ، وما أن عاد ميللر إلى الولايات المتحدة حتى زاره أحد ضباط العمليات من رجال وكالة المخابرات المركزية الأميركية في مكاتب أونوكال في شوجر لاند تكساس . وكان مثل هذا الأمر روتينياً فاما أن يقوم ميللر بزيارة وكالة المخابرات المركزية في لانـچلي ، أو أن ترسل لانجلي ضابط عمليات لتبادل المعلومات مع ميللر بعد عودته من رحلات خارجية ، وكانت هذه اللقاءات في الغالب تكرّس لتقارير ميللر عن رحلاته ، وفي أحيان أخرى قليلة ، فلربما تعطي الوكالة تلميحةً أو معلومة ذات قيمة لميللر ، ولقد كانت تلك علاقة متداخلة بين حكومة الولايات المتحدة وإحدى شركات الولايات المتحدة في سبيل تمكين الحكومة من أن تكون بتصرّف الشركات.

ص141

وتابعت أونوكال تعزيز علاقاتها مع طالبان ، خاصة بعد أن هزمت طالبان مسعود شاه والذي كان هو وقواته الشمالية على جدول رواتب وكالة المخابرات المركزية ، وكان مسعود ينشر إشاعات بأنه توجد مؤامرة بين أونوكال ووكالة المخابرات المركزية وطالبان مكنت طالبان وبمساعدة المخابرات الباكستانية من السيطرة على معظم أفغانستان ، وقد أسرّ أحد رسمي وزارة الخارجية إلى نظيرٍ روسيّ له بأنّ : " حكومة الولايات المتحدة تأمل الآن في أن يؤدي السلام في المنطقة إلى تيسير الأمور أمام المصالح والأعمال الأميركية ." وفي اجتماعٍ مغلقٍ لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في نيويورك اقترحت روبين رافل - من وزارة الخارجية - أنه يتوجب على جميع الأمم محاربة طالبان من أجل السلام ، وكان تبريرها لنجاح طالبان في السيطرة على أفغانستان : " إن المصدر الحقيقي لنجاحهم هو رغبة الكثيرين من الأفغان - وخاصةً البشتون - في أن يبادلوا وبصمت ، حروبهم وفوضاهم اللانهائية بقدرٍ ولو قليل من السلام والأمن ، حتى ولو كان ذلك مع قيود اجتماعيّة حادّة . "[72]صفحة 335

---

[72] Ibid., 335

ومع فقدان اونوكال لاهتمامها بمشروع خط الأنابيب ، وحيث أن طالبان رفضت تسليم أسامه بن لادن للولايات المتحدة ، دون دليلٍ معتبرٍ على تورطه في أعمال غير قانونية ، خسرت طالبان حظوتها في السياسة الأميركية . فهي بعد كل شيء حركة إسلامية ، وأميركا الآن كانت تخطط للصدام مع الاسلام تحت لافتة صدام الحضارات والذي تحوّل إلى حرب الإرهاب ، مع إعطائها اسمها السري..." الحرب على الإرهاب ".

أميركا وصدّام حسين

في 1959 انضمّ شاب عراقي في الثانية والعشرين من عمره إلى مؤامرة لوكالة المخابرات المركزية لاغتيال الرئيس العراقي الجنرال عبد الكريم قاسم ، وكان اسم هذا الشاب صدام حسين . وسواء عرف باشتراك وكالة المخابرات المركزية أو أنه كان..دون علم .. يتبع كبار رجالات حزبه

ص142

الذين كانوا يعلمون عنها ، فيبقى ذلك مسألةً مفتوحة للنقاش ، كما تبقى أيضاً احتمالية تحالف فرصةٍ مصلحيّاً ، تم صوغه بين كبار حزب البعث ووكالة المخابرات المركزية .

وفي 7 تشرين أول 1959 تعرض موكب عبد الكريم قاسم للهجوم ، وفيه قتّل صدّام سائق عبدالكريم قاسم ، وجرح قاسم ، كما جرح هو نفسه من النيران المتبادلة مع حرس قاسم الشخصي.

وفي شباط 1963 قتل قاسم في انقلاب قام به حزب البعث ، وكانت تتعهده وكالة المخابرات المركزية ، طبقاً لما كتبه روجرموريس في نيويورك تايمز بتاريخ 14 آذار 2003 حيث قال:

" قبل أربعين عاماً مضت ، قامت وكالة المخابرات المركزية وفي عهد الرئيس جون إف. كينيدي بتغييرها الخاص لنظام الحكم في بغداد ، وثم التنفيذ بالتعاون مع صدّام حسين" .

وكان الرئيس الذي ينظر له في 1963 على أنه يشكّل تهديداً خطيراً هو عبد الكريم قاسم . وتآمر الولايات المتحدة ضد عبد الكريم قاسم قد تمت البرهنة عليه - وعلى نطاقٍ واسع على كل حال - في إفصاحات لجنة مجلس الشيوخ حول المخابرات ، وفي أعمال الصحفيين والمؤرخين مثل ديڤيد وايز، والذي يعتبر مرجعاً عن وكالة المخابرات المركزية . وفي غياب معارضة ذات وزن داخل الحكومة .. اندفع كينيدي للأمام ، ففي القاهرة ودمشق وطهران وبغداد تم تنظيم العملاء الأميركيين خصوم النظام العراقي ، وأقامت واشنطن قاعدة عمليات في الكويت تعترض الاتصالات العراقية وتبث الأوامر للثوار..ثمّ وفي 8 شباط 1963 قام المتآمرون بانقلابٍ في بغداد .. فاستسلم قاسم . وبعد محاكمةٍ قصيرة وسريعة أطلقت عليه النار[73].

ص143

وكانت احدى خطايا عبد الكريم قاسم من منظور وكالة المخابرات المركزية هي قانون البترول رقم 80 ، والذي انتزع جميع المناطق التي لم تقم شركة بترول العراق IPC بالعمل فيها . وكان جميع النفط العراقي في ذلك الوقت يتم إنتاجه من 1% من مساحة العراق . وهكذا يكون قاسم قد صادر 99% من مساحة العراق من امتياز IPC . وأما عن علاقة وكالة المخابرات المركزية مع البعث في العراق ، فقد نقل جون إف كولي في كتابه ***" حلف ضد بابل "*** عن الملك حسين ملك الأردن مخاطباً رئيس تحرير صحيفة الأهرام في 27 أيلول 1963 : ***" اسمح لي بأن أخبرك بأنني أعرف على وجه اليقين بأن ما حصل في شباط 1963 كان يحظى بدعم المخابرات الأميركية "*** [74]

وفي عقود وسنوات الحرب الباردة أدارت الولايات المتحدة سياستها الخارجية عن طريق العمليات السرية لوكالة المخابرات المركزية والحروب بالوكالة ، ولكن مع مقدم القرن

---

[73] Roger Morris, “A Tyrant 40 Years in the Making”, *New York Times*, March 14, 2003

[74] John K. Cooley, *An Alliance Against Babylon: The U.S., Israel, and Iraq*, Pluto Press, 2005, 93

الحادي والعشرين بدأت تقوم – وبصورة منفردة – بغزو الأمم وكما يحلو لها ، وفي 1948 قال جورج كنيان مدير موظفي التخطيط السياسي لدى وزارة خارجية الولايات المتحدة وشخصية بارزة في الحرب الباردة الناشئة:

لدى الولايات المتحدة قرابة 50% من ثروة العالم ، و6,3 % من سكان العالم فقط ، وفي هذه الحالة لا يمكن إلا أن تكون محطّ الحسد والنفور ، ولذا فإن مهمتنا الحقيقية في الفترة القادمة ستكون اجتراح نمطٍ من العلاقات ، يسمح لنا بالحفاظ على وضعية التفاوت والتباين هذه ، دون الإضرار الإيجابي بأمننا القومي ، ولتحقيق ذلك علينا التخلّي عن كافة نزعاتنا العاطفية وأحلام اليقظة ، مع وجوب تركيز اهتمامنا في كل مكان على أهدافنا القومية المباشرة . وعلينا أن لا نخدع أنفسنا بأنه يمكننا تحمل ترف الإيثار والإحسان للعالم ، كما يجب أن نتوقف عن الحديث عن أشياء غامضة ، وأهداف غير حقيقية مثل حقوق ألإنسان ، ورفع مستويات المعيشة ، ونشر الديموقراطية. وإن اليوم الذي

ص144

سنلجأ فيه للتعامل بمفاهيم القوة المباشرة ليس ببعيد . وكلما كانت الشعارات المثالية حينئذٍ اقل إعاقة لنا كلما كان الأمر أفضل"[75] . ولسوء الحظ باشرت الولايات المتحدة تطبيق سياسة كينان علناً ، ولكن دون أن تلتزم بنصحه في وقف الحديث عن الأهداف غير الحقيقية مثل حقوق الإنسان ورفع مستويات المعيشة ونشر الديموقراطية ، وكان أن أطلق على الغزو البربري للعراق اسم "عملية حرية العراق ".

وفي الساعة 5:34 بتوقيت العراق ، وبتاريخ 19 آذار 2003 بدأت الحرب الأميركية الثالثة ضد العراق منذ 1991 ، حيث تلت حرب الاحتلال حرب "عاصفة الصحراء " وحرب "مناطق الطيران المحظورة " ، وبدأت بقصفٍ من القاذفات الخفية (ستيلث)

---

[75] George F. Kennan, Policy Planning Study 23 (PPS23), *Foreign Relations of the United States* (*FRUS*), 1948

وصواريخ توماهوك كروز ، وبلغت عملية " الصدمة والرعب" (سميت فيما بعد " عملية الحرية ") أوجها في نيسان بالاحتلال العسكري لبغداد.

ظلال المـاضي

إن المبادرة لاحتلال أرض الآخرين والأدوار المسندة ذاتياً للتدخل في شؤون البلدان الأخرى ، قديمة قدم التاريخ الأميركي نفسه ، ففي 1823 شرّع الرئيس مونرو ما أصبح يعرف لاحقاً بمبدأ مونرو ، وضمن نقاطٍ أخرى أوضح هذا المبدأ أنه ليس لأي دولة أوروبية أن تستعمر - على الإطلاق - بلداً في الأميركيتين ، كما أنه أطلق عقيدة أن الولايات المتحدة ستعتبر أي محاولة للاستعمار تهديداً لأمنها القومي ، وفي وقت لاحق سيضيف الرئيس ثيودور روزفلت عبارته المشهورة والتي يمكن إيجازها كما يلي : ***" تحدّث بنعومه واحمل عصاً غليظة "*** . وفي 1962 أطلع دين راسك وزير خارجية كيندي إحدى لجان مجلس الشيوخ على 103 تدخلات أميركية في شؤون البلدان الأخرى بين 1798 و 1894 فقط ، وكان درس رسك في التاريخ - في جوهره - دفاعاً عن هجوم الإدارة على كوبا ، وهو غزو خليج الخنازير الفاشل في 1961 . وفي 1963 أوضح دين أتشيسون وزير خارجية ترومان السابق والمستشار في وقتٍ لاحق

145

لكلٍّ من إدارات كنيدي وجونسون ونيكسون ، أوضح وبفظاظه أن بقاء الدول هو مسألة ليس للقانون من شأن بها .

تشابـهات غريبـة

عندما أساء بوش فهم الحقائق لحث إدارته على شن حرب احتلال مدّعياً بوجود صلةٍ بين صدام و 9/11 ، كما تضرّع للربّ لتأييدها ودعمها ، فإنما كان - وبشكلٍ غير مقصود - يبدو مردّداً لأصداء تاريخيةٍ اخرى.

كان السبب الرسمي لتعليل بدء الولايات المتحدة الحرب الاسبانية الأميركية ، هو الإدعاء بأن إسبانيا قد دمرّت المدمرّة الاميركية يو.إس.إس. مين في هاڤانا . وتم التحقيق في الادعاء ، ولكن فقط بعد احتلال كوبا ومناطق اسبانية أخرى ، حيث اتضح أن الانفجار على المدمرة مين كان على الأرجح " حادثا فنّيا " ولم يكن مدبراً من إسبانيا ، أما المفجر الحقيقي لهذه الحرب فإنما كان رغبة أميركا في التوسع إلى أسواق الشرق الأقصى خاصةً الصين ، وهنا تدخل الفلبين إلى المشهد : فمن أجل تأمين معبرٍ إلى " الشرق " فقد كانت الولايات المتحدة مصممة على احتلال هذا البلد ذي الجزر ذات الموقع الاستراتيجي .

إلا أن أكثر الأمور مدعاةً للانزعاج كان الكيفيّة التي برزّ فيها الرئيس المعني الغزو ، ولقد استخدم كل من ماكينلي وبوش الربّ من أجل الذهب ، فماكينلي أبلغ مجموعةً من زوار البيت الأبيض كيفية تلقيه رسالة إلهية لاحتلال وضم أراضي شعوب أخرى:

" الحقيقة هي أنني لم أكن أريد الفلبين ، ولكن عندما جاءتنا كهدية من الرب لم أدر ما الذي أصنعه بها .. لذا طلبت النصح والمشورة من جميع الجهات - من الديموقراطيين ومن الجمهوريين على حد سواء - ولكن لم أوفق سوى في الحصول على القليل من المساعدة ، وفكرّت في البداية أن نكتفي بأخذ مانيلا فقط ، ثم لوزون ، ثم .. ربما جزر أخرى أيضاً ، وبقيت أذرع أرضية البيت الأبيض جيئةً وذهوباً ، ليلة بعد ليلة ، وحتى منتصف الليل ، ولست

146

خجلاً من إبلاغكم ، أيها السادة ، بأنني جثوت على ركبتي وصليت للرب الكلي القدرة طلباً للنور والهداية ولأكثر من ليلةٍ واحدة ، وفجأة وفي وقتٍ متأخرٍ من احدى الليالي أتتني على هذا النحو .. ولا أدري كيف كانت إلا أنها أتت .. لم يعد هناك من شيء علينا فعله

سوى الاستيلاء عليها جميعاً ، ومن ثمّ تعليم الفلبينيين والارتقاء بهم وتحضيرهم وتنصيرهم ... وبعد ذلك أويت إلى الفراش لأنام ، ورحت في نومٍ عميقٍ مريح." [76]

أما توكل بوش على الهداية الخاصة فقد كان أكثر بياناً ، فقبل أسبوع من غزو الولايات المتحدة للعراق في 10 آذار 2003 ، كتب هوارد فينمان في النيوزويك كجزء من تقرير خاص حول "بوش والرب " :

"يستيقظ جورج بوش قبل الفجر في معظم الأيّام .. وينسحب إلى مكانٍ هادئ لكي يقرأ على انفراد ، ومادة قراءته ليست ملخَّصاتٍ اخبارية عن برقيات المخابرات .. وليست قراءة من النوع المسلي ... وإنما بدلاً عن ذلك ، كما أخبر أصدقاءه ، يقرأ كتاباً إيڤانجيليكيا يحتوي على عظات قصيرة (كتاب My Utmost For His Highest) ، والمؤلف هو أوزوالد تشامبرز ، وتحت هذه الظروف فإن الاصداء التاريخية عالية ، فتشامبرز كان واعظاً بابتيّاً جوالًا من اسكتلندا ، مات في شهر تشرين ثاني عام 1917 بينما كان يحضر الانجيل للجنود الاستراليين والنيوزيلنيديين المتحشدين في مصر (في جيش الجنرال أللنبي) ، ومع حلول الكريسماس كانوا قد ساعدوا في اغتصاب فلسطين من الأتراك (المسلمين) ، والآن يدور كلام حول حرب جديدة في الشرق الأدنى ، ولكن في هذه المرة في أرضٍ تدعى بابل ، وفي وقت لاحقٍ من ذلك اليوم .. أبلغ بوش مذيعين متدينين .. أن الولايات المتحدة مدعوة لمنح كل إنسان في العالم هدية الرب ألا وهى الحرية .

حيث القيادة لبريطانيا

مع دلائل وتوقعات جيدة للعثور على النفط في إيران والعراق ومناطق أخرى من الخليج وشبه الجزيرة العربية ، أصبح النفط الدافع الرئيسي لكافة أنشطة الامبراطورية البريطانية

---

[76] , Stephen Rosskamm Shalom, *The Philippines Reader: A history of Colonialism,* Daniel B. Schirmer *Neocolonialism, Dictatorship, and Resistance*, *International Studies*, South End Press, 1987, 22,23

السياسية والجيوبوليتكية ، أما وأنه (النفط) يتوافر بغزارة في المنطقة فكان أمراً واضحاً ، إذ كانت التسرّبات النفطية شائعة ، وكانت أول إشارة تاريخية عن البترول قد حصلت قبل 5000 عام في مدينة هيت على مبعدة أميال من بغداد ، إلا أن أول كشفٍ نفطي في الشرق الأوسط - باستخدام التكنولوجيا الحديثة - كان قد تمّ في حقل مسجد سليمان في إيران عام 1908 ، بعد حوالي 49 عاماً من حفر أول بئرٍ نفطيةٍ في العالم عام 1859 في بنسلفانيا .

وما أن اندلعت الحرب العالمية الأولى في آب 1914 ، حتى كتب سكرتير مجلس وزراء الحرب البريطاني السيرموريس هانكي إلى آرثر بلفور بأن النفط الإيراني والعراقي يشكلان ***" هدفاً بريطانياً للحرب من الطراز الأول ".*** [77]

وفي 6 تشرين ثاني 1914 دفعت بريطانيا بقوات عسكرية ، لحماية مصفاة شركة النفط الأنجلو إيرانية في عبادان (APOC) ، وكان أن احتلّت هذه القوات شبه جزيرة الفاو في العراق ثم مدينة البصرة بعد ذلك بأسبوعين .

وفي آذار 1917 تمكن الجنرال فريدريك مود ، مع جيشٍ متفوق ، من احتلال بغداد معلناً ادعاءه الشهير بأن البريطانيين إنما جاؤوا محرّرين وليسوا بفاتحين . وحسب بعض التقديرات ، فقد البريطانيون 92000 رجلا في حملة بلاد ما بين النهرين ، إلا أنه طبقاً لآخرين وكما ورد في كتاب "النفط ، الله والذهب" لأنثوني كيف براون ، فقد كان الرقم هو 252,000 . ومع أن البريطانيين أرادوا نفط العراق لأنفسهم وجزئياً للفرنسيين ، حيث أن أميركا كانت تملك 82% من احتياطيات العالم ، فقد استمر الأميركيون في تكديس الضغوط على بريطانيا المنهكة ، والتي احتاجت لدعم أميركا بعد الحرب . إلا أن بريطانيا ما لبثت أن اذعنت وخصصت بعض الحصص لشركات النفط الأميركية . وتشكلت نقابة من سبع شركات أميركية باسم شركة تنمية الشرق الأدنى خصيصاً لهدف الانضمام إلى شركة

---

[77] Howard Fineman, “Bush and God”, *Newsweek*, March 10, 2003.

البترول التركية (TPC) ، وفي 1924 عدّلت الحصص في TPC لتضم شركة تنمية الشرق الأدنى (NEDC) إلى تركيبتها ، وعند ذلك أعيدت تسمية شركة البترول التركية (TPC) لتصبح شركة بترول العراق (IPC) ، وهكذا كان أول دخول أميركي لحوزة نفط الشرق الأوسط عبر العراق . وكذلك كوّن الفرنسيّون أول شركة

148

نفط لهم هي شركة البترول الفرنسية (CFP) بهدف دخول العراق واخذ حصتها مع IPC ، وتم حفر أول بئر نفطية في بابا غرغور في تشرين أول 1927 ، وعندما عثر الحفارون على النفط ، ثبت أن البئر من أضخم آبار النفط في العالم.

والآن ، يصبح نفط العراق ... عند الأميركيين.. هدفاً للحرب من الطراز الأول .

لم يعرف عن جورج دبليو بوش - على الاطلاق - لا حدة الذهن ولا المعرفة بالشؤون الخارجية ، وفي الحقيقة ، عندما سئل من قبل مجلة جلامور في أيار 2000 عما إذا كان يعرف من تكون طالبان ، أجاب بأنها فرقة لرقصة روك أند رول . وكواحدٍ من رجال النفط وابن رجل نفط ، وعنده ديك تشيني نائباً للرئيس .. وهورجل نفط ، وكوندوليزا رايس عضوة مجلس إدارة واحدة من عماليق شركات النفط الأميركية ، ومستشارته لشؤون الأمن القومي - لذلك فقد كانت إدارة جورج دبليو.بوش ، إدارة من الدرجة الأولى لأميركا الشركات البترولية ، ولجهدها الامبريالي في السيطرة الكاملة على نفط العالم . ولم يكن هذا مرغوباً فيه لتعزيز أرباح الشركات فقط ، وإنما كان إلزامياً ولا بدّ منه لأميركا كي تتمكن من إنفاذ دورها الناشئ عن تعيينها لذاتها منفذاً للعولمة ، ولتأمين الاحتياجات النفطية للامبراطورية الأميركية وحلفائها ، في وقت وصلت فيه مواردهم البترولية قمة إنتاجها ، وأصبحت في مراحل نضوبها الاخيرة . وقد تحدث الأميركيون قليلاً عن وصول نفطهم حد

إنتاجيته الأعلى ، ولكنهم يعرفون الكثير .. فالولايات المتحدة قد استنزف نفطها ، بينما يمتلك العالم الإسلامي في الشرق الأوسط وأواسط آسيا معظم ما تبقى من نفط ، وفي الحقيقة فإن معظم احتياطيات النفط في العالم كانت آخذة في الانحدار إنتاجياً صوب نهايتها ، فيما عدا الشرق الأوسط ودول أواسط آسيا الاسلامية .

وكانت المعضلة بينه ، فحضارة أميركا والغرب القائمة على النفط .. إنما تعتمد على نفطٍ لا تملكه ، ويقع في بلادٍ إسلامية ترفض بعناد الانضواء تحت مظلة الغرب الذي تقوده الإمبراطورية الأميركية.

أما أجندة بوش فتتلخص في سطرٍ واحد ، ففي أيار 2001 وقبل شهرين من استلامه السلطة قال:

ص 149

" ما يحتاج الناس الى سماعه وبصوتٍ عالٍ وواضح ، هو ان الطاقة في أميركا تنضب."

وقلة فقط من الأميركيين الذين تم اشغالهم باحتياجات بقائهم - ومن اليد إلى الفم - أصغوا ، وأقل من ذلك بكثير.. هم من سمعوا بصوتٍ عالٍ وبوضوح.

وفي 1999 قال ديك تشيني في خطابٍ له بمعهد النفط في لندن ***:" ان النفط ينضب من العالم ، وان الاكتشافات الجديدة متخلفة عن الطلب العالمي ، وان الشرق الأوسط هو المكان الوحيد الذي يمكن فيه الحفاظ على مستوى التزويدات أو إنقاصه ، بينما تتناقص لدى الآخرين ، وأعطى تقديراً بتناقص الخزانات الحالية بنسبة 3% ، مع ارتباطها بزيادة في الطلب قدرها 2% ، وبما مؤداه أنه في 2010 " سنحتاج في حدود 50 مليون برميل في اليوم ، ويبقى الشرق الأوسط - حيث يكمن ثلثا نفط العالم مع أخفض كلفة إنتاج - المكان حيث المغنم الحقيقي. "***

وقد كتبت مجلة تكنولوجي ريڤيو الصادرة عن معهد ماساشوستس للتكنولوجيا (MIT) أنه إذا كانت الأفعال وليست كلمات شركات النفط الكبرى هي المقياس لقراءة المستقبل ، فالحقيقة هي أنهم لم يبنوا في أميركا مصفاة نفط واحدة منذ العام 1972 ، كما أن ناقلات النفط التي تترك الخدمة هي أكثر من تلك التي يبنونها . وفي الحقيقة فإن هذه الفعّاليات قد تُركت في معظمها للدول المنتجة ، حيث أن هذه الشركات تموضع نفسها لعصر ما بعد النفط.

وفي كتابه عصر الاضطراب الصادر في 2007 ، كتب الان چرينسبان - وهو مصرفي بنك مركزي سابق - "لقد احزنني أن يكون من غير المناسب سياسيّاً أن أقر بأن كل واحد يعرف أن العراق في الحقيقة هو بسبب النفط ." وربماكان الكل يعرف فعلا ، عدا الشعب الأميركي .

متوازيات تاريخية

أما أن الولايات المتحدة كانت تتصرف بالضبط تماماً مثل القوى الامبريالية الأخرى فيمكن الاستدلال عليه بسهولة من تحليل الحقائق ، فعندما أبحر نابليون ب300 سفينة و40.000 جندي

150

لغزو مصر وهي ولاية عثمانية في ذلك الوقت ، وصل في النهاية إلى القاهرة، وفي 25 تموز 1798 وبعد معارك لا تذكر مع المماليك الذين كان يفترض فيهم أنهم المدافعون عن مصر لحساب الأمبراطورية العثمانية . وذهل المصريون عندما رأوا الفرنسيين يدخلون القاهرة تماماً مثل الدخول الأميركي السهل إلى بغداد في 9 نيسان 2003 ، وقد كانت " الصدمة والرعب " على طراز 1798. وابتداءً اشترى الجنود الفرنسيون كل شيء باسعارٍ غالية كثيراً لاستمالة السكان إلى جانبهم ، وجاب الجنود الفرنسيون الشوارع عزّلا من السلاح ، وهكذا فعل مشاة البحرية الاميركية في 2003 ، وأحضر نابليون معه الى مصر 36 عالما لكي يفهم مصر و ثقافتها ولتغيير قوانينها من دينية الى علمانية ، وهو هدف استراتيجي ليس لنابليون فقط وإنما للغرب بما في ذلك الإرساليات الأميركية ، وإذا كان

الأميركيون يدعون بأنهم يجلبون الديموقراطية محملّة على صواريخ كروز ، فكذا فعل نابوليون الذي ادعى أن غزوه جلب التنوير . وحكم بالبيانات مثلما فعل بريمر أول حاكم إداري للعراق ، وثانيةً ، وكما ادعى جورج دبليو بوش ، ادعى نابوليون بانه قدم لتحرير السكان من طغيان حكامهم ! وهي صيغة قياسية ثابتة ! فقط قم بتغيير التواريخ وبعض الأسماء وستحصل على القصة نفسها.

وعندما دخل نابوليون القاهرة دعا الوجهاء (الشيوخ) ، وأبلغهم أنه يريد حكم البلد بمجموعةٍ من عشرة وأن يضع القوانين ، وهكذا حكمت أميركا العراق بعد غزو 2003 ، حيث أقامت السلطة المركزية المؤقتة (CPA) ، وهكذا كان لدى نابوليون ال CPA الخاصة به ، واتخذ من القصر المبني حديثاً والعائد لمحمد بيه الألفى الحاكم السابق مقرّاً لقيادته ، وهكذا كان لنابوليون منطقته الخضراء تماماً كما اتخذ بريمر من مجمع قصور صدام حسين الرئاسية في وسط بغداد منطقة خضراء له ، وبعد أن استفاق سكان القاهرة وبغداد من " صدمتهم ورعبهم " لم يعجبهم ما رأوا : محتل اجنبي .. ولذا بدأوا عصيانهم! ورد الفرنسيّون بنصب مدافعهم (حيث لم يكن لديهم بالطبع طائرات إف 16) وإطلاقها على ما قرروا أنه مركز قيادة

151

المقاومة وهو مسجد جامعة الأزهر ، وأراد نابليون متابعة نهجه حيث أوفد جنرالاً تلو الآخر ، فأرسل الجنرال دوبريه وقواته لتنفيذ " عملية أي شيء " لوقف التظاهرات والتمردّات ، أما أعمال الشغب التي تحوّلت إلى ثورة فقد بدأت في تشرين الأول 1798 ، حيث قتل الجنرال دوبويه مع الكثيرين من جنوده ! واعتقد نابليون أنه قبض على قيادة التمرد بمن فيهم رئيس نقابة العميان ، والذي تم إعدامه مع أربعة آخرين ، كذلك سمم الفرنسيون الكلاب لأنها كانت بنباحها تطلق إنذاراً بمقدم الجنود الفرنسيين ، كذلك دمروا أجزاء من المدينة بما في ذلك مساجد ومنازل وقصوراً ، ولا بدّ أن تلك كانت فللوجة نابوليون ، ولاحظ نابوليون أن العثمانيين والمماليك والبريطانيين كانوا يشكلون محوراً للشر لإخراجهم من مصر ، ولذا قرر إعلان حربٍ إجهاضية فغزا فلسطين ، إلا أنه هزم في عكا ، لذا عاد إلى مصر وغادرها سرّاً إلى فرنسا في 22 آب 1799 بعد " إنجاز مهمته " ، ويبدو أنه كوفئ على هزيمته فتم تنصيبه قنصلاً أول على فرنسا في 1799، تماماً مثل جورج دبليو بوش الذي كوفئ على إخفاقه التام في العراق بفترةٍ رئاسيةٍ ثانية!

وترك الجنرال كليبر مسؤلاً في القاهرة ، إلا أنه قتل على يد متمرد مسلم أجنبي يدعى سليمان الحلبي ، متمرد مسلم أجنبي ! جهادي ! أو لعله كان من القاعدة- لا بأس في ذلك فالقاعدة لم تكن قد وجدت بعد ، ولو ترك الأمر لإذاعة CNN فسوف تتمكن من بيع الفكرة لكتل الجماهير الأميركية الجاهلة وغير المتشككة ، وأعدم الحلبي مع اثنين من رفاقه أما كليبر فخلفه الجنرال جاك مينو ، والذي اعتنق الإسلام في وقتٍ لاحق ، وأصبح يدعى الجنرال عبدالله جاك مينو وتزوج مصرية أنجب منها أبناً سمّاه سعيد سليمان مراد ، وربما يتسنى لأميركا التخلص من مستنقعها بجعل الجنرال بترايوس يتخذ زوجةً ، من مسلمةٍ أفغانية .

152

لقد تعاون محمد علي مع البريطانيين لطرد الفرنسيين من مصر ودام حكمه 43 سنة (1805-1848) وباشر مشاريع طموحه للتصنيع والتحديث ، تماماً مثل صدّام حسين خلال فترة حكمه ، كما أدار نظام زراعة مركزيّاً حيث كان يخصص للمزارعين مساحةً من الأرض وكذلك المحصول الذي يجب عليهم زراعته ، حيث تقوم الحكومة ببيع المحصول مقابل هامش ربحي ، وتستغل الفائض في إنشاء المشاريع العامة بما في ذلك الري والقنوات والطرق والسدود والخزانات فضلاًً عن تمويل المشاريع الصناعية والعسكرية وإقامة المصانع الحديثة.

وعندما برهن إبراهيم باشا - ابن محمد علي - أنه جنرال فذ و شنّ حروباً ناجحةً فتح بها السودان (1820) ، وغربي الجزيرة العربية ، وسوريا (1831-1832) ، راودت محمد على فكرة الاستيلاء على القسطنطينية (استانبول) وإبدال السلطان العثماني ، وبذا يعيد الحيويّة إلى الامبراطورية الاسلامية ، أما صدّام فقد راودته فكرة دولة وحدة عربية.

وكانت الطريقة الفضلى للحد من قوة محمد على هي إنهاك موارده المالية ، وكانت تلك هي الطريقة الأمثل التي استخدمتها الولايات المتحدة للحدّ من قوة صدام حسين بعد الحرب العراقية الإيرانية ، حيث كانت خزائنه فارغة ، وعبر اصدقائها خفضت الولايات المتحدة أسعار النفط إلى الحد الذي دفعه فيه ذلك للتفكير بغزو الكويت ، كوسيلةٍ للخروج من مأزقه . وظنّ صدام ان الولايات المتحدة قد أعطته الضوء الاخضر للقيام بالغزو ، وهذا نفس ما ظنه محمد علي من أن لديه اتفاقاً ضمنياً مع بريطانيا العظمى حول غزواته ، إلا ان كلا من الولايات المتحدة مع صدام حسين ، وبريطانيا مع محمد علي كان لديها خططاً مختلفة .

وفي 1838 أكرهت المملكة المتحدة العثمانيين على توقيع معاهدة في بالتا ليمان ، منحت بنود التجارة الحرة الواردة فيها ، المملكة المتحدة شروطاً تفضيليه ، وطلب إلى محمد علي أن يفعل المثل ، وحيث أن فعل ذلك سينجم عنه رسوم تعريفة أقل يمكن أن تودي بخزينته إلى الإفلاس فقد رفض الانصياع ، وفي النتيجة طردت القوات البريطانية والعثمانية ابراهيم باشا

153

من سوريا بعد احتلالٍ وحكم استمر قرابة عشر سنوات ، وقد أجبر محمد علي على الاستجابة للمطالب البريطانية بموجب معاهدة 1841، وأهم البنود الواردة في هذه المعاهدة تمثلت في اجبار محمد علي أن يوافق على معاهدة بالتا ليمان الأنجلو/عثمانية للتجارة الحرّة والتي وضعت شروط ***" التجارة الحرّة "*** ، وعنى هذا أن محمد علي كان مجبراً أن يتخلى عن سياساته الاقتصادية ، وأن عليه أن يضع رسوم تعريفةٍ جديدة تكون أكثر محاباةً للواردات ، ونتج عن ذلك تردي الصناعات المحلية ، والتي احتاجت عشرات السنين لإنشائها ، كذلك فرضت قيوداً على حجم جيشه . وفي السنة التالية لفرض المعاهدة هبطت حصيلة الضرائب بنسبة 80% ، وصعدت ديون مصر إلى 2,4 مليون جنيه ، وأصيب محمد علي بانهيار عصبيّ استمر حادّاً لأسبوع ، واستمرت صحته في التردي ومات في آب 1849 . وفي العام 1879 ارتفعت ديون مصر تحت العيون الساهرة للمستشارين البريطانيين إلى 100 مليون جنيه ، فقررت بريطانيا احتلال مصر وإدارة ماليتها.

محمد علي وصدّام حسين

إن مراجعةً سريعةً للممارسات القديمة للامبراطوريات الغربية ، ولإمبراطورية الوقت الحاضر المتفردة ، قد تكون مثيرةً للاهتمام ، وسنجري مقارنةً بين مصر في القرن التاسع عشر والعراق في القرنين العشرين والحادي والعشرين ، لنرى كم هي مدهشة أوجه الشبه بين طرائق الإمبراطوريات الانكلوساكسونية : بريطانيو الأمس وأميركيو اليوم :

- كلا الرجلين صدّام حسين ومحمد علي كان رجلاً قوياً عزز سلطانه أحياناً بقسوةٍ ودون رحمه.
- كلاهما وصل للسلطة على الأقل بموافقة ضمنية من القوة الامبريالية المسيطرة في يومه ، بريطانيا في حالة محمد علي ، للحفاظ على امبراطورية عثمانية ضعيفة ، والولايات المتحدة

في حالة صدّام حسين : في البداية لمحاربة المجتمعات المحلية في العراق والتي انضمت الى حكومة عبد الكريم قاسم ، و بالتالي لمحاربة الثورة الإسلامية في إيران.

- كلاهما تبنى العلمانية ، وهو مطلب بارز للغرب من العالم الاسلامي.
- كلاهما بني جيشاً قويّاً وقاعدةً صناعيةً لتدعمّه ، وفي الحالتين تم ذلك بمباركةٍ من الامبراطوريات .
- استخدم جيش محمد علي لشن حروب نيابةً عن الامبراطوريات ، كما شن صدّام ، عن علمٍ أو دون علم ، حروباً بالوكالة نيابةً عن الأمبراطوريات مثل الحرب الإيرانية العراقية ذات الثماني سنوات .
- كلاهما شكلّ جيشاً قوياً متجاوزاً الحدود المقبولة من جانب الامبراطوريات . وفي كلتا الحالتين طلبت الامبراطوريات خفضاً كمياً ونوعياً لقدرات القوات المسلحة ، وفي اللحظة التي لم يستجيبوا فيها انتهى أمرهم ولا قوا قدرهم المشؤوم .
- أمم صدّام حسين محصول العراق الرئيسي ، صناعة النفط ، أما محمد على فأدار نظاماً تسيطر عليه الدولة للمحاصيل الزراعية وفرض حظراً وتعريفات لحماية مشاريعه الصناعية الناشئة ، ولم توافق الإجراءات لكليهما هوى الامبراطوريات.
- تم كبح جماع القوة المسلحة لمحمد علي ، ودُمر أسطوله بالكامل من قبل تحالف القوى الأوروبية آنذاك ، وترك له قوة محسوبة ومقبولة لبضع سنواتٍ لاحقة ، وكان هذا ما حصل لقوات صدام حسين المسلحة أيضاً ، فتم تدميرها إلى حدّ مقرّرٍ سلفاً في حرب الخليج 1991 ، وترك لبضع سنوات أيضاً قبل أن يزاح.
- محمد علي ، أجبر وفوهات مدافع الأسطول البريطاني مصوبّة تجاه الاسكندرية على تبني اتفاقية التجارة الحرة في 1841 ، حيث كان عليه أن يزيل رسوم التعريفة وأن يسمح للبضائع البريطانية بالتدفق على السوق المصري ، قائلةً بذلك الصناعة المصرية الوليدة ، أما العراق وبعد احتلاله وانتشار الجنود الأميركان في كل مكان ، فكان عليه تبني التجارة الحرة والمؤسسات التجارية الحرة مما أدى إلى إفلاس جميع الشركات الحكومية ، والتي كانت عاملة تحت حكم صدّام متضمنة كلا الصناعات المدنية والعسكرية ، مما أدى إلى بطالة المئات من الآلاف.

ص154-155

العوامل الأساسية لغزو العراق:

ونختم بأن العراق تم غزوه وأطيح يصدّام حسين ومن ثمّ تم شنقه في الواقع لعدّة اسباب:

- النفط كما تم إيضاحه أعلاه هو العامل الرئيسي ، إلا أن عوامل أخرى كانت موجودة. .
- حافظ العراق على اقتصادٍ تديره الدولة خلافاً لنصح ورغبة الولايات المتحدة نصيرة التجارة الحرة ، والتي كانت ترغب في انفتاح العراق للشركات الأميركية متعددة الجنسيات ، ويتوفر لدى العراق 80 حقلاً نفطيّاً مؤكداً 18 منها فقط تم تطويرها، وتنتج ، مع احتياطي يقدر ب112 مليون برميل . وبهذه الحقول ال18 فقط يملك العراق ثاني أكبر احتياطيات نفطية في العالم ، وعلينا أن نتصور الحال عندما تكون جميع هذه الحقول ال 80 تحت سيطرة وفي أيدى شركات النفط الأميركية.
- أصبح صدّام قوة عسكرية إقليمية تخطت الحدود المقبولة خاصّة في منطقة حساسة ، حيث يمكن خلال دقائق من الطيران النفاث الوصول إلى حوالي 70% من احتياطيات العالم النفطية.

ص156

الديموقراطية الامبريالية سريعة الذوبان..تقدمة أميركا للعراق

بعد أن غزت أميركا العراق وأعادت تسمية غزوها إلى " عملية الحرية " ، ألقى الكاتب الهندي روي آرونهاتي خطاباً في نيويورك في 13 أيار 2003 بعنوان "الديموقراطية الامبريالية سريعة الذوبان : اشتر واحدة واحصل على أخرى مجاناً" وفيما يلي مقتطفات من الخطاب:

" عندما غزت الولايات المتحدة العراق قدر إحصاء أجرته جريدة نيويورك تايمز وتلفزيون سي. بي. إس. نيوز ، أن 42% من الأميركيين كانوا يعتقدون بأن صدّام حسين كان مسؤلاً مباشرة عن هجمات 11 أيلول على مركز التجارة العالمي والبنتاجون ، كما أن استطلاع إيه. بي. نيوز قال بأن 55% من الأميركيين كانوا يعتقدون أن صدّام حسين كان يدعم القاعدة بصورة مباشرة ، ولم يكن هذا الرأي يستند إلى دليل (لأنه لم يكن هناك أي دليل) ، وكله كان يستند إلى التلميحات ، والاقتراحات التلقائية ، وإلى الأكاذيب المباشرة التي يتم نشرها بواسطة إعلام الشركات الأميركية ، والتي تعرف " بالصحافة الحرّة" تلك الدعامة الجوفاء ، والتي ترتكز إليها الديموقراطية الأميركية المعاصرة.

وكان تأييد الجمهور في الولايات المتحدة للحرب على العراق قد أقيم على صرحٍ متعدد الطبقات من الزيف والخداع المنسق من حكومة الولايات المتحدة ، والمضخم بإخلاص من قبل إعلام الشركات."

وحديثاً صرح جون آشكروفت مدعي عام الولايات المتحدة ، بأن حريات الولايات المتحدة ليست منحةً من أي حكومة أو وثيقة ، ولكنها ... منحة الربّ لنا " (فلماذا الاهتمام بالأمم المتحدة اذن ، طالما أن الله نفسه في متناول اليد)

وهكذا ، فها نحن شعوب الأرض نجابه بإمبراطورية تتسلح بانتدابٍ سماوي (فضلاً عن ، وكتأمين إضافي، أضخم مجموعةٍ من أسلحة الدمار الشامل الهائلة في التاريخ) وها نحن نجابه بامبراطورية أسبغت على نفسها الحق في إعلان الحرب حسبما يحلو لها ، والحق في تخليص الناس من الآيدلوجيات المفسدة ، ومن المتدينين المتزمتين ، ومن الدكتاتوريين ، والحركات الجنسية ، والفقر بسبب التقدم في السن . وهو ممارسة مجربة ومفحوصة للإبادة . فالامبراطورية تتحرك ، والديموقراطية هي صرخة حربها الجديدة ، البارعة والخبيثة ، الديموقراطية مع التوصيل المجاني للمنازل وحتى عتبة دارك . وذاك ثمن ضئيل يدفعه

الناس لامتياز تذوق هذا المنتج الجديد : ديموقراطية امبريالية سريعة الذوبان (سخنها حتى الغليان) أضف نفطاً ، ثم قنبلة".

" قبل أن تبدأ الحرب على العراق ، أرسل مكتب إعادة الاعمار والمساعدة الانسانية إلى البنتاجون قائمة ب16 موقعاً حيويّاً لحمايتها ، وكان المتحف الوطني يأتي ثانياً على تلك القائمة ، ومع ذلك فإن المتحف لم ينهب فقط وإنما دنس وانتهكت قدسيته.. وكان آخر مبنىً في قائمة مكتب إعادة الاعمار من بين ال 16 موقعا واجبة الحماية.. كان وزارة النفط ، وكانت هي الوحيدة التي منحت الحماية ، ربما لأن جيش الاحتلال اعتقد أنه في البلاد الإسلامية تقرأ القوائم بالمقلوب؟!" [78]

الفصل السادس

الرأسمالية الأميركية : عبودية على أي نحوٍ أتت

" ليس من المبالغة القول إن الأرباح التي نجمت عن العبودية وعن تجارة العبيد في السنوات من 1600 – 1860 قد ساهمت إلى حدّ كبير في بروز أوروبا والولايات المتحدة كدول مسيطرة على العالم ، ومع أن البرتغاليين والإسبان والهولنديين قد سيطروا

---

[78] http://www.commondreams.org/views03/0518-01.htm

على معظم تجارة العبيد إلى الأميركيتين من 1500- 1700 ، إلا أن التجار الإنكليز والأميركيين دخلوا إلى قطاع الأعمال هذا بقوة بعد سنة 1730 "[79].

" تذكر أن الجمهورية الأميركية نشأت في أحضان دستور يقر صراحةً الحق في حيازة الناس بصفتهم ملكية خاصّة ، ومؤسسة العبودية بصفتها موجودات رأسمالية منتجة (كانت) تتمتع بحماية القانون " [80]

روح الرأسمالية ص61

لمحة تاريخية

تطورّت الرأسمالية الأميركية من رأسمالية اقطاعية زراعية وتجارية ، إلى رأسمالية صناعية ، وتسبب التطوّر غير المنتظم والمتفاوت للاقتصادات والبنى الاجتماعية بين الشمال الصناعي والجنوب الزراعي في نشوء مصالح متضاربة أدت إلى الحرب الأهلية الأميركية ، وبعدها إلى السيطرة المطلقة للرأسمالية الصناعيّة . وكنتيجة للثورة الصناعية ، والإنتاج الكبير والاقتصاد الضخم برزت الحاجة إلى المزيد من الزبائن ، وكان أن استهلّت الرأسمالية الأميركية بالحرب الأميركية الاسبانية في 1898 ، وأصبحت هناك امبراطورية أميركية تحت التأسيس لمعظم فترة القرن العشرين ، ولخلق المزيد من الاستهلاك ، تمت تغذية ثقافة الاستهلاك والتعاضد ما بين مصالح المتمولين وطبقة الاكاديميين الذين كانت معاهدهم وجامعاتهم تحتفظ بصلاتٍ كبيرة معهم ، وفي كثير من الحالات كانت تطلق على الجامعات أو مدارس وكليات الأعمال أسماء تلك القلة المختارة من الأميركان أنفسهم ، وما أن تلت حقبة السّلم الاميركي حقبة السلم البريطاني حتى تم على الفور إقامة المؤسسات

---

[79] Ronald L.F. Davis, Ph.D., California State University, Northridge.

[80] William Greider, *The Soul of Capitalism: Opening Paths to a Moral Economy*, New York, Simon & Schuster, 2003, 61

السياسية والاقتصادية العالمية ، بعد الحرب ، لمساعدة الولايات المتحدة في هيمنتها خلال نظام الحرب الباردة ، وبعد أن طبعت الولايات المتحدة من الدولارات أكثر مما كانت التزمت به بموجب نظام بريتون وودز للصرف الثابت ، وذلك لتمويل نفقاتها الكورية وغيرها من الأنشطة العسكرية ، تخلّت وبصورة منفردة عن التزاماتها بموجب بريتون وودز وعوّمت سعر الصرف مما أدى إلى خلق نظام الاقتصاد المالي بدءاً من عقد السبعينيات . ومع ثورة المعلومات والاتصالات والتي ارتبطت

160

بالرأسمالية المالية ، وبعد انهيار اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، أخذت الولايات المتحدة بالزمام وأصبحت عازمةً على ايجاد نظامٍ جديد لعولمة الرأسمالية الأميركية وفرضها على العالم ، وهكذا حلّ عصر العولمة أو عولمة الرأسمالية الأميركية ، وبذلك استبدلت – رسميا ً- الجمهورية الأميركية .. بالامبراطورية الأميركية .

وفي تاريخ متأخر يعود إلى 1848 ، أوضح المنظر الاشتراكي المعروف كارل ماركس ، أن مقتضيات الإنتاج الرأسمالي ستدفع الرأسماليين للتعشيش في كل مكان، والاستيطان في كل مكان ، وإقامة علاقات وروابط في كل مكان ، مساعدين بذلك على تعبيد الطريق للاتصال والتعامل في كل اتجاه بما فيه من صدامات عالمية بين الأمم . وقد كتب بول لويس :***" فيما يعود القراء لمراجعة (البيان الشيوعي) في عيده ال 150 فإن اليساريين منهم واليمينيين ، يصعقون من التشابه الغريب بين وصفه عام 1848 للرأسمالية ، وبين واقعها المضطرب القلق وعالم المنافسة في الاقتصاد العالمي كما هو عليه الحال اليوم "***.[81]

---

[81] Paul Lewis, "For Many Marx's 'Manifesto' Remains Relevant", *New York Times*, June 27,1998, http://phoenix.liu.edu/~uroy/eco54/histlist/marx/marx2.htm

وهذا الكتاب يعرف العولمة على أنها جملة العمليات المصممة لفرض القيم والنظم الأميركية الاجتماعية الاقتصادية على العالم ، ولذا فإنه يصبح من حق شعوب العالم وواجبها القيام بدراسة تاريخ الرأسمالية الأميركية بشكل خاص ، والرأسمالية عموماً ، لتقرير ما إذا كان مثل هذا النظام وقيمه يصلحان لكافة الشعوب والأمم ، كما يدعي مبدأ بوش ، أو أنه في الواقع ليس بصالح حتى لغالبية الأميركيين .

إن الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية في أوروبا كان ممكناً فقط ، كنتيجةٍ لتغيرات في الأيديولوجيا والتكنولوجيا . فالقبول والسماح بتأجير النقود مقابل ربح ، والربّا ، أو الفائدة ، كما دعي فيما بعد بموجب مصطلح أكثر لطفاً من قبل حركة الإصلاح ،

161

كذلك الاختراعات التكنولوجية مثل البخار والقطار ومحركات الاحتراق الداخلي والكهرباء والقوة الذرية ، و مؤخراً القوة العقلية من صنع الإنسان ، قد غيرت أساليب الانتاج إلى أن وصلت اقتصاد الحجم الكبير .. كما نقلت الأسواق من الحدود المحلية.. إلى الوطنية .. فالعالمية . ومع أن العولمة هي اصطلاح حديث الصياغة ، إلا أن النهج نفسه كان قيد التكوين من وقتٍ مبكر - يعود إلى أيام تجارة " طريق الحرير" – و بقي مستمرا حتى عولمة جورج بوش . وعلى كل ، فإن سرعة النهج كانت تتناسب طرديّاً مع سرعة النقل والحركة . وترجم المسلمون علوم اليونان والرومان وآدابهم وأضافوا إليها .. مثل الجبر والصفر ، والتي بدونها لم تكن حسابات هذه الأيام الناشئة عن - قوة الدماغ من صنع الانسان- ممكنةً . وترجم الأوروبيون التراث الإسلامي وأضافوا إليه أيضاً ، وكان التسارع في سرعة النقل بمتوالية هندسية ، وحتى القرن التاسع عشر كانت الجياد هي أسرع وسائط النقل ، و لكن عندما اخترع القطار ، زادت حركة البضائع والناس عدة مرات وحتى 150 كيلو متراً بالساعة . وأعطى اكتشاف النفط في 1859 الثورة الصناعية مصدراً رخيصاً وقوياً للطاقة حيث كان البرميل الواحد من النفط يحتوي ما يعادل 25 رجل/سنة من الطاقة ! .. وحلّ البارونات اللصوص للعصر الصناعي محلّ البارونات اللصوص للعصر الاقطاعي كصانعي القرار في النظام . وكما يوحي اسم الرأسمالية ضمناً ، فإن من يملكون رأس المال يملكون النظام .

ومع أن الناس أخذوا يستشعرون نهج العولمة ويدركونه في الربع الأخير من القرن العشرين ، الإ أن مردّ ذلك في معظمه يعود إلى سرعة ديناميكيات النهج والتي ازدادات بشكل مثير مع زيادة الابتكارات التكنولوجية في الفضاء ، وفي الاتصال ، وفي تكنولوجيا المعلومات .. وحيث كان نهج العولمة يتحرك ببطءٍ يكاد يكون غير ملحوظ ، إلا أن معدل التغيير الحديث لا تخطئه العين ، فقد مسّ تقريباً كافة مناحي حياة الفرد ، ولذلك فإننا في هذا الكتاب نجادل بأن نهج العولمة هو نهج تطوري حتمي ، أي ان النهج ذاته حتمي ، إلا أن الأيديولوجيا التي تقرر قيمه ، فيجب أن تكون قابلة للنقاش ، وإذا مثلنا للعولمة على أنها جهاز حاسوب ، فإن قيمها هي برامجها ، وبذا تصبح المسألة الآن برامج من هي التي يتوجب استخدامها؟!

إن علم السلوك التنظيمي هو إضافة حديثه إلى علم الإدارة ، حصلت في النصف الثاني من القرن العشرين ، ويخبرنا هذا العلم بأن لكل منظمة ثقافتها الخاصة ، وهي التي تحكم أداءها الكلي ، وثقافة الرأسمالية منذ بدئها وحتى اليوم كانت تمثل مجتمع علاقة السيد بالعبد ، كما كانت ثقافة عنيفة ترتكز إلى التوسع ، وغالباً ما يكون ذلك عبر الحروب ، وعبر العبودية في النظام الزراعي ، وعبر عمالة الاستعباد في الرأسمالية الصناعية والرأسمالية التمويلية ؛ وإن وجود أكثر من أربعين مليوناً من الناس مصنفين – رسميّا -ً على أنهم فقراء ، ووجود عشرات الملايين ممن لا يملكون نقيراً في معقل الرأسمالية ، لدليل حيّ على وجود هذه العبودية التي ربما اتخذت أسماء أخرى. وإن مراجعة تاريخية للرأسمالية منذ أيّامها الباكرة يمكن أن يقودنا و يطلعنا على ثقافتها التي ما زالت موجودة حتى اليوم .. بالمضمون وإن ليس بالشكل.

163-162

أميركا اكتشفت بالصدفة عبر استثمارٍ إسباني

قبل قرنٍ من تأسيس كل من بريطانيا وهولندا لشركة الهند الشرقية الخاصة بها ، كانت إسبانيا قد توحدت حديثاً ، حيث كانت لتوها قد دحرت آخر إمارةٍ إسلاميةٍ في الأندلس ، وطردت المسلمين واليهود مع نهاية القرن الخامس عشر . وكانت طريق الاتصال عبر طريق الحرير قد قطعت ، بعد أن احتلّ الأتراك العثمانيون المسلمون شرقي المتوسط والقسطنطينية ، وفي هذا الوقت كان كريستوفر كولومبوس قد أقنع إسبانيا بتمويل مغامرته في الوصول إلى الهند عن طريق السفر غرباً، حيث كان يعرف بأن العالم كان كروياً .

وبالإضافة إلى الذهب والتوابل التي وعد بإحضارها فإنه سيتسلم رتبة أميرال البحر المحيط ، زائداً الحاكمية على الأراضي التي يكتشفها ، و10% من الأرباح ؛ وافترض كولومبوس قطراً أقصر للكرة الأرضية ، بسبب ظنه أن العالم كان أصغر مما هو عليه حقاً ، فكان أن اكتشف أميركا كنتيجة لأخطاء حسابية . وبعد قضائه 33 يوماً في المحيط ، عثر في تشرين أول 1492 على إحدى جزر الباهاماز في البحر الكاريبي ، ثم اكتشف كوبا .

ورحب الآراواك (هنود حمر) سكان الجزيرة الأصليين بكولومبوس وأحضروا له ولبحارته الطعام والماء والهدايا ، ولم يكونوا يحملون سلاحاً ، وعندما أراهم سيفاً .. أمسكوا به من حده فجرحوا أنفسهم ، وأعجب كولومبوس وبحارته بحسن ضيافتهم واعتقادهم بالمشاركة ، وهي سمات مناقضة لما وصمت به الحضارة الغربية ، والتي سيطرت عليها شعارات المال والثروة . وكما أن ثروة الأوروبيين - في معظمها على الاقل - قد نجمت عن التصرفات الفاحشة ضد غير الأوروبين ، فكذلك أيضاً .. فإن الحضارة الغربية ، والتي أوجدت ثروة أميركا ، إنما أقيمت على الإبادة الجماعية، والعنصرية ، والعبودية ، والحروب .

ولاحظ كولومبوس وجود حليّ ذهبية صغيرة في آذان أولئك الوطنيين الودودين الذين قدموا للترحيب به ، فأخذ عدداً منهم إلى ظهر السفينة وأصر عليهم أن يروه مصدر الذهب . ودوّن كولومبوس في سجل سفينته : ***" ما أن وصلت حتى أخذت بعض الوطنيين بالقوّة ، على أمل أن يدلوا بمعلومات عن أي شيء يمكن أن يوجد في هذه الأنحاء . "82*** وكانت المعلومات التي يريدها هي .. أين يوجد الذهب؟ .

ومن أول جزيرة اكتشفت في البهاما أبحر إلى ما يعرف الآن بكوبا ، ثم إلى هيسبانيولا ، وكتب كولومبوس إلى البلاط في مدريد أنه وصل آسيا (والتي كانت كوبا) ، وذكر أنه وصل جزيرة على مقربة من شاطئ الصين (كانت هاييتي وجمهورية الدومينيكان) ."هناك الكثير من التوابل ، ومناجم عظيمة للذهب ***" كما كتب إلى إسبانيا ؛ والوطنيون أو الهنود***

---

[82] Howard Zinn, *A People's History of the United States: 1492-Present*, New York, HarperCollins, 2003, 2.

كما أصر كولومبوس " في غاية السذاجة والسخاء بممتلكاتهم ، إذ عندما تطلب منهم شيئاً يملكونه فإنهم لا يقولون لا أبداً ، بل على العكس ، يعرضون التشارك مع أي شخص ..." [83]ووعد جلالتيهما بأن يحضر لهما في رحلته القادمة " ذهباً بقدر ما يحتاجون ، وعبيداً بقدر ما يطلبون. " .

164

وأضاف قائلاً : ***" وهكذا ، فالرب الهنا يعطي النصر لأولئك الذين يتبعون طريقه..."*** [84] .
وفي عام 1495 ، ومن قاعدته في هاييتي ، شنّ كولومبوس "غارة لجمع العبيد ، أسر خلالها 1500 من الأهالي من الرجال والنساء والأطفال ، واختار منهم أصلح 500 وشحنهم في السفن ، حيث مات منهم 200 في الطريق ، وبما أن كثيراً من العبيد قد ماتوا وكانت هذه التجارة غير صالحة بما فيه الكفاية لدفع مستحقات المستثمرين في الرحلة ، فقد نكص إلى تعدين الذهب ، فأمر كل شخص فوق سن الرابعة عشرة أن يجمع مقداراً محدّداً منه خلال ثلاثة أشهر ، وأعطى قطعاً نحاسية لتعليقها حول أعناق الذين أحضروا ذهباً ؛ أما أولئك الذين لم يفعلوا ، فقطع أيديهم وتركهم ينزفون حتى الموت . وكان كاهن يدعى بارتولومي دي لاكازا ، من جملة من قاموا برحلةٍ إلى الانديز ، وقد كتب " تاريخ الانديز" وفيه ذكر أنه عندما وصل إلى الانديز " كان هناك 60,000 نسمة يعيشون على الجزيرة ، بمن فيهم الهنود ، الا أنه من 1494 وحتى 1508 فني أكثر من ثلاثة ملايين نسمة بسبب الحرب والرق والمناجم ، ومن من الأجيال المستقبلية سيصدّق هذا؟ فها أنذا نفسي أكتب ... كشاهد عيان إلا أنني .. أنا نفسي ، أكاد لا أصدقه .." . أما صامويل إليوت موريسون ، أحد مؤرخي هارڤارد فكتب : ***" إن السياسة التي سنها كولومبوس وتبعها خلفاؤه أدت إلى إبادة جماعية تامة."*** [85] .

---

[83] Ibid., 3

[84] Ibid.,3

[85] Ibid., 3

العبودية في أميركا

يمكن للمرء أن يجادل في أن معظم الثروة التي خلقت في أميركا فيما قبل عصر الصناعة ، قد ارتكزت الى مؤسسة العبودية اللاإنسانية ، والتي استمرت قانونية على مدى 12 جيلاً تقريباً ، إلى أن تم إنهاؤها رسمياً بالموافقة على التعديل الثالث عشر للدستور الأميركي في العام 1865 ، تالياً للحرب الأهلية الأميركية.

" وليس من المغالاة القول إن الأرباح التي تم جنيها من العبودية ومن تجارة العبيد ،خلال الأعوام 1600 إلى 1860 ، قد أسهمت إلى حدٍّ كبير في بروز أوروبا الغربية والولايات المتحده كأممم مسيطره على العالم ، ومع أن البرتغاليين والإسبان والهولنديين سيطروا على معظم تجارة العبيد إلى أميركا للفترة من 1500 - 1700 ، إلا أن التجار الانجليز والأميركيين الشماليين دخلوا معترك هذا العمل بقوة بعد العام 1730"[86] .

فالمحاصيل الزراعية الرئيسية للعصر الزراعي كالقطن والسكر والتبغ و الأرز ، قد طورت بواسطة الأفارقة والسكان الأصليين المستعبدين . ولم تكن الثروة التي خلقت – بالتأكيد - نتيجة التنوير ، وإنما كانت نتاج انعدام الإنسانية ، والقسوة ، والوحشية المتناهية ؛ وحتى فيما بعد حرب الاستقلال الأميركية .. كان معظم المشاركين في كتابه الدستور ، يحوزون عبيداً كممتلكات خاصة في مزارعهم ، بمن فيهم جورج واشنطن نفسه.." . وخلال المناقشات الدستورية العظيمة في الثمانينيات من القرن السابع عشر حول الكيفية التي ستكون عليها الأمة في المستقبل ، كان المفترض بشكل عام أن العبودية ستنتهي قريباً وبالتدريج في القرن التالي ، غير أن الجنوبيين أمكنهم مع ذلك أن يكسبوا من الشماليين ثلاث تنازلات هامة تحمي مؤسسة العبوديّة :

---

[86] *www.**slavery**inamerica.org/history/hs_es_**over**view.htm*

1. التشريع الاتحادي المسمى تشريع العبد الهارب لعام 1793 ، والذي مكن صائدي العبيد من ر خطوط الحدود بين الولايات في ملاحقتهم للعبيد الفارين.

2. اتفاقية فقرة الثلاثة أخماس ، والتي أحصت كل عبد على أنه يعادل ثلاثة أخماس الحر ، في تقرير تمثيل الولاية في مجلس النواب وفي مجمع انتخاب الرئيس ونائبه .

3. استمرار تجارة الرقيق مع أفريقيا حتى 1808 ، والتي أدت إلى إحضار الآلاف من العبيد إلى أميركا في فورة لنشاط تجارة العبيد .[87] وإذا كان العبد يعتبر ثلاثة اخماس الحر - بغرض تقرير التمثيل في مجلس النواب - فإنه لم يسمح له بالتصويت ، ولكل الأغراض العملية فلم يكن للعبيد حقوق إنسانية ، وفي معظم الجنوب ، كان من غير القانوني تعليم الأسود القراءة والكتابة . وحتى قيام الثورة الأميركية كانت العبودية قانونية في كل المستعمرات ، وحيث أن الجنوب كان أساساً مجتمعاً زراعياً فإن 92% من كافة الأميركيين السود كانوا موجودين في الجنوب في 1850 ، وكانوا جميعهم عبيداً عدا 5% منهم كانوا أحراراً .

166

وفي العقود الأولى للقرن السابع عشر أشبع ملاك الأراضي حاجتهم من عمالة السخرة باستعباد أهل البلاد الأصليين ، وما أن راجت زراعة التبغ بشكل كبير في سبعينيات القرن السابع عشر-، ولم يعد العبيد المحليين بكافين - حتى ازدهرت تجارة العبيد مع أفريقيا "... وكانت أعداد صغيرة من البيض قد استعبدت أيضاً عن طريق الاختطاف ، أو لارتكابهم الجرائم ، أو بسبب مديونيتهم ***." وأتى الأفارقة من " أصول عرقية وقبائل متعددة ، من الهواسا الشجعان ، والماندنيغوز المهذبين ، واليارورباز المبدعين .. من اللاچبوز***

---

[87] Ibid.

والإفيكس والكروس ، من الفاتينس ذوي الكبرياء ، ومن الأشانتيس الأشبه بالمحاربين ، ومن الداهومينز الدهاه، ومن البينيز و السنيغاليين ." [88]

كان واحداً من بين كل ثلاثةٍ من العبيد يقضي نحبه أثناء الرحلة إلى أميركا ، وكان من الشائع حدوث نسبة 50% من الوفيات على بعض الرحلات ، وكان أيضاً إجراءً شائعاً إلقاء المرضى في البحر ليغرقوا . وعومل الناجون من الرحلة على أنهم ممتلكات تباع وتشرى ، وأصبحت تجارة العبيد عملاً مربحاً ، سيطر عليه في البدء الهولنديون ، ثم البريطانيون فيما بعد . وفي 1795 كان نصف تجارة العبيد تحت سيطرة ليفربول ، والتي كان لديها أكثر من مائة سفينة مكرّسةً لهذه التجارة ***." وحوالي سنة 1800 كان قد تم نقل 10- 15 مليون أسود كعبيد إلى الأميركتين ، يمثلون تقريباً ثلث من تم الإمساك بهم أصلاً في أفريقيا ، ويقدر بأن أفريقيا خسرت تقريبا 50 مليون إنسان للموت والعبودية في تلك القرون - التي ندعوها بدايات الحضارة الغربية الحديثة - على أيدي تجار العبيد وملاّك المزارع في أوروبا الغربية وأميركا، وهي البلدان المعتبرة الأعظم تقدماً في العالم."*** [89]

ولم يكن يعترف بزواج العبيد في المستعمرات ، وكان أبناء العبيد

167

يؤخذون للعمل في الحقول في سن 12 سنة ، وكانوا يفصلون عن والديهم ويباعون بحسب هوى ورغبة ملاّكهم.

ولم يكن ما لدى كندا نظاماً أقل قسوة ووحشيةً مما لدى المستعمرات الأميركية ، فعقوبة امرأة -كانت احتجت على عبوديتها وبيعها المقترح - فحرقت بيت سيدها ، كانت الحكم عليها بقطع يديها الاثنتين وحرقها حيّه ، ولكن في النتيجة تم شنقُها فقط ! ***" . وحتى في***

---

[88] http://www.religioustolerance.org/sla_hist.htm

[89] Ibid

1824 شنق فتى من نيوبرونزويك - في الثانية عشرة من عمره - بالتعليق من رقبته حتى الموت ، لأنه سرق 24 سنتاً . وفي كندا العليا – أونتاريو- فإن السرقة كانت تعنى الدّمغ بقضيب من الحديد المحمى حتى الاحمرار ، في كف اليد أو في الجلد .. علناً ." [90]

حرب الاستقلال

في 1676 أدت ثورة من رواد الحدود والخدم والسود ، إلى حرق جيمس تاون عاصمة فرجينيا ، وكان على الحاكم أن يهرب من المدينة ، وكانت تلك هي ثورة بيكون التي أصدرت " بيان الشعب " في تموز عام 1676 ، أي قبل مائة سنة من إعلان الاستقلال ، وكانت هي فرجينيا التي أنجبت الكثيرين من الآباء المؤسسين لأميركا ، وفي الفترة ما بين 1760 وثورة بيكون ، كان هناك ثماني عشرة انتفاضة ضد حكومات المستعمرات ، وكذلك ثار السود من كارولينا الجنوبية ضد حكومات نيويورك ، وهكذا : ***" حوالي 1773 اكتشف عدد من الناس المهمين في المستعمرات الانكليزية ، كشفاً ستثبت الأيام فائدته الضخمة ، في مستقبل المائتي سنة القادمة ؛ إذ اكتشفوا أنهم بإيجادهم لأمة ورمز ووحدة قانونية تسمى الولايات المتحدة ، سيتمكنون من الاستيلاء على الأرض والأرباح والسلطة السياسية ، من أزلام الامبراطورية البريطانية - وفي السيّاق - سيمكنهم وأد عدد من الثورات المحتملة ، وخلق إجماع من الدعم الشعبي لحكم "قيادة جديدة مميزة " .*** [91]

وقد كان الكثيرون من الآباء المؤسسين يمتلكون مزارع عبيد كبيرة بمن فيهم جورج واشنطن وثوماس جيفرسون وجيمس ماديسون .. وثوماس جيفرسون وهوالصائغ الرئيسي لمشروع وثيقة إعلان الاستقلال " .. اذ لم يكن يملك عبيداً فقط - مع أنه كان يزعم بأنه من مشجعي الحريّات المدنية ، لا بل كان أيضا غير قادر على أن يستوعب و يتفهم

---

[90] http://duhaime.org/LawMuseum/LawArticle-45/Canadian-Law-A-History.aspx

[91] Howard Zinn, *A People's History of the United States*, Harper & Row, 1980, 59

الطبيعة العالمية لحقوق الإنسان ، واعتقد أن عتقاً عاماً يمكن أن يؤدي إلى زعزعة المجتمع كما دون في " مذكرات حول ولاية ڤرجينيا " ، ومع أنه انضمّ إلى جمعية الاستعمار الأميركية في 1816 ، والتي كانت تهدف إلى تحرير الصغار من الافارقة الأميركيين ، إلا أنه لم يحرّر أي واحدٍ من عبيده ، حيث أن ذلك كان - من المرجح - أن " يزعزع " له مزرعته .

وفي كتابه " ترجمة اقتصادية للدستور " - والذي صدر في بكور القرن العشرين- أدلى المؤرخ تشارلز بيرد بتفسيره للثورة الأميركية ، وللدوافع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للآباء المؤسسين الذين كانوا الأكثر انشغالاً في وضع الدستور وإعلان الاستقلال . حيث كتب :" من حيث الدور الأساسي للحكومة - ألا وهو صنع القوانين التي تقرر علاقات الملكية بين أفراد المجتمع - فإن الطبقات المسيطرة والتي ستقرر حقوقها على هذا النحو ، يجب أن تطلب – بالقوة - من الحكومة - قوانيناً تتناغم مع المصالح الأكبر اللازمة لاستمرارية عملياتها الاقتصادية ، أو أنه سيتوجب عليهم أنفسهم السيطرة على المؤسسات المكونة للحكومة."

ويخلص هوارد زن : ***" باختصار ، يقول بيرد، بأنه يجب على الاغنياء - حفاظاً على مصالحهم - إما أن يسيطروا على الحكومة مباشرةً ، أو أن يسيطروا على القوانين التي تعمل الحكومة بموجبها".***[92] وقد لاحظ المؤرخ بيرد بأن الدستور قد كتب ، ليس فقط ليحابي شخصياً الآباء المؤسسين أنفسهم ، ولكن الطبقات التي ينتمون إليها أيضاً . ولهذا كانت هناك حاجة لحكومةٍ اتحادية قوية لحماية التعريفة للصانعين ، ولوقف النقود الورقية حماية للمقرضين ، أو لجنود اتحاديين لحماية المضاربين في أراضي الهنود الحمر ، أو لحماية مالكي العبيد ضد ثورات العبيد ، أو لكي تفرض الحكومة نفسها ضرائب على الأمة بأكملها ، ولضمان دفع السندات للحكومة كي تدفع لحاملي السندات . وطبقاً لبيرد ، فإن

---

[92] Ibid., 90

هناك أربع مجموعات لم تكن ممثلةً في المؤتمر الدستوري : العبيد ، وفقراء البيض (الخدم بعقود) ، والنساء ، والرجال الذين لا ملكية لهم .

العبودية بعد الاستقلال

وطبقت المستعمرات المالكة للعبيد قوانين اعتبرت العبيد " ملكية منقولة – كائن إنساني بدون حقوق إنسان معترف بها في القانون ...". وفي جوهرها ، كانت العبودية الأميركية نطاقاً وحشياً قاسياً، بني على القوة المادية ، وعلى التهديدات ، والتعذيب ، والاستغلال الجنسي ، والتخويف . وأي أسود يقاوم علناً أوامر مالكه ، أو – تقريباً - أوامر أي أبيض في المجتمع ، فيمكنه أن يتوقع ردّ فعلٍ فورياً ، وغالباً ما يكون قاسياً . وقليلة هي القوانين التي تمنع مالكي العبيد من فعل ما يشاؤون بملكيتهم الإنسانية . وتضمنت أساليب معاقبة العبيد التعنيف الشفهي ، بضعة جروح بعصا أو بسوط الركوب ، ركلات للبدن ، لكمات على الآذان ، الحجز في الزريبه أو في كشك العدّة ، دمغ لحم اليد أو الرأس بحديد محمى لمدة عشرين ثانية ، والتمثيل بالبدن بتقطيش الأذنين ، وتكسير السيقان ، وبتر الأصابع ، وقص الألسنة . ***وفي بعض الحالات كان العبيد يجبرون على ارتداء سلاسل حديدية .. وحتى اقنعة حديدية على رؤوسهم ، لأسابيع وأشهر متصله ، ولكن أكثر أنماط العقوبة شيوعاً فقد كان الجلد القاسي ، وعرّفت قوانين العبيد الجلد المعتدل على أنه 39 جلدة على الظهر العاري ، وفي بعض الحالات يمكن للجلد أن يكون بالغ القسوة من حيث العدد"*** .[93]

170

أدت الزيادة في إنتاج القطن ومحاصيل زراعية أخرى بعد الاستقلال إلى زيادة الحاجة للعبيد ، فارتفع عددهم من 697,897 في 1790 إلى حوالي 4 ملايين في 1860 ، ولم يعالج دستور الولايات المتحدة مواضيع العبودية وتجارة العبيد ، وكان الاقتصاد الأميركي

[93] *www.**slavery**in**america**.org/history/hs_es_overview.htm*

رأسمالية زراعية تعتمد على الإنتاج الزراعي وعلى العبيد ، وعندما اخترع إيلي ويتنى محلج القطن في 1793 ، ثوّر الاختراع صناعة القطن .. إذ ازدادت كمية القطن التي يمكن معالجتها في اليوم الواحد 50 مثلاً ، وأدى هذا إلى زيادة متفجّرة في مزارع القطن وفي الطلب على العبيد ، وهكذا تصاعدت أعداد العبيد بصورة كبيرة ، وكما هو مبين في الجدول أدناه . ويبدو واضحاً من الجداول التالية أن نمّو الزراعة في الجنوب كان متناسباً طردياً مع الزيادة في عدد العبيد :

جدول 1 : إنتاج الولايات المتحدة من جميع أنواع القطن الخام 1790- 1860

المصدر : كُيّف من جدول 2 في ويليام إتش.فيليبس ، محلج القطن دائرة معارف إي. إتش. نت

السنة	رطل
1790	1,567,000
1795	8,359,500
1800	36,572,500
1805	73,145,000
1810	88,819,000
1815	104,493,000
1820	167,189,000
1825	266,457,500
1830	365,726,000
1835	530,355,500
1840	673,116,000
1845	902,111,500
1850	1,066,925,500
1855	1,608, 708,500

جدول 3 سكان الجنوب 1790- 1860

السنة	Free White Population	Slave Poulation
1790	1,240,454	654,121
1800	1,691,892	851,532
1810	2,118,144	1,103,700
1820	2,867,454	1,509,904
1830	3,601,873	1,983,860
1840	4,601,873	2,481,390
1850	6,184,477	3,200,364
1860	8,036,700	3,950,511

المصدر : احصاءات تاريخية عن الولايات المتحدة (1970)

Census	# Slaves	#Free	Total	Free	Total	% black
1,790	697,681	59,527	757,208	7.90%	3,929,214	19%
1,800	893,602	108,435	1,002,037	10.80%	5,308,483	19%
1,810	1,191,392	156,446	1,377,808	13.50%	7,239,881	19%
1,820	1,538,022	233,634	1,771,656	13.20%	9,638,453	18%
1,830	2,009,043	319,599	2,328,642	13.70%	12,860,702	18%
1,840	2,487,355	386,293	2,873,648	13.40%	17,063,353	17%
1,850	3,204,313	434,495	3,638,808	11.90%	23,191,876	16%
1,860	3,953,760	488,070	4,441,830	11.00%	31,443,321	14%
1,870	0	4,880,009	4,880,009	100.00%	38,558,371	13%

سجلت ثلاث ثورات للعبيد في 70 سنة قبل اعلان الاستقلال ، وسبع ثورات سجلت في السنوات السبعين التي تلته ، واعتبرت تجارة العبيد خارجة على القانون في العقد الأول من القرن التاسع عشر . وأثناء العقود السابقة على الحرب الأهلية تمايزت المصالح الاقتصادية بين الشمال والشمال الشرقي من جهة ، وبين الجنوب من الجهة الأخرى ، فقد أراد الشمال أن يحابي رأسماليته الصناعية والتي تضاربت في وقائع كثيرة ، مع الرأسمالية الزراعية في الجنوب ، وكان هذا هو السبب الحقيقي للحرب الأهلية ، حيث أن إلغاء العبودية لم يكن – بالتأكيد - على رأس قائمة أولويات واشنطن ، ولهذا السبب فإن موضوع العبودية لم يكن هدفاً للحرب مع بداية الحرب الأهلية.

اقتصاديات الحرب الأهلية:

كتب روجر إل. رانسوم من جامعة كاليفورنيا – ريفرسايد: ***" خلال النصف الأول من القرن العشرين ، نظر المؤرخون إلى الحرب على أنها نقطة تحول في تاريخ الاقتصاد الأميركي ، كما صنفها تشارلس بيرد على أنها الثورة الأميركية الثانية ، مدعيا بأنه في قاع ما دعي بالحرب الأهلية ، كانت هناك حرب اجتماعية ، انتهت - بما لا يقبل الجدل - بإقامة سلطةٍ جديدة في الحكومة ، أحدثت تغييرات هائلة في مسار التنمية الصناعية ، وفي الدستور الموروث عن الآباء"[94]*** بيرد وبيرد 1927: صفحة 53) . ومع حلول

[94] Charles Austin Beard, William Beard, *American Government and Politics*, Macmillan Co., 1927, [94] 53.

الحرب العالمية الثانية ، أصبح بمقدور لويس هاكر تلخيص موقف بيرد بالتعبير ببساطة عن أن ***" الانجاز الصارخ للحرب كان انتصار الرأسمالية الصناعية "***.[95] (هاكر 1940-3730)

إن حروب الرأسمالية غير المقدسة تتم تعبئتها دائماً مع سببٍ وطني ، وهكذا كان الأمر مع الحرب الأهلية ، وتحرير العبيد - حتى ولو لم يذكر كهدفٍ للحرب ابتداءً- ، فقد استعمل

173

لإخفاء الدوافع الحقيقية وراء الحرب . وطبقاً لدراسة رانسوم السالفة الذكر فإن الأسباب المؤدية للحرب يمكن تلخيصها فيما يلي :

- في النصف الأول من القرن التاسع عشر تحول اقتصاد الشمال إلى رأسمالية صناعية ، واستطاع لويس هاكر التعبير – ببساطة – عن موقف بيرد وتلخيصه في "أن الإنجاز الصارخ للحرب كان انتصار الرأسمالية الصناعية". وأصبحت أطروحة بيرد/هاكر هي الأوسع قبولا لتفسير الأثر الإقتصادي للحرب الأهلية.[96]
- حدثت التطورات الاقتصادية والاجتماعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر بصورة متباينة بين الشمال الصناعي والجنوب الزراعي ، واتسعت الشقة بين المؤسسات

---

[95] Louis Morton Hacker, *The Triumph of American Capitalism: The Development of Forces in American History to the end of the Nineteenth Century*, Simon and Schuster, 1940, 373

[96] Ransom, Roger. "Economics of the Civil War". EH.Net Encyclopedia, edited by Robert Whaples. August 24, 2001. URL http://eh.net/encyclopedia/article/ransom.civil.war.us

الاجتماعية والسياسية وانقسمت بين الشمال والجنوب ، وحتى " مؤتمر المعمودية الجنوبي" والذي تشكل في 1845 قد أنشئ على فرضية أن الكتاب المقدس يقر العبودية ويجيزها ، وقبل 1860 بقليل كانت جميع الأحزاب السياسية قد افترقت وتوزعت بين شمال وجنوب .

- في 1805 كان عدد العبيد لا يتجاوز المليون ، وبما أنهم كانوا ممتلكات وموجودات بشرية فقد تم تقييمهم ب300مليون دولار ، أما في 1860 فبلغ تعدادهم 4 ملايين عبد بقيمة 3 بليون دولار ، وهو مبلغ محرز في ذلك الوقت ، وكان أكثر من 90% من هؤلاء العبيد في الجنوب.

- في منتصف 1830 كان القطن يشكل أكثر من 50% من مجمل صادرات الولايات المتحدة ، وكان القطن هو المحصول الرئيسي للجنوب ، وكان يرتكز إلى اقتصاد العبودية .

- في 1850 تعطّل النهج السياسي تماماً وحالت حالة الجمود في الكونجرس دون الرأسماليين الصناعيين وتأمين التشريعات التي يعتبرونها ضرورية للرأسمالية الصناعية ، كما لم يكن الجنوب قادراً على تمرير التشريعات اللازمة لرأسماليته الزراعية.

- وأيد الشمال حكومة تتعهد برعاية تحسينات النقل ، وخاصة بعد أن افتتحت قناة إيري في 1823 ، وكانت غالبية هذه المشاريع في الشمال في منطقة البحيرات الكبرى ؛ ومع دخول بارونات السكة الحديد إلى المشهد ، في أواسط أربعينات القرن التاسع عشر ، تطلعوا هم أيضاً إلى رعاية الحكومة ومعوناتها لمشاريعهم ، أما الانشقاق الأخير حول مثل هذه المواضيع بين الشمال والجنوب فحدث في 1860 عندما فشل مشروع قانون الباسيفيكي في الكونجرس ، حيث لم يصوت له أيٌ من النواب الجنوبيين . وهكذا وجد الرأسماليون الصناعيون والممولون الذين اعتقدوا بأن الآباء المؤسسين إنما وضعوا نظام التشريع على نحو تحصل فيه أجنداتهم على المباركة الرسمية ، وجدوا انفسهم في مأزق التوقف التام .

- حيث أن زراعة خام المنسوجات كان العمل الرئيسي للجنوب ، لذا كان عليه تدبير الحصول على حاجته من البضائع المصنعة من خارجه ، وأراد الشمال تشريعاً يفرض تعريفةً على الواردات الخارجية لحماية صناعاته ، ورأى الجنوب في مثل رسوم التعريفة هذه كلفةً إضافيةً عليهم ومنافع لصناعيي الشمال ، كما أنهم رأوا أيضاً بأن رسوم التعريفة والضرائب إنما تستخدم لتأمين البنية التحتية الأقتصادية للشمال ودون أية فائدة لهم.

- وهكذا شنت الحرب الأهلية ، وأما لمن ستكون الغلبة .. فكان أمراً محسوماً ، فلقد كان تعداد سكان الولايات الاحدى عشر والتي يتكون منها اتحاد ولايات أميركا (CSA) 5.5 مليون أبيض و3,5 مليون عبد ، بينما كان سكان الاتحاد (Union) 22 مليوناً معظهم من البيض ، وكان الاتحاد يسيطر على 80% من الأسطول ، والقوارب النهرية ، وسكك الحديد ، والسفن البخارية وأحواض بناء السفن ، وكانت جميع الآرجحيات ضد الجنوب ، وأصبحت الرأسمالية الصناعية الآن مطلقة السلطان ، وأصبح بإمكانها استصدار ما ترغب فيه من تشريعات.

التوسعيـة

إن التوسع الإقليمي للولايات المتحدة هو قلب الرأسمالية الأميركية ، وتم استخدام شتى الوسائل لتحقيق التوسع ، فقد ضوعفت مساحة الولايات المتحدة بشراء لويزيانا في 1803 في عهد الرئيس جيفرسون ، أما المكسيك فثارت على اسبانيا وفازت باستقلالها في 1821 ، وكانت المكسيك المستقلة حديثاً تتكون من مكسيك هذه الأيام ، ومن تكساس وما يعرف الآن بنيومكسكو، ويوتاه ، ونيفادا ، وأريزونا ، وجزء من كولورادو، وساعدت الولايات المتحدة تكساس في الانفصال عن المكسيك في 1836 ، وأدخلت إلى اتحاد الولايات المتحدة الأميركية في 1845 ، وفي ليلة تنصيبه أسرّ الرئيس الديموقراطي جيمس بولك ، وهو توسعي ، إلى وزير البحرية أن واحداً من أهدافه الرئيسية هو الاستيلاء على كامل كاليفورنيا ، وكانت حينها جزءاً من المكسيك.

وأرسلت الولايات المتحدة الجنرال تيلور إلى الحدود المعترف بها بين تكساس والمكسيك على نهر نيوسيس ، وكانت الأوامر للجبيش هي أن يعبر إلى عمق الأراضي المكسيكية وأن ينتظر حتى يطلق المكسيكيون الطلقة الأولى ، وبينما كان ينتظر حادثاً ، ومع فروغ صبره ، اقترح بولك على مجلس وزرائه - كما هو مسجل من قبل بولك نفسه : ***" وذكرت.. أنه حتى هذا الوقت ، حسبما نعرف ، فإننا لم نسمع بأي عمل عدواني من الجيش المكسيكي . وقلت: في رأيي لدينا سببٌ كافٍ للحرب ، وأنه من المستحيل أن أتمكن من***

البقاء صامتاً لمدةٍ أطول .."[97] وكان بولك يشجع الحروب الإجهاضية ويروج لها قبل جورج بوش ب150 سنة . وحصل بولك على ما كان ينتظر .. طلقه أولى من المكسيكيين على الجيش الأميركي في منطقة مكسيكية متنازع عليها , وإليكم كيف خطب الرئيس بولك في الكونجرس : ***"لقد سفكت المكسيك دماً أميركياً على الأرض الأميركية .. وحيث أن حالة حرب هي الآن قائمة على الرغم من كل جهودنا ومحاولاتنا لتفاديها .. فإننا مدعوّون بموجب كل اعتبار للواجب و للوطنية ، وبكل عزيمة وتصميم للدفاع عن شرف وطننا وحقوقه ومصالحه وصيانتها."*** [98] أما جورج بوش وفي إعادة تاريخية لمشهد تاكتيكات بولك ، فقد أحدث حرباً استفزازية خطط لها منذ يومه الأول في الحكم ، وانتظر حادثةً لم تأت ، واستغلّ حادثةً استناداً إلى دعاوى زائفة لاحتلال بلد : هو العراق . وكما أثار الكونجرس الضجيج حول مزاعم الرئيس وادعاءاته لشن الحرب على العراق ، كذلك فعل الكونجرس في 1846 ، إذ أثار الكثير من الضجيج حول الاسباب التي قدمها بولك عن الحرب الأميركية المكسيكية ، وتحدى أبراهام لينكولن - والذي كان عضواً في الكونجرس في ذلك الوقت - تحدى بولك أن يحدد بالضبط البقعة التي سفك فيها الدم الأميركي على التراب الأميركي ، ولكن الضجيج يبقى دائماً ضجيجاً لا أكثر ! إن تنفيس غضب الجماهير هو جزء دائم من تكتيكات الرأسمالية الأميركية عن طريق قتل الأمور المتعارضة بحثاً إلى أن يتم دفنها. وفتحت الطريق إلى كاليفورنيا واستسلمت المكسيك في 1848 ، وتوسعت حدود تكساس حتى نهر ريوجراندي وتم التخلّي عن نيومكسيكو وكاليفورنيا، واستمرت تدخلات الولايات المتحدة في المكسيك حتى هذا اليوم ، وفي إحدى المرات قال بورفيريو دایاز رئيس المكسيك : "مسكينة هي المكسيك ..بعيدة كل هذا البعد عن الله ، وقريبة كل هذا القرب من الولايات المتحدة".

---

[97] Howard Zinn, *A People's History of the United States*, Harper & Row, 1980 Harper & Row, 1980, 149

[98] Ibid., 152

والآن : الامبريالية الأميركية

لقد تسارعت الثورة الصناعية بسبب العثور على المصدر الجديد للطاقة .. ألا وهو البترول ، واكتشاف محركات الاحتراق الداخلي والكهرباء... وجميعها اكتشفت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وفي 1893 بدأ كسادٌ حاد واستمر لمعظم سنوات العقد ، وكثف الكساد الصراع الطبقي ، فكتب ثيودور روزفلت الذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة في العقد الأول من القرن العشرين ، كتب إلى صديق : " شرط عدم إشاعة السر .. علي – تقريبا - أن أرحب بأي حرب لأنني اعتقد أن هذا البلد يحتاج واحدة." فالحروب – اعتيادياً - تخرج الرأسمالية من حالات ركودها وكسادها ، وهذا هو السبب الذي من أجله أشعلت الولايات المتحدة الحرب الأميركية الاسبانية في 1898 ، حيث غزت الولايات المتحدة كوبا وجزراً كاريبية أخرى واحتلت الفلبين ، وتمّ الادّعاء بأن الاسبان دمّروا المدمرة مين في خليج هافانا ، وبعد انتهاء

176

الحرب أثبتت التحقيقات أنه ليس للاسبان من يد في حادثة مين ، وأن الدوافع الحقيقية لها كانت كما عبّر عنها السناتور ألبيرت بيفريدج بشكلٍ صريح في 9 كانون ثاني 1900 حيث قال : " السيد الرئيس ، هذه الأوقات تقتضي صدق القول وعدالته ...فالفلبين أصبحت لنا إلى الأبد ... وعلى مقربة منها أسواق الصين غير المحدودة ، ولن نتراجع عن أيهما – ولن نتخلى عن نصيبنا في مهمة عرقنا ، كقيم من لدن الله على حضارة العالم .. إلى أين

نتوجه بحثا عن مستهلكين لفوائضنا؟! الجغرافيا تجيب على هذا السؤال ، فالصين هي زبوننا الطبيعي ..والفلبين تعطينا قاعدة على باب الشرق كله .." [99]أما الرئيس ماكينلي فظن أن من الأفضل له أن يشرك الله في الموضوع، تماماً كما فعل من قبله كولومبوس وكما فعل جورج بوش من بعده لدفع أهداف حربه إلى الأمام ، حيث أبلغ مجموعة من زوار البيت الأبيض بأن إلحاق الفلبين بالأراضي الأميركية إنما تم بإلهام قدسي : " لقد ذرعت أرضية البيت الأ "I walked the floor of the White House night after night until midnight, and I am not ashamed to tell you, gentlemen, that I went down on my knees and prayed Almighty God for light and guidance more than one night. And one night late it came to me this way – I don't know how it was, but it came"[100].

Encyclopedia Britannica called the

وقد دعت الموسوعة البريطانية الفترة البادئة بالحرب الأميركية الاسبانية بداية الامبريالية الأميركية ، أما موسوعة كولبير فدعتها بالاستعمار الأميركي ، وقد استخدمت الولايات المتحدة قواتها المسلحة في أميركا اللاتينية بشكل متكرر في القرن التاسع عشر ، ودفاعاً عن تدخل أميركا في كوبا ضد كاسترو عام 1962 والذي انتهى إلى الفشل ، نوه دين راسك وزير الخارجية أمام لجنةٍ لمجلس الشيوخ بأن التدخلات المسلحة للولايات المتحدة ضد بلاد أجنبية بين 1798- 1895 حدث 103 مرات ومن ضمنها تدخلات في الارجنتين (1852-1853) ، نيكاراغوا (1853) ، اليابان (1853-1854) جزر بونين وريوكيو (1853- 1854) أوروغواي ، (1855) ، الصين (1859) ، غربي أفريقيا البرتغالية (1860)، وهاواي (1893) ، نيكاراغوا (1894) ، وتميز العقد الأخير من القرن التاسع عشر بالتوسع الكامل تقريباً للولايات المتحدة من ال13 ولاية الأصلية وحتى كاليفورنيا ، وأدخلت كاليفورنيا إلى اتحاد الولايات المتحدة في 1850 ،

---

[99] Ibid., 306

[100] Ibid., 313

ومينسوتا في 1858 ، وأوريغون في 1859 ، وكانساس في 1861 ، ونيڤادا في 1864، ونبراسكا في 1867 ، وكولورادو في 1867 ، وواشنطن وداكوتا الجنوبية وداكوتا الشمالية في 1889 ، ووايومنع في 1890 ، ويوتاه في 1896 ، أما ألاسكا فقد اشتريت من روسيا ب 7,2 مليون دولار في 1867 ، و منحت الوضعية الإقليمية في 1912 ومن ثم أدخلت اتحاد الولايات المتحدة في 1958 ، ووقع كساد اقتصادي عميق في 1870 ثم آخر في 1890 ، وتميزت هذه الفترة بحروب طبقية ، وإضرابات عمالية نشأ عنها حزب ثالث ، وكان حزب الشعب من الشعبيين الذين قدموا برامج اقتصادية بديله من اجل أميركا مختلفة عن تلك التي يديرها البارونات اللصوص ومجتمع وول ستريت المالي ، ووصلت الاضرابات والاضطرابات والعنف العمالي مستويات غير مسبوقة ، وأدى مزيج فائض الإنتاج الناشئ عن الثورة الصناعية والكساد الاقتصادي الحاد والاضطرابات العمالية ، أدى بصفوة النظام الرأسمالي الأميركي إلى بدئهم حوارا حول الحاجة إلى الانطلاق عالمياً لما هو أبعد من أميركا اللاتينية مما سيفتح أسواقاً جديدة ، وربما أدّى إلى توحيد الأميركان مع الحكومة ومع القوات المسلحة بدلاً من أن يكونوا ضدّهم . وفي وقت أقدم يعود إلى 1823 ، حيث كانت أقطار أميركا اللاتينية تكسب استقلالها من إسبانيا ، صدر مبدأ مونرو والذي جعل واضحا للقوى الأوروبية أن الكاريبي والبلاد التي تليه إلى الجنوب باتجاه أميركا اللاتينية يجب اعتبارها جزءاً من نطاق نفوذ الولايات المتحدة ، ولكن الآن ، في عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر، بدأت المؤسسة الأميركية تتطلع إلى ما وراء كاليفورنيا في المحيط الهادئ غرباً باتجاه هاواي واليابان والصين ! وتشكل هذه الاجماع عبر بنية السلطة شاملاً السياسيين ورجال الأعمال والعسكريين ؛ فالرأسمالية المدفوعة بالنمو وأيديولوجيا التوسع لا ينفصلان ، وعن هذا قال ويليام ماكينلي إن الولايات المتحدة بحاجةٍ إلى الأسواق الأجنبية ، وقد قال ذلك حتى قبل ان يترشح للرئاسة ، كما أن جون بيرجس من جامعة كولومبيا بدأ معزوفة التبرير الأخلاقي للتوسعية وحتى بمصطلحات عنصرية ، حيث قال إن العنصر الأنجلوساكسوني " ..قد عهد إليه .. بمهمة القيادة لحضارة العالم الحديث " . ومن السخرية أن هذا هو التبرير نفسه الذي استخدمه جورج بوش وجماهير صدامه الحضاري .

امبراطورية اميركية غير رسمية : القرن العشرون

في 1897 قال السناتور ألبرت بيفريدج :" إن المصانع الأميركية تنتج أكثر مما يمكن للشعب الأميركي استعماله ، والتربة الأميركية تنتج أكثر مما يمكنهم استهلاكه ، وهكذا فقد

كتب لنا القدر سياستنا .. يجب أن تكون تجارة العالم لنا " . وأوضحت وزارة الخارجية في 1898 : ***" إن تكبير حجم الاستهلاك الأجنبي من منتجات مصانعنا ... يصبح مسألة تحد خطيرا لمقدرتنا السياسية وكذلك للتجارة ".وأثناء نفس تلك السنة سمت افتتاحية لواشنطن بوست الأشياء بأسمائها :" طموح ، مصلحة ، جوع للأرض ، كبرياء ، مجرّد متعة القتال ، ومهما يمكن لها أن تكون فإننا مفعمون بحيويّة حسَّ جديدٍ مثير.. هوطعم الامبراطورية في فم الناس .. حتى أنه مثل طعم الدم في الغابة..." .***[101]

وهناك وجهتا نظر جادلتا دفاعا عن جوهر الامبراطورية ، فبينما اعتقد البعض بأن على الولايات المتحدة أن تصبح - رسميّاً – امبراطورية ، تماماً مثل باقي الامبراطوريات ، ترافعت مجموعة اخرى بأن أهداف الولايات المتحدة الامبراطورية يمكن تحقيقها عن طريق فرض سياسات التجارة الحرة التي يمكن لها ضمان سيطرة الولايات المتحدة من خلال قوتها الاقتصادية ، ودعت هذه المجموعة إلى سياسة " الباب المفتوح " . وهكذا أصبح الفتح والأهداف الامبراطورية للولايات المتحدة الاميركية ، عبر التجارة الحرة ، هي السياسة السائدة خلال القرن العشرين بأكمله ، وجعلت الاتصالات ، والتقدم التكنولوجي ، والإداري ، من

ص178-180

الامبريالية الأميركية أمراً ممكنا بإمبراطورية غير رسمية . وحتى سقوط الاتحاد السوفياتي تميزت الامبراطورية الأميركية غير الرسمية بدورات الازدهار والاخفاق (الانتعاش والانكماش) متبوعةً عادةً بالحروب ، وميز ذلك الحياة الأميركية السياسية والاقتصادية طيلة القرن العشرين وإلى أن تم اعلانها إمبراطورية رسمية ، باعتبارها النظام العالمي الجديد للقرن الحادي والعشرين . وإذا كان من شأن عبارة التجارة الحرة أن أصبحت متداولة على مستوى الأسرة ، بعد أن تم إنشاء " منظمة التجارة العالمية" لرعايتها والاشراف عليها ، فإن سياسة التجارة الحرة كانت في مركز الرأسمالية الأنكلوساكسونية ،

---

[101] Ibid., 292

ورجوعاً إلى 1820 فقد أجاز البرلمان البريطاني بياناً يدعم فيه " التجارة الحرة المطلقة " ، وأخذ هذا البيان شكله الرسمي عندما سحب البرلمان قوانين الذرة وألغاها في 1846 ، وقد تركز أنصار هذه القوانين في المصالح البنكية التي التفت حول أليكساندر بارنج - من بارنج بروذرز المصرفيين التجار – والتي أنشأت مجلتها الدعائية ، "الإيكونومست" في 1843 للدفاع عن قضية التجارة الحرة . وفي حوالي نفس الوقت تقريباً غزت الولايات المتحدة اليابان (بعثة بيري 1853- 1854) حيث طالبت السفن الحربية الأميركية اليابان بالتجارة الحرة ، وفي تاريخٍ لاحق أصبحت مجلة "بيزنس ويك" المعادل الأميركي للإيكونومست.

وتأكيداً لحقوقها المعلنة ذاتياً بالتدخل في أميركا اللاتينية ، سنت الولايات المتحدة " إعلان ثيودور روزفلت تبعاً لمبدأ مونرو" ، والذي أعطى الولايات المتحدة حق التدخل الانفرادي في بلدان اميركا اللاتينية عندما – ترى في تقديرها – أن ذلك ضروري لتعزيز مصالحها القومية . ولهذا يتضح أن الانفرادية ضاربة بجذورها في أعماق الرأسمالية الأميركية ، وتعود بتاريخها إلى العقود الأولى من القرن التاسع عشر كما عبر عنها في مبدأ مونرو ، و استمرت حتى القرن الحادي والعشرين كما عبر عنها في مبدأ بوش . وطبق هذا المبدأ بالتدخل الانفرادي في هايتي والدومينيكان وجمهورية نيكاراغوا ، كما قام الرئيس ويلسون بتدخل طويل الأجل في المكسيك عام 1910 ، بما يعني أن سياسة الباب المفتوح - أي التجارة الحرة - أصبحت السياسة الرسمية للولايات المتحدة .

واستناداً إلى حث وإلحاح مجتمع الماليين في الولايات المتحدة ، خطط الرئيس ثيودور روزفلت لإنشاء قناة المحيطين عبر أميركا الوسطى ، والتي ستساعد التجارة في الوصول السهل والحر للسفن التجارية والبحرية الأميركية ، من الشاطئ الشرقي على الأطلسي إلى الشاطى الغربي على الهادي . وكانت المنطقة المقترحة للقناة تعود في ملكيتها لكولومبيا والتي كانت مترددةً في إعطاء الولايات المتحدة المدخل الذي تريد ، فحاكت الولايات المتحدة عملية سرية بالتواطؤ مع شركةٍ فرنسية كانت متلهّفة لبيع امتيازها إلى الولايات المتحدة . وكنتيجة لهذه الثورة ، اقتطعت دولة بنما من كولومبيا ، واكتمل إنشاء قناة بنما في 1914.

أميركا : دولة المركز الجديدة للرأسمالية :

أخذت القوة الاقتصادية والعسكرية للامبراطورية البريطانية تتعرض لتحد متعاظمٍ من ألمانيا وبدأت تفقد المتطلبات اللازمة للامبراطورية ، فالرأسمالية بدلالة اسمها تتمحور حول رأس المال ومالكيه، وليس لها ولاء قومي . وكان الرأسماليون العالميون وبارونات المال يعتمدون دائماً على دولة مركز تحتضنهم وتحمي مصالحهم ، وغدت الولايات المتحدة دولة المركز الجديدة للرأسمالية ، وبدأ المركز المالي في لندن والذي يدعى مدينة لندن ، وبالتنسيق مع وول ستريت ، عمليه نقلٍ مخطط لها للسلطة الامبريالية من انجلتر إلى الولايات المتحدة ، وأنشئت مؤسستان توأمان في أميركا بدءاً ببنكٍ مركزي لم يكن موجوداً سابقاً . وأنشئ نظام الاحتياط الفدرالي في 1913 ، والذي صنع على صورة بنك انجلترا تماماً (البنك المركزي البريطاني)، ومن اللافت للنظر أن إنشاءه تم قبل عدّة أشهر فقط من الحرب العالمية الأولى . وبدون بنك مركزي أميركي كهذا ، لم يكن ليتسنى للولايات المتحدة إدارة التمويلات والقروض التي زودّ بها وول ستريت المجهودات الحربية للحرب العالمية الأولى . و تلك الحرب كانت حدثاً من شقين معاً : عسكري ، واقتصادي ذي بعد عالمي ، نشأ عنه توسع الاقتصاد الأميركي ، حتى مع ادعاء الرئيس ولسون بأنها حرب لإنهاء كل الحروب ، وحتى تتمكن الولايات المتحدة من الإمساك بزمام حصان متمولي العالم ، كان إنشاء بنك مركزي أميركي أمراً لازماً ولا مفر منه.

183-182

الفصل السّابع

انـهيار رأسمالية التمويل العالمية

"ودخل المسيح إلى الهيكل ، وقذف خارجاً كلَّ البائعين والشارين الذين كانوا في بيت الرب ، وقلب طاولات صرّافي العملة ، ومقاعد أولئك الذين يبيعون الحمام ، وقال لهم ، إنه مكتوب أن بيتي سيسمى بيت الصلوات ، إلا أنكم جعلتموه وكراً اللصوص."

ماثيو 12-13 :21

طبعة الملك جيمس

منذ فجر التاريخ ، ومنذ أيام المسيح ، وقبل آلافٍ من السنين مضت وانقضت ، وحتى أيام برنارد مادوف وأشباهه في وول ستريت ، وسرقته 64 بليون دولار ، بقي الصيرفيون لصوصاً ... عدا أنهم أتقنوا حرفة لصوصيتهم – عبر مسيرتهم ، مستخدمين أحدث الحواسيب ومبرمجي علوم الصورايخ ، لتعظيم سرقاتهم . وأصبحت مناوراتهم وألاعيبهم أكثر تعقيداً ، إلا ان ثقافتهم بقيت ثابتة لم تتغير ووظفوا " مأجورين " - أسموهم اقتصاديين - كُهاناً لتجاوزاتهم المفرطة ، والذين نظرّوا لهم ولعقيدتهم ، بأن" الجشع ورع " ، أو أنّ " الجشع والبخل والربا والحرص يجب أن تكون آلهتنا ... لأنها هي فقط تستطيع هدايتنا ..إلى ضوء النهار" ، كما جادل كينز في عمله المشهور " النظرية العامة في التوظيف والفائدة والنقود".

ويمكن لأحد كبار الكهنة - مثل كينز - أن يقوم على خدمة أغراضهم يوماً ، بينما يقوم كبير كهنة آخر - ربما ميلتون فريدمان - على خدمتهم في يومٍ غيره ، حيث يتم تبجيله ويضخم دوره كي يروج غرضاً آخر ؛ ولا يضر حتى لو ادعى بأن جميع سابقيه في مؤسسة الكهانة ، كانوا على خطا جملةً وتفصيلاً ، وأن الخلاص إنما يتأتى من نظرياته الكمومية في النقد .

إن الرجل الذي تصرف باعتباره مصرفي الأمر الواقع العالمي للمعرفة والخبرة بالبنوك المركزية ، والذي أدارالاقتصاد الأميركي كرئيس للاحتياط الفيدرالي لمدة 18½سنة - غطت الجزء الأعظم من فترة تحرير المحافظين للاقتصاد - هذا الرجل ، في شهادته بتاريخ 23 تشرين الأول 2008 أمام لجنة الكونغرس حول الرقابة والرعاية والإصلاح الحكومي ، قال : " إننا في وسط إعصار ، أو تسونامي تسهيلات ائتمانية ، يحدث مرة في القرن" . وطبقاً لسي. بي. إس. نيوز فإن آلان جرينسبان قد أنكر أن أزمة الأمة الاقتصادية هي غلطته .. إلا أنه سلم بأن عملية الانصهار ، أظهرت خللا ، في فترة عمر كامل من التفكير الاقتصادي ، وتركته في " حالةٍ من الصدمة وعدم التصديق " . واعترف أثناء الاستجواب ، بأنه قد ارتكب " غلطة " في اعتقاده بأن البنوك - وهي تعمل لمنفعتها

ومصلحتها الذاتية - ستقوم بعمل ما هو لازم لحماية مساهميها ومؤسساتها . ودعا جرينسبان ذلك عيباً ونقصاً في النموذج .. يعرّف ويبين كيف يعمل العالم."

185

وكان العيب الذي " اكتشفه " جرينسبان في النموذج الاقتصادي الذي كان يقوده ، لا أقل من الاعتراف ، بأن يد آدم سميث " الخفية " - لتعديل أوضاع الأسواق - ليست موجوده . وهكذا وبالنتيجة ، فإن النظرية وراء نظام جرينسبان الرأسمالي برمتها ، يعتورها النقص والعيب .

و تم إحضار بن برنانكي إلى عين الإعصار ، ليس بمحض الصدفة ، وإنما لأن أطروحته للدكتوراه بمعهد مساشوسيتس للتكنولوجيا (MIT) ، جادلت بأنه في حالات الكساد ، مثل الكساد الكبير ، فإنه يتوجب إنقاذ البنوك بأي ثمن . وكان هو ومصرفي سابق من وول ستريت .. (الرئيس التنفيذي لشركة لهمان برذرز ووزير خزانة جورج بوش) ، قد صدقا الرؤية والوعد ، باستخدام دفاتر شيكات دافعي الضرائب لانقاذ المصرفيين ذاتهم ، وهم الذين عرَضوا غالبية دافعي الضرائب للاجتياح بالتسونامي المالية ، كما دعا جرين سبان الأزمة .

داخل الانصهار

لكي نقوم بوصف حجم الأزمة التي عصفت بأسواق المال الأميركية والعالمية ، نورد نسخة من البرنامج الذي أذاعته شبكة التليفزيون الأميركية (pbs) في 2009/2/17 تحت عنوان – خط الجبهة – داخل الانصهار:

في 2008/9/18 وصل هنري بولسون وزير الخزانة ، و بن برنانكي رئيس الاحتياط الفيدرالي ، إلى اجتماع طارئٍ في الكابيتول ، وذهبا إلى مكتب نانسي بيلوسي . وهناك كان اجتماع لكبار المشرعين من كلا الحزبين في كل من مجلسي النواب والشيوخ ، حيث قال السناتور كريستوفر دود (ديموقراطي عن ولاية كونكتيكت) رئيس لجنة المصارف :"من الواضح أنه كان اجتماعاً كبيراً ، ولم يكن لدي فكرة عن أنني سأسمع ما سمعته . وكان أن أحلنا الأمر لبن برنانكي وهانك بولسون ، اللذين قالا بأنهما يحتاجان الصلاحية لاستخدام 700 بليون دولار ، لتسليك تدفقات أسواق الأئتمان .

186

وقال السناتوركريستوفر دود : "كنا جالسين في تلك الغرفة مع هانك بولسون وهو يقول لنا بلهجةٍ محسوبةٍ تماماً ، ودونما مبالغة أو نعوت تضخيمية بأنه " مالم تتصرّفوا ، فإن النظام المالي لهذا البلد وللعالم ، سينصهر خلال أيام . وعندها قال برنانكي : " إذا لم نفعل هذا غداً ، فإنه لن يكون لدينا اقتصاد يوم الأثنين " ***. وأضاف السناتور دود" كان هناك- حرفيّاً – جمود في تلك الغرفة ، حيث هجرها الأكسجين" .***[102]

وهاهم أولاء ، مشرعّون من ضمنهم رئيس لجنة المصارف ، والذي قال هو ورئيس اللجنة المالية - من بين آخرين - بأنهم لم يكونوا يدرون بأنهم سيسمعون ما سمعوه . ومع ذلك طلب إليهم يوم الجمعة ، أن يتخذوا قرارات لإنقاذ وول ستريت ب700 بليون دولار ، دون إلقاء أسئلة ، ودون دراسة ، وإنما مجرّد الكلمة الموثوقة لكل من بولسون ، الرئيس التنفيذي السابق لـچولدمان ساكس ، وبن برنانكي - الذي كما هي العادة ، يدين بوظيفته لوول ستريت . وبهذا ، ولهذا .. ، فإن الديموقراطية الأميركية هي في خير أحوالها ، وتعمل على خير ما يرام .

وقد لام الكثير من المحللين الاحتياط الفيدرالي (البنك المركزي الأميركي) وسياساته، في فترة اقتصاديات ريغان ، حيث جرى تحرير الاقتصاد خلال الجيل الماضي . وقد اقيم مبنى الاحتياط الفيدرالي في واشنطن ، حيث بني على شكل يشبه المعبد ، ويحيط نفسه بغموضٍ روحيٍ أحسن وصفه وليام جريدر:

" يستجيب كل من الصحافة والسياسيين لغموض بنك الاحتياط ، ويميلون إلى النظر إليه بتوقير وإجلال بصفته مؤسسة تكنوقراطية وسياسية حاكمة تتكون من اقتصاديين متحمسين ، يقرّرون في مواضيع غامضة وغاية في التعقيد ، يصعب على بقيتنا فهمها - وهذه الاستجابة والميل ، يعززان من قوة البنك المركزي . ويسمح إجمالي الجهالة ببنك

---

[102] Frontline Interview. http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/meltdown/etc/script.html

الاحتياط له بأن يتصرّف دون أن يكون عرضة للمسئولية عن أحكامه الأحادية الجانب ، أو عن أخطائه الجسيمة" . [103]

187

ومع أن النقود ذات أهمية حاسمة لأنشطتنا الاقتصادية ، كما أنها تؤثر في حياتنا بشكل عميق ، إلا أنها الأقل قابلية للفهم منّا . وهذا تناقض يتماشى جيداً - على ما يبدو - مع أولئك الذين يسيطرون على ، ويفيدون من ، غموض النقود هذا . والمواضيع المتعلقة بالنقود عديدة وحاسمة ، ومع ذلك فنادراً ما يتم هذه الأيام بحثها على الملأ ، أو أن تظهر على الأجندة السياسية لأي من الحزبين ، بعكس ما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر ، حيث تصدرت المسائل النقدية الأجندة السياسية. فلقد بحثوا الحاجة إلى بنكٍ مركزي ، ومن الذي يملك صلاحية خلق النقود ؟.. أهي المصالح الخاصة، أم الحكومة ؟.. كما بحثوا دور إدارة الخزينة ، وهل يكون خلق النقود بواسطة البنوك ؟.. أم من قبل الحكومة مباشرةً ؟.. وهل يتوجب للنقود أن تكون مغطاة بالذهب ؟ أم بالفضة ؟ أم بكليهما ؟.. وهل للحكومة أن تصدر نقودا دون تغطية ؟

وبعد أن شكل الشعبيون حزبهم الخاص - والذي لم يثق بكلا الحزبين - عرض مقترحات ثورية عن مختلف الأمور النقدية ، إلا أنها خُربت - عبر انضمامهم إلى الحزب الديموقراطي - الذي راوغهم وناورهم إلى حمى تيار سياسته الرئيسي . وكالمعتاد ، تم إبقاء الأميركيين منشغلين بحاجتهم - من اليد إلى الفم - كعامل إلهاءٍ يومي ، إلى حد أدى إلى نسيان هذه المواضيع تماماً أوأنها كادت ، بينما يتذكرالناس أن هناك خطأ ما – فقط - عندما يلمسون آثار التضخم ، أو عندما يفقدون وظائفهم وبيوتهم.

الاحتياط الفيدرالي : كارتل هجين

---

[103] William Greider, *Come Home, America: The Rise and Fall (and Redeeming Promise) of Our Country*, Rodale, 2009, 44

كان أحد مواضيع النقاش الحامية لدى حزب الشعب ، هو موضوع خلق النقود والعمليات المصرفية المركزية . وأصبح حزب الشعب حزباً ثالثاً ذا نفوذ تحدّى مبادئ الرأسمالية الأساسية ، كما تحدى المصالح المصرفية والنقديّة والتي أسموها المصرف التجاري . ومع أن حزب الشعب قد تم خداعه للانضمام إلى الحزب الديموقراطي ، إلا أن الجمهور كان لا يزال - عند انتهاء القرن - معنياً ومهتمّاً جداً بهذه المواضيع . وفي العقد الأول من مطلع القرن العشرين كان الكثير من البنوك مفلسا ، وكان الناس يخسرون مدخرات عمرهم ، وكانوا قلقين بسبب تركز الثروة لدى مصرفيي ومتمولي نيويورك . وأما السياسيون فكان ينتخب منهم من يعد بالوقوف في وجه تكتل النقود ، بمن فيهم الرئيس ويلسون ، الذي قاد حملة ضد تكتل النقود ، على الرغم من أنه كان قد اختير وموّل وأحيط بتكتل النقود . وكانت وعوده ترمي لتأمين نجاحه في الانتخابات ، وتمّ نقضها بعد ذلك.

وانتهت خطة المصرفيين بانتخاب ويلسون ، وبعدها قرروا أن يضعوا بأنفسهم - سرّاً بالطبع - مسوّدة القانون اللازم لأنشاء شخصية اعتبارية للسيطرة على تكتل النقود، ومن ثم تمريرها كقانون في الكونجرس . وحصلوا على السناتور نيلسون أولدريتش بصفته السوط الجمهوري في مجلس الشيوخ ، واختير رئيساً لهيئة النقد الوطنية ، وهي هيئة خاصة أنشأها الكونجرس كي تقترح توصيات حول كيفية تنظيم تكتل النقد ، وكان أولدريتش عضواً مشاركاً في جيه. بى. مورجان ، وحمو جون روكفللر الصغير ، والذي أسمى ابنه: نيلسون أولدريتش روكفللر ، والذي أصبح نائباً للرئيس نيكسون.

وقرر أولدريتش وستة آخرون ، عقد اجتماعٍ سري في جزيرة جايكل قرب شاطئ جورجيا في أحد أيام تشرين أول 1910 ، وكانت جايكل جزيرة مملوكه لأغنياء مصرفيي نيويورك ، والذين كان لهم قصورهم الخاصة مع نادٍ خاص للمجموعة ، وكانت منتجعهم الشتوي بعيداً عن شتاء نيويورك المتجمد . أما الستة الآخرون المشاركون في الاجتماع السّري فكانوا:

- فرانك ڤاندرليب ، رئيس ناشينال سيتي بانك أوف نيويورك - أكبر بنوك أميركا في ذلك الوقت - ممثلا للمصالح المالية لوليم روكيفللر وشركة الاستثمار العالمي: كوهن ، لويب وشركاهم.
- تـشارلز نورتون ، رئيس مصرف فيرست ناشينال بانك أوف نيو يورك .

- بنجامين سترونج ، رئيس شركة جيه. بي. مورجان بانكرز ترست كومباني، وكان هذا هو المصرفي الذي أصبح أول رئيس للاحتياط الفيدرالي ، وهو النظام الذي صنع كي يسيطر على ، ويحد من ، نفوذ المصارف .
- أبراهام آندرو ، والذي كان مساعد وزير الخزانة.
- هنري داڤيسون ، شريك رئيسي في شركة جيه. بى. مورجان بانكرز ترست كومباني .
- بول وربرغ ، وقد ولد في ألمانيا ، وهو أميركي متجنس ، وسليل أسرة وربرغ العائلة المصرفية ، والتي كانت على درايةٍ تامة بممارسات وسلوكيات البنوك المركزية في أوروبا ، وكان يمثل مصالح روتشيلد المصرفية في انجلترا وفرنسا ، وشريكاً في كوهن لويب وشركاه ، وشقيق ماكس وربرغ الذي يرأس مصالح واربرغ المصرفية في الأراضي المنخفضة وألمانيا . وكان واربرغ هو الاستراتيجي الأول لمشروع الاحتياط الفيدرالي .

وكانت البيوتات المالية والمصارف التي يمثلها هؤلاء السبعة تمثل 40% من ثروة العالم في 1910 .

وصاغ هؤلاء السبعة مشروع القانون الذي سيقدم إلى الكونـچرس والذي كان يقصد به رقابتهم والسيطرة عليهم . وابتداء أنكروا أنهم اجتمعوا ، كما نفوا أن المشروع من وضعهم . وبعد سنوات قليلة أو عقود ، كشفوا سرّهم في سيرهم الحياتية ، أو في مقالات في الجرائد . وكتب فرانك ڤاندرليب مقالة في ساتردي أيـڤننـج بوست في 1935/2/9 ، كتب يقول :

" لا أعتقدِ أن هناك أية مبالغة في أن اتحدث عن بعثتنا إلى جزيرة جايكل ، على أنها المناسبة التي حصل فيها الحمل لما أصبح يعرف بعد ذلك بنظام الاحتياط الفيدرالي . وطلب إلينا ترك أسمائنا الأخيرة وراءنا ، كما طلب إلينا - إضافة إلى ذلك - تفادي تناول العشاء معاً في ليلة مغادرتنا ، كما تلقينا تعليمات

190

للحضور كل على انفراد - وبالخفية ما أمكن - إلى محطة السكة الحديد على شاطئ الهدسون في نيوجيرسي ، حيث ستكون سيارة السناتور أولدريتش الخاصة على استعداد ، ملحقة بنهاية قطار متجه إلى الجنوب . وما أن نصبح في السيارة حتى نبدأ الالتزام بالتحريم

المفروض على الأسماء الأخيرة ؛ وخاطبنا بعضنا البعض باسمائنا الأولى مثل بن ، بول ، نلسون و إيب... حتى أنني تبنيت وسائل تنكريةٍ اعمق ، متخلّياً عن أسمائنا الأولى . وفيما يتعلق بنظرية أننا كنا دائماً على صواب، أصبح هو ويلبر وأصبحت أنا أورفيل ، تيمّناً بطلائعيي الطيران الاثنين .. الإخوة رايت (الاخوة صح) ، وكان يمكن لخدام أو طاقم القطار أن يعرفوا هويات واحد او اثنين منّا ، إلا أنهم لم يكونوا يعرفوننا كلنا . وكانت طباعة أسمائنا كلها معاً ، هي ما كان يمكن أن تجعل من رحلتنا الغامضة ، ذات أهمية في واشنطن و وول ستريت ، وحتى في لندن . وببساطة عرفنا أن اكتشافنا يجب أن لا يحدث . "

وعندما سئل فاندرليب عن لماذا هي السريّة ؟ أجاب :

" فيما لو انفضح علناً أمر مجموعتنا بالذات ، وأنها قد التقت معاً وكتبت مشروع قانونٍ مصرفي ، فإن مثل هذا المشروع سوف لن يعود له فرصة - مهما كانت- لإجازته من الكونجرس." [104]

وإنه لمن المناسب الآن ، وعند هذه النقطة ، السؤال عما إذا كانت مثل هذه المكائد تعتبر مؤامرة ، أم نظرية مؤامرة ؟! .. أليس بمقدورنا الافتراض أن هؤلاء الصفوة وأسلافهم قد اخترعوا " نظرية المؤامرة " ، كإجهاض للفكر الحر من أن يحقق في مؤامراتهم ؟.. أليس بمقدورنا – الآن - القول إن " نظرية المؤامرة" هي في حد ذاتها مؤامرة؟!!

إن القانون الذي كان يفترض فيه أن يكسر سلطان وسيطرة التكتل النقدي ، قد كتب من قبل " التكتل النقدي " ذاته ، وهو مثال حيّ على آليّات الديموقراطية الأميركية ؛ فعندما يلتقى المتنافسون لينسّقوا أنشطتهم ضد " المنافسة " ويعملون معاً .. تسمى المجموعة عندها كارتل ، ولذا كان ما ظهر ، هو تشريع قد تمت صياغته من قبل هذا الكارتل المصرفي . وتم تعيين عضو من الفريق السري ، هو بنجامين سترونج ، ليرأس ذلك الكارتل تحت اسم

---

[104] Michael A. Kirchubel, Mike Kirchubel, 2009, 108, *Vile Acts of Evil - Volume 1 - Banking in America*

نظام الاحتياط الفيدرالي . فهذا البنك المركزي مملوك من البنوك الخاصة الأعضاء ؛ وحتى يمتلك شرعية القوة الحكومية ، أضيفت الى اسمه كلمة اتحادي ، وتوجر بها ، لإعطاء الرئيس الأميركي صلاحية تسمية رئيس الاحتياط الفيدرالي وعدد من الأعضاء . وفي المآل - فحتى الرؤساء أنفسهم - إنما يمكنهم أن يصبحوا رؤساء عبر فلوس الحملات الانتخابية ، المزودة لهم من " تكتل النقود " هذا.

إن المناورات السياسية لإجازة قانون المصرفيين من الكونجرس هي نموذج عن الديموقراطية الأميركية المشوهة ، التي أبقت الشكل وخسرت المضمون . وخلافاً لنصح بول وربرج قدمت المسودة الأولى لقانون الاحتياط الفدرالي باسم "قانون أولدريتش" حيث أن مقدمه كان رئيس هيئة النقد الوطنية . ولقد كانت تلك هي أنانية وغرور أولدريتش ، الذي رغب في أن يدخل اسمه كتب التاريخ ، بصفته مهندس بنك أميركا المركزي ؛ كما افترض بأن له احترامه ومكانته البارزة . ونصح واربرغ أولدريتش بأن اسمه سيقرن القانون بالمصالح الكبيرة ، وأن ذلك سيؤدي إلى إسقاط القانون في التصويت ، وكان ذلك هو ما حصل . واختار تكتل النقود مصرفيّاً من الحزب الديمقراطي هو السناتور روبرت أوين ، وكارتر جلاس من النواب ، لتقديم القانون ، بعد أن أجروا عليه تغييرات تجميلية طفيفة ، وأزالوا اسم أولدريتش ، وأسموه قانون جلاس/أوين . ولحمل الرأي المقاوم للمصالح الكبيرة على قبول القانون الجديد ، قام كل من أوين وفاندرليب بعمل عدة مقابلات صحفية خادعة ينتقدون فيها القانون المقترح بصيغته الأولى كما لو كانوا في الصف المضاد لرجال الأعمال ، ولهذا السبب ، وحيث ان صورة الحزب الديموقراطي هي أنه حزب الشعب ، حاز القانون الثقة أواخر 1913 .

أصبح بنجامين سترونج أول رئيس لنظام الاحتياط الفيدرالي ، وإذا كانت هذه الوقائع تبدو كاحد أفلام هوليوود السينمائية ، فإن هوليوود مملوكة لتكتل النقود هذا نفسه ، وكانت وما تزال بوقه الناطق والمعبر عنه. ولم يترك تكتل النقود شيئاً للصدفة ، ولضمان تمرير قانونهم فإن هؤلاء الناس دفعوا لنوادي الدراسات لدخول البلاد والترويج للقانون ، وطبعوا الكتيبات والنشرات ، وتبرعوا لجامعات ذات سمعةٍ رفيعة ، ومولوا أساتذة جامعات (بروفيسورز) للكتابة عن فضائل قانونهم للاحتياط الفيدرالي . وكان إعلام الشركات في ذلك الوقت كما هو الآن في خدمتهم .

ومن أجل أن تكون قوة القانون إلى جانب كارتل المصرفيين ، احتاجوا لأن تكون الحكومة شريكتهم فيه لفرضه ، ولهذا خلق الاحتياط الفيدرالي على هيئة كارتل هجين من شراكةٍ

بين المصرفيين والحكومة ؛ فالرئيس الأميركي يعين رئيس الاحتياط الفيدرالي ، ولكن دائماً بالتشاور مع وول ستريت وموافقته ، فالاحتياطي الفيدرالي مملوك للبنوك الأعضاء ، والتي هي بدورها ملكية خاصة، وإضافة كلمة فيدرالي إنما كان للخداع ، إذ أن الاحتياط الفيدرالي يعمل منفرداً ومستقلاً ، بعيداً عن أية رقابةٍ شعبية.

أزدهار وإفلاسٌ وحـروب

يجادل تكتل النقود " على أن نظام الاحتياط الفيدرالي – (البنك المركزي الأميركي) - كان لازماً لتثبيت الاقتصاد وإعادة استقراره ، تبعاً لدورات ازدهاره وإخفاقه ، وفي الواقع - وكما سنرى - فإن هذه لم تكن القضية أبداً .

كانت الولايات المتحدة في حالة ركود لعدة سنوات من 1910 وحتى 1914 ، وكانت مصالح المال العالمية تخطط لحربٍ كبيرة ، وكان إيجاد البنك المركزي الأميركي ضرورة لازبةً لإدارة وضبط مصالح المصرفيين ، بعيداً عن مناطق الحرب ، خاصة وأن أمور بريطانيا المالية كانت متردية وفي حالةٍ يرثى لها . وكان سرّاً معلوماً ان أميركا ستموّل الحرب ، كما كان من الواضح للممولين العالميين ومؤسساتهم المصرفية أن الامبراطورية البريطانية كانت في حالةٍ تنفيس (بنشرت) ، وأنها تفقد متطلبات الامبراطورية . وأصبحت أميركا الحصان الامبريالي الجديد للممولين العالميين ، ولطالما أنشئت مؤسسات توأم بين بريطانيا والولايات المتحدة لتنسيق نقل أروقة السلطة من المملكة المتحدة إلى الولايات المتحدة ، وكان البنك المركزي خطوة أولى حيث أنشئ على غرار بنك انجلترا (بانك أوف إنجلاند) ، والذي أيضا لم يكن مؤسسة حكومية وإنما مملوكا للبنوك الخاصة .

وشهد عقد التسعينيات ازدهاراً سرابيّاً مخادعاً أفاد منه وول ستريت والشركات متعدّدة الجنسية ، بينما عانت معظم الشركات متوسطة إلى صغيرة الحجم . وانفجر هذا الوهم في عام 2000 عندما انهار سوق أسهم التكنولوجيا ، وكان لابد من حادث كحادث 9/11 . وتمّ تغطية فقاعة عام 2000 بأكبر فقاعةٍ عرفها التاريخ.

وأتبع ذلك بحرب ، كما يمكن للمرء أن يتوقع تالياً لركودٍ اقتصادي ، وفي هذه المرة دعيت - تلاؤماً مع الحدث - بالحرب على الإرهاب . وأعلن أن هذه الحرب دائمة ومستمرة وبلا حدود ، ولا حاجة للدليل لإعلان الحروب وغزو البلدان ، حيث الحرب الاستباقية حق إلهي منحه الرب لجورج بوش وأمريكاه ، وشنت الحرب في أفغانستان وتمّ غزو العراق ، وبذا

تمّ تغطية فقاعة التكنولوجيا بأخرى أكبر منها . ثم تبع ذلك في 2007 انفجار فقاعة القروض العقارية عالية المخاطر

193

+

192

بنك انجلترا (بانك أوف إنجلاند) والذي – أيضاً- لم يكن مؤسسةً حكومية حيث كان مملوكاً للبنوك الخاصة.

وبالطبع ، فمن الواضح أن الاحتياط الفيدرالي لم ينجز مهمته المزعومة في تثبيت الاقتصاد ، من حيث الركود ، و الإفلاس والازدهار ، بما في ذلك الكساد الكبير - فضلاً عن الأزمة الاقتصادية الراهنه - والتي حدثت في عهده ، لابل – وإلى حدّ كبير – بسببه ، وبسبب سياساته . إلا أن الاحتياطي الفيدرالي مع ذلك ، قد أبدع في رعاية وتيسير مصالح المصرفيين عبر تاريخه كلّه ، بما في ذلك رصد أموال دافعي الضرائب لإنقاذ وول ستريت . وأوضح بول فولكر نفسه وبشكل لا غموض فيه بأن ناخبي الاحتياط الفيدرالي ومسؤليته هم وول ستريت أي شارع المال ، وليس عامة الناس في شارع العامة . وثم تعيين فولكر مؤخراً رئيس المستشارين الاقتصاديين لباراك أوباما ، وكان خدم في الثمانينيات رئيساً للاحتياط الفيدرالي ، وأدت سياساته الانكماشية إلى الإضرار بالمزارعين بشكلٍ خاص ، وفي شباط 1985 قام وفد من مشرعي 13 ولاية زراعية بزيارةٍ إلى واشنطن كي يشرحوا لفولكر أن سياساته تلحق الأذى بالمزارعين . وطبقاً لكتاب " أسرار المعبد " ص670 كان رد فولكر للمشرعين : " إن ناخبيكم غير سعداء ، أما ناخبي أنا ، فليسوا كذلك " ، وناخبو فولكر السعداء هم بالطبع مصرفيو وول ستريت . وفي الحقيقة فإن مستويات الفلتان (الاضطراب) الاقتصادي بعد إنشاء الاحتياطي ، وصلت حدوداً غير مسبوقة مع نهاية الحرب العالمية الأولى وكان حصاد ذلك : الكساد العظيم ، بعد سنوات قليلة من انشائه.

وما أن توقفت الحرب العالمية الأولى ، حتى حدث ركود اقتصادي بين 1918- 1919 ، سببه وقف الإنتاج الحربي وتدفق الجنود العائدين ، الا أن الخلاص من الركود لم يدم سوى ستة أشهر ، ليعود بعدها ركود حاد بين 1920-1921 حقق أعنف انخفاض لأسعار مبيعات الجملة بلغ 36.8% ، وكان ذلك أكبر هبوط حدث في التاريخ المسجّل . وكرّر

الركود العودة في الفترة 1923- 1924 ، ثم كرة أخرى في الفترة 1926-1927 ، وحتى اللطمة الكبرى .. الكساد العظيم في آب 1929 . ودام هذا الكساد لأكثر من عقد واحد ، وتحقق الخلاص منه فقط بدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية.

وثانيةً ، تسبب تدفق الجنود العائدين ووقف الانتاج الحربي في حدوث ركود تلا وقف الحرب مباشرةً في 1945 ، ودام ذلك لعشرة أشهر ، ثم عاد الركود في 1948- 1949 وانتهى بالحرب الأميركية في كوريا في 1950 ، والتي دامت حتى منتصف 1953 ، وبعد أن وقفت الحرب تم -تقريباً على الفور – تسجيل حدوث ركود في تموز 1953 دام لعشرة أشهر ، وقام الاقتصاد بالإنتاج للحرب في معظم عقد الستينيات من القرن الفائت ، ومع ذلك حصل ركود بين 1969- 1970 ، وأيضاً 1973- 1975 أما في ثمانينيات القرن فحدث ركودان اثنان بين 1980 و1983 .

ومن المثير للاهتمام أن الولايات المتحدة دخلت ركوداً عميقاً في تموز 1990 ، وفي ذلك الشهر أبلغ السفير الأميركي على العراق صدّام حسين - فيما كانا يبحثان نزاعات الحدود العراقية الكويتية- بأن الولايات لن تتدخل في النزاعات العربية/العربية ، وهو ما فسّره صدام على أنه ضوء اخضر لغزو الكويت . وخلال أيام قليلة بعد ذلك ، أي في 2 آب 1990 ، غزا صدّام الكويت ، وأبلغت المخابرات الأميركية - التي كانت تشاهد 100,000 جندي يتحركون صوب الكويت - الرئيس الأميركي بذلك ؛ إلا أن أي إجراء لم يتخذ ، فنظام عالمي جديد كان مخططاً له ، هو الان قيد التنفيذ. و تم حشد 500,000 جندي ، وكانت 40 يوماً من الحرب كافيةً لإخراج الولايات المتحدة من الركود . وانتهت حرب عاصفة الصحراء في الأسبوع الأخير من شباط 1991 ، وانتهى الركود في آذار 1991 .

كانت الولايات المتحدة تفرض عولمتها وماركتها الخاصة للرأسمالية الانكلوساكسونية الأميركية على معظم أرجاء العالم خلال تسعينيات القرن العشرين ، وكانت شركة طيران يونايتد الأميركية تشحن حمولات طائرات كاملة من ورقة المائة دولار النقدية إلى روسيا ، وكان هناك دزّينات البلايين من الدولارات في التداول ، بعد فترة وجيزة من انهيار الاتحاد السوفياتي ، ومثل هذه النقود كانت قروضاً بلا فوائد لصالح خزينة الولايات المتحدة الأميركية ، طالما أبقوها في بلدهم ! ، ثم تبع ذلك في 2007 انفجار فقاعة القروض العقارية عالية المخاطر ، ثم انهيار وإخفاق النظام المصرفي بكامله ، ودون أن تلوح لذلك نهاية وقت كتابة هذا الفصل . وإذا كانت محاربة التضخم واحدة من مهام الاحتياطي

الفيدرالي ، فإن البنك المركزي قد فشل أيضاً في أن يحسن صنعاً فيها ، وقد كتب موريه إن. روثباند عن التضخم بأنه "بدلا من أن تلجأ الحكومات لفرض الضرائب - وهو عمل غير ذي شعبيّه - فان طباعة الأوراق النقدية مع التسبب بالتضخم ، تبدو عملاً أسهل وأسلوباً مستساغاً شعبياً . كما كتب بأنه :" إذا كان بمقدور الحكومة ان تجد طرقاً للانغماس في " التزوير " (خلق نقود جديدة من الهواء) فبمقدورها أن تنتج ، وبسرعة ، نقودها الخاصة بها ، دون مشقة بيع خدماتها أودون تعدين الذهب ، ويكون عند ذاك بمقدورها تحصيص الموارد خلسةً ، وتقريباً دون أن يلحظ أحد ، ودون الحاجة لإثارة العداء الذي يجرّه فرض الضرائب . وفي الواقع فإن بمقدور التزوير أن يخلق لدى ضحاياه بالذات ، أوهام سعادةٍ بازدهار لا يبارى ..والتزوير كما يبدو ليس سوى اسم آخر للتضخم .. حيث يخلق " نقوداً " جديدة ولكنها – في ذات الوقت – ليست ذهباً ولا فضةً.

وطبقاً لورثباند ، فإن التضخم " يعيد توزيع " الثروة لصالح من يصل أولاً ، وعلى حساب المتخلفين في السباق . والتضخم هو - بالنتيجة - سباق لمعرفة من سيتمكن من الحصول على النقود الجديدة في أبكر وقت . أما المتأخرون – وهم أولئك الذين طالتهم الخسارة وتلبسوها – فغالباً ما يدعون " بمجموعات الدخل الثابت " .. إن أولئك هم سيئو الحظ الأكثر تأثراً بالسياسات الاقتصادية ، والذين هم الأكثر جهلاً بها.

تنظم الحكومات المصارف الخاصة عن طريق التحكم باحتياطياتها ، وهي تلك الاحتياطيات المحفوظة لدى المصرف المركزي ، و عادة ما تكون 10% من التزامات الودائع لدى هذه البنوك ، وعن طريق صب هذه الاحتياطيات في النظام المصرفي ، وتخفيض نسبة الاحتياط هذه ، يمكن للمصرف المركزي تحفيز التضخم . وتتم إضافة الاحتياطيات إلى النظام المصرفي من قبل البنك المركزي عن طريق شرائه للموجودات من السوق ، مثل السندات الحكومية مثلاً ، وعلى العموم ، فإن المصرف المركزي – (نظام الاحتياط الفيدرالي في الولايات المتحدة) – قد أدار التضخم والاقتصاد لخير المصالح النقدية ، ولهذا بقيت دخول عامة الجمهور إما راكدة كما هي ، أو حتى -بالسالب - بمعنى أنها تآكلت ونقصت طيلة الأعوام الثلاثين الماضية ، بينما تجمعت الثروة في أيدي القلة الذين ضاعفوا ثرواتهم مراتٍ عدّة . وفي الولايات المتحدة - فإنه من الملحوظ - أن ثباتية الاقتصاد والتضخم قد ساءت بعد انشاء المصرف المركزي الأميركي .

معيار الذهب ، والنقود غير المغطّاه .

إن الاختيار التاريخي للذهب كمعيار ، أصبح الوسيط النقدي المستقر والمرغوب فيه ولا يخضغ إلا لقوى السوق ، كما أن ذلك وضع حدوداً لقدرة الحكومات على خلق التضخم عبر مكائن الطباعة ، كما ساعد في الحفاظ على بقاء موازين المدفوعات الحكومية متوازنة.

وكان على الأفرقاء المتحاربين في الحرب العالمية الأولى ، أن يضخموا و بحده ، عملاتهم الورقية والمصرفية إلى أبعد من احتياطياتهم الذهبية ، وأن يبتعدوا عن معيار الذهب ، عدا الولايات المتحدة والتي دخلت الحرب متأخرة . وكان العالم ملتزماً بمعيار الذهب لمعظم تلك الفترة ، وكانت معظم العملات الوطنية مثل الباوند والدولار والفرنك ليست بأكثر من اسم لكمية معلومةٍ من الذهب ؛ فكان الباوند معادلاً لربع أونسة من الذهب ، بينما كان الدولار يعادل 1/20 من أونسة الذهب ، وهكذا .. ساد نظام صرف ثابت بين العملات ، وعرف باوند (رطل) الذهب بانه 16 أونصه ، وكانت زيادة عرض النقد مرتبطة بتوفر الذهب وليس على هوى ماكينات الطباعة الحكومية . واستمرت قابلية تحويل الدولار إلى ذهب دون أن تتأثر . وبعد الحرب كان الباوند في سوق صرف العملات الأجنبية الحر يشترى بـ3,5 دولار بدلاً من مستواه الرسمي 4,86 ، وبدلاً من تخفيض قيمة عملتها ، وفي محاولة يائسة منها للمحافظة على بريطانيا " العظمى " عظمى ، وللمحافظة على عملتها كعملة احتياطٍ عالمية ، عادت –بعد الحرب - إلى معيار الذهب ، محافظةً منها على سعر صرف ما قبل الحرب بالذهب ، ولكن بترتيبات بطيئة وثقيلة ، أدت إلى إرساء قواعد نظام عالمّي جديد للنقد ، سمى بمؤتمر جنيف لعام 1922 ، والذي بقيت فيه دولارات الولايات المتحدة قابلة للاستبدال بالذهب ، بينما حصرت بريطانيا عودتها لمعيار الذهب ، بانطباق الاستبدال على الكميات الكبيرة ، بقصد الحفاظ على التجارة الدولية ، ولإرغام المواطن العادي على الاستمرار في استعماله للعملة الورقية ، وأيضاً فللمملكة المتحدة حق إبدال مثل هذه الكميات الكبيرة ، بالدولارات القابلة للإبدال بالذهب . واستمر هذا النظام معمولا به حتى عام 1931 ،عندما كان على بريطانيا التخلّي عن المعيار ثانيةً خلال الكساد العظيم . ولحقت بها - بعد ذلك بقليل - الولايات المتحدة ذاتها .

وفي عقد الثلاثينيات من القرن الماضي ، أنتجت الفوضى الاقتصادية والنقدية تدهوراً أدى إلى تعويم أسعار الصرف ، والى تنافس في تخفيض العملات ، وحروب تجارية ، ورقابة على العملات ، وتوقفت الحكومات عن احترام عملات بعضها البعض ، ولجأت إلى المقايضة في مجال التجارة العالمية ، وبذا تعطل نظام النقد العالمي .

وفارقت الولايات المتحدة معيار الذهب في 1933 – 1934 ، في محاولاتها غير الناجحة للخروج من الكساد العظيم ، وإلى حد إصدار قوانين صارمة تمنع المواطنين الأميركيين من حيازة الذهب ، سواء داخل الولايات المتحدة أم خارجها ، كما أعادت الولايات المتحدة تعريف دولارها بمساواته ب 1/35 من أونسة الذهب ، وبقي قابلاً للإبدال بالذهب للمصارف المركزية والحكومات الأجنبية فقط . وكان بمقدور أميركا تحمل ذلك ، حيث أبقى الاضطراب الاقتصادي في أوروبا الذهب متدفقاً إلى حيث الاستقرار النسبي الأكبر في الولايات المتحدة .

وخلال الحرب العالمية الثانية ، قامت جماعات الدراسات ، بقيادة إيسايا بومان من مجلس العلاقات الخارجية (CFR) ، والمدفوعة نفقاتها من داڤيد روكفللر ، بالاجتماع سرّاً بمجموعةٍ محددة من موظفي وزارتي الخارجية والخزانة ، لبحث ومناقشة نظام مالي وسياسي جديد بعد انتهاء الحرب ، والذي ستتسلم فيه الولايات المتحدة الآن ، جميع المهام الامبريالية للرأسمالية التي كانت تؤديها بريطانيا . وأوصت المجموعة بإقامة صندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي ومنظمة للتجارة الحرّة ، والتي - في البداية - كانت الـچات (GATT) ، ثم أنضجت إلى منظمة التجارة العالمية ، اما على الجانب السياسي فاقترحت المجموعة إقامة منظمة الأمم المتحدة لتحل محل عصبة الأمم .

وقامت الولايات المتحدة في المؤتمر العالمي في بريتون وودز 1944 ، بالضغط من أجل هذا النظام النقدي العالمي الجديد الذي ابتكرته المجموعة ، ودفعه لدى المؤتمر ، حيث أدى ذلك بالمؤتمر إلى تبنيه توصيات المجموعة ؛ وصادق الكونجرس على اتفاقية بريتون وودز في 1945.

وحيث أن اتفاقية جنيف 1922 ، قد أزاحت – عمليا - الباوند البريطاني بصفته العملة الرئيسية وأحلّت الدولار محلّه ، اذ كان يمكن استبدال العملات الأجنبية بالدولار ، وعلى الرغم من أن الباوند بقي – مع ذلك - عملةً رئيسية ، إلا أن اتفاقية بريتون وودز تركت الدولار بصفته العملة الرئيسية الوحيده ، كما أعلن عن إمكانية استبداله بالذهب مقابل 35 دولاراً للأونصة ، وتم اعتماد سعر صرفٍ ثابت لجميع العملات مقابل الدولار ، وحلّ الدولار عملياً محل الذهب الاحتياطي للبنوك المركزية ، حيث كان يمكن استبداله بالذهب على سعر الصرف الثابت المتفق عليه والمعلن.

وصمدت بريتون وودز وبقيت فاعلةً لبعض الوقت ، ولكن في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي ، أصبح الدولار المقوم بأدنى من قيمته الحقيقية بعد الحرب العالمية الثانية ، مقوماً بأعلى من قيمته الحقيقية ، نتيجة للسياسات التضخمية للولايات المتحدة . وأصبحت أوروبا الغربية واليابان قلقتان من اجبارهما على الاحتفاظ بهذه الدولارات المقومة بأعلى من قيمتها ، وكان ديجول - بمشورة جاك روف - وهو اقتصادي كلاسيكي لمعيار الذهب ، رأس الحربة في الشكاوى والتذمر من حالة الدولار . وأهمل الأميركيون شكاوى عدة تقدم بها الأوروبيون ، ولهذا أضحى الأوروبيون ميالين لاستعمال خيار بريتون وودز باستبدال دولاراتهم بالذهب على أساس سعر الصرف المعلن وهو 35 دولاراً لأونصة الذهب الواحدة ، وبدأوا ممارسة هذا الخيار ، وكنتيجة لذلك هبطت احتياطيات الذهب في الولايات المتحدة بشكلٍ كبير .. من 20 بليوناً بعد الحرب إلى 9 بلايين في أواخر ستينيات القرن الماضي ، وفي وقت كان لدى أوروبا على الأقل 80 مليوناً من الدولارات غير المرغوب فيها ، والتي أصبحت تعرف باليورودولارز ، ومع أن الولايات المتحدة مارست ضغوطاً سياسية كبيرة على أوروبا ، أصبح نظام بريتون وودز - وبصورة متزايدة - يواجه المشاكل، إلى أن اضمحلّ وبسرعة في 1968.

وبينما كان الأوروبيون وآخرون قد بدأوا المطالبة بإبدال دولاراتهم بالذهب بالأسعار الرسمية في أسواق الذهب الحرة في لندن وزيورخ - وبما أن الثقة بالدولار الاميركي قد فقدت - لجأت الولايات المتحدة في آذار 1968 إلى تغيير رئيسي ، عن طريق خلق سوق ذهب ذي طبقتين ، وتوقفت الولايات المتحدة عن قبول ابدال دولارات سوق الذهب الحرة بسعر 35 دولاراً للأونصة ، كما لجأت في ذات الوقت الى الدفع باتجاه عملة احتياط ورقية جديدة ، هي حقوق السحب الخاصة ، على أمل أن تحل في النهاية محل معيار الذهب ... وكان من المنتظر اصدار عملة ورقية عالمية جديدة من قبل بنك عالمي متصور ، إلا أن هذا التصور لم يعش طويلا .

إلا أن سوق الذهب ذي الطبقتين لم ينجح سوى في كسب سنوات قليلة ، قبل أن تنهار بريتون وودز، بعد أن صعدت أسعار الذهب في السوق الحرة ، واستمر التضخم ، وواصل الذهب التدفق إلى خارج الولايات المتحدة . كما واصلت الثقة العالمية بالدولار في التناقص ، وفي 1971/8/15 ، أعلن الرئيس الأميركي نيكسون موت بريتون وودز ، بعد أن هدّد كثير من الأوروبين بطلب دولاراتهم المتصاعدة الكم بالذهب ، وأصبح الدولار أوراقاً نقدية لا تغطية لها لا بالذهب ولا بالفضة، وكان أن أطلق عقال نظام نقدٍ عالمي جديد.

ما العمل ؟ وفي محاولة لاستعادة نظام نقدٍ عالمي يفتقر الى رابط الذهب ، قادت الولايات المتحدة العالم إلى اتفاقية سميثسونيان في 1971/12/18 ، والتي رحب نيكسون بمقدمها بصفتها أعظم اتفاقية نقدية في تاريخ العالم . وحيث أن هذه الاتفاقية حاولت عمل ما لا يعمل ... نظام صرفٍ ثابت من دون الذهب ، انهار النظام الجديد في مطالع 1973 ، وشبت أسعار الذهب ، وانتقل العالم إلى عملات ورقية دون تغطية ومتذبذبة ، وأخذت اقتصاديات فريدمان بالزمام ، سواءً بقصد أو من دون قصد.

والآن...إفلاس النـظام

إن الانصهار والتفكك المالي للأسواق المالية وتعطّل النظام قد سميت بأسماء مختلفة ، من قبل أناسٍ مختلفين حسب خلفياتهم وتوجهاتهم الآيديولوجية ، فدعاها البعض ركوداً ، ودعاها آخرون ركوداً عميقاً ، أو كساداً خفيفاً ، أو كساداً ، أو تسونامي مالي ، وأسماء أخرى عدة .. عدا اسمها الحقيقي : إفلاس نظام اقتصاد السوق و النظام النقدي . فقد وافق الجميع على أن الرأسمالية المالية تواجه أزمةً عميقة .. أعمق مما يرغب السياسيون و وول ستريت الاعتراف به ؛ وتقريباً وافق الجميع على أن الامور لن تعود لما كانت عليه أبداً ، وخلص كثيرون إلى أنه لا بد من "التغيير" والذي كان ايضاً شعار حملة أوباما ، ولم يكن خيار النقّاد لتغيير " تجميلي " للمؤسسة ، وإنما لتغييرٍ جذري يعالج أمراض السياسة والمجتمع الأميركيين.

وكانت الرأسمالية المالية ، والتي أطلق عنانها بوحشية ، بإلغاء نظام صرف بريتون وودز ، وإلغاء الغطاء الذهبي للدولار مع تحفيز من حالة اللانظام(التحرر من العوائق النظامية Dergulation) ، كانت هذه الرأسمالية تعصف بها الأزمات الواحدة تلو الأخرى ، وكل واحدة تأتي أكثر خطورة وصعوبة للسيطرة عليها ، فقد خبرعقد السبعينيات من القرن العشرين تضخماً منفلتاً ، وفي الثمانينيات منه كان هناك انهيار تشرين أول 1987 (الاثنين الأسود) ، والانفجار الداخلي لسوق الصكوك عالية المخاطر ، وانهيار اتحاد المدخرات والقروض والذي ألحق بدافعي الضرائب الأميركيين بلايين الدولارات من الخسائر لإنقاذ هذه المؤسسات . وبينما كانت الولايات المتحدة تدفع ببقية العالم لتبني ماركتها الاقتصادية بعد انهيار الشيوعية ، هاجمت "أميركا الشركات" الاقتصادات الأخرى بوحشية ، وشهدت تسعينيات القرن العشرين فقاعة " انهيار سوق العقار وسوق الأسهم"، والازمة المكسيكية في 1995 ، كما شهدت نفس السنة انهيار مصرف بارينجز ؛ وتحمل القطاع المصرفي ما

قيمته 1,2 تريليون دولار من الانكشاف أمام ديون رديئة ، كما تعرضت بلدان جنوب شرق أسيا إلى انهيار عملاتها بنسب تراوحت بين 50% و 80% بسبب مناورات المضاربين في صيف عام 1997 ، مما أدى لتدميرها وإلى تعطل نظامها المصرفي . وفي خريف 1998 انهار صندوق إدارة رأس المال طويلة الأجل (LTCM) ، وخلافاً لكل مواعظه حول متطلبات الحكمة التقليدية التي كان يعظ بها البلدان الأخرى ، من ضرورة ترك المصارف والمؤسسات التي تفشل لمصيرها ، كان الاحتياطي الفيدرالي النيويوركي ، أي الواعظ نفسه ، هو الذي أدار إنقاذ (LTCM) مدعيا ان سقوط (LTCM) كان يمكن أن يجر معه النظام الرأسمالي برمته . كذلك ، حصل انصهار ما يسمى بالتكنولوجيا (High Tech) في عام 2000 ، وألحق انفجار السوق الداخلي هذا 7 تريليونات دولار من الخسائر الدفترية بالولايات المتحدة و 2 تريليون دولار بأوروبا وآسيا ، وتبع ذلك إفلاسات لعدة شركات كبرى بما في ذلك شركة إنرون . وفي هذا الخصوص كتب الاقتصادي الألماني لوثركومب:" الحكومة الأميركية ، سواءً كانت غير قادرة أو غير راغبة للتصرف واتخاذ إجراء بشأن فشل النظام ، فإنها تطلب خلاصها بدلاً من ذلك باللجوء إلى مغامرات عسكرية ، بينما أظهرت خيرة شركات الواجهة " للاقتصاد الجديد " ، أظهرت نفسها بأنها محتالة ودجّالة ، وختم بالقول " لقد أزف الوقت لإنهاء المماطلة والتسويف حول إعلانٍ بالإفلاس العالمي ، بغرض جعل حكومات العالم حُرّةً في أخذ المسار نحو إعادة البناء بالكامل ، لنظام مالي نقدي اقتصادي عالمي جديد."

202-201

وبعد أزمة جنوب شرق آسيا كتب جورج سوروس في كتابه " أزمة الرأسمالية العالمية " : " إن لنظامي الحكم النازي والشيوعي سمة مشتركة : فقد ادّعيا امتلاكهما الحقيقة المطلقة ، وفرضا وجهات نظرهما على العالم باستخدام القوّة" . وعلى الأرجح أن ذلك كان استجابةً ل "إجماع واشنطن " ! ، والذي يحاول بصمت فرض الماركه الأميركية للرأسمالية على العالم ، وقبل أن يقول جورج دبليو. بوش علناً وبوضوح : إما أنكم معنا أو علينا !" ، وتدّعي الولايات المتحدة الآن ملكية الحقيقة المطلقة ، وتريد من العالم احتضان قيمها زاعمةً بأنها تصلح لكل الناس في كلّ مكان، وهي قائمةٌ على فرض هذه القيم بكل الموارد التي تملك ، بما في ذلك الوسائل العسكريّة.

ما كتبه سوروس يحمل أهمية خاصة كونه شخصية مرموقة في مجتمع المال العالمي ، فهو معروف بانتهازه كل ضعفٍ أبداه النظام ، ومعروف بمضارباته ليس ضد المكسيك وجنوب شرق آسيا فقط ، وإنما ضد بنك انجلترا أيضاً ، وقد أورد في مقدمة كتابه:

" كنت أوضّح لماذا هو نظام الرأسمالية العالمي غير سليم وغير قابل للديمومه ، وحتى الى ما قبل الاضمحلال الروسي في آب 1998 ، لم أكن قد أدركت بعد أنه في الحقيقة يتفكك .. والنظام الرأسمالي العالمي يستند الى الاعتقاد بأن الأسواق المالية ، إذا تركت لوسائلها الذاتية تنزع إلى التوازن ... وهذا الاعتقاد زائف وغير صحيح ، والأسواق المالية ذات طبيعة تنحو للمبالغات ، فإذا ما تمادى نهجٌ متوالٍ من الازدهار والانتكاس إلى أبعد من نقطةٍ معينة ، فإنها لن تعود للنقطة التي أتت منها ، وبدلاً من التصرف كالبندول ، فإن الأسواق المالية قد تصرّفت حديثاً مثل كرة الهدم تحطم اقتصاداً تلو الآخر ." [105]

قارن هذا بما قاله آلان جرينسيبان للكونجرس في تشرين أول 2008 من أن : " الانصهار أظهر خرقاً لكن في عمر كامل من التفكير الاقتصادي" .. وأقرّ جرينسبان في الاستجواب بأنه ارتكب "خطأ " في اعتقاده أن البنوك ، وهي تعمل لصالحها الخاص ، ستقوم بعمل ما يلزم لحماية مصالح المساهمين والمؤسسات.

رمزان من رموز النظام الرأسمالي ، أحدهما رئيس بنك مركزي لمدة ثمانية عشر عاماً ونصف ، والآخر ماليّ مخضرم وضليع يمكنه حتى منازلة بنك إنجلترا ، كلاهما قال الشيء نفسه : إن الرأسمالية المالية قد تفككت وأنها كانت تعمل على أسسٍ من فرضيات زائفة .

وقال سوروس بأن وجهات نظره حول أزمة الرأسمالية قد لُخصت في شهادة للكونجرس في 1998/9/15 ، بعد أزمة جنوب شرق آسيا والأزمة الروسية . وتبع انهيار جنوب

---

[105] George Soros, *The Crisis of Global Capitalism: Open Society Endangered*, PublicAffairs, 1998, xi, xvi

شرق آسيا المالي (الكثيرون يعتبرون سوروس نفسه سبباً رئيسياً له) انهيار اقتصادي ، وكانت النتيجة في أندونيسيا مثلاً :" أن تلاشت جميع المكاسب في مستويات العيش والتي تمت مراكمتها خلال ثلاثين عاماً من حكم سوهارتو ، وبقيت المباني العصرية والمباني والبنى التحتية ، ولكن بقي – أيضاً - السكان الذين اقتلعوا من جذورهم الريفية ". ووصف سوروس النظام الرأسمالي العالمي على أنه نظام تدويري " يقوم بشفط (امتصاص) رأس المال إلى داخل الأسواق والمؤسسات الماليّةً " والتي هي مركزه أو قلبه، " وبعد ذلك يقوم بضخها إلى محيطه الخارجي ، " بشكل مباشر "على شكل ائتمان أو محفظه استثمارية ، أو بصورة غير مباشره عبر الشركات متعددة الجنسيات " . والنظام محابٍ جداً لرأس المال المالي ، " فالقلّة " في المركز سيحتفظون بالأرباح والسلطة ، وهم الذين يقررون من الذي سيبقى ويزدهر ومن الذي سينتهي ، ويجادل سوروس بأنه طالما أن النقود - نقود الأخرين - تستمر في التدفق من الأطراف إلى المركز ، وطالما أن " القلة " تعيد ضخ بعض النقود ، فستبقى الأمور على ما يرام ؛ ولكن عندما يتأزم موقف الأطراف المحيطية إلى أبعد من حدود مرونتها ، وكما هي الحال عادةً نتيجة جشع الممولين ، يتعرض النظام بأكمله عندها للخطر ، وما هو مطلوب - كما قدرسوروس - هو مؤسسة تحمى " القلة " من أنفسهم ومن جشعهم ، شيء يشبه نظام احتياط فيدرالي عالمي .. فالنظام العالمي يعاني من عدة مآخذ كما يقول سوروس، فميزانيات المصارف والمؤسسات المالية ، لا تعكس مدى تعرض وانكشاف هذه المؤسسات الحقيقي " عندما تنخرط المصارف في المقايضات ، والعمليات الآجلة ، وتجارة المشتقات ، فيما بينها وبين عملائها ، فان هذه العمليات لا تظهر في ميزانيات المصارف.

وفي شهادته لكونجرس الولايات المتحدة ، أضاف سوروس : " هناك حاجة ملحة لإعادة النظر في النظام الرأسمالي العالمي وإصلاحه ". وأدت موجة التعصب للسوق التي أطلقت من قبل ريغان وتاتشر " إلى تصيير النظام الرأسمالي العالمي غير سليم وغير قابل للاستمرار". وواحد من الأسباب الوجيهة لذلك هو أن لدينا اقتصاد عالمي دون أن يكون لدينا في المقابل مجتمع عالمي ، "وهذه الحالة غير قابلة للدفاع عنها" ، وأضاف سوروس محذراً :" إن القيم المالية وأسواق العمليات ، لا تعطي أساساً كافياً للتلاحم الاجتماعي" .

هناك تضارب مصالح بين مركز الرأسمالية العالمية والبلدان المحيطية ، فأثناء أزمة ما ، لا يكون لدى المقرضين – في العادة - سوى القليل ليخسروه ، فما يمكن أن يفعلوه هو إعادة جدولة القروض ، وتمديد تواريخ استحقاقها ، ودون التخلّي أبداً عن القروض . وكثيراً ما

تجبر البلدان المدينة من قبل صندوق النقد الدولي ، على الالتزام بمديونية بنوكها التجارية (كما في تشيلي 1982 ، والمكسيك 1994 ، وجنوب شرق آسيا في 1988) ، وحتى في حالة عدم قدرة البلدان المدينة على الوفاء بكامل التزاماتها ، فإنها ستلزم بدفع الحد الأعلى الممكن ، الأمر الذي سيعيق استثماراتها التنموية ؛ ويحمل الإقراض للأطراف المحيطية مخاطر ضئيلة للغاية ، ومع أن أزمة المديونية العالمية في 1982 قد كانت بسبب بلد المركز(رفع الفائدة من قبل الولايات المتحدة) ، فإنه قد ترتب على دول الأطراف المدينة تحمل تكاليفها ؛ وكذلك فإن أزمة جنوب شرق آسيا قد تسببت فيها صناديق المضاربات و التي كانت نتيجة للارتفاع في دولار الولايات المتحدة . وقد دُمرت اقتصاديات هذه البلدان لأسباب خارجة – بالكامل - عن سيطرتها ، وحيث أن رأس المال ينزع للعودة إلى موطنه – المركز – في أوقات الاضطراب وعدم اليقين ، فإن البلدان المحيطية ستكون هي الأشد اكتواءً بالنار وعلى نحو غير متكافئ ، بينما تجأرُ اصوات وول ستريت و " مدينة لندن المالية " بالادعاء أن المضاربات صحية ، لأنها تصحح الأسواق وتجعلها أكثر كفاءةً .

ليس تماماً ، حيث يقول سوروس : " عندما بعت الاسترليني لأجل قصير في 1992 ، كان "مصرف انجلترا " على الناحية الأخرى من العملية ، وكنت أنا آخذ النقود من جيوب دافعي الضرائب ." ، ويخلص سوروس إلى أن مذهبية التعصّب للسوق ، تزعزع النهج الديموقراطي السياسي ، وتعرض للمخاطر مؤسسات التمثيل الديموقراطي ، "ويصبح من الصعوبة بمكان استعادة فضيلة متمدنة ، إذا ما تم فقدانها ". ويتحدّى سوروس فضيلة حيازة النقود لمجرد حيازة المزيد من النقود ، حيث أنها ، أي النقود ، عند إنفاقها فقط ، تصبح وسيلةً لتحقيق غاية ، بينما عندما يصبح هدف النقود أو المال هو مجرّد جمع المزيد من المال ، فإن المنافسة تصبح من الشدّة " إلى حد أن الأنجح إطلاقاً سينسخط إلى موقع الدفاع عن وجوده"

وبلغةٍ واضحة فإنّ ما يقوله سوروس في كتابه الصادر في 1998 أن الرأسمالية المالية بطبعها ، تتصرف ككرة الهدم حيال الاقتصادات ، فهي لا تطال ، وهي ترخيص بالسرقة ، إذا ما قيست بما فعله عندما ضارب ضد مصرف انجلترا حيث " أخذ النقود من جيوب دافعي الضرائب " ، اذ لم تصدر مقولات سوروس عنه لدوافع أخلاقية رفيعة ، وإنما - كما قال - بسبب قلقه من أن بقاء الحال على ما هو عليه ، سيؤدي إلى التدمير الذاتي للنظام.

وفي كتاب سوروس الجديد " انهيار 2008 ومغزاه" أعاد سوروس طرح وجهة نظره بأن النظام خربان ، وفي شباط 2009 في اجتماعه في جامعة برنستون أشار إلى أنه – أي النظام – يكافح معتمداً على أجهزة دعم الحياة الاصطناعية .

206-205

ويمكن تقفي آثار جذور أزمة 2008 إلى انهيار دوت.كوم (dot.com) في عام 2000 ، والذي مؤداه أن فقاعة تسعينيات القرن العشرين - قد غمرتها وأحاطت بها - فقاعةٌ أكبر ، وذلك عندما خفض الاحتياطي الفيدرالي معدلات الفائدة من 6,5 إلى 3,1 بالمائة ، ثمّ إلى واحد بالمائة في تموز 2003 . وخلق هذا انفجاراً في شراء الموجودات المدعوم بالديون ، كما خلق فقاعة إسكان ، وذلك بسبب أنه ولمدة 31 شهراً متتالية ، كانت فائدة الأساس المعدّلة تضخمياً للأجل القصير، ســالبة.

وخلقت المصارف وسائل مالية وهمية خطرة ، بغرض تحميل المخاطر لجهات أخرى ، ولكن لمن ؟ : لصناديق التقاعد ، وصناديق الاستثمار الوقائية (Hedge Funds) ، بصفتها وسائط استثمار تركيبية ، تستبقى مراكزها المالية الخاصة بها في منأىً عن الظهور في صحائف ميزانياتها . وبالنتيجة ارتفعت قيم المنازل بأكثر من 40% بين سنتي 2000 و 2005 ، وأغرى وول ستريت الناس بشراء البيوت لغرض الاستثمار ، هذا إذا كانوا يملكون بيتاً ، وكانت نسبة البيوت التي اشتريت لأغراض الاستثمار أكثر من 50%

من مجموع ما تم شراؤه من بيوت ، ولإغراء الناس بالشراء ، ابتدع وول ستريت منح سنتين فائدة بأقل من سعر السوق ، وسعر رهن قابل للتعديل ، وخفض وول ستريت معايير الائتمان ، وتم بيع بيوت لأناس ذوي تقارير ائتمان بتقديرات منخفضه ، فيما أصبح يعرف بالرهونات عالية المخاطر . وبيعت العقارات لأناس (بدون دخل ، بدون عمل ، بدون ممتلكات) ودعوا ذلك نينجا.

ومن أجل توفير حماية أكثر لأنفسهم ، اخترع مصرفيو وول ستريت الاستثماريون سوابس (SWAPS) حيث يمكن تأمين الائتمان ، ودعيت هذه الأدوات تبادل مخاطر الائتمان (CDS) ، ولقد تم إصدار 24,6 تريليون CDS مقارنة بالقيمة الكلية التقديرية لسوق الأسهم والبالغة 18,5 تريليون دولار ، بينما بلغ تقدير قيمة سوق الخزينة الأميركية بـ4.5 تريليون دولار فقط .

وقد قُرع جرس الانذار الأول عندما صرف بنك HSBC رئيس قسم الرهونات في أميركا لديه عام 2007 ، حيث كان المصرف قد حقق 10,8 بليون في 2007/2/22 ، وفي هذه الآناء أخفق صندوقا استثمار وقائي في الرهونات ، تابعان لبيرشتيرنز Bear Stearns ، ولكن رئيس الاحتياط الفيدرالي بن برنانكي طمأن العالم بأن مشكلة الائتمان عالي المخاطر هذه مشكلة معزولة ، وحيث أن صناديق الاستثمار الوقائية الحيادية ، أو إن شئت المستقلة تعتمد بشكل كبير على الدين في شراء موجوداتها ، فإن الكثير منها قد مسح وعصف به تماماً ، وبدأت المصارف تشك ببعضها البعض حول الشفافية وحول مراكزها المالية ، وتوقفت عن إقراض بعضها البعض ، وطالبت بالوفاء لعمليات الائتمان التبادلية SWAP ، وتفاقمت المشكلة وساءت .

ومن المتفق عليه عموماً أنه يمكن الافتراض بأن تاريخ انفجار الأزمة الحالية هو شهر آب 2007، عندما أصبح على المصارف المركزية التدخل لتزويد النظم المصرفية بالسيولة ؛ ففي 9 آب أوقف مصرف BNP Paribas الفرنسي ، ثلاثاً من صناديق استثماره ، بعد رؤيته لمشاكل تنتاب قطاع الرهونات عالية المخاطر في الولايات المتحدة ، وأدى ذلك الى تجميد التسهيلات الائتمانية قصيرة الأجل ، وكان على المصرف المركزي الأوروبي (ECB) التدخل وضخ 95 بليون يورو في النظام المصرفي الأوروبي ، وتدخلت أيضاً المصارف المركزية للولايات المتحدة واليابان ، ولكن في اليوم التالي 10 آب كان على ECB ضخ 61 بليون يورو أخرى لإضعاف عضة الائتمان ، وفي 13 آب تدخل ECB كرّةً أخرى وضخ 47,7 بليون يورو ، وفي ذات اليوم قالت جولدمان ساكس إنها ستضخ 3

بلايين دولار في صندوق عمليات ائتمان تبادلية متعثر ، وفي 16 آب كان على Country Side Financial أن تسحب خطها الائتماني البالغ 11,5 بليون دولار في يوم واحد هو ذات ذاك اليوم ، وكان الكثير من المصارف والمؤسسات المالية على شفا الإعسار.

وحسب كتاب سوروس الجديد:

" لقد تمشكل وول ستريت لأنه كان يبيع " ورقاً ماليّاً " رديئاً ، إلى وسائل المستثمرين المالية التي كانت مضخّمة القيمة ، وتمّ الترويج لها بإعلانات زائفة . وتفاقم حجم أعظم الموجودات/الصكوك العفنة شهرة ، والتي حزم معها ما دعي بالرهونات عالية المخاطر ، على شكل سندات قابلة للتسويق ، في الوقت الذي نمت فيه فقاعة أسعار الاسكان ، وقد بيعت سندات الرهن إلى مصارف ومستثمرين حول العالم بما في ذلك صناديق التقاعد والحكومات المحلية ، كاستثمار آمن وسليم ادعي بأنه يكاد يكون خلواً من المخاطر بتصنيف AAA ، الذي منحته لها وكالتا تصنيف خاصة . " هذه الأزمة، وخلافاً للحلقات السابقة ، لا يمكن التملّص من المسئولية عنها بلوم حفنة من الفاعلين الأشرار ، أو بإلقاء اللوم على عاتق الحظ العاثر العشوائي ، ففي هذه المرة طال العار وول ستريت ذاته لأنه فشل بموجب شروطه . " [106]

الرأسمالية في طريقٍ مسدود:

تحت عنوان : "بول فولكر : الأزمة الاقتصادية يمكن أن تكون أسوأ من الكساد العظيم" أوردت الأسوشييتدبرس ، أن فولكر، رئيس المجلس الرئاسي للإنعاش الاقتصادي ، الرئيس السابق للاحتياطي الفيدرالي ، تحدث إلى زملاء له خلال خطاب في حفل غداء بمركز الرأسمالية والمجتمع في جامعة كولومبيا يوم الجمعة تاريخ 20 شباط 2009 في نيويورك ، وقد استضاف المؤتمر أعضاء في القطاع الخاص من أرجاء العالم ، للمشاركة بوجهات

---

[106] George Soros, *The Crash of 2008 and What it Means: The New Paradigm for Financial Markets* , New York, PublicAffairs, 2009, 41

نظرهم حول الاقتصاد العالمي ، وأكد فولكر الافتقار إلى الفهم لعملية الانصهار المالي العالمي ، كما عبّر عن الصدمة لسرعة انتشارها عبر العالم حيث قال:

" لا أتذكر أي وقت ، ولا حتى الكساد العظيم ، هوت فيه الأشياء بمثل هذه السرعة " [107] ، واضاف بأن تعطل أسواقٍ مالية مطلقة السراح ، قد لطم تقريباً جميع التوقعات والتنبؤات"وشكك في"عودتنا إلى نوعية النظام المالي الذي كان لدينا قبل الأزمة " كما قال . ومن الجدير بالملاحظة أن فولكر نفسه كان واحداً من مهندسي النظام الرئيسيين .

وفي 21 شباط 2009 غطّت رويترز خطاب جورج سوروس في نفس مؤتمر جامعة كولومبيا تحت العنوان: "سوروس لا يرى قاعاً (مستقرا) للانهيار المالي العالمي" ، ونُقل عن سوروس قوله : "لقد شهدنا انهيار النظام المالي ، لقد وضع على أجهزة الإنعاش ، ولا توجد علامة على أننا في أي مكان قرب قاع النهاية"

ويبدو أن معظم الخبراء بمن فيهم أولئك الذين ينتمون إلى المؤسسة ، يقرون – على الاقل – بأن الأمور لن تعود لسيرتها الأولى بعد هذه الأزمة المالية ، ذلك أنها جلبت إلى السطح جميع العلل ونقاط الضعف التي تواجه البلد ، والتي من بينها - إضافةً للنظام نفسه - مواضيع خطيرة لا بدّ من التصدي لها مثل: المديونية الهائلة ، والعجوزات التجارية ، وكلفة الاتجار بالحروب ، ورأس المال اللازم لإعادة التزود بالمعدات لجميع عمليات الإنتاج والبنى التحتية لفترة ما بعد الاقتصاد البترولي، مع معالجة المواضيع البيئية التي لا يمكن إهمالها لفترةٍ أطول . ومعالجة هذه المسائل بشكلٍ صحيح سيتم اعتراضه من قبل نفس الناس الذي سببوا هذه المشاكل وعلى رأسهم وول ستريت ، والمؤسسات المالية ، والشركات متعددة الجنسية.

---

[107] http://www.huffingtonpost.com/2009/02/20/paul-volcker-financial-cr_n_168772.html

وعبّر مايكل شيرتوف ، وزير الأمن الوطني لدى إدارة بوش الثانية ، عن رأيه في حديثه المعنون "لماذا لا تعمل واشنطن " ، والذي ألقاه بمدرسة جون كينيدي لدراسات الحكومة في 12 شباط 2008 :

" إن العوائق أمام التغيير في واشنطن أكثر بنيوية (أنا أترجمها : نظامية أي تنتمي لصلب النظام) منها حزبية " ، وطبقاً للوزير شيرتوف فإن المعيقات أمام التغيير – وإلى حدّ كبير - هي مصالح الأفراد والجماعات النافذة ، والتي تجعل من الصعب إحداث تغيير دراماتيكي في واشنطن . وأضاف " بما يحبط متابعة المصلحة العامة " .[108]

أما جوزيف إي.ستيجليتز ، الحائز على جائزة نوبل ، فقد قال في مقابلةٍ بتاريخ 2009/3/29 مع مجلة نيوزويك : " ما هو واضح أن نموذج رخاء الشركات الأميركي – رعاية الشركات وليس الناس – قد انكسر ". كما قال عن خطة غيتنر لتفريغ حمولة المصارف من الديون الرديئة في الولايات المتحدة : " إنه لأمر فظيع ، أن لا يتحمل المستثمرون المسؤولية – ما زال بمقدورهم الابتعاد إذا ما ساءت الأمور ، إنه ما ادعوه بالاشتراكية الأميركية : اشتراكية الخسائر وخصخصة الأرباح."

210

وحائز آخر لجائزة نوبل هو بول كروجمان وهو بالـتأكيد شخصية مرموقة من شخصيات مؤسسة شرقي أميركا ، فهو أستاذ الاقتصاد في جامعة برينستون ، وكاتب عمود في جريدة النيويورك تايمز ، وفي 6 نيسـان 2009 كتبت النيوزويك:

---

[108] http://www.dhs.gov/xnews/speeches/sp_1203020606566.shtm

في عموده الذي يظهر مرتين في الأسبوع ، وفي منتداه الحواري على الانترنت ، المسمى: ضمير ليبرالي ، ينتقد أتباع أوباما لمحاولتهم تشغيل نظام مالي يعتبره يمشي وهو في حكم الميت . وفي محادثة له يرسم صورة لوزير الخزانة تيم جيتنر ، ورسميين كبار آخرين ، على أنهم ، في النتيجة، أدوات وول ستريت ." ودعا كروجمان سياسة تيم جيتنر تجاه إنقاذ وول ستريت على أنها " نقود للقمامة (للأوغاد) "

وطبقاً لمؤشرهاربر في أيلول 2009 ، كانت نسبة التغيير المئوية منذ 2002 في معّدل الأقساط المدفوعة لشركات التأمين الصحي الكبرى هي +87% ، إلا أن نسبة التغيير المئوية في أرباح شركات التأمين العشر الأولى فكانت +428% ، وحدث هذا في وقت كان دخل الفرد الأميركي يزحف كي يحقق زيادة أقل من 1% في السنة " إنه لا يجب ذرف أي دموع على انهيار نظامٍ كهذا .

ويبلغ دخل الأميركي المتوسط 34.000 دولار في العام ، وبقي هذا الدخل راكداً منذ أن فاق الاقتصاد المالي الاقتصاد الحقيقي ، وبالكاد تغيرت الدخول منذ 1990 ، وفي 2007 على سبيل المثال ، ارتفع ذلك المعدّل بنسبة 5% بينما ارتفعت كلفة العيش بنسبة 4,1% . وعلى النقيض ، استلم لويد بلاكفين ، الرئيس التنفيذي لجولدمان ساكس 68,5 مليون دولار على سبيل الراتب ، والمكافأة ، ومنح من الأسهم ، بزيادة 25% عن السنة الماضية ، و بما يعادل تقريباً ألفي مثل دخل الأميركي المتوسط ، أما الفروق في الدخول في نطاق الرأسمالية المالية العالمية ، فهي أسوأ بما لا يقارن ، خارج بلدان المركز في الغرب ، وطبقاً لمجلّة التايم:

" 30,000 هو عدد الموظفين الاندونيسيين لدى شركة نايك ، ومجموع أجورهم السنوية لعمل الأحذية الرياضية هو أقل مما يدفع لمايكل جوردان ، نجم لعبة كرة السلة ، عن قيامه بالدعاية لهذه الأحذية " .

وفي نفس السنة فاق مجموع موجودات جولدمان ساكس 1 تريليون دولار وعوائدها الصافية 46 بليون دولار ، وكانت موجودات هذا المصرف الاستثماري لوحده أكثر من مجموع الدخل الإجمالي لمائة بلد .. وقد تجاوزت موجودات البنك لأول مرّة 1 تريليون دولار.

وكان الناتج الاقتصادي المقاس للعالم في 2006 حوالي 47 تريليون دولار ، إلا أن مجموع رسملة أسواق الأسهم فكانت 51 تريليون دولار بزيادة 10% عن المجموع للعالم

، بينما كان سوق الصكوك المحلي والعالمي 68 تريليون ، أي أعلى 50% عن الناتج الاقتصادي العالمي . وما يثير الرعب أكثر ، أن قيمة المشتقات كانت 473 تريليون ، أي أكثر من 10 أمثال الناتج الأقتصادي العالمي المقاس ، ولم يكن لمثل هذا الأدوات المالية من وجود قبل عام 1980.

وجنى جورج سوروس 2,9 بليون دولار في 2007 ، ولذا لا يستطيع أحدٌ الادعاء بأنه لا يحب نتائج النظام ، حيث أنه أحد كبار المستفيدين منه والمنتفعين به ، أما حملته لإنقاذ النظام من تجاوزاته وسوءاته منذ أواخر تسعينيات القرن الماضي فمؤشر على حدة ذهنه وإخلاصه وتفانيه لطبقته ، إذ يريد إنقاذهم من جشعهم الذي يقود إلى تدميرهم الذاتي .

الفصل الثامن

الرأسمالية الأنجلوساكسونية تستبدل الجياد الامبرياليّة

كانت الحرب العالمية الأولى عملاً عسكرياً وحدثاً اقتصادياً ذو طبيعة عالمية في آنٍ معاً ، نتج عنه توسّع الاقتصاد الأميركي على الرغم مما ذكره الرئيس ويلسون عن دوافع أميركا لدخول الحرب وهي مساعدة الديموقراطية ضد الأوتوقراطية ووضع نهاية لكافّة الحروب .

وفي عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر تشكلت شبكة سياسية مطلعة من الصفوه معظمها من كامبردج وأوكسفورد ، والتي كان هدفها الحث على إيجاد نظام جديد أكثر كفاءة لنشر الثقافة والهيمنة الأنكلوساكسونية عبر القرن العشرين ، وكان هذا في وقت تبرز فيه ألمانيا كقوّةٍ صناعيةٍ مكينة تتحدى أعمدة الامبراطورية البريطانية . وكانت هذه الاعمدة:

- السيطرة على البحار : وهذا يعادل السيطرة على الاتصالات في هذه الأيام ، وكانت ألمانيا تبني سفناً أكبر وأسرع بتدرجٍ وانتظام ، بحيث كان الأسطول الألماني يجسر الفجوة بينه وبين الأسطول البريطاني .

- التحكم في التمويل العالمي : أسس قانون الصرف الألماني الصادر في 1898 لنموذجٍ مالي ومصرفي يختلف عن النموذج الأنكلوساكسوني ، إذ ارتكز النموذج الصناعي الألماني على التقدم التكنولوجي والحمائيه ، حيث فرضت بعضُ التعريفات على الواردات ، ففقد بارونات المال اللندنيين – بالنتيجة – نفوذهم على الاقتصاد الألماني.

- التحكم في المواد الخام الرئيسية في العالم : كشفت الموارد الضخمة للولايات المتحدة في القرن التاسع عشر ، وكانت على ما يبدو تتجه نحو الظهور والشهره كبلدٍ أنكلوساكسوني ، حيث يمكن أن يصوغ علاقاته لمجابهة التحديات الناشئة - ومعظمها من ألمانيا - ومن بلدان أخرى أيضاً .

- التحكم في التكنولوجيا : معظم الاختراعات الرئيسية الحديثة ، مثل الكهرباء ، تمت في الولايات المتحدة ، وحتى أن اختراعات أخرى في أوروبا تمت خارج الجزر البريطانية ، إذ طوّر المهندس الألماني جوتليب ديملر أول محرّك بترولي قابل للعمل في العالم .

وكان لازماً الحفاظ على هيمنة الامبراطورية غير الرسمية ، ليس عن طريق الاحتلال المباشر وإنما عبر خلق " دول عميلة" بواسطة روابط اقتصادية من التبعية المالية ، وعبر مفهوم مناطق النفوذ ودبلوماسية توازن القوى ، على ان تكون لندن نقطة الارتكاز ، بحيث تضيف ثقلها إلى هذا الجانب أو ذاك للحفاظ على مصالحها ، ويقتضي ذلك عدم وجود صداقة دائمة ، ولكن بدلاً من ذلك مصالح لندن ، دون أية عواطف أو التزامات خُلقية . واكتشف البريطانيون أنه بعد أن فقدت الأرجنتين سيادتها الاقتصادية ، أصبح تحكمهم فيها أكثر كفاءة من وجود قوة احتلال كما كانت الحال في الهند، وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر ضاعفت السكك الحديدية والمشاريع التي مولتها لندن كميات البضائع المورّدة إلى موانئ الأرجنتين للتصدير ، إلا أنها زادت مديونيتها - التي كانت في معظمها لمصارف لندن - بنسبة 200 بالمائة.

وأنشأت صفوة أوكسفورد/كامبريدج في عام 1910 مجلة " المائدة المستديرة " ، كذلك تحلقوا حول " لندن تايمز " والتي كان من بين محرريها المؤرخ وعضو الخدمة السرّية ألبرت لوردجري ، وأرنولد توينبي ، وإتش .جي .ولز ، وألفرد لورد ميلنر ، وهالفورد جيه. ماكيندر ، وفي آب 1911 أعلن لورد لوثيان عضو المائدة المستديرة بأنه " يوجد في الوقت الحاضر مدونتان لقواعد الأخلاقيات الدولية ، الأولى هي البريطانية أو الأنجلوساكسونية ، والثانية هي القارّية .. أو بتسميةٍ أخرى الألمانية ، ولا تستطيع

ثنتاهما التسيد معاً .[109] وتمّ إعادة تأكيد هذا المبدأ الأنكلوساكسوني من قبل طروحات وولفوتز الدفاعية في 1990 ، والتي عرف فيها دور الولايات المتحدة بصفتها الدولة العظمى الوحيدة ، وأنها يجب أن لا تسمح ببروز قوة عظمى أخرى.

وبدأ بارونات المال العالميون ، وعلى الأغلب في مدينة لندن ، مع فروعهم وأقاربهم لدى عواصم أوروبية أخرى ، ومع صفوة المائدة المستديرة ، بدأوا التحضير لحرب ضدّ المانيا ، وكان الغزل الدائر بين ألمانيا وتركيا ، وإنشائها للسكك الحديدية التي ستربط برلين ببغداد والبصرة - والذي سيخلق سوقاً جديداً لألمانيا في الشرق الأوسط - وامتياز ألمانيا النفطي في العراق في 1912 ، والقوى الألمانية البحرية الجديدة بسفنٍ مزودة بمحركات طاقتها 80,000 حصان ، والتي ملكت أعلى السرعات على الطرقات البحرية ، كل ذلك جعل من هذه الهيمنة الألمانية الناشئة خطراً لإنجلترا التي هي أصلاً راكده ، وفي هذا ما يشكل إضراراً بدبلوماسيتها لميزان القوى ، وكانت بريطانيا مصرّة على إبقاء ألمانيا محرومةً من الموارد النفطية ؛ وحيث أن إنجلترا لم يكن بمقدورها منافسة ثورة ألمانيا الصناعية الجديدة ، ومحركاتها صناعة ديملر ، فقد قررت أن تسيطر على النفط والطاقة اللازمة للمحركات وللصناعة في ألمانيا . وفي بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر تبنت روسيا النموذج الاقتصادي الألماني " النظام الوطني للاقتصاد السياسي " لواضعه فريدريك ليست ، وفرضت تعريفات حمائية مشدّدة ، وحوّل هذا النموذج روسيا من سلة حبوب بيوتات لندن التجارية إلى منافس محتمل ، وتحالفت بريطانيا مع اليابان ضد روسيا ، مستخدمةً دبلوماسيتها لتوازن القوى ، حيث أذلت روسيا في 1905 ، وقامت حكومة روسيّة جديدة بتغيير نموذجها الاقتصادي ، وفي ذلك الوقت كان على روسيا تجيير حقوقها في أفغانستان وفي أجزاء من بلاد فارس إلى البريطانيين .

215

---

[109] *The Round table*, Volume 1, Macmillan., 1910, 422

وفي كتابه " قرنٌ من الحروب " كتب وليام إنجداهل: " واحدٌ من أسرار حرب 1914-1918 الافضل حفظا والتي بقيت طي الكتمان ، أنه في عشية آب 1914 ، عندما أعلنت بريطانيا الحرب ضد الرايخ الألماني ، كانت الخزينة البريطانية ومالية الامبراطورية البريطانية مفلسة .. وإن امتحاناً للعلاقات المالية الحقيقية بين الأطراف الرئيسية للحرب يكشف خلفيةً غير عادية لائتمانات سرية ، مرتبطة بخطط تفصيلية لإعادة تخصيص المواد الخام والثروة المادّية للعالم كله - بعد الحرب - وخاصة المناطق التي يعتقد بأنها تحوي كميات هامّة من احتياطيات النفط في الامبراطوريةالعثمانية".[110]

مورجان ، والذي كانت إحدى قدميه في لندن والأخرى في نيويورك ، كان الجسر الرئيسي لبارونات المال في مدينة لندن منذ ستينيات القرن التاسع عشر وحتى بداية وأثناء الحرب العالمية الأولى . وحيث أن الأكلاف المتوقعة للحرب والقروض ذات العلاقة ، تمّ التصور بأنها ممكنة التنفيذ – فقط - عبر إيجاد نسخة عن مصرف إنجلترا ، لذا تم انشاء نظام الاحتياط الفيدرالي ، قبل عدة أشهر من اندلاع الحرب في كانون أول 1913 . ولقد أنشئ على نمط مصرف انجلترا(بانك اوف انجلاند) ، والذي كان ملكيةً خاصةً مسيطرٌ عليه - ليس من طرف الحكومة - وانما من بارونات مال مدينة لندن . وبالمثل ، فإن نظام الاحتياط الفيدرالي كان مملوكاً ملكية خاصة ، من قبل المصارف الخاصة في الولايات المتحدة . كما كان مسيطراً عليه من قبل رأسماليي وول ستريت . وعيّن جيه. بي.موردجان وشركاه رسمياً وكيل الشراء الوحيد لكافة المشتريات الحربية المزودة من قبل الولايات المتحدة ، بما في ذلك مشتريات فرنسا وغيرها من الحلفاء الأوروبيين ، وكانت هذه المشتريات مضمونة أيضاً من الحكومة البريطانية فيما شكل انتهاكاً للقانون الدولي الذي لا يسمح للقوى المتحاربة (أي بريطانيا) أن يكون لها قواعد تزويد في بلدان محايدة .

وكان شريك مورجان اللندني هو إي. سي. جرينفيل ، والذي كان عضو مجلس إدارة في مصرف إنجلترا ! وفي الوقت الذي تم فيه الزّجّ بأميركا في الحرب عام 1917 ، كانت

---

[110] William Engdahl, *A Century of War: Anglo-American Oil Politics and the New World Order*, Pluto Press, 2004

المشتريات التي تمت عبر بيت مورجان ، تتجاوز العشرين بليوناً من الدولارات ، فضلاً عن 1,25 بليون دولار من القروض . وتمت مساعدة مورجان في جهوده التعبوية ، من قبل بنجامين سترونج حاكم مصرف الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك ، والذي كان موظفاً سابقاً لدى مورجان . وكانت صحافة بارونات المال " الصديقة " تطالب بدخول أميركا الحرب ، وخاصةً بعد أن اضطرت ألمانيا لإغراق ناقلات نفط أميركية كانت قاصدةً أعداءها . وفي 12 نيسان 1917 أعلنت الولايات المتحدة الحرب . ولتمويل أكلاف حربها أصدرت صكوك وقروض الحرية ، وبيعت عن طريق بيوتات وول ستريت الوطنية . وفي 1919/6/30 بلغت قيمة هذه الصكوك ما مجموعه 21,478,000,000 دولار ، وأصبح وول ستريت الآن مركز التمويلات العالمي خاطفاً الأضواء من مدينة لندن . وهكذا تم نقل عمود آخر من أعمدة الامبراطورية إلى أميركا ، وإذا كانت الديون هي ما يعتاش منه آل روتشيلد ، وبارنجز ، ومورجان ، فسنوات الحرب والدّمار العالمي قد زادت الديون القومية للعالم 210 بليون دولار ، أو حوالي 475 بالمائة . وبهدوء شديد نقلت مورجان وشركاه قروضها الخاصة بالحكومة البريطانية إلى قروض على حكومة الولايات المتحدة ، وبذلك أصبحت تلك القروض مسئولية وعبء دافع الضرائب الأميركي .

وشكلت مجموعة المائدة المستديرة " المعهد الملكي للشؤن الدولية " ، لكي يكون خزانها الفكري ، وكان آرنولد توينبي أول موظفيه مدفوعي الأجر . وكجزء من سياسة بارونات المال الجديدة لإبدال الجياد واستخدام الولايات المتحدة بصفتها مركبتهم الجديدة لسيطرتهم العالمية ، مضافا اليها المعرفة الامبريالية والسياسية للامبراطورية البريطانية الغاربة ، فقد أنشئ خزان فكري أميركي موازٍ في نفس الوقت : " مجلس العلاقات الخارجية CFR" والذي اصدر مجلته " الشؤن الخارجية " . وأصبح مجلس العلاقات الخارجية "CFR" توأم "المعهد الملكي للشؤن الدولية RIIA " واستمر في لعب دور محوري في تشكيل السياسات الأميركية . وأنشئ خزانا الفكر كلاهما، في ممرات ودهاليز مؤتمر فرساي للسلام.

217

انتاج الزبائن .. ثقافة استهلاكية جديدة

بعد الحرب العالمية الأولى ، وعودة الجنود ووقف الإنتاج الحربي ، تسبّب ذلك في الركود والكساد والانكماش في عشرينيات القرن العشرين . وكانت الولايات المتحدة بحاجةٍ لإيجاد

زبائن لفائض إنتاجها ، وهكذا نشأت ثقافة الاستهلاك ، وقام المدعو وليام ليش بدراسةٍ بحثية لهذا الموضوع وكتب في مؤلفه" أرض الرغبة" : ***" في العقود التي تلت الحرب الأهلية ، بدأت الرأسمالية الأميركية إنتاج ثقافةٍ متميزة ، غير موصولة أو مرتبطة بالقيم العائلية أو المجتمعية التقليدية ، أو بالدين بأي معنىً تقليدي ، أو بأي معنى سياسي ديموقراطي ... ومنذ تسعينيات القرن التاسع عشر بدأت شركات الأعمال الأميركية ، بالتعاضد مع المعاهد الرئيسية ، تحويل المجتمع الأميركي إلى الانشغال بالاستهلاك ، ببضائع أكثر هذه السنة من السنة الفائتة ، وأكثر في السنة القادمة من هذه السنة ؛ وأنتجت رأسمالية الاستهلاك الأميركية ثقافةً تكاد تكون معاديةً وبشكل عنيف للماضي وللتقاليد ... ثقافةٌ رغبات ذات توجهات مستقبلية أربكت الحياة الجيّدة بالبضائع ... والسمات الرئيسية لهذه الثقافة هي الاستحواذ والاستهلاك بصفتهما وسائل تحقيق السعادة ؛ طائفة الجدّه ، ديموقراطية الرغائب ، وقيمة النقود بصفتها المقياس المسيطر على كلّ القيم في المجتمع " .***[111]

ولم تعد المشكلة هي إنتاج البضائع وانما إنتاج الزبائن ، ورفعت مرتبة الاستهلاك ليصبح ديانة... روحها هي الرغائب الإنسانية . وكانت ديانة " الاستهلاك " الجديدة هذه معادية للتدين ، حيث أن جميع الديانات تعظ بإخماد الرغبات والسيطرة عليها ، كما علمت الديانات الاعتدال في حيازة الممتلكات الدنيوية ، وعززت القيم الأخلاقية أكثر من تلك المادية . والعوائد كما وعدت بها الديانات ، فستكون سلام النفس في الحياة الدنيا وحياة أفضل في الآخرة . أما " الاستهلاكية " فنهجت المنحى الآخر المضاد " إما الآن أو فلا ، وإلى الأبد ." حسبما تقول به أغنياتهم الشائعة . وبذا استهدفت الثقافة المبنية على الدين ، والحياة الناشئة عنها ، من قبل حائزي الثروات والإنتاج ، بقصد احداث التغييرات ، كون الثقافة الدينية لا تلائم نظامهم . وفي عالم الرأسمالية المادي يتوجب الارتقاء بثقافة المستهلك لتطاول مرتبة العلم ، لذلك عقد الأثرياء والمنتجون حلفاً مع جامعات وكليّات متقدمة بدأت

---

[111] *, Land of Desire: Merchants, Power, and The Rise of a New American Culture,* William Leach
Vintage Books, 1994, xiii,3

بتدريس منهاج الأعمال في مدارس أعمالٍ مستحدثة . ومالكو الثروة والإنتاج هؤلاء لم يتبرعوا بنقودهم لهذه المعاهد فقط ، بل اتخذوا مقاعد لهم في مجالس الأمناء وتعاونوا في وضع مناهجها . كما أن الحكومة أصبحت مشاركةً في خلق هذه الثقافة ، فهربرت هوفر بصفتيه : الأولى كوزير للتجارة ، والثانية كرئيس للولايات المتحدة ، قد لعب دوراً رئيسياً في تشكيل وصياغة التحالف بين الحكومة والمصالح/الأعمال الكبيرة" وأصبحت المصالح/الأعمال الكبيرة هي الشريك الأهم في هذا التحالف ، وما زال هذا مستمرّاً حتى اليوم .

ووصف هوفر للحياة في "أميركا المدن الصغيرة" - قبل مجئ ثقافة الاستهلاك - هو وصف مثير للاهتمام ، حيث صدر عن رجل عمل الكثير لتغيير تلك الثقافة في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وكان ألقى الخطاب أثناء حملته الانتخابية عام 1928 ، وزيارته لمسقط رأسه في وست برانش ، وهي مدينة صغيرة في آيوا كان عدد سكانها 800 نسمة في 1880 ، لاحظ - وكما تنبات عمته هانا - بأن الكنائس وبيوتات الاجتماع(المنتديات) ، سوف تحوّل إلى أماكن لغايات مقيته ، فها هي دار الاجتماعات القديمة لطائفة الكويكرز قد أصبحت داراً للسينما ، وكان الناس في ثمانينيات القرن التاسع عشر ، كما قال هوفر ، يتشاركون في مسرّات مجتمعية ، وكانت البلدة ذات اكتفاء ذاتي ، حيث كانت تنتج حاجتها من القمح والذرة وتطحنها في مطاحنها الخاصة ، وكانت البلدة مكتفية ذاتياً من اللحوم ، وتحيك ملابسها الخاصة ، ***" كما نصلح مكائننا بأنفسنا ، ونحصل على وقودنا من الغابات ، ونشيد مبانينا ، ونصنع حاجتنا من الصابون ، ونصبر فاكهتنا الخاصة ، وننتج خضرواتنا، وكان جزء صغير فقط من احتياجاتنا المعيشية يأتينا عن طريق الشراء من الخارج" .***[112] وقال هوفر " إنه في طفولته لم يكن الفقر معروفاً في وست برانش ، وكان الناس سعداء ، فلم يكونوا يتعرضون لتقلبات وخسائر سوق شيكاغو وانخفاضاته ، والتي

---

[112] Ibid., 376

في مؤخر الأيام تسببت أحياناً في مسح 50 % من كسبهم من قبل المضاربين ، وانتقل الناس الآن من الراحة إلى القلق .

وأصبح الاستهلاك العقيدة الجديدة في رأسمالية المستهلك و التي تمحورت حول خلق " جنان النعيم على الأرض " ، عبر مستوى معيشةٍ أعلى يمكن شراؤه بالاستهلاك ، والذي بدوره سيجلب السعادة. وتم تحويل السعادة إلى سلعة يمكن امتلاكها بالاستهلاك . وحيث أن الولايات المتحدة أصبحت غنية بالسيولة النقدية ، وأصبحت تتمتع بفائض تجاري كبير عقب الحرب العالمية الأولى ، عبّر مصرفيّو الاستثمارات عن ثقتهم بإمكانيات أسواق النقد ومصارف الاستثمار في الولايات المتحدة ، وساعدت السيّارات والشاحنات في نقل البضائع إلى كافة أرجاء البلاد ، وأنشئت متاجر التجزئة الكبيرة في كل مكان مع فنون عرض وبيعٍ جديدة ، وأنشأت المصارف وبسرعة فروعاً جديدة لاستغلال الوفرة النقدية . وانضمت أفلام السينما إلى الإذاعة والجرائد في نشر الثقافة الجديدة ، وتم تطوير اقتصاد خدمات استوعب جزءاً كبيراً من القوة العاملة إلى درجة اعتراف الرئيس هوفر بتأثيرها الإيجابي لمنع أزمة بطالةٍ حرجة ، وأنشئت سلاسل المخازن ، وشجع المصرفيون عمليات الاندماج والاتحاد ، وبعد 1920 ، بدأ سوق وطنى في الظهور وأخذت الشركات تكبر وتكبر.

وحوالي منتصف عشرينيات القرن العشرين ، كان توزيع الأفلام إلى سلاسل دور العرض مسيطر عليه من قبل ثماني شركات ، وفي وقت أبكر " كان جنون الاندماج " موجوداً في الصناعة الثقيلة والتصنيع ، وأصبح الاندماج وسيلةٌ للتوسع ، وكان مصرفيو الاستثمار سعداء بأن يقدموا الخدمات اللازمة " للاندماجات والاستملاكات ، وفي الواقع روجوا لها . وبين 1910 و 1930 ازداد عدد مصارف الاستثمارات بنسبة 400 بالمائة ، وقد ساعدوا الكثير من الشركات المحلية على أن تصبح إقليمية ، وساعدوا الكثير من الشركات الاقليمية على أن تصبح وطنيّة . وكما في الاندماجات والاستملاكات الحالية ، فقد تم خلق اقصادٍ مالي اهتم بصنع النقود بدلاً من صنع البضائع.

واعتمدت الثقافة الجديدة بكليتها على خلق الطلب ، عن طريق التلاعب برغائب الناس ، وقرّر المصرفيون ومفكروهم أن تحفيز الرغائب لا حدود له ، وأنه ما أن يتم إشباع إحدى الرغبات حتى تحضر معها رغبة أخرى بحاجةٍ إلى الاشباع .

وكما كتب وادل كاتشنجز من جولدمان ساكس ***"فان على الاقتصاد الاميركي أن يحفّز رغائب جديدة أو رغائب غير مكتملة النمو"*** .[113] وخلال العشرينيات من القرن الماضي أصبحت الاندماجات واسعة الانتشار ، من قطاع الاغذية و حتى قطاع اللهو ، وعقد كاتشنجز صفقةً مع وارنر بروذرز ، فاشترى واحدة من أكثر شركات البلاد شهرة في قطاع عملها ، وهكذا ، وبين عشية و ضحاها ، أصبحت وارنر بروذرز مالكة لأفضل نظامٍ لتوزيع الأفلام في البلاد ، وباستملاكات مماثلة إضافية صعدت موجودات وارنر في خمس سنوات إلى 46 مثلاً لما كانت عليه . وكذلك فعل لويس كيرستن من فيلينز ، وفرد لازاروس جونيور ، من إف. و آر. لازاروس في كولومبوس - أوهايو ، حيث صنعوا واحداً من أكبر الاندماجات في أميركا ، والتي نشأ عنها إيجاد المخازن الاتحادية في 1929، بمساعدة ونصح من بنك استثماري .

وشكل المصرفيون ورجال الأعمال تحالفات مع أفضل كليات وجامعات أميركا ، فقد استنتجوا أن الانتاج هو الجزء السهل في معادلة العرض والطلب ، وبذا قرروا أن جانب الطلب يمكن التحكم فيه بالتلاعب بالرغائب البشرية والتي لا نهاية لها ، ويمكن لهذا أن يؤدي الى نمو وإنتاج لانهائيين . وعلى كل حال فإن نظم التحكم بالتلاعب بالرغبات يجب أن تدرس ، وأن تدار الأعمال الناجمة عن ذلك ب "علم" ليس موجوداً بعد ، وعليه فإنه لا بدّ من إيجاده ، و لا بد من جعل مهنة رجل الأعمال مهنة ذات قيمة .

---

[113] Ibid., 277

" ليست هناك أية جهة كانت ، عملت لمساعدة إدارة الأعمال على أن تصبح مهنة ذات قيمة أكثر من كلية هارفارد للدراسات العليا للاعمال " . [114] كان هذا ما قاله كيرسيتن أوف فيلينز ، والذي رأس لجنة جمع التبرعات للمدرسة ، كما منح رئيس مصرف نيويورك سيتي فيرست ناشنال بانك ، جورج إف.بيكر هديّةً لمدرسة هارفارد للأعمال نشأ عنها أن أصبح لها مبنى إدارتها الخاص ، ومناماتها ومكتبتها في سنة 1927 ، وكانت كل من كورنيل وجامعة نيويورك مرتبطتان ومعتمدتان ماليّاً على موجدي ثقافة المستهلك ، وكان السورث مصدرا ماليا رئيسيا لكورنيل ، أما بيري شتراوس من ماسيز فلم يكن ممولاً رئيسياً لجامعة نيويورك فقط ، وإنما خدم في مجلسها التنفيذي والذي اعتاد أن يجتمع بانتظام خلال العشرينيات من القرن العشرين بمتجره ، كما رأس مجلس إدارة أمنائها أيضاً ، أما ستانفورد فأسست في حوالي منتصف العشرينيات من القرن العشرين مدرسة الدراسات العليا لتعليم المحاسبة والتمويل والتسويق والنقل ، وفي حوالي نفس الوقت دخلت جامعات نورث ويسترن ، ميتشغان ، ويسكونسن ، كاليفورينا وأوريغون إلى عمل مدارس الأعمال .

وقليلون هم الأفراد الذين كانوا يملكون نفوذاً في هذا الاقتصاد الجديد الكبير للمستهلك ، أكثر من بول مازور خريج هارفارد سنة 1914 ، وبعد انضمامه للجيش وعدة تجارب عمل ، أصبح رجل الاندماجات في ليهمان بروذرز ، ومثله مثل كاتشنجز من جولدمان ساكس كان مدافعاً عن التجارة المركزية الكبيرة ؛ واعتمد مازور بشكل كبير على هارفارد للمساعدة ، حيث اعتبرت نفسها معهداً غير متحيز ، " ذي اهتمامات علمية " في مشاكل الإدارة والأعمال ، وفي 1924 بدأ التعاون بين الجمعية الوطنية لبيع المنتجات الجافة بالمفرق (NRDGA) ، وبين ليهمان برذرز ومدرسة هارفارد للأعمال ، والتي عهدت فيها NRDGA إلى مازور للالتحاق بهارفارد ، للقيام بدراسة حول الاتجاهات التنظيمية في التجارة . ورشح البروفيسور دونالد دافيد في 1924 ، رشحّ مايرون سيلبرت

---

[114] Ibid., 286

للانضمام إلى فريق الدراسة ، وأصدر الثلاثة بعد سنةٍ ونصف السنة من البحث " تطبيق مبادئ التنظيم على تجارة التجزئة الحديثة ". وغدا هذا الكتاب ، الكتاب المدرسي القياسي والمرجعي في هذا الموضوع لنصف قرنٍ قادم.

وفي 1928 نشر مازور كتابه " الازدهار الأميركي " ، ويمكن التعبير بأفضل ما يكون عن ثقافة رأسمالية المستهلك ، باستخدام فقرات من هذا الكتاب ***" يمكن (الآن) تطوير رغبات الإنسان بحيث تبز حاجاته ... تبدو رغبات الإنسان وكأنها لا حدود لها ... أعط العالم وزوجته الفلوس والتي يمكنهم بها إشباع كل حاجة ، ورغبة وميل، علّم وثقف العالم وزوجته: أن تريد ..وتطلب ، وستجأر – في الحقيقة – طاقة البلد الإنتاجية تحت وطأة ضخامة الطلب ، وربما كانت هناك حدوداً لاستهلاك أنواع محدّدة من المنتجات ، ولكن نظريّاً ليست هناك حدود لاحتمالات الاستهلاك العام ".***[115] (الازدهار الأميركي : أسبابه ونتائجه ")

وأنشئت المعاهد المساعدة لترويج الثقافة الجديدة ، وابتكرت مؤسسات التقسيط الائتماني والتمويل الشخصي ، وبذا تم إيجاد زبائن أكثر يشترون بالدين ، وتضاعف عمل البيع الآجل عما كان عليه خلال عقد العشرينيات من القرن العشرين ، وجددّت مخازن الأقسام التجارية ديكوراتها ، فظهرت وكالات موديلات الأزياء ووكالات الأناقة والمستشارون.

بعد الحرب العالمية الأولى خبرت أميركا كسادها الأسوأ منذ كساد التسعينيات خلال القرن التاسع عشر ، وهوت الأسعار في سقوطٍ حر ، ليس له مثيل في التاريخ الأميركي ، بينما سجلت البطالة ارتفاعاً قياسيّاً . وكان البلد يعاني ليس من اضطراب اقتصادي فقط ، وإنما من جيشان سياسي ، حيث كان الناس يتحدثون – حتى – عن إمكانية ثورة ، وكان عمر الثورة البلشفية مازال عدة سنوات فقط ، وعيّن هربرت هوفر وزيراً للتجارة في 1921 ، حيث عمد إلى العمل فوراً ، حيث أصبح مقتنعاً أن فجوةً كبيرةً توجد بين الانتاج

---

[115] Paul Myer Mazur, *American Prosperity: Its Causes and Consequences*, The Viking Press, 1928, 24

والاستهلاك ، كما قام بتوصيف اختناقات موجودة في نظم التسويق والتوزيع . وعلى كل حال فإن التعبير الأفضل عن أفكار هوفر - على الأرجح - يرد في أحد تقاريره بأن اقتصاد الولايات المتحدة أثبت نظرية ***" أن الرغبات غير قابلة للإشباع تقريباً : وأن إشباع إحدى الحاجات يفسح الطريق لأخرى ، والخلاصة ، أنه اقتصادياً لدينا وامامنا مجال لا حدود له ، وأن هناك حاجات جديدة ستفسح الطريق بصورة لا نهائية لحاجات جديدة ، وبالسرعة التي يتم فيها إشباعها."*** [116]

وبنصح من إدوين جيه ، أول عميد لمدرسة هارفارد لإدارة الأعمال ، وآخرين ، حوّل هوفر ادارة التجارة إلى وكالة تقوم على خدمة الأعمال الأميركية ، بتزويدها بالبيانات التي يمكن أن تحتاجها للسيطرة على قوى الاقتصاد ، وبالمساعدة على موازنة الإنتاج مع الاستهلاك . وكان جوليوس كلين ، الأكثر موثوقية بين من عينهم في إدارة التجارة ، وهو اقتصادي تدرّب في هارفارد ، ومؤرخ ، وكان رجلاً ذا رؤية ***" .. فقد حلم بإيجاد نظامٍ اقتصادي متين ، دون تخومٍ أو حدود ودون منازعات ، نظام ذي ليونة تامة بحيث يسمح بالحركة الكفؤه للأفكار ، ولرأس المال ، وللسلع"*** [117]

وبدت نظريات هوفر جيدة لبعض الوقت ، وخرجت البلاد من الكساد إلى العشرينيات الهادرة الصاخبة ، ولكن .. بينما بدت الأشياء جيدةً على السطح كان أسوأ كساد في تاريخ أميركا يتشكل ، وتكشّف بانهيار وول ستريت في تشرين أول 1929 ، واستمر لعقدٍ كامل.

ووجه الشبه والتوازي بين هدير وصخب عشرينيات القرن العشرين ، وهدير وصخب تسعينياته ، فيمكن تبينها في هذه النقطة ، ففي كلا الفترتين تخلت الحكومة عن دورها التنظيمي وقبلت دور المساعد والميسر للأعمال فقط ، وفي الحالتين كان المفترض في وول

---

[116] Committee on recent economic changes, Recent economic changes in the United States, McGraw-Hill book company, inc., 1929

[117] William Leach, Land *of Desire: Merchants, Power, and The Rise of a New American Culture,* Vintage Books, 1994, 362

ستريت أن يمارس الرقابة الذاتية وضبط النفس ، وشهدت الفترتان موجةً من الاندماجات والاستملاكات ، وبقى اللاعبون الأساسيون هم جولدمان ساكس وليهمان برذرز ، وفي كلا العقدين كان ازدهار من الوهم يخبئ خلفه اضطراباً وعدم استقرار اقتصادياً تبعه: الكساد العظيم بعد عقد العشرينيات من القرن العشرين، فانهيار سوق الدوت كوم ، فسوق المخاطر المرتفعة ، ثم انهيار الأسواق المالية في عقد تسعينيات القرن ذاته . وفي كتابي "نذر العولمة" ، والمنشور عام 1998 تنبأت بأن اضطراباً مماثلاً لذاك الذي تلا عقد العشرينيات يمكن له أن يتلو عقد التسعينيات .

ولم يبلغ الاقتصاد الأميركي مستوى 1929 حتى حوالي العام 1939 ، وحتى في ذلك الحين كانت تقلبات دورات الأعمال حادةً جداً ، وحدثت تأرجحات أدت بأربعة ملايين من الناس لفقدان أعمالهم خلال أشهر عدة فقط في 1939 . أما ما أنقذ الرأسمالية فقد كان الحرب العالمية الثانية بالاضافة الى رأسمالية الدولة ، المعبر عنها في " الصفقة الجديدة " (the New Deal) ، والتي جاءت مخالفةً ومضادةً لتعاليم آدم سميث و هربرت هوفر ، تماما كتدخل الدولة الحالي و محاولات الانقاذ الفيدرالية ، من أجل السيطرة على الاقتصاد الاميركي .

وتمّ ترقية ثقافة الاستهلاك إلى مرتبة الدين ، حيث يوعد الناس بالجنة على الأرض ، ودرست كامبردج كينز ، والذي كان يستمتع بوصفه لنفسه " بغير الأخلاقي " ، والذي صادق على ثقافة المستهلك ، وكان في الحقيقة يعتقد بوجوب ازالة الديانات والأخلاق من المجتمع ، حيث أنها تدافع عن التوفير للمستقبل ، وعن الانضباط الذاتي "الآن" مقابل مكافآت في المستقبل وفي السماء . وكان يروج لفكرة ان على المرء أن يستمتع هنا والآن ، وليس في الآخرة ، وأن على الناس اتباع ملذّاتهم وأن ينسوا الحذق والتضحية ... فمثل هذه الفلسفة - بالنسبة لكينز - سوف تخلق الوفرة والمسرّة للجميع .

الحرب وجماعات الدراسات

أوجد " مجلس العلاقات الخارجية " ، منفرداً أو بالتعاضد مع الحكومة - والتي يشكل الكثير من أعضائها جزءاً من المجلس - أوجدوا نهج تخطيط عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ... الامبريالية الأميركية ... بإحاطة تامة وبدرجة عالية من الاحتراف والمهنية . واندلعت الحرب العالمية الثانية في أيلول 1939 ، وقليل هم المؤهلون - كمثل تأهيل مدير المجلس ، إيسايا بومان - لأخذ المبادرة وبدء دراسات الحرب والسلام . وكان بومان عضواً في

الدراسة "التحقيقية" عن الحرب العالمية الأولى ، وكان تقرر أن تكراراً لعقود ما بعد الحرب العالمية الأولى من عدم الاستقرار وفترات الكساد يجب أن لا يسمح بها ، وحتى في ذلك الوقت في 1939 ، لم يكن اقتصاد الولايات المتحدة قد استعاد عافيته بالكامل .

وفي 12 أيلول 1939 ، أي بعد 12 أسبوعاً من اندلاع الحرب ، التقى والتر إتش. ماللوري ، المدير التنفيذي للمجلس ، وهاملتون فش آرمسترونج ، محرر مجلة فورن أفيرز (مجلة الشؤن الخارجية) ، في واشنطن مع جورج إس. مسر سميث مساعد وزير الخارجية ، والذي كان هو نفسه أحد أعضاء المجلس ، حيث عرضوا مشروع تخطيط طويل المدى ينطوي على تشكيل جماعات دراسية من قبل المجلس - بعد البحث مع إدارة الخارجية - على أن تقدم توصياتها الناشئة عن دراساتها ، بصورة سرية ورسمية إلى وزارة الخارجية وإلى الرئيس إف. دي. روزفلت . والمعروف عن روزفلت أنه كان وثيق الصلة بالمجلس ، وأن منزله في مدينة نيويورك - عندما كان حاكماً لها - كان مجاوراً تماماً لمقر المجلس . وفي منتصف كانون أول 1939 ، شكلت لجنة توجيه مركزية لإدارة وتنسيق مختلف جماعات الدراسات . وكانت اللجنة تتكون من :

- فورمان إتش. ديفر – الرئيس (سفير روزفلت العام)
- والتر إتش. مالوري – نائب الرئيس (مدير المجلس)
- آلفن إتش. هانسن – أستاذ الاقتصاد السياسي (هارفارد)
- جاكوب فينر – أستاذ الاقتصاد (جامعة شيكاغو)
- ويتني إتش. شيباردسون – مسؤل تنفيذي إحدى الشركات ومشارك في محادثات السلام في فرساي 1919.
- ألان د. دالاس – محامي شركات دولي (وفي وقت لاحق مدير المخابرات المركزية)
- إيسايا بومان – رئيس جامعة جون هوبكنز وجغرافي بارز .

وشكلت خمس مجموعات دراسية:

- مجموعة الاقتصاد والمالية : برئاسة هانسن وفينر

- مجموعة السياسة : برئاسة شيبردسون
- مجموعة الأسلحة : برئاسة دالاس
- مجموعة المناطق الاقليمية : برئاسة بومان.
- مجموعة أهداف السلام : ترأسها آرمتسرونج في وقتٍ لاحق.

وكان هناك حوالي المائة شخص ينخرطون في هذه الدراسات التي استمرت ست سنوات ، كانوا أثناءها يجتمعون مع أعضاء المجلس بانتظام . ومثل هذه الدراسات طويلة المدى إنما اعتمدت على المجلس بشكل كبيرٍ ، بسبب افتقار وزارة الخارجية إلى موظفين مؤهلين لمثل هذا التخطيط السياسي ، وحتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

وكانت إحدى أوائل استنتاجات المجلس وجماعات الدراسة قد خلصت إلى أن الولايات المتحدة ، ومن أن أجل أن يعمل اقتصادها بشكلٍ صحيح ، تحتاج للوصول الحر إلى الأسواق والمواد الخام لدى بلدان ومناطق أخرى ، وخاصة لدى الامبراطورية البريطانية ، والشرق الأقصى ، ونصف الكرة الغربي بأكمله . وتم اعتبار هذا " مصلحة قومية " أو " مصلحة أمن قومي " .. كما تطور المصطلح خلال الحرب الباردة . وأصدرت مجموعة الاقتصاد والمالية مذكرتها (إي .بي 19) في تشرين أول 1940 ، والتي فرزت اليابان على أنها معيق لدمج الشرق الأقصى في نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث كان لليابان خططها الاستراتيجية الخاصة بها والمتعلقة بتلك المنطقة، كما أخذ على اليابان عدم استعدادها لأن تلعب دورا تبعيا تعهد به إليها الولايات المتحدة . كذلك تم بحث ما يمكن اتخاذه من تدابير لمنع اليابان من الاستيلاء على جنوب شرق آسيا ، بحيث يمكن لها أن تمنع الولايات المتحدة من الوصول إلى أسواق هذه المناطق وموادها الخام . وفي المذكرة المرقومة (إي. بي. 26) المؤرخة في 15 كانون الثاني والمعنونة " السياسة الأميركية للشرق الأقصى" ورد "أن جزر الفلبين وجزر الإنديز الشرقية الهولندية ، والملايو البريطانية ، هي مصادر رئيسية للمواد الخام ، وهامة جدّاً للولايات المتحدة في الحرب والسّلم ، وتعتبر السيطرة على هذه الأراضي من قبل قوة معادية محتملة ، أمراً يحد - وإلى

حدً كبير - من قدرتنا على التصرف ."[118] وبالإضافة إلى ذلك ، وخلال الحرب العالمية الثانية ، فإن احتلال هذه الأراضي سيضر بالمجهود الحربي للحلفاء . وكانت الخطة المقترحة هي:

- مساعدة الصين عسكرياً (إمدادات) لمشاغلة القوات اليابانية وتثبيتها في الصين .
- تقوية الدفاعات البحرية والجوية لجنوب شرق آسيا ، بالتفاهم والتوافق مع البريطانيين والهولنديين.
- قطع بعض إمدادات المواد الحربية عن اليابان.

وسلمت هذه المذكرة إلى وزير الخارجية كوردل هل ، ونفذ تقديم المساعدات للصين ، وقطع الإمدادات الحربية عن اليابان خلال أشهر معدودة في 1941 . ولعب ذلك دوراً رئيسياً في جر أميركا لدخول الحرب العالمية الثانية .

أما المذكرة (إي. إيه. 17) الصادرة في 14 حزيران 1941 فبحثت " اقتصاد عالم واحد" تسيطر عليه الولايات المتحدة . ولكن ، وكإجراء مرحلي فقط ، عرفت المذكرة (إي. بي. 34) المؤرخة في 24 تموز 1941 مفهوم " المنطقة الكبرى" ، على أنها تتكون من " نصف الكرة الغربي ، المملكة المتحدة ، بقية الكومونولث البريطاني والامبراطورية ، الانديز الشرقية الهولندية ، الصين ، واليابان ذاتها .." وهذه المنطقة ، كما تقرر ، كانت لازمة كحدً أدنى للاقتصاد الأميركي كي يعمل دون الحاجة إلى تعديلات رئيسية ، أما "المنطقة الكبرى " فاعتبرت جوهرية وهي التي سيتم بها إعادة نسج وحياكة اقتصادات ما بعد الحرب المدمرة ، وكلما تزايد عدد البلدان المضافة إلى "المنطقة الكبرى " كلما كان ذلك أحسن ، وهذه المذكرة (إي. بي. 34) خلصت إلى الحاجة لخلق وإيجاد التالي:

- مؤسسات مالية عالمية لتثبيت العملات .

---

[118] American Far Eastern Policy, E-B26:1,

- مؤسسات مصرفية عالمية لمساعدة الاستثمار والتطوير في البلدان المتختلفة .

في تشرين الأول 1941 تمت تنقية أكثر للفكرة ، واقترح وينفيلد دبليو ريفلر من مجموعة الاقتصاد والمالية " سلطة تنميةٍ عالمية " لتحفيز الاستثمار في الدول النامية ، بحيث تزداد قوتها الشرائية ، ومن ثم يزداد طلبها على بضائع الولايات المتحدة . وفي 1 تشرين الثاني 1941 ، اقترح آلفن إتش. هانسن " شركة عالمية لتمويل إعادة البناء (الاعمار)" على أن تقيمها الحكومات حتى لو أثناء الحرب . وتبنى المجلس المقترحين كليهما وأرسل التوصيات بهما إلى الرئيس روزفلت ووزراة الخارجية ، وقام هاري ديكستر وايت من إدارة الخزينة ، بوضع التفاصيل الفنية لكل من المنشأتين المقترحتين ؛ وفي آذار 1942 ، قدم وايت مذكرة أدت إلى إقامة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، وبدوره قام مورجنتاو وزير الخزانة بإعطائها إلى روزفلت في منتصف أيار ، وشكلت على الأثر لجنة وزارية للقيام بمزيد من تنقية الخطة ، وشكلت لجنة أميركية فنية لوضع التخطيط الفعلي . و ووفق على الخطة ، وكان التنفيذ مرناً ، ينتهى مع ختام الحرب العالمية الثانية، ودعيت أربع وأربعون أمةً إلى بريتون وودز في نيوهامبشاير في 1944 ، وبذا تم خلق وإنشاء المؤسسات المالية العالمية ، لرأسمالية ما بعد الحرب العالمية الثانية .

وفي وقت متأخر من عام 1941 ، أنشأت ادارة الخارجية " اللجنة الاستشارية للسياسة الخارجية لفترة ما بعد الحرب" ، وشغل المخططون البارزون في المجلس المناصب البارزة في هذه اللجنة . وعلى كل ، نشأت مجموعة أصغر هي " المجموعة غير الرسمية للأجندة السياسية " ، والتي دعاها روزفلت " استشاريو ما بعد الحرب " . وهؤلاء كانوا هل ، ويلز ، دافيس ، تيلور ، بومان وباسفلوسكي ، وكان خمسة من الستة أعضاء المجلس ، وهذه المجموعة الصغيرة أدارت أجندة "اللجنة الاستشارية " ، وكانوا هم من صاغ ميثاق الأمم المتحدة.

وهكذا ، تم أيضاً إنشاء إطارٍ لحاكميةٍ عالمية ، لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية . وحيث أن استغلال موارد الشعوب الأخرى ، يمكن الآن القيام به عبرإمبريالية الشركات ، مع ضمان الامبراطورية الأميركية للحركة الحرة للبضائع والنقود ، فإن المستعمرات ستمنح " استقلالها " في القريب ، وعلى نحو يجعل من وصول الشركات عابرة القوميات إلى أسواق ومواد خام شعوب هذه المستعمرات مأموناً " ودون توترات " . وتؤدي الشركات الآن – بالضبط - المهمة الاستعمارية . وسيكون للصفوة المحلية ، في المستعمرات المستقلة حديثاً ، نفس المصالح المشتركة مع "الصفوة " عابرة القوميات . وباتباعها لمقتضيات مصالحها

المادية الخاصة ، فإن الصفوة المحلية ستعارض أي مصلحة قومية يمكن لها أن تتناقض مع عبور القوميات . وبموجب التعريف ، فإن جميع عابري القوميات لا ولاء قومي أو وطني لهم ، وكان هذا النظام الجديد ذكيّاً وغير مرئي . ولكي يقوم الاستعماريون بتحصيل أرباحهم فلا بد لهم من وجود مادي ، وهو أمر خطرٌ في بعض الأوقات ، كما أنه يتطلب منهم العمل تحت حماية الجيش والشرطه ... وكان إيسايا بومان هو الذي اقترح أن بمقدور الولايات المتحدة ممارسة سيطرة فعالة على المستعمرات والمناطق الأضعف في العالم عبر الأمم المتحدة ، وأن على الولايات المتحدة أن تمتلك القدرة اللازمة لضمان "الأمن"، لكن عليها مع ذلك " تفادي الأنماط التقليدية للامبريالية ". ولاحظ هنا أن المطلوب تفاديه ، هو النمط التقليدي للإمبريالية ، وليس تفادي الامبريالية ذاتها . وباشرت الولايات المتحدة تسويد مشروعها للأمم المتحدة ، وبدأت " مجموعة الأجندة " ذلك العمل ، وكان الهدف المعلن لإقامة الأمم المتحدة ، هو صيانة السلام والأمن حول العالم .

وانتهى العمل من صياغة مسودة مشروع الأمم المتحدة في سبعة أشهر ، بين كانون أول 1943 وتموز 1944 ، ووافق هل وزير الخارجية على المسودة ، وأعطاها لثلاثة محامين بغرض التأكد من أنها لا تناقض دستور الولايات المتحدة ؛ وحيث أن المحامين لم يجدوا مشاكل في المسودة ، قام هل وآخرون ببحثها مع الرئيس روزفلت ، الذي لم يكتف بمجرد الموافقة عليها ، وإنما قام بإصدار بيان فيها للشعب الأميركي .

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية كان لدى الولايات المتحدة خططها الجاهزة " للمنطقة الكبرى " التي ينتظر لها قيادة الاقتصاد العالمي . فقد تم ايجاد جميع المؤسسات العالمية اللازمة لها : السياسية (الأمم المتحدة)، والمالية (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) ، والتجارة الحرة (اتفاقية الجات - الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة) حتى يتسنى لها قيادة الامبراطورية الأميركية التي خلفت الامبراطورية البريطانية ، إذ ستتم ممارسة الامبريالية الأميركية عبر نظم مبتكرة ، عبقرية وغير مرئية ، مستخدمةً الابتكارات الجديده في نظم الاتصالات والإدارة ، بينما بقي الهدف الاستراتيجي في خلق اقتصاد عالمي تحت رعاية الرأسمالية الأميركية كما هو لم يتغير أبداً .

وفازت القوى الغربية المقوده بالولايات المتحدة بالحرب ، وحاق الدمار بأوروبا واليابان والكثير من أرجاء العالم ، وفقد الاتحاد السوفيتي الملايين من أبناء شعبه ، كما خسر الكثير من بنيته التحتية ، ولذا كانت الولايات المتحدة بالتأكيد في وضع يتيح لها فرض صيغتها من النظام العالمي لفترة ما بعد الحرب...على الاقل فيما يخص حلفاءها " والمنطقة الكبرى".

وفي 1945 قررت الولايات المتحدة وقف سياسة الإعارة والتأجير ، ليس فقط فيما يخص الاتحاد السوفياتي وإنما فيما يخص بريطانيا أيضاً ، وكان ذلك على الأرجح مفهوماً فيما تعلق بالاتحاد السوفياتي ، إلا أن البعض قدر أن ذلك كان أيضاً رسالةً إلى بريطانيا فحواها أن عهداً جديداً قد بدأ ، وأن النظام العالمي لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية هو الآن قيد الإنشاء ، وأن الزمام هو بيد الولايات المتحدة . وما ان تم إيضاح ذلك حتى أصبحت إعادة بناء أوروبا أولوية أميركية . وفي 1948 وافق الكونجرس على مشروع مارشال ، وخصصت لذلك حزمة معونات من 17 بليون دولار ؛ ودعا مشروع مارشال إلى تسريع تبسيط الإجراءات الحكومية وإزالة العوائق أمام قوى السوق (deregulation) ، كما دعا إلى تنامي توجهات الوحدة الأوروبية في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية على الأقل ، وأقيمت منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي (OEEC) ، والتي حولت في 1961 إلى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) وفيها الولايات المتحدة وكندا ، عضوان كاملا العضوية . ثم أقيمت السوق الاقتصادية الأوروبية والتي عرفت أيضاً باسم السوق المشتركة في العام 1975 ، خالقةً بذلك منطقة تجارةٍ حرةٍ كبرى ، وكان الأعضاء الستة الأصليون هم : فرنسا ، ألمانيا الغربية ، إيطاليا ، بلجيكا ، هولندا ولوكسمبرغ . وأضيف المزيد من البلدان في السنوات التي تلت ، أما قلب الدفاع الغربي في أوروبا فكانت منظمة معاهدة شمال الأطلنطي (NATO) والمعتمدة بشكل كبير على الولايات المتحدة .

وتم تدريب جمهرة موظفي المخابرات الأميركية في بريطانيا ، كما أنهم أداروا أعمالهم من لندن قبل الحرب وأثناءها ، وكان البريطاني اللورد جون مينارد كينز ، والأميركي ديكستر وايت هما اللذان أشرفا على تفاصيل هندسة بريتون وودز ما بعد الحرب العالمية الثانية ، كما كان تشيرشل بريطانيا هو الذي صاغ ، بعد الحرب العالمية الثانية اصطلاح " الستار الحديدي " ، واتخذت بريطانيا دور المستشار الامبريالي للولايات المتحدة ، في عملية تبادل سلسة للجياد الأنكلوساكسونية . وجرى تغيير الأدوار من بريطانيا إلى الولايات المتحدة بيسر ، عدا قلّةٍ من البيروقراطيين البريطانيين غير المتشككين ، والذين حاولوا – عن غير قصد - الدفاع عن دور بريطانيا الامبريالي بصفتها حصان الرأسمالية الانكلوساكسونية العالمي ، ذلك الدور الذي كان آخذاً في التلاشي . أما مفهوم الامبراطورية الجديد ، حسب تصور المائدة المستديرة فتم تنفيذه بنجاح . وبعد عام 1945 ، مارست بريطانيا نفوذها غير المباشر ، عبر " علاقة خاصة" مع الولايات المتحدة.

230

الفصل التاسع

" انني اعتقد بأن المؤسسات المصرفية أكثر خطراً على حرياتنا من الجيوش العاملة، وإذا سمح الشعب الأميركي – أبداً - للمصارف الخاصة بالسيطرة على موضوع عملتهم ، مرةً بالتضخم ، وأخرى بالانكماش ؛ فإن المصارف ، والشركات التي ستترعرع حولها ، ستحرم الشعب من كل ملكية ، الى أن يستيقظ أطفالهم وهم مشردّون على القارة التي فتحها آباؤهم." [119]

الرئيس الأميركي ثوماس جيفرسون 1802

" إننا نجتمع وسط أمة دفعت إلى شفا الإفلاس الأخلاقي والسياسي والمادي ، فالشركات تسيطر على صندوق الاقتراع ، وعلى الهيئات التشريعية ، وعلى الكونجرس ، وتمس حتى جلال القضاء .. والصحف إما مرشوة ، أو مكممة ، والرأي العام مكره على الصمت ؛ والأعمال مغلوبة منهكه ، وبيوتنا مغطاة بالرهونات ... ومن نفس رحم تكاثر الظلم الحكومي ننجب طبقتين عظيمتين: – الفقراء والمليونيرية." [120]

إغناطيوس دونللي – في مؤتمر سانت لويس الشعبي (1896)

دعي انصهار الأسواق المالية الأخير وتداعي النظام بأسماء مختلفة اختلفت باختلاف الناس ، وحسب خلفياتهم وتوجهاتهم الآيديولوجية ، فدعاها البعض ركوداً ، ودعاها غيرهم ركوداً عميقاً ، أو كسادا طفيفا ، أو كسادا ، أو فشلا بنيويا لنظام اقتصاد السوق . كما أن آخرين اعتبروه فشلا بنيوياً للنظام الرأسمالي ...على الأقل في صيغته

---

[119] Thomas Jefferson, Letter to the Secretary of the Treasury Albert Gallatin, 1802

[120] Ignatius Donnelly, At the St. Louis Populist convention, 1892, http://historymatters.gmu.edu/d/5361/

الانكلوساكسونية . ويتفق الجميع على أن الرأسمالية المالية في مشكلٍ عميق...أعمق بكثير مما يرغب السياسيون و وول ستريت الاعتراف به ، فيما وافق الجميع على أن الأمور لن تعود لسيرتها الأولى أبداً ، كما استخلص الكثيرون أن هناك حاجة " للتغيير" ، وكان هذا أيضاً شعار حملة أوباما . ومعظم النقاد لم يقصدوا خيار تغيير "تجميلي " للمؤسسة ، وإنما عنوا تغييرا جذريا يعالج أمراض السياسة والمجتمع الأميركيين .[121]

وفي كتابه " أميركا..عودي إلى البيت" كتب ويليام جيردر :

" إن التاريخ على أية حال ، لن ينتظر النظام السياسي الأميركي كي يستيقظ ويلملم وينظم نفسه .. فأمم عظيمة أخرى قد مرت بتجارب قاهرة كهذه في التاريخ ، وتعلمت بأسى أن التبجح العنيد يمكن له أن يؤدي إلى نتائج مأساويه.. فبدلاً من محاولة إدارة العالم ، دعنا نؤاسي جراح مجتمعنا ". وفي هذا الوقت الحاضر، فإن الولايات المتحدة هي في حالة التبجح العنيد !

أن الرأسمالية المالية والتي أطلق عنانها بوحشية بعد إلغاء نظام بريتون وودز للصرف الثابت ، وإلغاء غطاء الدولار بالذهب ... محفزاً بإجراءات تبسيط وإلغاء معيقات فعاليات و قوى السوق (deregulation) .. هذه الرأسمالية المالية كانت تعاني الآزمة تلو الأخرى ، وكل واحدة منها تصبح أكثر خطورة وأكثر صعوبةً للتحكم فيها من سابقاتها ، وشهد عقد التسعينيات من القرن العشرين تضخماً منفلتاً ، وفي الثمانينيات كان هنالك انهيار تشرين الأول 1987 ، والانفجار الداخلي لسوق الصكوك الرديئة عالية المردود/عالية المخاطر (junk bonds) ... إضافةً إلى انهيار جميعة الادخارات والقروض، حيث تكبد دافعي الضرائب الأميركيين مئات البلايين من الدولارات لإنقاذ هذه المؤسسات المالية . وبينما كانت الولايات المتحدة تقحم ماركة نظامها الاقتصادي على بقية العالم - بعد انهيار الشيوعية - كانت "أميركا الشركات" تهاجم الاقتصادات الأخرى بوحشية . وشهدت

---

[121] William Greider, *Come Home, America: The Rise and Fall (and Redeeming Promise) of Our Country*, Rodale, 2009, 6, 9.

تسعينيات القرن العشرين انهيار سوق العقار ، كما شهدت فقاعة سوق الأسهم ، والأزمة المكسيكية في 1995 ، وشهدت نفس السنة انهيار مصرف بارينجز ، وتحمل القطاع المصرفي الياباني 1,2 تريليون دولار من الانكشاف لديون رديئة ، كما خبرت أسواق جنوب شرق آسيا انهياراً في قيم عملاتها بنسب تراوحت بين 50% إلى 80% نتيجة

235

After the Southeast Asian crisis, George Soros wrote in his book *The Crisis of Global Capitalism* that “Nazi and communist regimes ... had a common feature: They laid claim to the

ultimate truth and they imposed their views on the world by the use of force"[122].

لتلاعبات المضاربين في صيف 1997 ، حيث دمرت هذه البلدان وتعطل نظامها المصرفي . وفي خريف 1998 انهار صندوق إدارة رأس المال طويلة المدى (LTCM).

ما كتبه سوروس يحمل أهمية خاصة كونه شخصية مرموقة في مجتمع المال العالمي ، فهو معروف بانتهازه كل ضعفٍ أبداه النظام ، ومعروف ليس بمضارباته ضد المكسيك وجنوب شرق آسيا فقط وإنما ضد بنك انجلترا أيضاً ، وقد أورد في مقدمة كتابه:

"كنت أوضح لماذا هو نظام الرأسمالية العالمي غير سليم وغير قابل للديمومه، وحتى ما قبل الاضمحلال الروسي في آب 1998 ، لم أكن قد أدركت بعد أنه في الحقيقة يتفكك . والنظام الرأسمالي العالمي يستند إلى الاعتقاد بأن الأسواق المالية ، إذا تركت لوسائلها الذاتية تنزع إلى التوازن ... وهذا الاعتقاد زائف وغير صحيح ، فالأسواق المالية ذات طبيعة تنحو للمبالغات ، فإذا ما تمادى نهج متوالٍ من الازدهار والإفلاس إلى أبعد من نقطةٍ معينة ، فإنها لن تعود للنقطة التي أتت منها ، وبدلاً من التصرف كالبندول فإن الأسواق المالية قد تصرفت حديثاً مثل كرة الهدم ، تحطم اقتصاداً تلو الآخر." [123]

وقال سوروس بأن وجهات نظره حول أزمة الرأسمالية قد لُخصت في شهادة للكونجرس ، سلّمها في 1998/9/15 ، بعد أزمة جنوب شرق آسيا والأزمة الروسية . وتبع انهيار جنوب شرق آسيا المالي (الكثيرون يعتبرون سوروس نفسه سبباً رئيسياً له) انهيار اقتصادي ، وكانت النتيجة في أندونيسيا مثلاً : ***" أن تلاشت جميع المكاسب في مستويات العيش والتي تمت مراكمتها خلال ثلاثين عاماً من حكم سوهارتو ، وبقيت المباني العصرية والمباني والبنى التحتية ، ولكن بقي السكان أيضاً الذين اقتلعوا من جذورهم***

---

[122] George Soros, *The Crisis of Global Capitalism: Open Society Endangered*, PublicAffairs, 1998, ix

[123] Ibid., xi, xvi.

الريفية ".[124] ووصف سوروس النظام الرأسمالي العالمي على أنه نظام تدويري:" يقوم بشفط (امتصاص) رأس المال إلى داخل الأسواق والمؤسسات الماليّةً ."[125] والتي هي مركزه أو قلبه، " وبعد ذلك يقوم بضخها إلى محيطه الخارجي:[126]" بشكل مباشر كائتمان أو محفظه استثمارية ، أو بشكل غير مباشر عبر الشركات متعددة الجنسيات ".[127] والنظام محابٍ جداً لرأس المال المالي " ، " فالقلّة " في المركز سيحتفظون بالأرباح والسلطة ، وهم الذين يقررون من الذي سيبقى ويزدهر ومن الذي سينتهي . ويجادل سوروس بأنه طالما أن النقود "نقود الأخرين " تستمر في التدفق من الأطراف إلى المركز ، وطالما أن " القلة " تعيد ضخ بعض النقود، فستبقى الأمور على ما يرام . ولكن عندما يتأزم موقف الأطراف المحيطية إلى أبعد من حدود مرونتها، وكما هي الحال عادةً نتيجة جشع الممولين ، يتعرض النظام بأكمله عندها للخطر ، وما هو مطلوب كما قدر سوروس ، هو مؤسسة تحمى " القلة " من أنفسهم ومن جشعهم .. شيء يشبه نظام احتياط فيدرالي عالمي ، فالنظام العالمي يعاني من عدة مآخذ كما يقول سوروس ، فميزانيات المصارف والمؤسسات المالية ، لا تعكس مدى تعرض وانكشاف هذه المؤسسات الحقيقي".

---

[124] Testimony of George Soros to the U.S. House of Representatives, September 15, 1998
http://www.iatp.org/tradeobservatory/library.cfm?refID=23741

[125] Ibid.

[126] Ibid.

[127] Ibid.

عندما تنخرط المصارف في المقايضات ، والعمليات الآجلة وتجارة المشتقات فيما بينها وبين عملائها ، فهذه العمليات لا تظهر في ميزانيات المصارف." [128]

What worries Soros is that the "pain at periphery has become so intense that individual countries have begun to opt out of the global capitalist system.... If and when the decline spreads to our economy", which it did, "we may become much less willing to accept the imports which are necessary to feed the reverse flow of capital and the breakdown in the global financial system may be accomplished by a breakdown in international free trade."[129]

Soros

وفي شهادته لكونجرس الولايات المتحدة ، أضاف سوروس : ***" هناك حاجة ملحة لإعادة النظر في النظام الرأسمالي العالمي وإصلاحه " . وأدت موجة التعصب للسوق التي أطلقت من قبل ريغان وتاتشر " إلى تصيير النظام الرأسمالي العالمي غير سليم وغير قابل للاستمرار" . وواحد من الأسباب الوجيهة لذلك هو أن لدينا اقتصاد عالمي دون أن يكون لدينا في المقابل مجتمع عالمي ، " وهذه الحالة غير قابلة للدفاع عنها" ، وأضاف سوروس محذراً :" إن القيم النقدية وأسواق العمليات ، لا تعطي أساساً كافياً للتلاحم الاجتماعي"*** [130].

---

[128] Ibid.

[129] Ibid.

[130] Ibid., xxi.

Soros argues that global capitalism started in the 1970s with the increase of oil prices and the emergence of the Eurodollar market. It was given a boost by Thatcher and Reagan, and was further advanced by the collapse of the USSR. In the United States, as market fundamentalism took hold, "the burden of taxation has shifted from capital to citizens".[131]

هناك تضارب مصالح بين مركز الرأسمالية العالمية والبلدان المحيطية ، فأثناء أزمة ما لا يكون لدى المقرضين – في العادة - سوى القليل ليخسروه ، فما يمكن أن يفعلوه هو إعادة جدولة القروض ، وتمديد تواريخ استحقاقها ، ودون التخلّي أبداً عن القروض . وكثيراً ما تجبر البلدان المدينة من قبل صندوق النقد الدولي على الالتزام بمديونية البنوك التجارية (كما في تشيلي 1982 ، والمكسيك 1994 ، وجنوب شرق آسيا في 1988) ، وحتى في حالة عدم قدرة البلدان المدينة على الوفاء بكامل التزاماتها ، فإنها ستلزم بدفع الحد الأعلى الممكن ، الأمر الذي سيعيق استثماراتها التنموية . ويحمل الإقراض للأطراف المحيطية مخاطر ضئيلة للغاية ، ومع أن أزمة المديونية العالمية في 1982 قد كانت بسبب بلد المركز (رفع الفائدة من قبل الولايات المتحدة) فإنه قد ترتب على دول الأطراف المدينة تحمل تكاليفها ، وكذلك فإن أزمة جنوب شرق آسيا قد تسبب فيها صناديق المضاربات التي كانت نتيجة للارتفاع في دولار الولايات المتحدة ، وقد دُمرت اقتصاديات هذه البلدان لأسباب خارجة عن سيطرتها بالكامل ، وحيث أن رأس المال ينزع للعودة إلى موطنه – المركز – في أوقات الاضطراب وعدم اليقين ، فإن البلدان المحيطية ستكون هي الأشد اكتواءً بالنار وعلى نحو غير متكافئ ، بينما تجأرُ اصوات وول ستريت و " مدينة لندن المالية " بالادعاآت بأن المضاربات صحية لأنها تصحح الأسواق وتجعلهما أكثر كفاءةً ...

---

[131] Ibid., 112

ليس تماماً ، حيث يقول سوروس: ***" عندما بعت الاسترليني لأجل قصير في 1992 ، كان " مصرف انجلترا " على الناحية الأخرى من العملية ، وكنت أنا آخذ النقود من جيوب دافعي الضرائب " .*** [132]***ويخلص سوروس إلى أن مذهبية التعصّب للسوق تزعزع النهج الديموقراطي السياسي ، وتعرض للمخاطر مؤسسات التمثيل الديموقراطي " .ويصبح من الصعوبة بمكان استعادة فضيلة تمدّن وطنية ، إذا ما تم فقدانها "*** [133] ***، ويتحدّى سوروس فضيلة حيازة النقود لمجرد حيازة المزيد من النقود ، حيث أنها - أي النقود - عند إنفاقها فقط - تصبح وسيلةً لتحقيق غاية ، بينما عندما يصبح هدف النقود أو المال ، هو مجرّد جمع المزيد من المال ، فإن المنافسة تصبح من الشدّة "إلى حد أن الأنجح إطلاقاً ، سوف يتم سخطه إلى مرتبة الدفاع عن وجوده" .*** [134]

وبلغةٍ واضحة فإنّ سوروس في كتابه الصادر في 1998 يرى أن الرأسمالية المالية بطبعها تتصرف ككرة الهدم حيال الاقتصادات ، وهي ترخيص بالسرقة إذ كان هذا ما فعله عندما ضارب ضد " مصرف انجلترا " كان " يأخذ النقود من جيوب دافعي الضرائب " . ولم تصدر مقولات سوروس عنه لدوافع أخلاقية رفيعة ، وإنما كما قال ، بسبب قلقه من أن بقاء الحال على ما هو عليه ، سيؤدي إلى التدمير الذاتي للنظام.

ص239+240

---

[132] Ibid., 196.

[133] Ibid., 200.

[134] Ibid., 207

وفي كتابه " جنون اقتصادي " ، يجد روجر تيري من المدهش أن معظم الأميركيين يعيشون تحت " نير نظام حكم ، هم – بدرجةٍ أكثر أو أقل – مستثنون منه " ، فمعظم الأميركيين هم لا رأسماليون يعيشون في نظامٍ رأسمالي ، سمي على اسم الرأسماليين وصمم لخدمتهم أولاً وأخيراً . ويتحدى تيري الفرضيات الأساسية للرأسمالية ، والتي يعتبرها مختلة ومعيبة وغير قابلةٍ للخلاص منها.

ويقول تيري بأن الرأسمالية ليست معنية في الواقع – بالأسواق الحرة أو المؤسسات التجارية الحرة ." الرأسمالية ، مثل الشيوعيّة .. فلسفة عن الملكية ، ومع مرور السنين ، آل معنى الرأسمالية إلى أنها الملكية الخاصة غير المقيدة لرأس المال . .. وأن أكبر إساءة للفهم عن الرأسمالية الحديثة هي أنها نظام اقتصادي ديمقراطي".[135] وفي الواقع كما – يخلص تيري – فإن أوجه الشبه بين الرأسمالية والشيوعية هي أكثر من أوجه الاختلاف بينهما ، فكلاهما تسلطي ، ولكنهما يختلفان في كيفية توزيعهما للثروة.

- وفي كتابه الجديد " اميركا عودي إلى البيت " والذي كتب في 2009 ، يقول وليام جريدر: ***" نعيش في بلد أصبح قول الحقيقة فيه بصدقٍ ووضوح أمراً محرماً ..تابو .. وأخبار وسائل الإعلام لم تقدم الكثير من المساعدة أيضاً بسبب التزامها التفكير التقليدي وتجاهلها للآراء المعارضة " .*** [136]ويبدو أن المؤسسة قد أمسكت بمزاج البلد ورغبته في التغيير ، وقدمت مرشحها باراك أوباما ، ليقوم بتنفيذ نوعها الخاص بها من التغيير ، مجهضةً بذلك التغيير اللازم للتصدي للفشل البنيوي للنظام الرأسمالي . ويعتقد جريدر بأنه لا يمكن – على كل حال – خداع التاريخ " ، إذا أخذنا بالاعتبار القوى العميقة الفاعلة ، فإنه من الصعب وبالكاد ، أن يكون لدينا خيار في كيفية ردّ فعلنا . فعلى البلد أن يتغير ، سواءً أعجبنا ذلك ام لم يعجبنا ، فإن البلد سيتغير بسبب أحداثٍ وقوى مضادة ، سوف لن تستسلم

---

[135] Roger Terry, *Economic Insanity: How Growth-driven Capitalism is Devouring the American Dream*, Berrett-Koehler Publishers, 1995, 97

[136] William Greider, *Come Home, America: The Rise and Fall (and Redeeming Promise) of Our Country*, Rodale, 2009, 1,2.

لحالة تفاؤلنا بقدرتنا على التصدي والفعل ".[137] ويجادل بأن بقية العالم تدرك مواقف الولايات المتحدة الآخذة بالضعف ، حتى لو لم تدركها النُخبْ الحاكمة . وحسب استطلاعات الرأي فإن 80% من الأميركيين يعتقدون بان البلد " على المسار الخطأ " ، فأميركا ، وكما أثبتت حربا العراق وأفغانستان ، ليس بمقدورها فرض سياساتها بالقوة العسكريّة ، كما لم تعد القوى الأميركية بقادرة على إرعاب الخصوم مثل شافيز ، وأحمدي نجاد ، وحزب الله ... ولا حتى الأصدقاء . ويعزو جريدر المسؤلية عن فساد الإمكانيات الأميركية إلى خمسة أسباب:

- أن العولمة التي أطلقتها وقادتها الولايات المتحدة لست عقود ، كانت مفيدة ومربحةً للبعض - وبشكل عام - لرأس المال ؛ أي الرأسماليين والشركات متعددة الجنسية ، ولكنه كان مشروعاً خاسراً للأمة كمجموع بدءاً من طبقتها الوسطى فما دون ، فقد ضعفت قاعدة البلد الانتاجية ، حيث انتقل التصنيع إلى الخارج ساعياً وراء العمالة الرخيصة ، ومتسبباً في عجوزات ميزانٍ تجاريٍ ضخمة ، وفي اتكالٍ على الدين .. للحفاظ على البقاء وعلى "مستوى معاشي" لم يعد البلد بقادرٍ عليه . ومن أجل عرض قوتها لإبقاء تدفق الدولارات من الخارج ، عمدت الولايات المتحدة إلى إيجاد امبراطورية من القواعد ، وبالغت في توسعها إلى ما هو فوق طاقاتها العسكرية والاقتصادية.

241

[137] Ibid., 5.

- الروح العسكرية وسيطرتها على سياسة الولايات المتحدة الخارجية: ***" فقد تم إعادة تعريف الإرهاب على أنه حربٌ باردةٌ جديدة . وتقام القواعد في بلدانٍ اسلامية ، بينما الأكثر شيوعاً ، هو الزجّ بالآلاف من القوات الخاصة في بلدانٍ مغمورة وفقيرة جدّاً ..."*** [138]

- لقد دمر انتصار آيديوليوجية السوق الحر - وخاصة خلال السنوات الثلاثين الماضية - ركائز المجتمع العادل ، إذ غيرت الحكومة الجانب الذي كانت تقف معه ، وهو الجانب الذي يفضل العمل على رأس المال ، وذلك عبر تبسيط النظم وإزالة المعيقات ! أمام الصناعات والتمويل ، وعبر الاقتطاعات الضرائبية التنازلية.. ***" إن النظام المحافظ الحاكم قد أنتج المزيد من البليونيرية ، والمزيد من المديونية ، ولقد فشل هذا النظام بشكلٍ أساسي في مهمته كنظامٍ اقتصادي ، ويجد مؤيدوه أنفسهم في حالٍ من التشوش والارتباك السياسي" .*** [139]

- إن حقبة بلوغ " أوج الإنتاج النفطي " (Peak Oil) ، وتغير معادلة العرض والطلب مقرونةً بالتغيرات البيئية ، ستفرض تحولات صناعية رئيسية ، تقتضي إعادة تصميم وتجهيز – عمليات طرق ووسائل الانتاج والمنتجات بأجمعها ، والذي سيكون نهجاً طويلاً ومكلفاً جداً .

- لقد أسرت الديموقراطية التمثيلية ، وتم تشويهها على أيدي المصالح المالية والشركات متعددة الجنسيات ، والتي تستفيد من هذه الديموقراطية المشوهة والمتآكلة بينما أبعد الناخبون عن أولئك الذين في السلطة .. ***" الحزبان كلاهما يتواطأ لعزل نفسه عن محاسبة الناخبين له .. وفيما هذه القوى تفعل فعلها ، أتنبأ بصدام عميق بين النُخب الحاكمة ، والقطاعات العريضة من المواطنين العاديين .. ازدهار مرير لصراعٍ طبقي."*** [140]

---

[138] Ibid., 19.

[139] Ibid., 19,20.

[140] Ibid., 22,24.

في كتابه " صعود النقود " يوضح المؤلف نيال فيرغسون (بنجوين برس ، نيويورك 2008) أن الممولين في الرأسمالية – كانوا دائماً قوة ، إذ كتب أن عائلة روتشيلد المالية كانت مسؤلة " عن هزيمة نابوليون ، بقدرٍ لا يقل عن مسؤلية الدوق ويلنجتون .. الرئيس الميداني للمعارك" ، كما أضاف بأنه:"

242

وعبر تاريخ الحضارة الغربية كان هناك عداء يتكرر للتمويل والممولين ، جذوره ضاربة في فكرة أن أولئك الذين يعتاشون من إقراض النقود - هم على نحوٍ أو آخر - طفيليون على أنشطة الاقتصاد الحقيقية من زارعةٍ وصناعة." وبصراحة ... وبوضوح : الاقتصاد المالي بطبعه طفيلي ويثقل كاهل الاقتصاد الحقيقي ويستغله" . [141]

ويبلغ دخل الأميركي المتوسط 34.000 دولار في العام ، وبقي هذا الدخل راكداً منذ أن فاق الاقتصاد المالي الاقتصاد الحقيقي ، وبالكاد تغيرت دخولهم منذ 1990 . وفي 2007 - على سبيل المثال - ارتفع ذلك المعدّل بنسبة 5% بينما ارتفعت كلفة العيش بنسبة 4,1% ، وعلى النقيض ، استلم لويد بلاكفين - الرئيس التنفيذي لجولدمان ساكس - 68,5 مليون دولار على سبيل الراتب والمكافأة ومنح أسهم ، بزيادة 25% عن السنة الماضية ، ويعادل هذا تقريباً ألفي مثل دخل الأميركي المتوسط . أما فروق دخول الرأسمالية المالية العالمية فهي أسوأ بما لا يقارن ، خارج بلدان المركز في الغرب ، وطبقاً لمجلّة التايم:

" 30,000 هو عدد الموظفين الاندونيسيين لدى شركة نايك ، ومجموع أجورهم السنوية لعمل الأحذية الرياضية هو أقل مما يدفع لمايكل جوردان - نجم لعبة كرة السلة - عن قيامه بالدعاية لهذه الأحذية " .

وفي نفس السنة فاق مجموع موجودات جولدمان ساكس 1 تريليون دولار ، وعوائدها الصافية 46 بليون دولار ، وكانت موجودات هذا المصرف الاستثماري لوحده ، أكثر من

---

[141] Niall Ferguson, *The Ascent of Money: A Financial History of the World*, Penguin Press, 2008, p. 2.

مجموع الدخل الإجمالي لمائة بلد .. وقد تجاوزت موجودات البنك لأول مرّة 1 تريليون دولار.

وكان الناتج الاقتصادي المقاس للعالم في 2006 حوالي 47 تريليون دولار ، إلا أن مجموع رسملة أسواق الأسهم فكانت 51 تريليون دولار بزيادة 10% عن المجموع للعالم ، بينما كان سوق الصكوك المحلي والعالمي 68 تريليون ، أي أعلى 50% عن الناتج الاقتصادي العالمي ؛ وما يثير الرعب أكثر ، أن قيمة المشتقات كانت 473 تريليون ، أي أكثر من 10 أمثال الناتج الأقتصادي العالمي المقاس ، ولم يكن لمثل هذا الأدوات المالية من وجود قبل عام 1980.

وجنى جورج سوروس 2,9 بليون دولار في 2007 ، ولذا لا يستطيع أحدٌ الادعاء بأنه لا يحب نتائج النظام حيث أنه أحد كبار المستفيدين منه والمنتفعين به . أما حملته لإنقاذ النظام من تجاوزاته وسوءاته منذ أواخر تسعينيات القرن الماضي ، فمؤشر على حدة ذهنه وتفانيه واخلاصه لطبقته ، إذ أنه يريد إنقاذهم من جشعهم الذي يقود إلى تدميرهم الذاتي.

وفي كتاب سوروس الجديد " انهيار 2008 ومغزاه " Public Affairs , New Youk 2008 غير مكتمل الترجمة ص 244

- ويمكن تقفي آثار جذور أزمة 2008 إلى انهيار دوت.كوم (dot.com) في عام 2000 والذي مؤداه أن فقاعة تسعينيات القرن العشرين قد غمرتها وأحاطت بها فقاعةٌ أكبر ، عندما خفض الاحتياطي الفيدرالي معدلات الفائدة من 6,5 إلى 3,1 بالمائة ثمّ إلى واحد بالمائة في تموز 2003.

- وخلق هذا انفجاراً من شراء الموجودات المدعوم بالدين ، كما خلق فقاعة إسكان ، وذلك بسبب أنه ولمدة 31 شهراً متتالية ، كانت فائدة الأساس - المعدّلة تضخمياً للأجل القصير - ســالبة.

- غير مفهوم 245

- وبالنتيجة ارتفعت قيم المنازل بأكثر من 40% بين سنتي 2000و2005 ، وأغرى وول ستريت الناس بشراء البيوت لغرض الاستثمار هذا إذا كانوا يملكون بيتاً ، وكانت نسبة البيوت التي اشتريت لأغراض الاستثمار أكثر من 50% من مجموع ما تم شراؤه من بيوت

- ولإغراء الناس بالشراء ابتدع وول ستريت منح سنتين فائدة بأقل من سعر السوق وسعر رهن قابل للتعديل

- وخفض وول ستريت معايير الائتمان وتم بيع بيوت لأناس ذوي تقارير ائتمان منخفضة ، فيما أصبح يعرف بالرهونات عالية المخاطر ، وبيعت العقارات لأناس (بدون دخل ، بدون عمل ، بدون ممتلكات) ، ودعوا ذلك نينجا.

- ومن أجل توفير حماية أكثر لأنفسهم ، اخترع مصرفيو وول ستريت الاستثماريون سوابس (SWAPS) حيث يمكن تأمين الائتمان ، ودعيت هذه الأدوات تبادل مخاطر الائتمان (CDS) .ولقد تم إصدار 24,6 تريليون CDS مقارنة بالقيمة الكلية التقديرية لسوق الأسهم والبالغة 18,5 تريليون دولار ، بينما بلغ تقدير قيمة سوق الخزينة الأميركية بـ4.5 تريليون دولار.

- وقد قُرع الانذار الأول عندما صرف بنك HSBC رئيس قسم الرهونات في أميركا عام 2007 ، حيث كان المصرف قد حقق 10,8 بليون في 2007/2/22.

- وفي هذه الآناء أخفق صندوقا استثمار وقائي في الرهونات تابعان لبير شتيرنز Bear Stearns ، ولكن رئيس الاحتياط الفيدرالي بن برنانكي طمأن العالم بأن مشكلة الائتمان عالي المخاطر هذه مشكلة معزولة.

- وحيث أن صناديق الاستثمار الوقائية الحيادية - أو إن شئت المستقلة - تعتمد بشكل كبير على الديون في شراء موجوداتها، فإن الكثير منها قد مسح وعصف به تماماً . وبدأت المصارف تشك ببعضها البعض حول الشفافية . وحول مراكزها المالية ، وتوقفت عن إقراض بعضها البعض ، وطلبت الوفاء لعمليات الائتمان التبادلية SWAP . وتفاقمت المشكلة وساءت .

- ومن المتفق عليه عموماً أنه يمكن الافتراض بأن تاريخ انفجار الأزمة الحالية هو شهر آب 2007 ، عندما أصبح على المصارف المركزية التدخل لتزويد النظم المصرفية بالسيولة ؛ ففي 9 آب أوقف مصرف BNP Paribas الفرنسي ثلاثاً من صناديق استثماره ، بعد رؤيته لمشاكل تنتاب قطاع الرهونات عالية المخاطر في الولايات المتحدة ، وأدى ذلك الى تجميد التسهيلات الائتمانية قصيرة الأجل ، وكان على المصرف المركزي الأوروبي (ECB) التدخل وضخ 95 بليون يورو في النظام المصرفي الأوروبي ، وتدخلت أيضاً

المصارف المركزية للولايات المتحدة واليابان ؛ ولكن في اليوم التالي 10 آب كان على ECB ضخ 61 بليون يورو أخرى لإضعاف عضة الائتمان ، وفي 13 آب تدخل ECB كرّةً أخرى وضخ 47,7 بليون يورو ؛ وفي ذات اليوم قالت جولدمان ساكس إنها ستضخ 3 بلايين دولار في صندوق عمليات ائتمان تبادلية متعثر ، وفي 16 آب كان على Country Side Financial أن تسحب خطها الائتماني البالغ 11,5 بليون دولار في يوم واحد ، هو ذات ذلك اليوم ، وكان الكثير من المصارف والمؤسسات المالية على شفا الإعسار.

- ***" لقد وضعت أزمة الهلع التي أحاطت بنظام الولايات المتحدة الأميركي ، في الأشهر الأولى من عام 2008 ، وضعت البلاد على حافة كارثة تاريخية ، من ذلك النوع الذي بمقدوره ايقاع الانهيار بالاقتصاد ، وتدمير الأوهام التي سادت على مدى جيل... وكانت سلطة المصرفيين وأوهامهم التزويرية ، الأسباب الرئيسية لزعزعة الاقتصاد الأميركي ، وتشويه ديموقراطيتنا النيابية ."*** [142]

- " لقد تمشكل وول ستريت لأنه كان يبيع " أوراقاً ماليّةً " رديئة ، إلى وسائل المستثمرين المالية التي كانت مضخّمة القيمة ، وتمّ الترويج لها بإعلانات زائفة . وفيما نمت فقاعة الإسكان تفاقم حجم الموجودات/الصكوك التي حزمت معها - ما دعي زعما ً - بالرهونات عالية المخاطر ، على شكل سندات (ضمانات) . وقد بيعت معظم سندات الرهن الأكثر شهرة ، إلى مصارف ومستثمرين حول العالم ، بما في ذلك صناديق التقاعد والحكومات المحلية - كاستثمار آمن وسليم - ادعي بأنه يكاد يكون خلواً من المخاطر بتصنيف AAA ، والذي منحته لها وكالتا تصنيف خاصة " ص39 . "هذه الأزمة - وخلافاً للحلقات السابقة - لا يمكن تفسيرها – دون اكتراث - بلوم حفنة من الفاعلين الأشرار ، أو بإلقاء اللوم على عائق الحظ العاثر العشوائي ، ففي هذه المرة طال العار وول ستريت ذاته ، لأنه فشل بموجب شروطه الذاتية "

---

[142] William Greider, *Come Home, America: The Rise and Fall (and Redeeming Promise) of Our Country*, Rodale, 2009, 37.

- “The fantasy collapsed when the housing bubble burst and home prices started falling.....the brokerages, banks, and mortgage companies had already collected their profits upfront by taking inflated fees on the dubious transactions. Any remaining risks, bankers assumed, had been dumped on others, principally unwitting investors and hapless home owners. The bankers were mistaken. As the word spread among nervous investors, the specter of huge losses caused a full-scale panic. Institutions holding these poisoned U.S. assets tried to flee but discovered than nobody was gullible enough to buy them. In fact no one could say what the ‘paper’ was really worth. Other investors wondered what else Wall Street was hiding from its customers. Quite a lot, it turned out. Some of the biggest names- Citigroup, Bear Sterns, Merrill Lynch, Morgan Stanley- were themselves holding a lot of this bad paper, often conveniently hidden off the balance sheet in so-called special purposes entities, an accounting fiction legalized by financial deregulation during the Clinton administration. The sleight of hand banks used to conceal their portfolios of damaged assets was not so different from the phony book keeping that brought own Enron and other fraudulent

corporations….The best minds of Wall Street, one could say, were brought down by their own accounting gimmicks- the innovations they had sold to Washington lawmakers as 'modernization'"[143]

- "This crisis, unlike other previous episodes, cannot be explained away by blaming a few bad actors or random bad luck. This time, Wall Street has been disgraced because it failed on its own terms."[144]

داخل الانصـهار

لكي نقوم بوصف حجم الأزمة التي عصفت بأسواق المال الأميركية والعالمية نورد نسخة من البرنامج الذي أذعته شبكة التليفزيون الأميركية (pbs) في 2/17/ تحت عنوان – خط الجبهة – داخل الانصهار:

ANNOUNCER: في 2008/9/18 وصل هنري بولسون وزير الخزانة ، و بن برنانكي رئيس الاحتياط الفيدرالي إلى اجتماع طارئٍ في الكابيتول.

لم يترجم 249

---

[143] Ibid., 40.

[144] Ibid., 41.

قال السناتور كريستوفر دود : " كنا جالسين في تلك الغرفة مع هانك بولسون وهو يقول لنا بلهجةٍ محسوبةٍ تماماً ، ودونما مبالغة أونعوت تضخيمية بأنه " مالم تتصرفوا ، فإن النظام المالي لهذا لبلد وللعالم سينصهر خلال أيام ."

JOE NOCERA: قال برنانكي : " إذا لم نفعل هذا غداً ، فإنه لن يكون لدينا اقتصاد يوم الاثنين "

Sen. CHRISTOPHER DODD: كان هناك – حرفياً – جمود في تلك الغرفة ، حيث هجرها الأوكسجين ." [145]

وهاهم أولئك ، مشرعّون من ضمنهم رئيس لجنة المصارف ، والذي قال هو ورئيس اللجنة المالية - من بين آخرين - بأنهم لم يكونوا يدرون بأنهم سيسمعون ما سمعوه ، ومع ذلك طلب إليهم يوم الجمعة أن يتخدوا قرارات لإنقاذ وول ستريت ب700 بليون دولار ، دون إلقاء أية أسئلة تطرح ، ودون دراسة تقدم ، وإنما استنادا الى مجرّد الكلمة الموثوقة لبولسون ، الرئيس التنفيذي السابق لـچولدمان ساكس ، وبن برنانكي – والذي كما جرت العادة - يدين بوظيفته لوول ستريت.

كانت أطروحة بن برنانكي للدكتوراة في معهد ماسا شوستس للتكنولوجيا (MIT) عن الكساد الكبير ، وكان ما توصّل إليه في أطروحته أن الخطأ الرئيسي الذي تم اقترافه في ذلك الوقت، كان هو السماح بسقوط البنوك . كما استنتج بأنه لا يجوز تحت كافة الظروف السماح للنظام المصرفي بالاخفاق ، وها هو ذا الآن يمارس موعظته وما أحضر من أجل عمله ، في هذا الظرف الحرج . وحيث أن شتيرن بيرنز كانت على مبعدة سويعات من الإعسار والإفلاس ، فقد دبر زواجاً بين المصرف العليل وبين مصرف جيه. بي. مورجان التجاري العملاق ، ولو حدث وأخفق شتيرن بيرنز ، فإن ذلك كان سيعنى انكشاف جي بي مورغان - وبشكل كبير - إلى رهونات شتيرن بيرز السامة ، إلى درجة يمكن معها أن

---

[145] http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/meltdown/etc/script.html

تطيح ب جيه بي مورجان نفسها . وكعلاوة إضافية مقابل تهور هذه المصارف ، وعد برنانكي بأن تستعمل الحكومة الفيدراليه مبلغ 30 بليون دولار لتغطية موجودات بيرشيترنز المشكوك فيها ، والمرتبطة بالرهنيات السامه . ومع أن بولسون عبر – في العلن - عن دعمه للصفقة ، الا أنه كان معارضاً لها ، من مبدأ معارضته – بشكل عام – لتدخل الحكومة في الأسواق . واستناداً إلى مفهوم " المخاطرة الأخلاقية " القانوني (بالتعبير البسيط ردة الفعل الشعبية) ، حذر في فصل الصيف زملاءه في وول ستريت بأن لا يتوقعوا إنقاذاً من الحكومة ، فالمحافظون واقتصادهم المبسّط المضاد للمعوقات لا يقتضي من الحكومة – في نهاية الأمر – القيام بمثل هذا الدور ، وخاصة إذا انطوى على مثل هذا العبث مع وول ستريت . وعلى كلً ، وبعد انقضاء أشهر قليلة ، شهد بولسون الانهيار الفعلي لفاني ماي ، وفريدي ماك – شركات الرهن العملاقة – وكان عليه الإشراف على استحواذ الحكومة الفيدراليه عليها . وخلال أيام ، وفي شهر أيلول ، أضحت ليهمان بروذرز على شفير الافلاس ، وكان بولسون ومحافظون جمهوريون آخرون في واشنطن ضد عملية الإنقاذ . وهكذا انهار المصرف العملاق ، بعد أن رفض اي مصرفٍ شراءه دون صفقةٍ حكومية مماثلة لتلك التي حصلت عليها جيه بي مورغان

250

وتفاقمت الأزمة ، وكما قال الاقتصادي جيرتلر في برنامج " في داخل الانصهار": ***" إن الأمر لم يعد حديثاً عن الرهونات ، إننا نتحدث عن قروض السيّارات ، وقروض الأعمال الصغيره ، وأوراق الاقتراض التجاري من البنوك ...إن هذا الأمر أشبه ما يكون بمرضٍ ينتشر"*** .[146]

The man who ran the American economy as Chairman of the federal reserve for 18 ½ years spanning for the major portion of the deregulated conservative era said in his October 23, 2008 testimony to the Congressional Committee of Government Oversight and Reform: "We are in the midst of a once-in-a century credit tsunami."[147]

في شهادةٍ له أمام لجنة الكونجرس للرقابة والإصلاح الحكومي بتاريخ 23 تشرين أول 2008 ، قال الرجل الذي أدار الاقتصاد الأميركي كرئيس الاحتياطي الفيدرالي لمدة ½ 18سنة ، غطت الجزء الأعظم من فترة المحافظين واقتصادهم الميّسر المضاد للمعوقات (deregulated) : " إننا نخوض تسونامي تسهيلاتٍ ائتمانية ندر أن يحدث مرة في القرن " .

وطبقاً لسي.بي.إس.نيوز فإن آلان جرينسبان:

" قد أنكر أن أزمة الأمة الاقتصادية هي غلطته .. إلا أنه سلم بأن عملية الانصهار أظهرت خطأ في فترة عمر كامل من التفكير الاقتصادي وتركته في "حالةٍ من الصدمة وعدم التصديق" . واعترف أثناء الاستجواب بأنه قد ارتكب " غلطة " في اعتقاده بأن البنوك ،

---

[146] http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/meltdown/etc/script.html

[147] http://money.cnn.com/2008/10/23/news/economy/committee_regulatory/

وهي تعمل لمنفعتها ومصلحتها الذاتية ، ستقوم بعمل ما هو لازم لحماية مساهيمها ومؤسساتها . ودعا جرينسبان ذلك عيباً ونقصاً في النموذج .. يعرّف كيف يعمل العالم." [148]

وكان العيب الذي " اكتشفه " جرينسبان في النموذج الاقتصادي الذي كان يقوده ، لا أقل من الاعتراف بأن يد آدم سميث " الخفية " لتعديل أوضاع الأسواق ليست موجوده ، وبالنتيجة فإن النظرية كلها وراء نظام جرينسبان الرأسمالي يعتريها النقص والعيب .

تحت عنوان : "بول فولكر : الأزمة الاقتصادية يمكن أن تكون أسوأ من الكساد العظيم" ، أوردت الأسوشيتد برس ، أن فولكر، رئيس المجلس الرئاسي للإنعاش الاقتصادي ، الرئيس السابق للاحتياطي الفيدرالي ، تحدث إلى زملاء له خلال خطاب في حفل غداء ، بمركز الرأسمالية والمجتمع في جامعة كولومبيا ، يوم الجمعة تاريخ 20 شباط 2009 في نيويورك . وقد استضاف المؤتمر أعضاء في القطاع الخاص من أرجاء العالم ، للمشاركة بوجهات نظرهم حول الاقتصاد العالمي . وأكد فولكر الافتقار إلى الفهم لعملية الانصهار المالي العالمي ، كما عبّر عن الصدمة لسرعة انتشارها عبر العالم ، حيث قال:

" لا أتذكر أي وقت ، ولا حتى الكساد العظيم ، هوت فيه الأشياء بمثل هذه السرعة " . [149] ***واضاف بأن "تعطل أسواقٍ مالية غير مقيدة و مطلقة السراح" ، قد تعطلت – تقريباً – في وجه جميع التوقعات والتنبؤات " .*** [150] ***وشكك في " عودتنا إلى نوعية النظام المالي الذي كان لدينا قبل الأزمة ."*** [151] كما قال . ومن الجدير بالملاحظة أن فولكر نفسه كان واحداً من مهندسي النظام الرئيسيين .

---

148 http://cbs2chicago.com/business/economy.financial.meltdown.2.846935.html

149 http://www.huffingtonpost.com/2009/02/20/paul-volcker-financial-cr_n_168772.html

150 Ibid.

151 Ibid.

وفي 21 شباط 2009 ، غطّت رويترز خطاب جورج سوروس في نفس مؤتمر جامعة كولومبيا تحت العنوان:***" سوروس لا يرى قعراً للانهيار المالي العالمي"*** [152]، ***ونُقل عن سوروس قوله : " لقد شهدنا انهيار النظام المالي .. لقد وضع على أجهزة الإنعاش ، ولا توجد علامة على أننا في أي مكان قرب قاع النهاية ."*** [153]

ويبدو أن معظم الخبراء - بمن فيهم أولئك الذين ينتمون إلى المؤسسة - يقرون على الاقل – بأن الأمور لن تعود لسيرتها الأولى بعد هذه الأزمة المالية ، ذلك أنها جلبت إلى السطح جميع العلل ونقاط الضعف التي تواجه البلد والتي من بينها - إضافةً للنظام نفسه - مواضيع خطيرة لا بدّ من التصدي لها مثل المديونية الهائلة ، والعجوزات التجارية ، وكلفة الاتجار بالحروب ، ورأس المال اللازم لإعادة التزود بالمعدات ، لجميع عمليات الإنتاج والبنى التحتية ، لفترة ما بعد الاقتصاد البترولي ؛ مع معالجة المواضيع البيئية التي لا يمكن إهمالها لفترةٍ أطول . ومعالجة هذه المسائل بشكلٍ صحيح سيتم اعتراضه من قبل نفس الناس الذي سببوا هذه المشاكل ، وعلى رأسهم وول ستريت ، والمؤسسات المالية ، والشركات متعددة الجنسية.

وعبّر مايكل شيرتوف - وزير الأمن الوطني لدى إدارة بوش الثانية - عن رأيه في حديثه المعنون " لماذا لا تعمل واشنطن " في مدرسة جون كينيدي لدراسات الحكومة والذي ألقاه في 12 شباط 2008:

" إن العوائق أمام التغيير في واشنطن أكثر بنيوية (أنا أترجمها : نظامية أي تنتمي لصلب النظام) منها حزبية " . وطبقاً للوزير شيرتوف فإن المعيقات أمام التغير – وإلى حدّ كبير ، هي مصالح الأفراد والجماعات النافذة – والتي تجعل من الصعب إنفاذ تغيير دراماتيكي في واشنطن" وأضاف " بما يحبط متابعة المصلحة العامة " . [154]

---

[152] http://www.reuters.com/article/idUSTRE51K0A920090221

[153] Ibid.

[154] http://www.dhs.gov/xnews/speeches/sp_1203020606566.shtm

أما جوزيف إي. ستيجليتز - الحائز على جائزة نوبل - فقد قال في مقابلةٍ بتاريخ 2009/3/29 مع مجلة نيوزويك : ***" ما هو واضح أن نموذج رخاء الشركات الأميركي – رعاية الشركات وليس الناس – قد انكسر "*** [155] كما قال عن خطة غيتنز لتفريغ حمولة المصارف من الديون الرديئة في الولايات المتحدة : ***" إنه لأمر فظيع ، أن لا يتحمل المستثمرون المسؤلية .. ما زال بمقدورهم - إذا ما ساءت الأمور – أن يبتعدوا ناجين بأنفسهم.. إنه ما ادعوه بالاشتراكية الأميركية – اشتراكية الخسائر ، وخصخصة الأرباح."*** [156]

Stiglitz was critical of the administration's bailout plan and called it "a giveaway to Wall Street" that would save the banks and screw the people. He vigorously opposed the deregulation and Reaganomics, and led a school of economics that held that the free market theorists were incorrect in saying that free markets are always efficient and self correcting. While at MIT studying Smith's "invisible hand" that always corrects market behavior, he concluded that if such a theory was correct then the poverty and unemployment that he witnessed during his youth should not have existed.

---

[155] Rana Foroohar, http://www.newsweek.com/id/191496.

[156] Ibid.

He developed complex mathematical models to disprove that theory. His Nobel Prize was based on his conclusion that financial markets are flawed when transactions are conducted between one well informed party (like Wall Street derivative traders and mortgage lenders) who exploit the uninformed masses who are much less informed or not informed at all. The subprime crisis was a classical example of that. "I was struck by the incongruity between the models that I was taught and the world that I had seen growing up,"[157] Stiglitz said in his Nobel Prize lecture in 2001. He believed that "Globalization opened up opportunities to find new people to exploit their ignorance. And we found them."[158]

Stiglitz objected to the way the Washington Consensus handled the Southeast Asian contagion, and he believed that pressure from the Treasury department under Robert Rubin

---

[157] Joseph E. Stiglitz, "Information and the change in the paradigm in Economics", Prize Lecture, December 8, 2001 , http://nobelprize.org/nobel_prizes/economics/laureates/2001/stiglitz-lecture.pdf

[158] http://www.newsweek.com/id/207390/page/1

was the reason the World Bank did not renew his contract as a chief economist. He is now a professor at Columbia University.

وحائز آخر لجائزة نوبل هو بول كروجمان ، وهو بالتأكيد شخصية مرموقة من شخصيات المؤسسة الشرقية ، فهو أستاذ الاقتصاد في جامعة برينستون ، وكاتب عمود في جريدة النيويورك تايمز . ***وفي 6 نيسان 2009 كتب في النيوزويك في عموده الذي يظهر مرتين في الأسبوع ،وفي منتداه الحواري على الانترنت ، ضمير ليبرالي .. ينتقد فيه أتباع أوباما لمحاولتهم تشغيل نظام مالي يمشي وهو في حكم الميت ، وفي محادثة يرسم صورة لوزير الخزانة تيم جيتنر ، ورسميين كبار آخرين ، على أنهم ، في المحصله - أدوات وول ستريت .***[159] ودعا كروجمان سياسة تيم جيتنر تجاه إنقاذ وول ستريت على أنها " نقود منحت للقمامة " He described the trade between the United States and China as such: "They give us poisoned products, we give them worthless paper".[160]

Even though Stiglitz and Krugman criticize financial capitalism, they remain champions of the capitalist order to which they propose cosmetic changes and they don't seem to be able to get out of the system box.

---

[159] http://www.newsweek.com/id/191393

[160] Ibid.

Economists or thinkers like Roger Terry will never be awarded a Nobel Prize. Not even a nomination.

وفي كتابه " جنون اقتصادي " يجد روجر تيري من المدهش أن معظم الأميركيين يعيشون تحت " نير نظام حكم هم – بدرجةٍ أكثر أو أقل – مستثنون منه " [161] فمعظم الأميركيين هم غير رأسماليين ، يعيشون في نظامٍ رأسمالي ، سمي على اسم الرأسماليين ، وصمم لخدمتهم أولاً وأخيراً . ويتحدى تيري الفرضيات الأساسية للرأسمالية ، والتي يعتبرها مختلة ، ومعيبة ، وغير قابلةٍ للخلاص منها.

ويقول تيري بأن الرأسمالية ليسة معنية - في الواقع – بالأسواق الحرة أو المؤسسات التجارية الحرة " الرأسمالية ، مثل الشيوعيّة .. فلسفة عن الملكية ، ومع مرور السنين آل معنى الرأسمالية إلى أنها الملكية الخاصة غير المقيدة لرأس المال . .. وإن أكبر إساءة للفهم عن الرأسمالية الحديثة هي أنها نظام اقتصادي ديمقراطي". [162] وفي الواقع كما – يخلص تيري – فإن أوجه الشبه بين الرأسمالية والشيوعية هي أكثر من أوجه الاختلاف بينهما ، فكلاهما تسلطي ، ولكنهما يختلفان في كيفية توزيعهما للثروة .

The Death of Money

Nixon's decision forced the world off a gold standard and onto a dollar standard, from a fixed-rate system to a "floating no-system," as Helmut Schmidt, German Chancellor Willy

---

[161] Roger Terry, *Economic Insanity: How Growth-driven Capitalism is Devouring the American Dream*, Berrett-Koehler Publishers, 1995, 19

[162] Ibid., 97.

Brandt's defense minister, called the new financial order. To many, the U.S. had committed the biggest act of economic extortion the world had seen. As gold skyrocketed to $350/oz, ten times its official price, it was soon realized that anyone wanting to exchange gold for dollars would now receive just 10 percent of the value that was guaranteed under the Bretton Woods Agreement, which was the basis on which central banks and individuals alike bought dollars.

ص255+256

وأصبح الآن الاقتصاد النقدي منفصلاً عن الاقصاد الحقيقي المنتج للبضائع والخدمات ، وتم إطلاق اقتصاد جديد ، هو الاقتصاد المضارب ، ومعه أطلق - وبشكل دائم - نظام نقدي غير مستقر ، وأعلن هذا القرار الواحد " موت النقود " كما عرفها الناس لخمسة آلاف عامٍ تقريباً ، وحل مكانها اقتصاد " الكازينو " - أي اقتصاد القمار - مثقلاً كاهل الاقتصاد المنتج . ومات بذلك عالم الانشطة الاقتصادية والتجارية المقاسة بمعيار ثابت ، على مدى زمني طويل .

وعلى أية حال تبقت واحدة من مقولات الرأسمالية الأميركية ألا وهي : " نمو اقتصادي لا يتوقف " ، إلا أنه في العام 1972 أظهرت الدراسة المعلميّة: "حدودٌ للنمو" ، عدم صلاحية هذه المقولة للبقاء في مواجهة الانفجار السكّاني ، وأيضاً في مواجهة الكميات المتناهية من الموارد الطبيعية كالنفط والذهب . كما بينت الدراسة ، بأن النظام الحالي المستند إلى موارد لا نهائية ، يمكن له أن ينهار خلال قرن ، خاصةً إذا أُخذ النمو السكاني في الاعتبار .

ولم يكن البيت الأبيض في غفلةٍ عن سماع هذه الرسالة ، ففي 1972 سمّى الرئيس نيكسون - جون د. روكيفللر الثالث - رئيساً للجنةٍ رئاسيّةٍ جديدة عن " السكان والمستقبل الأميركي ".

وأرست النتائج التي توصلت لها اللجنة الأسس لمذكرة أمن قومي وضعها هنري كيسنجر في نيسان 1974، ووسمت هذه المذكرة النمو السكاني في البلدان النامية الغنية بالموارد الطبيعية بأنه " مصدر قلقٍ ذا أولوية عليا فيما يتعلق بالأمن القومي للولايات المتحدة " ، واسترسلت بالدعوة إلى إفراغ المناطق المعروفة

256

بحيازتها لاحتياطيات كبيرة من الموارد الاستراتيجية اللازمة لنمو شركات الولايات المتحدة من سكانها . ولم يرد في المذكرة اي شيء عن كبح جماحٍ للشركات ذاتها . ومن اللافت أن معظم البلدان التي أوردتها المذكرة – بنغلادش ، باكستان ، الهند، إندونيسيا ، نيجيريا ، الفلبين، تركيا ، مصر ، واثيوبيا (أضيفت إيران وسوريا فيما بعد) ، إما أن عدداً كبيراً من سكانها من المسلمين ، أو أن سكانها بالكامل مسلمون .

والمفارقة هنا هي أن الموارد النفطية الفائقة الأهمية لنمو الرأسمالية ، إنما تقع تحت الأراضي الإسلامية . ومنذ وقت مبكر ، يعود إلى الحرب العالمية الأولى ، خطت القوى الاستعمارية لدى تقطيعها الشرق الأوسط العثماني ، الحدود الجديدة بين الولايات العثمانية السابقة ، بطريقة أدت إلى أن تكون الدول الغنية بالموارد الطبيعية ذات تعدادٍ سكاني قليل نسبياً ، بينما الدول ذات التعداد السكاني الكبير ، فذات موارد طبيعية قليلة نسبياً .

وبرز إلى الوجود نظام مالي عالمي جديد ، وبموجب هذا النظام الجديد فإن الدولار سيتم ربطه بصورةٍ غير مباشرة مع " الذهب الأسود " : ألا وهو النفط ، واقتضى ذلك تغييراتٍ واسعة وحيث أن الشرق الأوسط يحوي أكبر احتياطيات العالم النفطية ، أصدر نيكسون تعليماته إلى كيسنجر بإن يطلب من إسرائيل الانسحاب من الأراضي التي احتلتها في 1967 ،مقابل أن يعترف جيرانها بها طبقاً لقرار مجلس الأمن رقم 242 .

ويبدو ، على أية حال ، أن ذهن كيسنجر كان يحتوي خططاً أخرى، فانشغال نيكسون بفضيحة ووترجيت ، جعلت من كيسنجر رئيس الأمر الواقع للولايات المتحدة . وابتدأ هذا الأخير الكشف عن خططه بالتحضير لحربٍ عربيةٍ إسرائيلة مسرحية ، ثم رفع سعر النفط لأربعة أمثال ما كان عليه ، وأخيراً وليس آخراً ، فرض الدولار على العالم بصفته العملة الوحيدة المقبولة في تجارة النفط . وبذا تولد طلبٌ جديد على الدولار بما سمح للمطابع

استئناف طباعتها للدولار ، وطالما بقي النفط المصدر الرئيسي للطاقة . ومن أجل هذا الهدف انعقد مؤتمر بيلدر بيرغ في أيار 1973 .

257

وفي بيلدربيرغ أبرزت دراسة - والترليفاي - الاجراءات اللازم اتخاذها لمواجهة زيادة الـ400% في أسعار النفط وكيفية التصرف إزاءها .. أبرزت ذلك قبل ستة أشهر كاملةٍ من وقوع الحدث – كذلك أوضحت خطة المؤتمرين ، لإدارة طوفان البترودولارات الناشيء عن زيادة أسعار النفط 400%.

وكانت 1973 سنةً مليئةً بالأحداث ، ففي حزيران بادر ديفيد روكيفيللر بتكوين الهيئة الثلاثية ، وكان الهدف المعلن لهذه المجموعة الخاصة ، والتي ضمت ممثلين من اليابان وأوروبا والولايات المتحدة وكندا ، هو رعاية تعاون أوثق بين مناطقهم ، لإدارة التغيرات الناجمة عن نظام ما بعد بريتون وودز المالي ، ولتقاسم مسئوليات القيادة في العالم الأوسع... وليس ذلك بهدفٍ شاذ أو مستغرب في وقتٍ من الاحتكاك السياسي الجسيم ، ولكن مثل هذا الكيان سيكون أيضاً ، وبالطبع مفيداً كوسيلة لإدارة تأثيرات الارتفاع في أسعار النفط على النظم المالية والتجارية الدولية ، وغدت أجندة الهيئة الثلاثية هي أجندة إدارة الولايات المتحدة ، بدءاً بالرئيس كارتر نفسه ، حيث كان الكثيرون من كبار موظفيه منتمين للهيئة بمن فيهم نائب الرئيس والترمونديل ، ووزير الخارجية ومستشار الأمن القومي.

وكانت الحرب العربية الاسرائيلية في 1973 ، هي ثالث حدث رئيسي لفترة ما بعد بريتون وودز ، إذ انتهت حرب اكتوبر بين إسرائيل والتحالف المصري / السوري بخطر نفطي نتجت عنه الزيادة المتوقعة في أسعار النفط ، ولكن ارتفاع الأسعار هذا فعل أكثرمن مجرد إثراء شركات النفط ، لقد جعل من نفوط ألاسكا وبحر الشمال المكتشفه ملائمة للاستثمار بعد أن كانت الأسعار السابقة دون مستوى كلف الانتاج في هذه المناطق .

ربما أن الذهب قد ولى ، إلا أن الدولار الآن مدعوم ومغطىً بالنفط ، كما أنه وفي نفس الوقت – أي النفط – قد خلق طلباً على الدولار ، كذلك لم تعدل السنوات البيئية في الوضع كثيراً ، ففي بداية 2006 كان سعر النفط 60 دولاراً للبرميل ، وبحسب الاستهلاك اليومي للعالم والبالغ 82 مليون برميل وكانت زبرة ذلك 5 بلايين من العملة الدولارية ، مدعومة في معظمها بالنفط وبفرضية الاقتصاد المتين ، وهذا الاقتصاد المتين ، وهذا الاقتصاد المزعوم يعاني حالياً من وطأة حملٍ لدين غير مسبوق ، والذي يعتقد الكثير من الاقتصاديين

بأنه لا يطاق ، ولذا فلا يبدو مستغرباً رغبة الولايات المتحدة الآن في أن تجثم قواتها فوق موارد النفط هذه ، وخاصةً في بلدان الشرق الأوسط المسلمة.

259-258

المدافع والنفط

طيلة عام 1973 بكامله، كانت المناورات والخطط العسكرية تبحث داخل المراتب الحكومية العليا في واشنطن بهدف الاحتلال الفعلي لحقول نفط الشرق الأوسط ، وكان الشعور السائد هو أن الوقت ما زال مبكراً ، إلا أن الخطط - مع ذلك - كان قد تم وضعها ، فشكلت القيادة المركزية ، وتم تنفيذ السيطرة خطوة فخطوة ، فبنيت قواعد ومدن عسكرية ضخمة ، بدولارات نفط الدول المنتجة للنفط ، كما تمت زيادة التواجد البحري لأساطيل الولايات المتحدة في الخليج بالتدريج ، وكما سنرى لاحقاً في هذا الفصل ، فقد كانت خطة بالغة الضخامة وحتى من عيارٍ غير مسبوق .

وطبقاً لما كتب روبرت دريفوس في " مذر جونز" : " حسب الرؤية الجيوبوليتيكية المحركة لسياسة الولايات المتحدة حيال العراق ، فإن مفتاح الأمن القومي هو الهيمنة العالمية – السيطرة على كل المنافسين المحتملين ، ومن أجل ذلك ، على الولايات المتحدة أن تكون قادرة - ***" ليس فقط على نشر قواتها العسكرية في أي مكان في أي وقت ، وإنما يجب عليها أيضاً السيطرة على الموارد الطبيعية الرئيسية وفي طليعتها النفط ، ونفط الخليج خاصة ."*** [163]

وينقل دريفوس عن شاس فريمان - وهو سفير سابق لإدارة بوش الأولى لدى السعودية - ينقل عنه قوله بأن الإدارة الجديدة تقول بالمثل ***" بأن على المرء أن يسيطر على الموارد كي يتسنى له الوصول إليها" .*** [164] وإذا أخذنا بالاعتبار أنه امتنع على الرئيس بوش اليوم –

---

[163] *Mother Jones*, 29 March 2003, http://www.themodernreligion.com/terror/thirty-year-itch.html

[164] Ibid.

بدرجةٍ أو بأخرى – الوصول إلى نفط ألاسكا وغيرها ***" فإن الوصول للخام العراقي قريب المنال وبأقل من 1.5 دولار للبرميل مما يجعله واحداً من أرخص النفوط إنتاجاً في العالم"*** [165]

260

دعنا نتحرك بالمشهد إلى الأمام بسرعة لنرى الحال كما هو عليه اليوم ، حيث بغداد عاصمة العراق محاصرة بالقوة العسكرية ، نتساءل ...هل أن ..إدارة بوش كانت تعد العدة وتضم معاً عناصر استراتيجية طويلة المدى ، مخطط لها ، وعمرها عدة عقود؟!

" إنها خطة كيسنجر " ، هذا ما يقوله جيمس إيكنز سفير الولايات المتحدة الأسبق ، والذي خدم تحت إمرة وزير الخارجية كيسنجر: ***" كنت أظن أن الخطة قتلت ، ولكن ها*** **قد عادت ".[166] وفي أعقاب الصدمات النفطية في سبعينيات القرن العشرين ، تم تسريب " فكرة حمقاء ! " إلى الصحافة والمجلات الأميركية ، تعطي موجزاً عن الاستيلاء على حقول النفط العربية " عندها ارتكبت خطأ قاتلاً " ، ويتابع إيكنز " فقد قلت على التليفزيون بأن أي شخص يقترح ذلك ، إما أن يكون رجلاً مجنوناً ، أو مجرماً ، أو عميلاً للاتحاد السوفياتي ."**[167] وبعد فترةٍ وجيزه تم إبلاغ إيكنز أن ذلك " الرجل المجنون " ليس سوى رئيسه هنري كيسنجر" ، والذي يروى بأنه قدم هذا المشروع خلال إيجازٍ غير معلن لمسؤلين كبار ، وما لبث أن طرد إيكنز من عمله بعد وقتٍ قصير من ذلك .

كان المستفيدون من نظام ما بعد بريتون وودز المالي هم شركات النفط متعددة الجنسية ، والمصارف الأميركية والبريطانية ، ومضاربو وول ستريت ومدينة لندن ، أما الخاسرون

---

[165] Ibid.

[166] Ibid.

[167] Ibid.

فكانوا البلدان النامية ، والتي كان عليها أن تسلم دولاراتها إلى نظام لا يرح ،م ينتهي في المآل بإيداعها في مصارف نيويورك . وبدأت الأقطار بلداً تلو الآخر في أميركا الجنوبية وأفريقيا وآسيا تواجه ، عجوزات ومزمنه في ميازين مدفوعاتها.

وطبقاً لصندوق النقد الدولي ، فإن العجز الذي تحملته هذه الأقطار ارتفع بنسبة 400% في عام 1974 عن مستواه في 1973 ، وبدأوا يقترضون من المصارف الغربية كي يدفعوا للنفط ، وأصبحت القروض عبئاً ثقيلاً على اقتصاداتها الوطنية ، وبذا خلقت مصيدة ديون تضطر بسببها البلدان الأكثر فقراً للالتجاء إلى صندوق النقد الدولي كي تتجنب العجز عن سداد دفعات قروضها ، غير أن القروض ذاتها كانت ملأى بالشراك ، فجاءت مرتبطة " بشروط رهنت – عمليا 260

اقتصادات الدول المقترضة . وفرضت اشتراطات صندوق النقد الدولي سيئة الذكر – وهي شروط متفق عليها تأمر بالتجارة الحرة ، وتفتح الباب لعصبة المال الأميركية والشركات متعددة الجنسية ، وتحت هكذا ضغوط تصبح الموارد الطبيعية للبلد المقترض إما تحت السيطرة ، أو أنها تباع واحدة بعد الأخرى بأسعار متدنية ، وبالتدريج تصبح البلدان رهائن لمجتمع المال العالمي .

والهند مجرد مثالٍ واحد. ففي العام 1974 كان يتوفر لدى الهند 629 مليون دولار من الاحتياطيات ، والتي كان نصفها كافياً لدفع فاتورتها النفطية بأسعار 1973 ، إلا أن الفاتورة جاءت بقيمة 1241 مليون دولار . وبشكلٍ عام تكبدت البلدان النامية 34 بليون دولار من الديون في عام 1974 – وهو رقم غير مسبوق ، وتمّ إعادة تدوير دولارات أوبك إلى المصارف الكبرى في نيويورك ولندن ، وأصبح الآن ضمن استطاعة هذا المصارف أن تقرر من من الأقطار سيمنح قرضاً وبأية شروط .

وفي هذه الآناء استمرت المديونية في الارتفاع ، وعلى سبيل المثال : ينفق ثلث ميزانية الأردن على خدمة فوائد ديونها ، بينما تبقى مبالغ الديون ذاتها ثابتةً لا تتناقص ، وعلى سعر 60 دولاراً للبرميل ، بلغت فاتورته النفطية قرابة 20% من ناتجه القومي الإجمالي لعام 2005.

ووجدت البلدان النامية الأغنى نفسها تعبئ خزائن الغرب ، ففي كانون ثاني 1974 ، مثلاً ، توصلت وزارة الخزانة الأميركية إلى اتفاقية سرية مع العربية السعودية - المتلقي الأكبر لدولارات النفط - يعين بموجبه المصرف المركزي السعودي دافيد ملفورد وهو مصرفي

استثمار من وول ستريت - بصفته " مستشاره للاستثمار "، فما كان من ملفورد إلا أن نصح السعوديين باستخدام دولاراتهم في شراء صكوك خزينة الولايات المتحدة.

جنون التمويل

وهكذا كان لقرار الانسحاب من اتفاقية بريتون وودز في آب 1971 وقع عالمي ، إلا أن دور نيكسون في تلك القصة لم يكن بأية حال – الدور الرئيسي ، فقد كان الاقتصاد الأميركي يترنح فوق كومةٍ ضئيلةٍ من الأوراق النقدية ، لأكثر من عقد من السنين .

262

وفي 1957 ، في رئاسة آيزنهاور ، كانت الأموال التي تتدفق خارجة من الولايات المتحدة – ولأول مرة منذ تفعيل نظام بريتون وودز في 1944 – اكثر من تلك المتدفقة إليها ، وكان السبب في ذلك يعزى لأمرٍ آخر: إذ أن المصارف الأميركية قد وجدت أنه من الأكثر ربحية لها أن تستثمر في الخارج بدلاً من الوطن ، حيث كان ولاؤهم الأساسي دوماً لميزانياتهم ؛ وبدأت الشركات متعددة الجنسية في الاستثمار وبناء وسائل إنتاج حيث توجد عمالة رخيصة – في اميركا اللاتينية وأوروبا وآسيا . واحتفظ بالأرباح في الخارج.

وكان هناك الإنفاق الدفاعي ، والذي ينتزع اليوم قطعةً ضخمة من الاقتصاد الأميركي ، إذ أن على البلد أن يمول قواعده العسكرية حول العالم، مثلما كان عليه تمويل الحرب في فيتنام ، حيث ، في ذروتها - شارك فيها 589.000 من الجنود ، يضاف لهم 600.000 عسكري محتشدين حول العالم ، ودون أن يفوتنا ذكر الآلاف ممن يعملون في 600 سفينة حربية في مختلف الأساطيل ، فضلاً عن الآلاف من الطيارين ورجال الدعم اللوجستي للقوى الجوية والمعينين عبر البحار .. وجميعهم يحتاجون الدولارات ، وتلك الدولارات جميعها بقيت خارج الولايات المتحدة .

وبعد أن أقسم ليندون بي. جونسون اليمين القانونية كرئيس في 1963 عقب اغتيال كينيدي ، اختار أن يطبع من الدولارات أكثر من قيمة مخزون الذهب في فورت نوكس بدلا من فرض الضرائب لتمويل حرب فيتنام وتمويل خطة الاصلاح الاجتماعي الاقتصادي ، والتي عرفت باسم برنامج المجتمع العظيم . وهكذا بيع المزيد من سندات الخزنية الأميركية وتفاقم عجز الميزانية الاتحادية ، من 3 بليون دولار في مطلع 1960 إلى ما نسبته 300% في 1967 ، ثم 800% في عام 1968 . وبحلول 1970 أودع قرابة 1.3 تريليون دولار

في سوق لندن للعملات ، وكانت الولايات المتحدة – ببساطة - تطبع نقوداً ورقية ، دون احتياطيات ذهبية كافية .

وحوالي هذا الوقت ، غدا الرئيس الفرنسي شارلز ديجول ومستشاروه الماليون متشككين حول الفجوة بين حجم الدولارات في التداول واحتياطيات الذهب في فورت نوكس ، ولهذا السبب أراد تطوير خطط سياسية واقتصادية مستقلة لأوروبا ، وبذا يصبح أكثر استقلالية عن واشنطن . ومع المستشار الألماني كونراد أديناور ، وضع ديجول المعاهدة الفرنسية الألمانية ، وذعر الأميركيون وأخذوا يحشدون ضدها سياسياً في ألمانيا ، وقبل يومين من الوقت المقرر لعرض المعاهدة على البوند ستاغ الألماني (البرلمان) في 1963 صوت على تنحية أديناور عن منصبه . ولم يقيض للمعاهدة أبداً – أن يتم التصديق عليها.

وحوالي هذا الوقت ، على كل حال ، نجح ديجول في إبعاد فرنسا عن الضغوط الاقتصادية للولايات المتحدة . وفي 1961 ، في عهد الرئيس كينيدي ، طلبت الولايات المتحدة من المصارف المركزية للبلدان العشرة الأوائل صناعياً، أن يحتفظوا بدولاراتهم ، كي يهونوا من نزف احتياطياتها الذهبية ، مع كسبهم للفائدة باستثمارهم في سندات الخزينة ، أي بمعنى تمويل حروب أميركا بالنتيجة . وحث ديجول أميركا على خفض قيمة الدولار ، إلا أن هذا جوبه بمعارضةٍ قوية من طرف مصارف نيويورك ، واستمرت التزامات الدولار في الخارج في التحليق عالياً ، ومعها نضوب ذهب الولايات المتحدة .

وفي 1968 حدث الأمر كله كرةً أخرى ، إذ كشفت الولايات المتحدة النقاب عن مخطط آخر ، للعشرة الكبار لخلق "ذهب ورقي" – وهو بديل من خلال صندوق النقد الدولي أطلق عليه اسم " حقوق السحب الخاصة" ، وعارضت الحكومة الفرنسية ذلك ، وأصرّ وزير المالي الفرنسي ميشيل دوبريه على العودة إلى اتقافية بريتون وودز ، وللمرة الثانية طالبت فرنسا بتخفيض الدولار بنسبة 100% في مواجهة الذهب . وبعد ذلك مباشرةً نزل سخط الله على البلد ، إذ قام طلبة جامعة ستراسبورغ باضطرابات وتظاهرات مالبثت أن انتشرت بسرعةٍ عبر البلاد ، وقامت المصارف الأميركية والبريطانية بجهد منسق ضد الفرنك الفرنسي ، مستنزفةً احتياطي الذهب الفرنسي بنسبة 30% قبل نهاية عام 1968 ، وخلال سنة كان ديجول خارج السلطة.

كانت هذه هي الأحداث التي أدت إلى اقتصاد – كازينو اليوم ، فحتى النفط أصبح سلعة مضاربة .. يحدث الآن أن حمولةً نفطية تغادر الخليج قاصدةً روتردام ، يتم الاتجار بها في الطريق بيعاً وشراءً قرابة العشرين مرة قبل بلوغها مقصدها ، وطبقاً

263

لجول كيرتزمان ، وهو محرّر اقتصاد وأعمال في جريدة نيويورك تايمز ، فالنقود ذاتها الآن تقع على مبعدة سنواتٍ ضوئية من بداياتها في معابد سومر (العراق الآن) قبل5000 سنةٍ مضت ، وكما يكتب في " موت النقود ":

النقود مختلفة... لم تعد شيئاً منفصلاً .. لقد انسحرت النقود .. لم تعد مجرد شيء... إنها النظام ... في عالم النقود الجديد، حتى أكبر البنوك لم تعد تحتاج سراديب حصينه، فبدلاًعن ذلك ، فإنهم يخزنون نقودهم على أسطوانات وأشرطة تسجيل الحواسيب .. وهم يحمون هذه

الأموال .. ليس باستئجار حرّاسٍ مفتولي العضلات ، وإنما بتوظيف أدمغةٍ من حملة الدكتوراه في الرياضيات ، واختصاصيي البرمجة ، لكتابة شيفراتٍ سرّية.[168]

ويضيف كيرتزمان بأن الهوه بين الاقتصاد الحقيقي.. اقتصاد المنتجات ، والتجارة ، والبحث ، والخدمات ، من جهة .. وبين " الاقتصاد المالي" من جهةٍ أخرى ، هي هوة ضخمة : ففي منتصف تسعينات القرن العشرين كان الأخير أكبر 20-50 مرة من سابقة ، " إنه ليس اقتصاد التجاره ، ولكن المضاربة "[169]، ففيه يسود المتمولون وبيوتات المضاربه المالية بصورةٍ مطلقة ، فشخص مثل جورج سوروس بمقدوره منازلة حتى بانك أوف إنجلاند وكسب الملايين ، أو أن يطاول عملات جنوب شرق آسيا ، وأن يتسبب في فوضى اقتصادية .

والآن ..دور الفتيان العباقره

في عالم المضاربات .. من يحصل على المعلومة أولاً يحصل على ميزه ، وأيضاً من يحلل البيانات أسرع ، فسيتمكن من القيام ب" رهان " أفضل ، ولهذا جهز عمالقة وول ستريت الماليون شركاتهم بأفضل العلماء ، لتشغيل وإدارة برامجهم الحاسوبية. ويلاحظ كيرتزمان:

في 1990 ، وفي شركة جيفريز - وهي بيت استثماري رئاسته في لوس آنجلوس ، مع مكاتب لها في نيويورك ولندن - كان لديها اثنان فقط من بين موظفيها الخمسين العاملين على مشروع نظامهم التجاري المؤتمت ، لديهم خبرة سابقة في أعمال وكلاء المضاربات . أما بقية الفريق فكان يتكون من الرياضيين ، والاقتصاديين، والفيزيائيين ومصممي

---

[168] Joel Kurtzman, *The Death of Money: How the Electronic Economy has Destabilized the World's Markets and Created Financial Chaos*, Simon & Schuster, 1993, 11

[169] Ibid., 12.

الحواسيب . وكان أحد عمد جيفريز هو الذي كتب لناسا البرامج التي استخدمتها في توجيه مركبة جاليليو الفضائية إلى جوبيتر .[170]

والمكافآت الضخمة تغري وتجذب أفضل البحاث ، فجولدمان ساكس على سبيل المثال استأجرت ، فيشربلاك ، بروفيسور الاقتصاد في معهد مساشوستس للتكنولوجيا في 1983 ، حيث كان يتقاضى راتباً مقداره 43,000 دولاراً في السنة ، ليحصل على مليون دولار سنوياً بعد عمله في جولدمان ساكس لمدة ثلاث سنوات . ومع اختصاصي الرياضيات لورنس إي. هيليبراند ، وهو الآخر من معهد مساشوستس للتكنولوجيا والذي استأجرته شركة سولومون بروذرز ، فقد تقاضى 23 مليون دولار في عام 1990 فقط.

وكانت الميزانيات المخصصة لمعدات التكنولوجيا المتقدمة وللبحوث ضخمة أيضاً ، ففي عقد الثمانينيات من القرن العشرين كانت شركات وول ستريت تنفق ما معدله 3,4 بليون دولار سنوياً على الحواسيب السريعة وغيرها من التكنولوجيات ، وفي بكور تسعينيات نفس القرن وصل الرقم 7,5 بليون دولار ، وعندما قدمت شركة ثنكنج ماشينز إنك (شركة المكائن المفكره) حاسوبها الفائق سي إم5 CM-5 في تشرين ثاني 1991 ، كانت أول طلبات الشراء الواردة لها هي من قمة المراكز العلمية المتقدمة في لوس آلاموس ، بيركلي ، مركز الحاسوب الفائق التابع لجامعة بيتسبرغ ، ومن أميركان إكسبرس والتي اشترت اثنين .

وهذه القدرة على إنفاق كمياتٍ ضخمة من النقود ، جعلت من حفنة من شركات وول ستريت المالية كارتلا واقعيا من اللاعبين الكبار . وبالمقارنة بجبروتهم الجمعي ، تبدو حقيقة وواقع البلدان النامية في حالةٍ مزريةٍ من الضعف والانكشاف .

والمكسيك مثال صارخ على ذلك ، فعندما كانت أسعار الفائدة - في الولايات المتحدة - منخفضة بين 1991 و 1994 ، بينما كانت أعلى في المكسيك ، وجد مدراء الصناديق

---

[170] Ibid., 23.

الأميركية فرصة لموازنة سعر الصرف – بمعنى الاقتراض في الولايات المتحدة ، " والاستثمار " في المكسيك ، ووضع المكسب عن فرق الفائدة في الجيب. وبعد أن خضعت المكسيك " لإصلاح " مالي – بمعنى أن مدراء الصناديق يمكنهم المغادرة بنقودهم في أي وقت راق لهم – أخذت النقود بالتدفق إلى المكسيك ، وبذا تسبب المتمولون ومدراء الصناديق الأميركان بخلق فقاعة سوق الأسهم هناك.

وخلال سنتين أو ثلاث ارتفعت أسعار الأسهم لأربعة أمثال ما كانت عليه ، وكان 50 % تقريباً من سوق الأسهم المكسيكية بيد مستثمرين خارجيين (أوفشور) ، و25 % دين حكومي ، وما لبثوا أن غادورا ، فانفجرت الفقاعة ، وبدأت أسعار الفائدة في الولايات المتحدة في الارتفاع ، وأصبحت الفرص في الأماكن الأخرى أكثر إغراءً . ومن إجمالي الاستثمارات التي انصبت في المكسيك ، ذهب 75 % منها للأسواق المالية والمضاربات ، و25% منها فقط استثمرت في اقتصاد البلد المنتج – وحتى هذا الجزء كان في معظمه منحصراً في الشركات متعددة الجنسية وتجارتها البينية - أي داخل الشركة - وبذا كانت الاستثمارات منعزلة عن الاقتصاد المكسيكي .

وفي مطلع 1994 ، وعند النقطة التي بدأت فيها أسعار الفائدة الأميركية بالارتفاع ، كان لدى المكسيك احتياطيات أجنبية معقولة تبلغ 25 بليون دولار ، إلا ان النزف المستمر الناشئ عن "النقود الساخنة " العائدة للمتمولين استنزف احتياطياتها الأجنبية ، حتى أنه مع نهاية العام كان القليل منها قد بقي ، بينما فقد البيزو المكسيكي حوالي نصف قيمته في غضون أسابيع قليلة ، وكان البلد في حالة سقوط اقتصادي حرّ.

266

الفصل العاشر

" كنت أوضحّ لماذا هو نظام الرأسمالية العالمي غير سليم وغير قابل الديمومه ، وحتى ما قبل الاضمحلال الروسي في آب 1998 ، لم أكن قد أدركت بعد أنه في الحقيقة يتفكك ..والنظام الرأسمالي العالمي يستند الى الاعتقاد بأن الاسواق المالية ، إذا تركت لوسائلها الذاتية تنزع إلى التوازن ... وهذا الاعتقاد زائف وغير صحيح ، والأسواق المالية ذات طبيعة تنحو للمبالغات ، فإذا ما تمادى نهجٌ متوالٍ من الازدهار والإفلاس إلى أبعد من نقطةٍ معينة ، فإنها لن تعود للنقطة التي أتت منها ، وبدلاً من التصرف كالبندول فإن الأسواق المالية قد تصرّفت حديثاً مثل كرة الهدم ، تحطم اقتصاداً تلو الآخر ." [171]

في كتابه " أزمة الرأسمالية العالمية " كتب جورج سوروس :" إن لنظامي الحكم النازي والشيوعي سمه مشتركة : فقد ادّعوا امتلاكهم الحقيقة المطلقة ، وفرضوا وجهات نظرهم على العالم باستخدام القوّة ، وعلى الأرجح أن ذلك كان استجابةً لإجماع واشنطن " ، والذي يحاول بصمت فرض الماركه الأميركية للرأسمالية على العالم قبل أن يقول جورج دبليو بوش علناً وبوضوح ؟ إما أنكم معنا أو علينا !" ، وتدّعي الولايات المتحدة الآن بملكية

---

[171] George Soros, *The Crisis of Global Capitalism: Open Society Endangered,* PublicAffairs, 1998, xi, xvi

الحقيقة المطلقة ، وتريد من العالم احتضان قيمها زاعمةً أنها تصلح لكل الناس في كلّ مكان ، وهي قائمةٌ على فرض هذه القيم بكل الموارد التي تملك ، بما في ذلك الوسائل العسكريّة.

ما كتبه سوروس يحمل أهمية خاصة كونه شخصية مرموقة في مجتمع المال العالمي ، فهو معروف بانتهازه كل ضغفٍ أبداه النظام ، ومعروف - ليس بمضارباته ليس ضد المكسيك وجنوب شرق آسيا فقط - وإنما ضد بنك انجلترا أيضاً . وقد أورد مقدمة كتابه:

" كنت أوضحّ لماذا هو نظام الرأسمالية العالمي غير سليم وغير قابل الديمومه ، وحتى ما قبل الاضمحلال الروسي في آب 1998 ، لم أكن قد أدركت بعد أنه في الحقيقة يتفكك المالية ، إذا تركت لوسائلها الذاتية تنزع إلى التوازن ... وهو الاعتقاد زائف وغير صحيح ، والأسواق المالية ذات طبيعة تنمو للمبالغات ، فإذا ما تمادى نهجٌ متوالٍ من الازدهار والإفلاس إلى أبعد من نقطةٍ معينة ، فإنها لن تعود للنقطة التي أتت منها ، وبدلاً من التصرف كالبندول فإن الأسواق المالية قد تصرّفت حديثاً مثل كرة الهدم تحطم اقتصاداً تلو الآخر ." [172]

وقال سوروس بأن وجهات نظره حول أزمة الرأسمالية قد لُخصت في شهادة للكونجرس سلّمها في 1998/9/15 ، بعد أزمة جنوب شرق آسيا والأزمة الروسية ، وتبع انهيار جنوب شرق آسيا المالي (الكثيرون يعتبرون سوروس نفسه سبباً رئيسياً له) انهيار اقتصادي ، وكانت النتيجة في أندونيسيا مثلاً ***"أن تلاشت جميع المكاسب في مستويات العيش والتي تمت مراكمتها خلال ثلاثين عاماً من حكم سوهارتو ، وبقيت المباني العصرية والمباني والبنى التحتية ، ولكن بقي السكان أيضاً الذين اقتلعوا من جذورهم الريفية "***.[173] **ووصف سوروس النظام الرأسمالي العالمي على أنه نظام تدويري " يقوم**

---

[172] Ibid.

[173] International economic turmoil: hearings before the Committee on Banking and Financial Services, U.S. House of Representatives, One Hundred Fifth Congress, second session, September 14, 15, 16, 1998, U.S. G.P.O., 1999,.86

بشفط (امتصاص) رأس المال إلى داخل الأسواق والمؤسسات الماليّةً " والتي هي مركزه أو قلبه، " وبعد ذلك يقوم بضخها إلى محيطه الخارجي "[174] بشكل مباشر كائتمان ، أو محفظه استثمارية ، أو بصورة غير مباشره عبر الشركات متعددة الجنسيات ". والنظام محابٍ جداً لرأس المال المالي " [175]، " فالقلّة " في المركز سيحتفظون بالأرباح والسلطة ، وهم الذين يقررون من الذي سيبقى ويزدهر ، ومن الذي سينتهي . ويجادل سوروس بأنه طالما أن النقود " نقود الأخرين " ، تستمر في التدفق من الأطراف إلى المركز ، وطالما أن " القلة " تعيد ضخ بعض النقود ، فستبقى الأمور على ما يرام . ولكن عندما يتأزم موقف الأطراف المحيطية إلى أبعد من حدود مرونتها، وكما هي الحال عادةً نتيجة جشع الممولين ، يتعرض النظام بأكمله عندها للخطر ، وما هو مطلوب كما قدر سوروس ، هو مؤسسة تحمى " القلة " من أنفسهم ومن جشعهم ، شيء يشبه نظام احتياط فيدرالي عالمي ، فالنظام العالمي يعاني من عدة مآخذ كما يقول سوروس ، فميزانيات المصارف والمؤسسات المالية ، لا تعكس مدى تعرض وانكشاف هذه المؤسسات الحقيقي: " عندما تنخرط المصارف في المقايضات ، والعمليات الآجلة ، وتجارة المشتقات فيما بينها وبين عملائها ، فان هذه العمليات لا تظهر في ميزانيات المصارف.

269

---

[174] George Soros, *The Crisis of Global Capitalism: Open Society Endangered,* PublicAffairs, 1998, xii

[175] Ibid., 101.

What worries Soros is the “pain at periphery has become so intense that individual countries have begun to opt out of the global capitalist system … If and when the decline spreads to our economy”, which it did, “we may become much less willing to accept the imports which are necessary to feed the reverse flow of capital and the breakdown in the global financial system may be accomplished by a breakdown in international free trade”.[176]

وفي شهادة لكونجرس الولايات المتحدة أضاف سوروس ***" هناك حاجة ملحة لإعادة النظر في النظام الرأسمالي العالمي وإصلاحه ". [177]وأدت موجة التعصب للسوق التي أطلقت من قبل ريغان وتاتشر " إلى تصيير النظام الرأسمالي العالمي غير سليم ، وغير قابل للاستمرار", وواحد من الأسباب الوجيهة لذلك هو أن لدينا اقتصاد عالمي دون أن يكون لدينا في المقابل مجتمع عالمي ، " وهذه الحالة غير قابلة للدفاع عنها". وأضاف سوروس محذراً " إن القيم النقدية وأسواق العمليات لا تعطي أساساً كافياً للتلاحم الاجتماعي ". [178]***

إننا متفقون مع هذه النتيجة .. الاقتصاديون علماء زائفون .. إنهم كهنة الرأسمالية .. وهم يعظون من كتاب بارونات المال المقدس ، ويحاولون تنفيق أجندة " تركيبة القوة" الحالية ، كائنة ما كانت، ويعطون مواضعات علمية زائفة لإسباغ الموثوقية عليها ، مؤدين دورهم في خلق إجماع لدى "جماهير العامة الجاهلةً" ، ويعتقد سوروس - ونحن أيضاً - أن التوازن يرتكز الى تشابه زائف مع الفيزياء .

---

[176] Ibid., 171.

[177] Ibid., 174.

[178] Ibid., xxi.

ويجادل سوروس بأن الرأسمالية العالمية ابتدأت في سبعينيات القرن العشرين مع الزيادة في أسعار النفط وظهور سوق اليورودولار ، و أعطيت دفعاً من قبل ثاتشر وريجان ، كما حققت تقدماً إضافياً نتيجة انهيار الاتحاد السوفياتي . وفي الولايات المتحدة ، ومع تجذر أصولية السوق ***" انتقل العبء الضريبي من الرأسمال إلى المواطنين" .***[179]

270

هناك تضارب مصالح بين مركز الرأسمالية العالمية والبلدان المحيطية ، فأثناء أزمة ما لا يكون لدى المقرضين – في العادة - سوى القليل ليخسروه ، فما يمكن أن يفعلوه هو إعادة جدولة القروض ، وتمديد تواريخ استحقاقها ، ودون التخلّي أبداً عن القروض ذاتها . وكثيراً ما تجبر البلدان المدينة من قبل صندوق النقد الدولي على الالتزام بمديونية البنوك التجارية (كما في تشيلي 1982 ، والمكسيك 1994 ، وجنوب شرق آسيا في 1988) ، وحتى في حالة عدم قدرة البلدان المدينة على الوفاء بكامل التزاماتها ، فإنها ستلزم بدفع الحد الأعلى الممكن ، الأمر الذي سيعيق استثماراتها التنموية . ويحمل الإقراض للأطراف المحيطية مخاطر ضئيلة للغاية ، ومع أن أزمة المديونية العالمية في 1982 قد كانت بسبب بلد المركز (رفع الفائدة من قبل الولايات المتحدة) فإنه قد ترتب على دول الأطراف المدينة تحمل تكاليفها . وكذلك فإن أزمة جنوب شرق آسيا قد تسببت فيها صناديق المضاربات ، والتي كانت نتيجة للارتفاع في دولار الولايات المتحدة . وقد دُمرت اقتصاديات هذه البلدان لأسباب خارجة عن سيطرتها بالكامل . وحيث أن رأس المال ينزع للعودة إلى موطنه – المركز – في أوقات الاضطراب وعدم اليقين ، فإن البلدان المحيطية ستكون هي الأشد اكتواءً بالنار وعلى نحو غير متكافئ ، بينما تجأرُ اصوات وول ستريت و " مدينة لندن المالية " بالادعاء بأن المضاربات صحية ، لأنها تصحح الأسواق وتجعلهما أكثر كفاءةً ... ليس تماماً ، حيث يقول سوروس ***" عندما بعت الاسترليني لأجل قصير في 1992 ، كان***

---

[179] Ibid., 112.

" مصرف انجلترا " على الناحية الأخرى من العملية ، وكنت أنا آخذ النقود من جيوب دافعي الضرائب". [180]***ويخلص سوروس إلى أن مذهبية التعصّب للسوق تزعزع النهج الديموقراطي السياسي وتعرض للمخاطر مؤسسات التمثيل الديموقراطي "ويصبح من الصعوبة بمكان استعادة فضيلة تمدّن وطنية إذا ما تم فقدانها ".*** [181]***ويتحدّى سوروس فضيلة حيازة النقود لمجرد حيازة المزيد من النقود ، حيث أنها ، أي النقود ، عند إنفاقها فقط تصبح وسيلةً لتحقيق غاية ، بينما عند ما يصبح هدف النقود أو المال هو مجرّد جمع المزيد من المال ، فإن المنافسة تصبح من الشدّة " إلى حد أن الأنجح إطلاقاً سوف يسخط إلى موقع الدفاع عن وجوده".*** [182]

Nobel prize laureate Joseph F. Stiglitz vigorously attacked the IMF and its programs that protected the financial community's barons, yet brought disaster to those nations that received its conditions and deadly prescriptions. Stiglitz, himself an accomplished man of the system, a former top executive at the World Bank, Bretton Wood's twin of the IMF, and chairman of President Clinton's council of economic advisors, may be up to something! IMF's reputation may be at

---

[180] Ibid., 196

[181] Ibid., 200.

[182] Ibid., 207

such a low level that it is no longer the appropriate tool to extend the Anglo-American capitalism or to serve its barons. Rather than identify the system that created and managed the IMF as the problem, IMF is made the scapegoat. One can reasonably ask what advice Stiglitz gave President Clinton as his chief economic advisor when Clinton forced Indonesia to accept the IMF deadly prescriptions “as if it comes from the hand of God”.

THE BOOM OF ILLUSIONS: The Economics of “Enronics”

وفي 2001/5/23 كتب لوثر كومب ، وهو اقتصادي ألماني في مجلة الإيكونوميك إنتليجنس ريفيو:

" لم يحدث أبداً أنه كان هناك ازدهار اقتصادي في الولايات المتحدة " . خلال التسعينيات من القرن العشرين .. كان هناك ظهور لأكبر فقاعة مضاربات في التاريخ ، وقد بنيت على "ازدهار للأوهام " وعلى تسهيلات ائتمانية رخيصة للمستهلكين ولمستثمري سوق الأسهم ، وكذلك لعمليات الاستيلاء على الشركات" .[183]

لقد دخلت الولايات المتحدة - اكثر الأمم مديونية على وجه الأرض - العام 2001 ، برقمٍ قياسي للمديونية الحكومية ، وقطاع الشركات ، والقطاع المنزلي الخاص مجتمعةً مقداره

[183] http://www.larouchepub.com/other/2001/2820komp.html

26 تريليون دولار . وتزايد دين المستهلكين في الولايات المتحدة حتى بلغ ثلاثة أمثال ما كانه في بداية التسعينيات من القرن العشرين 272)صفحة

وترافق هذا مع أسوأ انهيار في المدخرات منذ الكساد الكبير ، وبحسب الرسم البياني الصادر عن إدارة التجارة للولايات المتحدة ، والذي ظهر في مقالة لوثر كومب بتاريخ 2001/5/25 : ***" إن شركات الولايات المتحدة كانت تضيف 1,5 تريليون دولار من المديونية سنوياً ، وهذا يساوي ثمانية أمثال ما كان عليه الحال في تسعينيات القرن العشرين "*** . [184] ويتصاعد الدين الإجمالي لاقتصاد الولايات المتحدة بسرعة أكبر أربع مرات من الناتج القومي المحلي.

وبدأت الإفلاسات الضخمة تتكشف في عام 2001 ، ففي 7 آذار تقدمت مجموعة فينورا المالية يطلب لإعلان إفلاسها ، مع حجم مديونية بلغت 11,3 بليون دولار ، وكانت تلك واحدة من أكبر التفليسات في الولايات المتحدة ، واستحوذ صندوق بيركشاير هاثوي على الشركة وتملكها . وأوردت جريدة الفاينانشال تايمز أخباراً مزعجة عن شركة لوسنت ، فهوت أسهمها في ذلك اليوم إلى مادون سعر إصدارها الأولي في 1996 ، وإلى ما دون 93 بالمائة من ذروة سعرها الأعلى في 1999 ، كما أفصحت موتورولا عن خسارة للربع الأول من 2001 ، وذلك لأول مرة في 16 سنة، أما مزود خدمات الاتصالات وينستار ، فتقدمت بطلب إفلاس حماية من الدائنين في 18 نيسان 2001 . وكان الاتجار في صكوك شركة وينستار يجري بنسة 2% من قيمتها ، وهوت قيمتها من 65 دولاراً في السنة السابقة إلى 35 سنتاً . وكذلك مزود الاتصالات بي. إس. آي. نت ، فقد أعلنت في 17 نيسان 2001 أنها قد تتقدم بطلب لإعلان إفلاسها ، وأبلغت عن خسائر بلغت 3,2 بليون دولار للربع الأول من 2001 ، وهوى سعر سهمها من 34 دولار في السنة السابقة إلى 20 سنتاً، كما أعلنت شركة باسيفيك جاز أند إليكتريك في كاليفورنيا عن تقدمها بطلب إفلاس حماية ، وذلك في 6 نيسان مع مديونية بلغ مقدارها حوالي 9 بلايين دولار.

---

[184] Ibid.

وفي 23 نيسان 2001 ذكر تقرير ستاندارد اند بور حول سوق الصكوك العالمية ، أن 48 من كبريات الشركات لم تفِ بالسداد في المواعيد لحجم صكوك بلغ 37 بليون دولار ، وكان هذا الرقم للربع الاول من 2001 يكاد يعادل جميع حالات عدم الوفاء بالسداد لكامل عام 2000 والذي كان بحد ذاته في ذلك الوقت عاماً قياسيّاً ، وكانت واحدة وأربعون شركة من الشركات الثماني والأربعين من الولايات المتحدة ، وكانت القائمة تتضمن كاليفورنيا بي. جي. أند إي. ، وساذرن كاليفورنيا إديسون ، مع شركات أخرى من قطاعات الاتصالات والطعام والمفرق .

273

أدت سياسة اللانظام (تبسط الإجراءات وإزالة المعيقات القانونية) إلى "انصهار الاتصالات" ، إلا أنها إضافةً إلى ذلك انتجت أزمة طاقةٍ كهربائية غريبة كادت تقعد اقتصاد العديد من الولايات ، بمن فيهم كاليفورنيا صاحبة سادس أكبر اقتصاد في العالم ، وكانت الشكوك تحوم حول تواطؤ بين شركات من أمثال إنرون ، إيه. إي. إس. ، ريلايانت أوديوك بور ، والتي ضاربت بأسعار مرتفعة للكهرباء في السوق الفورية . وكان على كاليفورنيا تقنين الكهرباء لحماية شبكتها ، بدءاً من 19 آذار 2001 ، عندما كان الاستهلاك أقل من 30.000 ميغا وات . إلا أنه وقبل سبعة أشهر ، في آب 2000 ، كان الاستهلاك أعلى بنسبة 50% ، أي حوالي 45,000 ميغاوات . كان التزويد طبيعياً ، وقد شكت الوكالات الحكومية بأن الكثير من محطات توليد الطاقة قد عزلت لخلق نقص في الكهرباء ودفع الأسعار للارتفاع . وقد منع هؤلاء الرسميون ، وأوقفوا - جسديا - على بوابات بعض محطات الطاقة هذه ، عندما أرادوا استطلاع بعض هذه المحطات والتحقيق في أمرها ، كما التمس رسميو الولاية من هيئة تنظيم الطاقة الاتحادية (FERC) التدخل ، ومعاقبة حالات التلاعب والمضاربة بالأسعار . ولم تحبذ واشنطن التدخل ، وكانت النتيجة أن زادت كلفة كاليفورنيا من القوة الكهربائية من معدل 6-7 بليون دولار سنوياً قبل اللانظام ، إلى 27 بليون دولار في عام 2000 بعد اللانظام، والأدعى للصدمة من ذلك هو الشك في التواطؤ بين الشركات لرفع الأسعار ، والذي ثبتت صحته ، عندما أظهرت المذكرات الداخلية - والتي تم الحصول عليها من إنرون المفلسة - دليلاً لا يمكن نقضه ، بأن إنرون ومزودين آخرين للطاقة ، قد تواطؤوا وتآمروا فعلاً لإغلاق محطات الطاقة الكهربائية ، لا لسبب سوى رفع الاسعار . اما رسميو الولاية الذين حذروا من أن أزمة الطاقة هي مؤامرة فقد تم

تجاهلهم ، فواشنطن تدعم اللانظام ، وأمثال أولئك من بارونات اللصوصية والسلب - حتى لو باعوا وبشكل غير قانوني - مصلحة بلدهم وأكبر اقتصاد فيه ولاية كاليفورنيا . كما طلب من العالم – بالمثل - الخضوع لأمثال هؤلاء المتعددي الجنسيه ، حتى لو كانوا عديمي الخلق ، إذ كان اللانظام في رأس أجندة البارونات متعددي الجنسية.

274

وقبل 11 أيلول كانت نتائج الربع الثالث لعام 2001 مثيرة للمخاوف ، فقد أوردت الإيكونومست التالي:

- تقدمت شركة بيت لحم ستيل بطلب تحت الفصل 11 إفلاس حماية ، إذ تنضم ثاني أكبر شركة لصناعة الحديد في أميركا إلى 19 شركة حديد أخرى تطلب الحماية من الدائنين ، إذ كان قطاع الأعمال هذا يعاني من فائض طاقة ، ومنافسة من الواردات الرخيصة ، حتى قبل أن يبدو ضعف الاقتصاد الأميركي الواهن .

- كذلك تقدمت بولارويد بطلبٍ لإعلان الإفلاس ، إذ كانت شركة التصوير الفوري في حالة مالية ضعيفة لعدة سنوات وستستمر في البحث عن شارٍ لكامل الشركة أو لجزءٍ منها.

- اتفق كل من بريتش تيليكوم وإيه. تي. أند تي. بأنه قد حان الوقت لفصل الختام ، فموت إئتلافهم في قطاع الاتصالات - والذي لم ينتج سوى الخسارة - سيؤدي إلى أن يفقد 2300 من الناس أعمالهم ، كما سيكلف 7,3 بليون دولار ، تتكبد إيه. تي. أند تي. معظمها ، بعبء 5,3 بليون دولار.

- جنرال موتورز قالت بأن أرباح الربع الثالث قد انخفضت بنسبة 54% ، عدا عبء 753 مليون دولار.

- فورد أعلنت عن خسارة 692 مليون دولار في الربع الثالث ، وكانت قد خسرت 752 مليون دولار في الربع الثاني ، وكانت هذه أول خسارة في ربعين متتاليين منذ 1992.

- آي. بي. إم. قالت بأن أرباحها للربع الثالث قد انخفضت بنسبة 19% ، مقارنة بالسنة السابقة.

- إنتل قالت بان ارباحها للربع الثالث قد انخفضت بنسبة 96 % ، وبحسب التوقعات .

- سيتي جروب ، وهي عملاق خدمات مالية أميركي ، قالت بأن أرباحها للربع الثالث قد انخفضت بنسبة 9%.

- ميريل لينش أعلنت انخفاض أرباحها للربع الثالث ، بأكثر من النصف ، وأعلنت إلغاء 2300 وظيفة لخفض النفقات .

- بانك أوف أميركا أعلن عن انخفاض أرباحه بنسبة 54 % للربع الثالث مقارنةٍ بالعام الفائت.

- الرئيس التنفيذي لشركة المائة بليون دولار من حيث القيمة .. إنرون ، وواحده من أكبر شركات الولايات المتحدة ، استقال في آب ، بعدما أدرك أن إنرون كانت تعيش في الوقت الضائع، وأفلست الشركة وانهارت بعد أسابيع قليلة من ذلك .

- فنلنده ، وطبقاً للإيكونومست نقلاً عن " The Global Competitive Reports" قد أخذت مكان الولايات المتحدة بصفتها الاقتصاد الأكثر تنافسية في العالم ، وذلك رغما عن أن لدى اقتصاد فنلنده: أسواق عمالةٍ قاسية ، واتحادات عمالية قوية ، ومعدلات ضرائب مرتفعه ، على نقيض ما يعظ به الاقتصاديون الأنجلو – أميركيين كوصفةٍ جيدة للاقتصاد التنافسي.

- في آب ، أفاد تقرير التوظيف بأن جداول الأجور لغير المزارع ، كانت أقل بـ113,000 وظيفة عن الشهر السابق.

- وقبل 11 أيلول 2001 ، أخبر دافيد سميث ، الرئيس التنفيذي لشركة سيكامور نت وركس إنك ، أخبر محللي وول ستريت بأن زبائن شركته الرئيسيين بخفضون ميزانياتهم ، وأن مبيعات الربع الجاري ستكون مخيبة للآمال ، وتقدر بـ50 – 60 مليون دولار ، والتي هي أقل بحوالي 100 مليون دولار عما تم التنبؤ به في وقت أبكر ، كما أن أسهمه خسرت 20% في يوم واحد وهبطت إلى 7,25 دولار للسهم من ارتفاع 172,5 دولار ، والذي استمر 52 أسبوعاً ، وما كان يجري لشركة سيكامور نت وركس إنك ، هو جزء من الانصهار لقطاع الاتصالات . وفي هذه الأشهر القليلة - قبل 11 أيلول - تقدمت سبع

شركات أميركية بطلبات إعلان إفلاس ، وكان هناك على الأقل دزينة أخرى يتوقع قيامها بنفس الشيء في وقتٍ قريب ، وقد قدرت مديونية صناعة الاتصالات في الولايات المتحدة وأوروبا بـ 700 بليون دولار ، ومن المقرر لانصهار الاتصالات أن يكلف 150 بليون دولار ، كما أن له تأثير متعاظم على قطاعات أخرى من الاقتصاد ، والأسوأ ، أنه من المحتمل جداً أن يؤثر هذا الانصهار على بعض المؤسسات المالية الأميركية ، بينما تستمر فيه شركات الاتصالات بعدم الوفاء بسداد الديون.

- Economist Lothar Komp thought that the current financial system, the backbone of the transnational financial robber barons and the New American Empire, was experiencing a system failure - not a recession. “There never was a ‘U.S. economic boom’ during the 1990s ... instead, there has been the emergence of the biggest speculative bubble in history, built on a ‘boom of illusions’ and cheap credits for consumers and stock market investors, as well as corporate takeovers,”[185] he wrote in the May 25, 2001, issue of Economic Intelligence Review, a Washington DC-based weekly.

ويبدو أن الأرقام تدعم كومب:

---

[185] Ibid.

- **تسريح العمل**: ارتفعت نسبة المسرحين في قطاع الانترنت في الولايات المتحدة للنصف الثاني من العام 2000 ، 600% مقارنةً بالنصف الأول ، كما أفلست 210 شركات إنترنت .

وفي كانون الأول سنة 2000 فقدت قطاعات السيارات والتجزئة 133,713 وظيفة وهو أعلى رقم شهري في ثماني سنوات.

وفي كانون الثاني 2001 ، خسر 142,208 من الناس وظائفهم في هذا القطاع وفي نيسان 2001 ، تم الإبلاغ عن تسريح 166,000 .

وبلغ مجموع الخفض في الوظائف في الأشهر الأربعة الأولى من عام 2001 حوالي 421,000، وهو المستوى الأعلى في خمس سنوات .

- **الإيرادات:** كانت تقارير أفضل شركات الولايات المتحدة للربع الأول من 2001 هي الأسوأ في عشر سنوات ، فانتل - أكبر منتج في العالم لرقائق الحاسوب - وجنرال موتورز - أكبر منتج للسيارات في العالم - أفصحا عن تدهور أرباحهما الربعية

277

80%-90% ، كما أعلنت لوسنت تكنولوجيز عن خسارة 3,7 بليون دولار ، وديملر كرايسلر أعلنت عن خسارة 3,3 بليون دولار ، أما جيه. دي. اس. يونيفيز ، اكبر منتج لمعدات الألياف الضوئية ، فقد أعلنت عن زيادة في خسائرها للربع الأول من 2001 بلغت 5 أمثال خسائرها للربع الأول من عام 2000 ، كما عمد الكثير من الشركات إلى الخداع ، فأعلنوا عن أرباح قبل الفائدة والضريبة والاستهلاك.

- **المؤشرات الاقتصادية:** هوت معظم المؤشرات في الربع الأول من 2001 ، إلى مستويات لم تعرف في عقد أو أكثر ، ففي نيسان قال 38% من المدراء الصناعيين المشاركين في استفتاء الجمعية الوطنية لمدراء المشتريات ، بأنهم إما قلقون أو متشائمون ، وهذه أعلى نسبة للتشاؤم منذ بدء سجلات NAPM في 1962.

وكان صفوة مدراء صناعات التكنولوجيا أكثر تعبيراً :

: ستيف جوبز ، رئيس شركة أبل للحواسيب قال للمحللين في شباط 2001 : " إنني أعتقد بأن الاقتصاد يكابد انصهاراً نووياً" .

: هانز جيير ، نائب الرئيس في إنتل ، قال في 23 شباط 2001 معلقاً على مئات البلايين من الدولارات التي انفقتها صناعة الاتصالات لمجرد شراء التراخيص : ***"إننا نواجه وضعاً تتجه فيه الصناعة صوب الإفلاس ، حتى قبل عمل أول مكالمة UMTS (هاتف محمول الجيل القادم).*** [186]

: بيل آيلزورث ، الرئيس المالي لشركة تكساس انسترمنتس ، معلقاً على انخفاض طلبات الشراء من شركته بنسبة 37% للربع الأول ، قال في 17 نيسان 2001 : ***" إن هذا هو أكثر التباطؤات التي خبرتها صناعة أشباه الموصلات حدة على الاطلاق."*** [187]

278

: جون روث ، رئيس مجلس إدارة نورتل نت ووركس ، قال في النادي الكندي في تورونتو في 18 شباط 2001 ***: " إن هذا أعظم انكماش مفاجئ تخبره الولايات المتحدة على الاطلاق "*** [188]

: جون تشامبرز الرئيس التنفيذي لشركة سيسكو ، أكبر منتج لخدمات الانترنت ، قال في 17 شباط 2001 : ***" ليس مهماً ما يقوله الاحتياط الفيدرالي أو آخر الاحصائيات ، فما نراه ليس على الاطلاق هبوطاً ناعماً ، فاسأل أي شخص في الصناعة والتصنيع الاميركيين ، وسيقول لك إننا في ركود ".*** [189]***وفي 16 نيسان قارن تشامبرز ما كان يحدث بـ " فيضان مائة سنة أصاب قطاع التكنولوجيا " ليس فقط لأنها وقعت في حياتنا ، بل إن***

---

[186] Ibid.

[187] Ibid.

[188] Ibid.

[189] Ibid.

حجمها كان حوالي خمس أمثال ما كنا نحسبه ممكناً .. إننا لم نبن نماذج لكي نتوقع شيئاً بهذه الضخامه.." [190]

وبين 10 آذار 2000 ونهاية الربع الأول من 2001 ، هوت القيم السوقية لأسهم ناسداك من 6,7 تريليون دولار إلى 3,3 تريليون ، وهبطت أكبر ست شركات في ناسداك من ذروتها في 2000 (2,362 تريليون دولار) إلى 914 بليون ، وكما يلي"

118 بليون دولار من 590 بليون دولار - سيسكو سيستمز

360 بليون دولار من 640 بليون دولار - مايكروسوفت

072 بليون دولار من 145 بليون دولار - دل كمبيوتر

219 بليون دولار من 510 بليون دولار - إنتل

062 بليون دولار من 208 بليون دولار - صن مايكروسيستمز

83 بليون دولار من 260 بليون دولار - أوراكل .

279

أما الشركات الأميركية الخمسة آلاف ، والمكونة لدليل ويلتشاير المالي ، فقد غاصت قيمتها السوقية من 16,96 تريليون دولار إلى 11,6 تريليون ، محققة بذلك خسارة 5,34 تريليون دولار، بينما في. إيه. لاينوس سيستمز ، مثلاً ، وهي شركة حاسوب لا إيرادات لها بالمرة ، ولا سجل إنجازات ، ولا خبرة ، ولم يكن متوقعاً لها أن تجني سنتاً واحداً في المستقبل المنظور ، إلا أنها مع ذلك حققت في 1999/12/9- وهو اليوم الأول لطرح

---

[190] Ibid.

أسمها المبدئي للجمهور- زيادة بنسبة 700% ! هذه هي الكيفية التي ولدت بها الكثير من أساطير الاقتصاد الجديد المزعوم.

وفي تعليق له في مجلة بيزنس ويك ، لاحظ لويس في. جريستينر ، رئيس مجلس الإدارة ، والرئيس التنفيذي لشركة آي. بي. إم. (27 أذار 2000) بأن هناك ظاهرتان متمايزتان جداً ، إلا أن البعض يعاملهما كظاهرةٍ واحدة، في حين أنهما ليستا كذلك . " الظاهرة الأولى – والتي مضى عليها عدة سنوات الآن وهي تتنامى – هي هذه الانتقائية الغريبة ، وربما غير المسبوقة في الاستثمار ، فبعض شركات التكنولوجيا تتصاعد قيمها بمعدلات غير معقوله ، بينما كل شيء آخر في سوق المضاربات هو على منحدر الهبوط السعري . وطبقاً لمدير أحد صناديق الاستثمار المشتركة ، في 1999، فقد ارتفعت أسهم تلك الشركات دون أية إيرادات بنسبٍ بلغ معدلها 52% ، في الوقت الذي هبطت فيه أسهم الشركات ذات العوائد الحقيقية . وكنتيجة ، فإن الكثيرين من المدراء التنفيذيين للشركات التقليدية كانوا يتساءلون ما الذي يتوجب عليهم عمله كي يرفعوا أسعار أسهم شركاتهم." ويضيف جيرستنر : ***" أما الظاهرة الثانية فهي بالطبع ، العمل التجاري الالكتروني (e-business) ، إذ أنه حقيقةً يمنح المدراء التنفيذيين فرصاً غير عادية لتغيير تنافسية شركاتهم."*** [191]

وحتى في السنوات الزاهرة – افتراضاً – لتسعينيات القرن العشرين ، فلم تكن الأشياء فيها في الحقيقة زاهرة ، فبينما ارتفع مؤشر أسهم ستاندارد أند بوروز 500 بنسبة 50% ، كانت الأرباح أدنى من ذلك كثيراً . وفي 27 تموز 2001 - أي سبعة اسابيع قبل 11 أيلول 2001 - خفض إحصائيو الدولة تقديراتهم المستندة إلى أرقام حقيقية استلموها عن العوائد الضريبية التي تخص شركاتٍ كبيرة وصغيرة على حدٍّ سواء . وبينما كان المضاربون يعيشون أيام أوجهم ما بين 1995 والربع الأول من 2001 ، فإن البيانات المعدلة لا تظهر

---

[191] Louis V. Gerstner, Blinded by Dot-com Alchemy, *Business Week*, March 27, 2000, http://www.businessweek.com/2000/00_13/b3674111.htm

نمواً لدى الشركات غير المالية . كما أظهرت البيانات الجديدة للعوائد الضريبية للسنوات 1995 و 1999 ، والتقديرات المعدله لعام 2000 ، أن الشركات الصغيرة كانت تخسر بشكلٍ فادح ؛ وتشير حجوم خسائر الشركات الصغيرة إلى رقم مذهل لهذه الخسائر بلغ 300 بليون دولار ، أي 50% أكثر من رقم العام 1997 . وعلى هذا علق مايكل جيه. ماندل : " ومع توارد البيانات ، تستمر المراجعات ، إلا أن أمراً واحداً مؤكد : من الواضح أن المستثمرين يدفعون للأسهم أكثر ، ويتحملون مخاطر أكثر مما كانوا يعتقدون " [192]، وبكلماتٍ أخرى فإن المستثمرين قد سُلبوا من قبل مضاربي وول ستريت ، بينما يتم سحق الشركات الصغيره – سواء في أميركا أو أي مكان آخر - من قبل الرأسمالية الانجلو/أميركية ؛ كما أن المستثمر الصغير والأقل اطلاعاً وحصولاً على المعلومات ، هو من يتم سلبه في كازينو الاقتصاد الجديد و وول ستريت.

تساءل روبرت جيه ساموبلسون في تعليق له بمجله نيوزويك ، في 17 نيسان 2001 :" ما هو الاقتصاد الجديد ؟ .. يبدو أنه في الأساس ، حالة ذهنية ... قناعة.. على أنه من خلال معجزات التكنولوجيا... دخل الاقتصاد إلى بركات النعيم المقيم حيث الأمور كلها بشائر ولا مهالك . وكان أن أدت هذه الثقة الفائقة ذاتها إلى تعديل سلوك الاقتصاد ، مسببةً ازدهاراً في سوق الأسهم وفورة إنفاقٍ من المستهلكين . وبدا المستقبل مشرقاً إلى حد أصبح الناس معه أقل خوفاً... وحتى أقل تعقلاً وحرصاً ؛ وعكس تعثر سوق الأسهم الأسبوع الماضي هذه الثقة ، ولكن هنا تكمن أيضاً نقطة الضعف ، فإذا هز أي شيءٍ هذه الثقة الفائقة ، والتي تسنمت الأسهم ، فإن مبيعات التجزئة قد تهبط، وعندئذ قد يبدو الاقتصاد الجديد مثله مثل القديم ، فالناطق الرسمي باسم وول ستريت والإعلام المملوك لهم ، جمعوا معاً قوة أموالهم وقوة معلوماتهم ، ومن ثم أنتجوا الرأسمالية المعلومالية والتي أسموها " الاقتصاد الجديد " .

ص281

---

[192] Michael J. Mandel, "Where Did All the Profits Go?", *Business Week*, August 27, 2001, http://www.businessweek.com/magazine/content/01_35/b3746043.htm

قصة إنرون هي قصة " الاقتصاد الجديد " وقصة أميركا ، فرئيسها ، كينيث آي. ليه - وهو صانع ملوك - حاله حال بقية البارونات اللصوص ، والذين - عبر النفوذ والنقود - يصنعون أويكسرون السياسيين ، ويشترون المشرعين عبر قوة التبرعات المالية السياسية وجماعات الضغط ، وكان هذا صديقا حميما لعائلة بوش وواحدا من أكبر المتبرعين لحملاتها السياسية ؛ فقد حث الإدارة على تبني سياسة اللانظام للكهرباء ، وقبل اقل من سنةٍ من انهيارها كانت إنرون سابع أكبر شركة من حيث العائدات ، والتي بلغ مجموعها قرابة 101 بليون دولار في عام 2000 ، بينما بلغت قيمتها الرأسمالية في سوق الأسهم 63 بليون دولار . وكانت أسهم إنرون تتداول بيعاً وشراءً بسعر 21,5 دولار للسهم في 1996/12/31 ، بينما بلغت ذروتها السعرية في 2000/8/17 على سعر 90 دولاراً ، ثم هوت إلى 61 سنت في 2001/11/28 ؛ واتضح أن إنرون كانت مصنوعةً من ورق الشده (ورق اللعب) ، بينما كانت تتجر في كل شيء: الكهرباء ، الغاز ، المعادن ، الاتصالات ، ضمان الائتمان ، وحتى مضاربات الطقس . ولسببٍ غير واضح ، استقال الرئيس التنفيذي لإنرون جيفري كيه. كيلنج بشكل مفاجئ ، بعد إشغاله وظيفه الرئيس التنفيذي بستة أشهر ، ودون تقاضيه رواتبه ، وهو ما أضاف شكوكاً إلى مغادرته المفاجئة.

كانت إنرون مثالاً صادقاً عن الاقتصاد الطفيلي المضارب والمسمى "بالاقصاد الجديد" ، تمشياً مع مقتضيات التأنق اللفظي . وإذا كان لفظ طفيلي يبدو فظاً بعض الشيء ، فهوتعريفاً يعني العيش على الاخرين ؛ وفي حالتنا هذه ، يعني التطفل على الاقتصاد المنتج والعيش على حسابه . ***" وفي سالف الأيام عمل الناس من أجل الموجودات "*** [193]كما يقول جيف سكيلنج الرئيس التنفيذي السابق لإنرون ، ويتابع: "وقد عكسنا الآية – ما قلناه إن الموجودات تعمل من أجل الناس" . وقد كتبت بيزنس ويك (في 2001/12/17) ***":بالنسبة لجيفري كيه. سكيلنج ، الرئيس التنفيذي السابق لإنرون ، هناك نوعان من الناس في هذا العالم : اولئك الذين غنموا ، وأولئك الذين لم يفعلوا" . وكانت هذه هي استراتيجية إنرون المعقدة في سك ارباح وعوائد وفيره ، من المتاجره وإدارة المخاطر ،***

---

[193]The Fall of Enron, *Business Week*, December 17, 2001, http://www.businessweek.com/magazine/content/01_51/b3762001.htm

وهو العمل- المبني في الأساس - على أصولٍ مملوكة لأخرين" .[194] وحسب قول أحد كبار المدراء التنفيذيين لإنرون: ***" كانت نظرية جيف هي أن الأصول الثابتة رديئة ، أما الرأسمال الفكري فجيد ."*** [195]وطبقاً لبيزنس ويك ، فقد كانت استراتيجية إنرون

282

" نمت إلى درجةٍ من التعقيد ، لم يعد معها في طاقة الرئيس (سكيلنج) الإحاطة بها وتوجيهها. " [196]وتضيف بيزنس ويك مثيرةً الدهشه : ***" ولا حتى في طاقة آخرين كثيرين ، فقد فشل مصرفيون ، ومحللو أسهم ، ومدققون ، وحتى مجلس إدارة إنرون أنفسهم ، في إدراك وفهم المخاطر الكامنة في الاتجار ، المبني على الاقتراض الكثيف ، لدى عملاق التجارة هذا ."*** [197]وتظهر وثائق طلب إفلاس إنرون 13,1 بليون دولار من المديونية للشركة الأم ، و18,1 بليون دولار للشركات التابعة، و20 بليونا من الدولارات خسائر موجودة خارج الميزانية . وقد تم الكشف عن أن سكيلينج وآخرين من كبار إداريي إنرون قد باعوا أسهمهم بأسعار جيده ، بينما كانوا يرون أن الأمورتخرج عن نطاق السيطرة ؛ فإذا كان هذا صحيحاً - ولا يملك المرء سبباً ليشك بأنه ليس كذلك .. فأضف الكثير من " الانرونات" معاً وستحصل على " اقتصاد الولايات المتحدة الجديد " .. وهو اقتصاد لا يفهمه أحد ولا إلى أين يؤدي: لا وول ستريت ، ولا أصدقاؤهم الحميمون في واشنطن . وكما حصل في حالة انرون ، فإن معظم المعاناة سيتحملها أمثال المائة مليون أميركي - من طبقة المستثمرين الجدد - والتي تم الترحيب بها إلى الاقتصاد الجديد ، ولكن بأسلوب وول ستريت في الترحيب ! إن ما يحرك العالم هو أميركا ، وما يحرك أميركا هو وول ستريت ، وما يحرك وول ستريت هو القلق والجشع.

---

[194] Ibid.

[195] Ibid.

[196] Ibid.

[197] Ibid.

ويأمل المرء بأن بوش الابن سوف لن يلوم أسامه بن لادن عوضاً عن لوم صديقه والمتبرع لحملته كينيث ليه ، عن مشاكل إنرون . وإذا كان صحيحاً أن الاقتصاد الرأسمالي الأميركي احتاج دائماً إلى الحروب كي يتخلص من الركود والكساد والاضطراب الاقتصادي ، فإنه يتبدى أن 11 أيلول ، وحرب السنوات العشر التي وعد بها بوش بعدها بقليل ، كانت ضرورة تم استحضارها، إن لم يكن من قبل أسامه بن لادن ، فمن قبل شخص آخر أكثر قوةً وسلطاناً . وأراد البارونات اللصوص تشتيت انتباه الجماهير – طبقة المستثمرين – بعيداً عن سبب مشاكلهم ، وأتى 11 أيلول ليصبح بذلك سلاح " تشتيت الانتباه الشامل " .

21

ويعتبر مجلس نيويورك حول العلاقات الخارجية (CFR) ،واحداً من أعظم المؤسسات نفوذاً في الولايات المتحدة ، ففيه تدرس البدائل السياسية . وفي معظم الحالات ، تعتمد تلك البدائل التي يوصي بها المجلس (CFR) ، وتصبح سياسة وأجندة مؤسسة السلطة ، وتصبح تلك الأجندة الخطة والبرنامج للرسميين المنتخبين والذين يدنيون بوظائفهم لنفوذ وتبرعات مالكي مؤسسة السلطة .

285

في 12-13 تموز 2000 ،أجرى مجلس نيويورك حول العلاقات الخارجية CFR سيناريو بعنوان " الأزمة المالية التالية : العلامات التحذيرية ، التحكم في الضرر ، وأثر الصدمة " ، وتضمنت السيناريوهات الأبكر والتي لم يتم الاعلان عنها للجمهور ، كيف أن هجوما ارهابيا رئيسياً يمكن أن يسبب انصهاراً في نظام ذو طبيعةٍ متقلبة ومتطايرة للغاية ؛ وكان السيناريو جزءاً من تقدير عام حول " مشروع مكامن الضعف المالية " . وافترض السيناريو العمومي ان رئيس الولايات المتحدة يتم إفقاده قدراته ، وأنه لذلك ، يتوجب على "المؤسسة" أن تتدخل . ومن المثير للاهتمام أنه عندما وقعت هجمات 11 أيلول ، تسلم نائب الرئيس الزمام ، وذهب إلى غرفة معالجة الأزمات برفقة "المؤسسة " ، حيث أن رئيس الولايات المتحدة كان خارج واشنطن ، في فلوريدا . وبالطبع ، أبقى تشيني رجل المؤسسة الأكثر حصافةً ، الرئيس مطلعاً على الأحداث ، وأبقيت الأسواق المالية تحت سيطرةٍ معقوله ، مع أخذ مجريات الأحداث بالاعتبار . وفي 14 أيلول 2001 ، حدث المجلس (CFR) ، سيناريو عام 2000 في اجتماع انعقد في فندق ريجيس في واشنطن العاصمة ، وسمي هذا الاجتماع " هيئة الولايات المتحدة حول الأمن القومي في القرن

الحادي والعشرين : ما بعد الهجوم .. حالة جديدة من الاستعجال الملح ." وكان آرجيمس وولسي الرئيس السابق لوكالة المخابرات المركزية ، واحداً من أعضاء مجلس العلاقات الخارجية (CFR) الذين لعبوا دوراً هاماً في " مشروع مكامن الضعف المالية " ، وشجع المجلس (CFR) على إعادة تنظيم المخابرات ومنظمات إدارة الطوارئ . واستجاب بوش الصغير لذلك ، وفي غضون الأيام الثلاثة التالية كانت " وكالة دفاع الأمن الوطني " قد أعلنت ، وسمي ثوماس ريدج - حاكم بنسيلفانيا - لرئاسة الوكالة NDSA ، وأعطي وضعية عضو مجلس وزراء . وكان نيوت جينجريتش - الرئيس السابق للمجلس التشريعي - مشرفاً على فترة الأسئلة والأجوبة في اجتماع 14 أيلول ، حيث قال بأنه " لقصم ظهر الإرهاب المدعوم من دول ، فإنه لا بد من القيام بحملةٍ عسكرية لمدة سنتين أو ثلاث. *" وأضاف " إننا في حالة حرب" .*[198] وثابرت هيئة العلاقات الخارجية (CFR) ، والاعلام وبقية جوقة مؤسسة السلطة ، على حشد وتهيئة جماهير الشعب الأميركي للحرب .. حرب طويلة قد تأخذ سنتين إلى ثلاث - حسب جنجريتش - أو سنوات كثيرةٍ أخرى طبقاً لبوش الصغير.

286

وفجأةً ، عزيت جميع مشاكل وعلل وول ستريت ومأجوريه في واشنطن إلى أحداث 11 أيلول ؛ وطبقاً للكثيرين ، فإن أحداث 11 أيلول كانت بركةً على وول ستريت .. فبعد اسابيع قليلة من أحداث 11 أيلول ، كتب روبرت جيه بارو - وهو أستاذ اقتصاد في جامعة هارفارد وزميل بارز في معهد هوفر- كتب في مجلة بينرنس ويك *" إن استنتاجي الرئيسي هو أن الحرب (على الإرهاب) الجارية حالياً ستكون توسعية ، ولذلك فإنها ستساعد اقتصاد الولايات المتحدة على استعادة عافيته من حالة تباطؤه الحالية ".*[199] وهذا مطابق لحالات مماثلة كالحرب العالمية الثانية ، وحرب كوريا وحرب فيتنام. ..أهي مجرد مصادفة؟.. على الأرجح لا : في تموز 1990 دخلت الولايات المتحدة في ركودٍ

---

[198] http://www.cfr.org/publication/4049/national_security_in_the_21st_century.html

[199] Robert J. Barro, "Why the War against Terror will Boost the Economy", *Business Week*, November 5,2001, http://www.businessweek.com/magazine/content/01_45/b3756038.htm

اقتصادي ، وفي آب من العام نفسه 1990 بدأ غزو العراق ، وكان أن خرجت الولايات المتحدة من الركود الاقتصادي بعد حرب الخليج ، أما جيمس بيكر الثالث فأبلغ الكونجرس أن الأزمة مع العراق " تتعلق بالوظائف " ، وطبقاً لدراسة بارو كان 11 أيلول عاملاً إيجابياً للاقتصاد وليس سبباً لمشاكله.

288

وحتى يكدّس السلاح لحروب إدارته المأموله والمخطط لها ، لحساب الأمبراطورية الأميركية الجديدة ، باشر بوش الصغير زيادات ضخمة للإنفاق الدفاعي ؛ وكان هذا التوقيت، في الربع الأول من 2001 ، هو أيضاً الوقت لضخ النقود في اقتصاد الولايات المتحدة . وبلغ ما اشترته وزارة الدفاع في شباط 2001 ، 6,832 بليون دولار أي بزيادة 25% عما كانت عليه في كانون الثاني ، أما في شهر آذار فارتفع الرقم بشكل حاد ليبلغ 11,196 بليون دولار ، بزيادة 64% عما كان عليه في شهر شباط السابق . كما أعلن عن برنامج بقيمة 50 بليون دولار"لحروب الانترنت" ، لمنع الهجمات ضد الانترنت والرد عليها ؛ بينما استمرت مصروفات وزارة الدفاع على الدبابات والسفن والقذائف الصاروخية . وعلى كل حال ، وعلى الرغم من هذه النفقات المستيئسة ، استمر الاقتصاد في التدهور .

11 أيلول – ليس هناك من هو أكثر عمىً ممن لا يريد أن يرى

تكتظ الولايات المتحدة الأميركية بأعظم القدرات الاستخبارية والفنية ، وأكثرها تعقيداً وتطوراً في العالم ؛ كما أن لديها الكثير من وكالات الاستخبارات ، وليس واحده ، وهي تعمل على المستويين المحلي والدولي ،كما تملك أنظمة بالغة التطور للتنسيق الشامل والفعال بين هذه الوكالات والتي منها : وكالة المخابرات المركزية (CIA) ، ووكالة مخابرات الدفاع (DIA) ، ومخابرات الجيش ، والبحرية ، والقوات الجوية ، ووكالة مخابرات وزارة الخارجية ، ومكتب المخابرات والبحوث (INR) ، ومخابرات هيئة الطاقة النووية ، ومكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) ، ثم ، وليس الأقل ولا الأخيرة ، وكالة الأمن القومي (NSA) التي ترتب وتنسق النظام فيما وراء البحار ، كما تراقب جميع الاتصالات الخاصة والحكومية بواسطة تكنولوجيات متقدمة للغاية . وهي ذراع التنصت الالكتروني

لمخابرات الولايات المتحدة الأميركية ؛ ولقد نبهت الرئيس كلينتون وحذرته من أن سفارة دولة أجنبية معينة ، كانت تتنصت وترصد محادثاته مع لوينسكى ، وبناءً على هذه الحقيقة أوقف كلينتون مثل هذه المحادثات الهاتفية . وعندما أنكر الاتحاد السوفياتي أنه أعطى تعليمات اسقاط الطائرة الكورية

289

المدنية التي حلقت فوق الأراضي الروسية ، أذاعت وكالة الأمن القومي (NSA) ، كامل الاتصالات بين طيار الميغ الروسية وقيادة المحطة الأرضية التي أمرت الميغ بإسقاط الطائرة المدنية . وحتى في المراحل المبكرة من التصوير الفوتوغرافي عبر الأقمار الصناعية ، وبواسطة تعزيز وتوضيح الصورة ، كان بمقدور أقمار الوكالة (NSA) إحصاء الدبابات السوفياتيه ، وعبر تنقية الصورة الأساسية كان بمقدورهم تحديد حالتها التشغيلية . ويتوفر لدى الولايات المتحدة ووكالة أمنها القومي سفن تجسس في المحيطات ، وأقمارا صناعية ، وطائرات إيواكس (AWACS) في السماء ، على مدار الساعة وحول العالم ؛ ويتم اعتراض وتصنيف التخابر الهواني جميعه : من وإلى الولايات المتحدة ، ومن ثم إحالته إلى المختصين . وفي مقر رئاسة وكالة المخابرات المركزية ، وفوق بلاطة من الجرانيت تزن سبعة أطنان ، يقبع جهاز المقارنات .. لعزل آليته الحساسة عن اهتزازات البناية . وفي لانجلي - مقر رئاسة المخابرات المركزية الأميركية ، وفي غرفةٍ تضاهي في مساحتها مساحة ملعب كرة قدم ، يجثم الدماغ وهو مزرعة أقراص حاسوبية مدمجة ، زائداً سبع صوامع عملاقة ، تحتوي كل منها 6000 شريط حاسوب مغناطيسي ، يتم تحميلها آلياً بواسطة الروبوتات . ويتم تغذية عشرات الآلاف من الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية ، إلى حاسوب مزرعة الأقراص المدمجة هذا ، والعائدة لحواسيب كري 4 إم. بي. الفائقة ، والتي تعيد تشغيل رسوم متحركة للشوارع ، والأسواق ، والبنايات ، أو أي شيءٍ آخر ترغب الوكالة (CIA) ، أو عملياتها في رقابته . وتستطيع وكالات المخابرات اقتحام أجهزة الحواسيب الشخصية ، أو الحواسيب الفائقة ، ونسخ محتوياتها دون الحاجة للتواجد بدنياً في مواقع هذه الحواسيب ؛ كما يمكن بواسطة شعاع صغير غير مرئي ، يرسله جهاز ارسال على مبعدة مئات الأقدام من نافذة .. تقوية اهتزازاتها وتسجيل الأحاديث الدائرة داخل الغرفة، هذا إضافة إلى الكثير من الابتكارات والفتوح التكنولوجية التي لم يعلن عنها.

وبعد هجمات 11 أيلول مباشرةً ، أعلنت حكومة الولايات المتحدة ... أن رجلاً يعيش في كهفٍ على مبعدة نصف العالم ، كان مسئولاً عن هذه الهجمات ، وأن جميع هذا الجيش من وكالات المخابرات، قد تم استغفاله والتفوق عليه ، من قبل هذا الرجل الخارق " السوبرمان " . وكان هذا السوبرمان المزعوم هو أسامه بن لادن ، وهو بليونير سعودي المولد ، تم استدراجه واستمالته من وكالة المخابرات المركزية ، للجهاد ضد شيوعيي الاتحاد السوفياتي الكفره الذين غزوا أفغانستان . ومع أن دوافعه حقيقةً كانت شن جهادٍ لتحرير بلدٍ مسلم ، فقد نسق نشاطاته مع الوكالة (CIA) ، "بسبب قناعاته" وليس طلباً لأعراضٍ دنيوية ، ولهذا فإن تركيبته السيكولوجيه النفسية ، وموارده وقدراته التنظيمية لابد وأنها جميعا كانت معروفة بدقة للوكالة ولمجتمع المخابرات الأميركية . وبما أن الوكالة (CIA) ، تخترق الأصدقاء والخصوم على السواء ، فإنه من المعقول الافتراض بأن منظمة بن لادن كانت مخترقة - بشكل كثيف - أثناء وبعد الحكم السوفياتي لأفغانستان . وكذلك كان معلوماً أن طالبان كانت من صنع مجتمع المخابرات الباكستاني ، والذي يملك علاقةً " خاصة" جداً وروابط مهنية وتكنولوجيه مع الوكالة (CIA) ، وبنفس الدرجة من الأهمية فإن لدى مجتمع المخابرات الأميركية نظاماً تنفيذياً ، يعود بتاريخه إلى إدارة كلينتون ، لمراقبة بن لادن والقاعدة . ويجعل هذا من المستحيل على القاعدة أن تقوم بأية تحركات غير مرصوده ؛ ويدعم هذا الافتراض ما أعلن في أيار 2002 من قبل الديموقراطيين ، بأن مجتمع المخابرات أطلق التحذير تلو الآخر قبل 11 أيلول ، عن هجوم وشيك ، حتى أن برج التجارة العالمية كان ذكر بالاسم نصاً كهدفٍ مرجح ؛ وطبقاً للرواية الأميركية الرسمية ، فإن أسامه بن لادن ، من كهفه ، قد استغفل وتفوق على القوة العظمى الوحيدة في العالم ، ووكالات مخابراتها الخمسة عشر.

291-290

الفصل الحادي عشر

العولمه: مشروع حكومة العالم الواحد

"المصارف !.. لقد تمّ الحمل بها جوراً وظلما.. وتمت ولادتها في حمأة الخطيئة ... يملك المصرفيون الأرض .. خذها منهم ، ولكن اترك لهم القوة على خلق النقود.. وبجرة قلم سيخلقون من الودائع ما يمكنهم من إعادة شرائها . وعلى كل حال ، خذها منهم ، وستختفى

جميع الثروات الكبيرة مثل ثروتي ، والتي يلزم لها أن تختفى ، ليصبح هذا العالم أكثرسعادة ، وأفضل للعيش فيه ، ولكن إذا كنتم ترغبون في أن تبقوا عبيداً للمصرفيين وأن تدفعوا ثمن عبوديتكم ذاتها ، فاتركوهم يستمرون في خلق النقود".

سيرجوشياه ستامب / التايم في 1927 / ثاني أغنى رجل في انجلترا ، ورئيس سابق لمصرف أنكلترا (Bank of England) – عن دائرة معارف ويكي بيديا- الانترنت.

في افتتاحية لمجلة لايف في العام 1941 تحت عنوان " القرن الأميركي " ، أعلن ناشر التايم هنري لوس الهدف الأميركي بالسيطرة على العالم ، وتم هذا الإعلان في بداية الحرب ، حيث كتب : ***" علينا أن نقبل بشغفٍ وإخلاص واجبنا..وفرصتنا - بصفتنا الأمة الأقوى والأكثر حيوية في العالم – وتبعاً لذلك علينا ممارسة نفوذنا الكامل على العالم ، لتلك الأغراض والمقاصد التي نرتئيها ، وبالوسائل التي نرتئيها."*** [200]

292

ولقد أعيدت طباعة الافتتاحية وتم تداولها على نطاقٍ واسع ، وظهرت بكاملها في الواشنطن بوست، فضلاً عن مجلة الريدرز دايجست الواسعة الانتشار بهدف إيصالها لأوسع جمهور على نطاق العالم. كما جادل - وعلى صفحات اللايف - لصالح حرب ذرية اجهاضية ضد الاتحاد السوفياتي ، على الرغم من عدم ايراده لهذه الجدلية في افتتاحيته تلك.

ومن المثير الملاحظة بأن جورج دبليو. بوش رجع صدى كلمات لوس.. ***" واجبنا وفرصتنا "*** [201] في خطابه بكليه وست بوينت العسكرية ، والذي أعلن فيه مبدأ بوش في " الحرب

---

[200] *LIFE* magazine, Feb 17, 1941, Vol. 10,No. 7, p. 63, Time Inc

[201] Ibid.

الاجهاضية الاستباقية" ، مما يلمح إلى أن النخبة الأميركية تشترك في شاغلٍ قديم ، هو السيطرة على العالم ، وحق المبادرة والاستباق . ويبدو أن حق المبادرة والاستباق هذا - وبكل تأكيد - قد صبغ الكثير من النزاعات الموحى بها أميركياً ؛ ويمكن المجادله بأن الحرب الباردة ، وحروب وكالة المخابرات المركزية الخفيه ، والحروب الأميركية العلنية .. كانت في معظمها دون استفزاز ، وشنت بمبادرة استباقية ، وحوربت في الأغلب الأعم .. استناداً إلى ذرائع زائفة . وليس أمراً عرضياً تبني إسرائيل - الحليف الوفي المخلص لأميركا! - لمبدأ الاجهاض الاستباقي ، قبل أن يجعل منه جورج بوش سياسة أميركية رسمية . وعندما يدعي الناس بأن اصحاب النفوذ ، ومحركي الأحداث ، في النظام الرأسمالي العالمي .. تآمروا لخلق " حكومة العالم الواحد" ، فسرعان ما يردون بأن هذه المزاعم ليست سوى " نظريات المؤامرة" .

وبعد انهيار الشيوعية أصبح بناء إمبراطورية عالمية يسيطر عليها الأميركيون سرّاً شائعاً – وأخذ الرسميون الأميركيون بالتحدث عنها علناً بدءاً بجورج الأب. واستمر إنشاء هذا الصرح العالمي الجديد خلال سنوات كلينتون ، ولكنه سُرع وأصبح معلناً خلال فترة جورج دبليو بوش ، تحت ذريعةٍ أو أخرى، بما في ذلك الحرب المزعومه على الارهاب ، والتي يسميها الكثير من الناس حول العالم "حرب الإرهاب" . ومبدأ بوش ليس سوى حجر بناءٍ واحد في إنشاء هذا النظام

293

العالمي الجديد ، والذي أصبح يستند إلى الاجهاض الاستباقي والتفرّد . ولإعطاء القائلين " بنظرية المؤامره " مادة للتفكير نذكر أن بوش الأب و بوش الابن ، انتميا كلاهما إلى جمعية " الجمجمه والعظام " فائقة السرية (Skull & Bones)، والتابعة لجامعة ييل Yale ؛ وكان هنري لوس ينتمي إلى نفس الجمعية ، والتي كانت شديدة السرية إلى حد أنها فرضت على أعضائها مغادرة الغرفه ، أو المكان الذي يرد فيه ذكرها على لسان أحدٍ من غير أعضائها ، كذلك .... فإن كلينتون هو أحد خريجي جامعة ييل ، والتي لا زال شعارها يتضمن كتابةً بالعبرية حتى اليوم.

إيسايا بومان ، وهو الرجل الذي قاد مجموعة دراسات الحرب والسلام التي بنت نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وأرست البنية التحتية .. المالية والسياسية له ، هذا الرجل رعى مطبوعةً لروبرت شتراوس – هيوب ، مؤسس معهد بحوث السياسه الخارجية (FPRI)

عام 1955 ، والذي ابتدأ كجزء من جامعة بنسيلفانيا. وفي 1957 بدأ شتراوس – هيوب نشر ربعية "أوربيس"، وهي مجلة تتعاطى الشؤن العالمية . وكان في مجلس تحريرها ويليام ياندل اليوت ، من كلية دراسات الحكومة في جامعة هارفارد ، وتلميذه هنري إيه. كيسينجر ، وكلاهما عضو مؤسس في مستشاري مجلس التحرير . وكانت رساله هذا المعهد بعيدة المدى ، هي تشجيع إقامة امبراطورية أميركية ، دون دول قومية ، في عالم ما بعد الاتحاد السوفياتي .

وكانت افتتاحية العدد الأول من أوربس ، بقلم شتراوس هيوب وبعنوان " ميزان (قوى) الغد " (أعيدت طباعتها في عدد شتاء 1922)، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي بقصد إعادة تأكيد التزام معهد بحوث السياسة الخارجية FPRI برسالة تأسيسه الامبراطوريه: ***" إن المسألة الماثلة أمام الولايات المتحدة ، هي توحيد العالم تحت قيادة أميركا خلال هذا الجيل ، أما كم هي الفاعلية و السرعة التي ستحقق بهما الولايات المتحدة ذلك ، فسيقرران أمر بقاء الثقافة الغربية من عدمه .. وكذا – وكما يمكن ادراكه - بقاء النوع البشري من عدمه .. فهل سيكون النظام العالمي القادم هو الامبراطورية الأميركية ."*** [202]

أما التهديد الجديد لهذه الرؤية وللإمبراطورية الأميركية الجديدة ، فسيكون مصدره آسيا طبقاً لمقالة أوربس : ***" الإمبراطورية الأميركية والجنس البشري لن يكونا نقيضين ، وانما وببساطة ، سيكونان مجرد اسمين للنظام العالمي.."*** [203] ويقع معظم العالم الإسلامي والصين في آسيا.

294

---

[202] Orbis, Volume 1,*Science Direct*, Foreign Policy Research Institute, University of Pennsylvania. International Relations Graduate Group, Foreign Policy Research Institute, 1966, 14.

[203] Ibid.

وهؤلاء ليسوا أناساً عاديين ، ولكنهم أناسٌ أحضروا إلى مراكز السلطة الأعظم نفوذاً في أميركا وهم يحملون هذه الرؤية - ومن الواضح - لغرض تنفيذها ؛ فالكلمات والعبارات المستخدمة بعيدة جداً عن الغموض :" إن المسألة الماثلة أمام الولايات المتحدة هي توحيد العالم تحت قيادتها خلال هذا الجيل .. فهل سيكون النظام العالمي القادم هو الامبراطورية الأميركية العالمية ؟ لابد له أن يكون ذلك – إلى الحد الذي يحمل فيه دمغة الروح الأميركية".. ياندل إليوت ، ملهم وأستاذ أبطال صراع الحضارات ، هنتنجتون ، كيسنجر ، بريزنسكي ، كانوا في مجلس التحرير المؤسس ، بمن فيهم هنتنجتون نفسه، وأيضاً استاذ الجيوبوليتكس في جامعة برنستون البريطاني برنارد لويس (كان هو أول من صاغ مصطلح صراع الحضارات) ، كانوا في المجلس الإستشاري لمعهد بحوث السياسه الخارجية FPRI ؛ وبعد انهيار اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، بدأت الولايات المتحدة علانية اندفاعتها لتنفيذ النظام العالمي الجديد : " امبراطورية أميركية عالمية " باستخدام كلمات أوربس بالضبط.

وخلصت مجموعات دراسات الحرب والسلم إلى أن الاستعمار المباشر ليس مرغوباً فيه ، كما أنه ليس ضرورياً ، وهذا الشكل الجديد من الامبرياليه له متطلباته القبلية ، التي لا بد منها كي يعمل بشكل صحيح:

- تأمين متطلب التجارة الحرة ، كي تصبح الأسواق العالمية مفتوحةً للشركات ، وبذا يستبدل عصر الاستعمار عن طريق الاحتلال الفعلي لدولٍ أخرى ، بعصر استعمار الشركات، والذي يمتاز عن الاستعمار المباشر بأنه غير مباشر ، وأكثر مراوغةً وغدراً ، ويكاد يكون خفياً غير منظورٍ تقريباً .
- إمكانية الوصول الحر إلى المواد الخام العائده لشعوبٍ وبلدان أخرى ، دون ضغوط تعود للسعر أو الكمية.
- يد طليقه للممولين (الرأسماليين) كي يستثمروا ويحصّلوا أرباحهم دون عوائق
- المؤسسات الدولية والمالية اللازمة لإدارة الرؤية العالمية الجديدة.

وفي 1945 قررت الولايات المتحدة وقف سياسة الإعارة والتأجير ، ليس فقط فيما يخص الاتحاد السوفياتي وإنما بريطانيا أيضاً ، وكان ذلك على الأرجح مفهوماً فيما تعلق بالاتحاد

السوفياتي ، إلا أن البعض قدر أنها أيضاً كانت رسالةً إلى بريطانيا بأن عهداً جديداً قد بدأ ، وأن النظام العالمي لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، هو الآن قيد الإنشاء ، وأن الزمام هو بيد الولايات المتحدة . وما أن تم إيضاح ذلك ، حتى أصبحت إعادة بناء أوروبا أولوية أميركية ؛ وفي 1948 وافق الكونجرس على مشروع مارشال ، وخصصت لذلك حزمة معونات من 17 بليون دولار.

ودعا مشروع مارشال إلى تسريع و تبسيط الإجراءات الحكومية ، وإزالة العوائق أمام قوى السوق (deregulation) ، كما دعا إلى تنامي توجهات الوحدة الأوروبية في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية على الأقل ، وأقيمت منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي (OEEC) ، وفي 1961 حُولت إلى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) وفيها الولايات المتحدة وكندا عضوان كاملا العضوية ، ثم أقيمت السوق الاقتصادية الأوروبية والتي عرفت أيضاً باسم السوق المشتركة في العام 1975 خالقةً بذلك منطقة تجارةٍ حرةٍ كبرى ، وكان الأعضاء الستة الأصليون هم فرنسا ، ألمانيا الغربية ، إيطاليا ، بلجيكا ، هولندا ولوكسمبرغ ، وأضيف المزيد من البلدان في السنوات التي تلت ، أما قلب الدفاع الغربي في أوروبا ، فمنظمة معاهدة شمال الأطلنطي (NATO)، والمعتمدة بشكل كبير على الولايات المتحدة .

جون جيه ماكلوي..رجلٌ ينتمي لعوالم عدة ، فهو أحد مؤسسي لجنة العلاقات الخارجية CFR ، ومفوض ألمانيا بعد الحرب ، رئيس مجلس إدارة مصرف تشيس ، محامي سابق لشركة ستاندارد أويل ، وهو الذي أحضر هنري كيسنجر في أواخر خمسينيات القرن الماضي لتطوير الخيارات السياسية للجنة العلاقات الخارجية CFR ، وكيسنجر ، وهو يهودي ألماني المولد ، كان أعيد إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث خدم في إدارة الاحتلال الأميركية لألمانيا .. حتى عندما كان ما يزال شاباً يافعاً في العشرينيات من عمره ، وكان الخيار الذي تبنته لجنة العلاقات الخارجية ، هو أن يعتبر المصرفيون والشركات متعددة الجنسية ، العالم بكليته ميدان نفوذهم ، وليس فقط نطاق الولايات المتحدة ، وتم توظيف الإعلام وقوة التلفزيون الوليد لنشر وإشاعة هذه الرؤية.

296

As a result of this vision, between 1957 and 1965, the U.S. annual net capital export to Western Europe went up from an

annual $25 billion to almost twice as much. This money and its profit remained in Europe and became known as the Eurodollar. To finance Vietnam, the United States simply printed more dollars by selling more U.S. Treasury bonds to finance the deficit. The deficit kept increasing, going from $3 billion annually at the beginning of the 1960 to $9 billion in 1967 and $25 billion in 1969! The United States, with its gold reserves depleting, asked European central banks to keep the dollars in Europe and not to redeem them in gold but collect interest on them instead. A few years later, the U.S. cancelled the Bretton Woods agreement and with it the redemption of dollars into gold, thus ripping off those who kept U.S. dollars of their wealth, as their dollars became worth only a fraction of what it was when $35 traded for an ounce of gold.

Young American President Kennedy met de Gaulle in May 1961. They were each impressed with the other, and Kennedy, in a "Report to the American People" on June 6, 1961, described de Gaulle as a "wise counselor" for the future and "an informative guide to the history that he had helped to make". The Anglo-Saxon Shadow Establishment was unhappy and expressed its displeasure at such a confidence. Among the

advice de Gaulle gave Kennedy was the French Vietnam experience. Kennedy's advisors concurred and Kennedy started seriously considering disengagement from Vietnam. Also, Kennedy was not pleased with the money departing the United States and residing in Europe with its profits, and he started the process to enact a tax on these funds so they would return home. In a message to Congress, dated July 18, 1963, he proposed imposing a 15 percent "interest equalization tax" on money abroad, so that export of manufactured products, not dollars, is encouraged. He did not live to see it through. One more event for the conspiracy theorists to think about! Kennedy apparently had a perception of the America he wanted that was different from that of being the Anglo-Saxon transnational barons. On November 22, 1963, Kennedy was assassinated in Dallas, Texas. The last poll by Time and CNN, conducted 25 years after his assassination, revealed that 70 percent of the Americans believed a conspiracy was behind the assassination and did not accept the official, lone assassin theory provided by the Warren commission and the U.S. government.

President Lyndon Johnson, the career politician who always believed that it was better to have a skunk with you inside the tent pissing out than having it outside pissing in, maintained the status quo for the Eurodollars, and he escalated the Vietnam War.

In 1959, the U.S. gold reserves approximated its external dollar liabilities, estimated at $20 billion. By 1967, external liabilities went up to $36 billion, while gold reserves plummeted down to $12 billion – a third of the liabilities. The Eurodollars ballooned to $1.3 trillion in the early 1970s, and it had no gold cover and was offshore. It was solely under the control of the transnational financial and corporate barons. It was unregulated and it dictated the age of deregulation that followed.

In May 1971, the first U.S. post-World War II trade deficit was posted. Gold reserves were less than a quarter of U.S. official liabilities and the United States announced, on August 15, 1971, the suspension of the dollar convertibility into gold, putting the world on dollar standard with no gold backing. That was the end of the Bretton Wood system. In order to

prepare for the new petrodollar floating non-system, Jack Bennett was loaned to the Nixon Treasury department in 1971, and Paul Volcker came from Wall Street. Lord Victor Rothschild, the head of strategic research at Royal Dutch Shell, was brought to lead the British Prime Ministry's "Central Policy Review Staff". He influenced the British Prime Ministry's energy policies and maintained liaison with Henry A. Kissinger during the critical oil-shock years.

In order to make the North Sea and Alaska oil reserves feasible to produce, oil prices were engineered to quadruple by staging the Yom Kippur War. This decision was taken in May 1973, six months before that October 6, 1973 war which led to the oil price increase. Most of the decades of the 1970s and 1980s were consumed to create a new global financial economy based on fiat money and to enforce deregulation through Reaganomics at one side of the Atlantic, and Thatcherism at the other.

On August 23, 1990, three weeks after the Iraqi invasion of Kuwait, Brent Scowcroft, President George Herbert-Walker Bush's national security advisor, used the term "New World

Order" for the first time. He told reporters: "We believe we are creating the beginning of a New World Order out of the collapse of the U.S.-Soviet antagonisms."[204] The president addressed the U.S. Congress a few weeks later, on September 11, 1990:

A new partnership of nations has begun .... The crisis in the Persian Gulf, as grave as it is, also offers a rare opportunity ... Out of these troubled times, ... a new world order - can emerge...[205]

ص297 الى 299 غير مترجم

كان رئيس اختصاصيي الشؤون السوفيتيه العامل تحت إمرة سكوكروفت هو كوندوليزا رايس، وكانت تعرف الاتحاد السوفياتي أصلاً وفصلاً (محتداً ومخبراً) ، ورأته يتفكك ، فوضعت خطة التعامل مع هذا الوضع .. مع كيفية ضمان وقوع أشلاء الاتحاد السوفياتي حيث تشاء لها الولايات المتحدة ذلك ، وبحيث ينبثق نظام رأسمالي يمكن ربطه مع الرؤية الأميركية العالمية الجديدة . ولاحظ سكوكروفت في كتابه " عالمٌ تحول " ، بأن " كوندى " رايس رأست فريق أمنٍ قومي ، وارتأت بأن الولايات المتحدة تملك قوة ضغط على موسكو ، بسبب حاجة الأخيرة لموارد الغرب الاقتصادية ولمعارفه ؛ وفي مذكرة تدعيمية في ذلك

[204] George H.W. Bush, *Washington Post*, May, 1991

[205] http://www.milestonedocuments.com/document_detail.php?id=87&more=fulltext

الوقت ، ذكرت رايس بأن الاتحاد السوفياتي في حالة من الاضطراب ، وأنه يتطلع الى العالم الخارجي طلبا للأفكار والموارد ، لبناء نظامه المتهاوي، وأرادت الولايات المتحدة أن تحصل روسيا على الفكرة الصحيحة ، وتأسيساً على توصيات رايس ضمن مجلس الأمن القومي ، قررت إدارة بوش أن لا يحصل الاتحاد السوفياتي/روسيا على أية معونة من الولايات المتحدة ، إلى أن تقبل روسيا الالتزام الكامل بشروط صندوق النقد الدولي ، والمسماه أيضا اشتراطات "اجماع واشنطن" ، للطريقة المعروفة جيداً باسم العلاج بالصدمة ، لا فرق في ذلك بينها وبين بنغلادش أو نيجيريا . والعلاج بالصدمة هذا طوح بالاقتصاد الروسي من وضعية قوة عظمى في حالة " ركود" ، إلى وضعية بلد من العالم الثالث ، تقلص اقتصاده إلى أقل من إجمالي الناتج القومي لبلدٍ متطور صغير كهولندا . وبعد " عقد من الاصلاحات " ! .. لكن الأمر المهم الآن هو أن روسيا أصبحت موصوله ومرتبطة بالمجتمع المالي الغربي ، وأن رأسمالية المافيا أصبحت هي السائدة . ووضع فريق NSC السوفيتي الأوروبي ، والذي تضمن رايس ، الشروط لتبني المانيا لمعاهدة ماسترخت ، وكذلك تبني عملةٍ أوروبية واحدة هي اليورو ، وفي نفس وقت إعلان " النظام العالمي الجديد" بعد انهيار الشيوعية ، أصبح التقليد منادا هذا النظام الجديد بالعولمة ، حيث ان الأميركان - حالهم حال بقية العالم - لم يكونوا مرتاحين مع تعبير "الامبراطورية" وأية مضامين أخرى يمكن له أن يحملها معه.

ومن المثير للسخرية ، أن إعلاناً مشابهاً " لنظامٍ عالمي جديد" ، كان قد صدر قبل 50 سنة من إعلان بوش الأب لنظامه الجديد في الكونجرس ، إذ استعمل أودولف هتلر نفس اللغة حيث كان قال : ***" إنني مقتنع بأن 1941 سيكون عاماً حاسماً لنظامٍ عظيمٍ جديد في أوروبا ، فالعالم سوف ينفتح لكل شخص .. وستساعد هذه السنة في إرساء القواعد لتفاهم حقيقي بين الشعوب ، ومعه حقيقة التوافق بين الأمم."*** [206]

300

---

[206] Adolph Hitler, *My New Order*, Speech January 30, 1941 Reynal & Hitchcock, 1941, .867.

Globalization

During the Clinton years, the global imperial agenda was primarily to press for one form of capitalism: the Anglo-Saxon version, which is the Anglo-American brand. The Treasury Department of the United States of America started to call the shots using the IMF and the World Bank as its instruments for change. The Washington-consensus began to demand that Russia adopt the Anglo-Saxon capitalist model. Europe was requested to drop its welfare programs and its special brand of capitalism. Japan's different brand of capitalism, which was accepted during the Cold War, was no longer accepted by the New World Order. Japan had to change, especially since the Japanese model posed the threat of having its economy copied, especially by China, an unthinkable disaster to Washington's economic order.

301

استراتيجية التصرف عالمياً

طبقاً لاثنين على الأقل من استراتيجيي الولايات المتحدة العسكريين النافذين فإن احتلال العراق " لم يكن من أجل تسوية حسابات قديمه أو من أجل فرض نزع سلاح قررته الأمم المتحدة .. بل بدلاً من ذلك ، كان أول تطبيق لاستراتيجية إدارة بوش في الحرب الاستباقية

الأجهاضية المثيرة للجدل ، وكان نقطة فاصلة في التاريخ ، وهي اللحظة التي قررت فيها واشنطن الإمتلاك الحقيقي لاستراتيجية الأمن في عصر العولمة " .. [207]هكذا كتب (ثوماس بي. إم. بارنت باحث أول سابق في الاستراتيجية ، وأستاذ كلية الحرب البحرية للولايات المتحدة ، وهنري إتش جافني – قاد فريق بمركز الدراسات الاستراتيجية في هيئة البحوث المستقلة مؤسسة CNA)، وذلك في مقالةٍ بمجلة المسؤول العسكري " في أيار 2003 ، وكان عنوان المقالة " استراتيجية التصرف عالمياً " ويواصلون كتابتهم بأنه على الولايات المتحدة ***" أن تتوقع الإسهام بحصة الاسد من الجهد الأمني لتقدم العولمه لأننا سنكون من سيتمتع بفوائدها بصورة تفوق ما قدمنا.."*** [208]

301

Although the U.S. has only 5 percent of the world population, it consumes about a quarter of the world's energy and produces a quarter of the world's pollution and waste. As Barnett and Gaffney say, the U.S. tends "to import our energy and 'export' our pollution. Simply put, we live way beyond our environmental means." They continue:

As our consistently huge trade deficit indicates, we also tend to live well beyond our economic means. Basically, we count on the rest of the world to finance our sovereign debt, which most

[207] http://www.thomaspmbarnett.com/published/gts.htm

[208] Ibid.

countries – like Japan – are willing to do... There is not a whole lot we should complain about in this deal – basically trading pieces of paper for actual goods. Put these two transactions together and it is easy to see why the United States has benefited from the rise of a global economy.[209]

مكرر يبحث عنه

وهكذا ، وحيث أن الولايات المتحدة تجد ان العولمة الاقتصادية تعمل لصالحها ، وحيث أنها ، أي الولايات المتحدة مسؤولة عن نصف الإنفاق العالمي على التسلح ، والقواعد العسكرية ، والتواجد البحري ، والحروب ، فإن المؤلفين ينوهان بأن الاستراتيجية الأميركية للقرن الحادي والعشرين يجب أن تكون " استيراد الاستهلاك وتصدير الأمن " أي ، تصدير الحروب .

ويقسم بارنت وجافني العالم إلى بلدانٍ ترغب في الاصطفاف إلى جانب قوانين العولمة كما وضعها البنتاجون و وول ستريت – " النواة العاملة " – وأولئك الذين لا يقبلون قوانين العولمة بسببٍ من التصلب السياسي أو الثقافي – وهم " الفجوة غير القابلة للاندماج " ، ويقع العالم المسلم في الصنف الأخير ، بينما يسمون الصين والهند وجنوب شرق آسيا " النواة الجديدة " ، حيث أن هذه البلدان لديها قابلية التواصل والارتباط مع العولمة ، بينما تشكل الولايات المتحدة وأوروبا واليابان " النواة القديمة ."

---

[209] Ibid.

ويجادل المؤلفان بأن على الولايات المتحدة - بصفتها إداري العولمة - أن تؤمن تحقق " التدفقات " الأربع التالية بشكلٍ متزامن ، حيث أن تعطل أي واحدةٍ منها سيلحق ضرراً بالأخريات ، ويؤدي إلى تعطيل العولمة.

التدفق الأمني

وطبقاً لجافني وبارنيت ، فإن المناطق الرئيسية لتدخلات الولايات المتحدة العسكرية ، في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين ، ستكون أواسط وجنوب غرب آسيا – ولكل النوايا والمقاصد فإن هذه المناطق هي العالم الإسلامي .. إنهم يكتبون أن على الولايات المتحدة أن " تصدر الأمن " إلى هذه البلدان ، وبذلك إنما يعنون ، قواعد عسكرية ، زيادة التواجد البحري ، أنشطة الرد على الأزمات ، والتدريب العسكري . وفي معادلة العولمة – حسب الولايات المتحدة – والتي عرفت على أنها " تصدير الأمن واستيراد الاستهلاك " ، فإن السلعة التي يتوجب استيرادها هي النفط ؛ أما تلك الواجبة التصدير فهي الحرب ، وبالاضافة إلى ذلك – يقول المؤلفان – وحيث أن النزاع بين البلدان الإسلامية والولايات هو طويل الأمد" فإن من الأجدر بالولايات المتحدة أن تقيم قواعد عسكرية دائمة في العراق" . وكما يقول المؤلفان ، فإن بعض قواعد الولايات المتحدة العسكرية في اليابان وألمانيا قد اقيمت قبل 60 عاماً مضت ، ولا زالت هناك.

إلى متى ستبقى قوات الولايات المتحدة في العراق وفي بلدان أخرى من بلاد الفجوة؟

إن الجواب الضمني هو.. إلى الأبد." وهنا أصل إلى نقطتي النهائية حول هذه الإدارة ، وحول كل من يتبعها ، للتحدث بصراحة مع الجمهور الأميركي .. سوف لن نغادر الفجوة ".. أبداً ، وسوف لن نعيد أبناءنا إلى الوطن !" [210]

إن الكثيرين من المحافظين الجدد الأميركان ، سعداء بسياسة آرييل شارون المقترحة حول جدار فاصل بين إسرائيل وفلسطين من طراز " جدار برلين" ، رغماً عن إعلان عدم قانونية الجدار من قبل محكمة العدل الدولية والأمم المتحدة ، والكثيرون من مجموعة النخبة هذه يبدون غير مكترثين بعمليات القتل دون محاكمة الإسرائيلية (الإغتيالات المستهدفة) ، ويشعرون أن العالم والولايات المتحدة ، كما يبين بارنت وجافني ، " عليهم الانتظار محتملين جيلين أو أكثر قليلاً من الغضب الفلسطيني ، قبل أن يتم في النهاية شراؤهم بمساعدات اقتصادية محرزة من " النواة " ، ويخفض الفلسطينيون حجم أسرهم ، فيما يحققون شيئاً من قابلية النماء الإقتصادي."

وحيث أن الشيوعية قد ماتت كقوةٍ حقيقية ، فيستبعد المؤلفان " حروب قوى عظمى " ، ولكنهما يريان ضرورياً في المستقبل المنظور تصدير " الأمن والحروب " إلى المناطق الإسلامية في جنوب غرب آسيا ووسطها ، بوصفها أكثر مهام الأمن العالمي (الأميركية) جدية ، ونحن نشهد البداية لمحاولة توحيدٍ طويلة الأمد هناك .. محاولة ستنافس في النهاية مجهود " الحرب البارده" في أوروبا ، من حيث مركزيتها الاستراتيجية ."

تدفق النفط

بما أن مجال الأعمال الأميركي الرئيسي سيكون تصدير الأمن بدلاً من المنتجات الاستهلاكية ، فإن الطلب الأميركي على النفط سيزداد ببطءٍ في العقود القادمة ، بينما الصين والهند ، والتي تصنع الآن " الاستهلاك " الذي تستورده الولايات المتحدة ،

---

[210] Thomas P. M. Barnett, *The Pentagon's New Map: War and Peace in the Twenty-First Century*, Berkley Books, 2005, 178.

فسيضاعفون استهلاكهم من النفط ؛وبموجب دورها كإداري العولمة ، وشرطي العالم ، فإن على الولايات المتحدة أن تحكم تدفق النفط الشرق أوسطي إلى أصدقائها وأعدائها ، وعندما نوقشت مخاطر - تحويل اليابان لبلد صناعي - بعد الحرب العالمية الثانية ، جادل جورج كينان ، مهندس سياسات الاحتواء للحرب الباردة ، بأنه يمكن لليابان أن تصنع نفسها كما شاءت ، طالما بقيت صمامات إغلاق النفط عن صناعاتها في أيدٍ أميركية ؛ وبالمثل ، فإن الصين والهند - أسرع اقتصادين ناميين في العالم - يمكنهما التصنيع حسبما يرغبان، طالما تحكم أميركا تدفق النفط إليها ، وطالما أن الأميركان يحرسون منافذ وصولهم إلى الصمامات ، عبر العديد من القواعد العسكرية والمراكز البحرية الموجودة الآن في البلدان الإسلامية المنتجة للنفط.

وتصدر الصين الآن الكثير من المنتجات إلى الولايات المتحدة ، حيث يدفع لها بالدولار .. وتتكدس البلايين من الفوائض التجارية السنوية .. وطالما أن هذه البلايين

304

ترجع إلى الولايات المتحدة بشكلٍ أو آخر (مثل سندات خزينة الولايات المتحدة) ، فسيتم اعتبار الصين " متصلة" بالنواة ، أما إذا جرؤت الصين يوماً على استدعاء هذه الدولارات ، فستصبح الصين " فاصلاً " ***(وكما يقول بارنت وجافني " لا يوجد الكثير مما يوجب علينا التذمر في هذه الصفقة والتي هي كناية عن مبادلة قطع ورقية ببضائع حقيقية."***)[211] . وهذا النظام من مبادلة قطع ورقية بالنفط ، كان يجري في الشرق الأوسط منذ بداية اكتشاف النفط هناك ، فدولارات النفط ترسل إلى الولايات المتحدة على شكل استثمارات في سندات الخزينة الأميركية ، أو مقابل إعادة بيع أكداس السلاح المنتهية الصلاحية ، إلى الدول المنتجة للنفط ، مع أن مثل هذه الصفقات كانت تحد من استعمال هذه الأسلحة .. فالمقاتلات النفاثة – مثلا - مزودة بخزانات وقود تحد من مدى التحليق.

---

[211] http://www.thomaspmbarnett.com/published/gts.htm

ومع نمو الاستعمال للمنتجات النفطية والبترولية في الصين والهند ، فإن مركز الطلب عليها سينتقل خلال السنوات العشرين القادمة من اميركا الشمالية إلى آسيا ، وطبقاً لإدارة الطاقة في الولايات المتحدة ، فإنه بحلول العام 2020 ، ستشتري آسيا ثلثي نفط الشرق الأوسط من الخليج ، وسيكون ذلك معادلاً لـ80% من واردات آسيا من النفط.

وأي تعطيل لتدفق النفط من الشرق الأوسط سيلحق الضرر بعمليات ومناهج العولمة السياسية والاقتصادية ؛ والولايات المتحدة بوصفها إداري العولمة – الذي نصب نفسه ذاتياً – سيذهب إلى أبعد مدى لضمان استمرارية استغلاله لموارد العالم البشرية والمادية لمصلحته ، وبشكل غير عادل ولا يتناسب مع ما يقدم . ولن يتوقف عند احتلاله للعراق ، وكما رأينا ، فإن الحرب في أفغانستان قد شنت لتأمين نفط بحر قزوين ، ومسارات خطوط أنابيب النفط عبر افغانستان ومختلف جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق ، إلى موانئ على المتوسط – وبعد 11 أيلول تم إنشاء عدد من القواعد العسكرية في هذه البلدان .

تدفق الاستثمارات

305

ولأجل أن تكون العولمة فاعلة ، فلابد لتدفق الاستثمارات المباشره - من متمولي الولايات المتحدة وأوروبا - من أن يكون مضموناً . إذ تحتاج اقتصاديات " النواة الآسيوية الجديدة " المتضخمة ، إلى قرابة 2 تريليون دولار بحلول عام 2002 ، ولذلك فإنها ستعتمد في تنميتها الاقتصادية على التمويل الذي يقدمه متملو أميركا وأوروبا ، كما ستعتمد على نفط الشرق الأوسط المسيطر عليه عسكرياً من الولايات المتحدة ، وهذان العاملان يعطيانها ثقلاً وأرجحية كافية ، لضمان إعادة تدوير فوائض الدولارات التي اكتسبتها اقتصادات أقطار " النواة الجديدة " ، إلى الولايات المتحدة لتمويل ديونها وعجوزاتها السيادية .

تدفق الآدميين

يحتاج تدفق العمال من " الفجوة " إلى " النواة القديمة " – (اقتصادات الولايات المتحدة ، وأوروبا ، واليابان) – إلى أن يصبح سيلاً ، إذ تشير تقديرات الأمم المتحدة الحالية إلى أنه في حدود عام 2050 ، ستنخفض نسبة العاملين إلى المتقاعدين بشكل ملموس في بلاد "

النواه " ،مالم يتم استيراد الشبيبة من بلدان " الفجوة " ، إذ ستحتاج اليابان إلى أكثر من نصف مليون مهاجر في السنة ، للمحافظة على قوتها العاملة الحالية ؛ كما ستحتاج أوروبا إلى زيادة تدفق الهجرة الحالية 500 بالمائة . وبينما ستتراجع نسبة العاملين إلى المتقاعدين في الاقتصادات المتقدمة من نسبة 1:5 إلى نسبة 1:2 ، فإن هذه النسبة ستكون 1:10 في البلدان الاسلامية . ودون تدفقٍ من بلدان " الفجوة إلى بلدان " النواة " ، فإن الاكتظاظ السكاني في بلدان " الفجوة " المتدنية الأداء (اقتصادياً) ، سيقود إلى أوضاع متفجرة ، في حين سيؤدي النقص السكاني في بلدان " النواه " إلى نقصٍ في العمالة ، يقود إلى تراجع اقتصادي . ولكن تدفق العمالة يجب ان ينظم كما يقول بارنت وجافني ، ويقترحان ، وكما هي حال العمال المستضافين في دول الخليج العربية ، عدم منح العمالة المؤقتة حقوق المواطنة أو الإقامة الدائمة.

ويخلص المؤلفان إلى أنه بينما كانت سياسة الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة هي سياسة الاحتواء ، ففي عصر العولمة الأميركي الجديد لم يعد بكافٍ احتواء العالم الاسلامي ؛ ولا بدّ له من أن يتقلص . وكان تفكير كيسنجر أن ردّ فعل الولايات المتحدة على 9/11 ، يجب أن يشابه الطريقة التي ردت بها على بيرل هاربر . وقال بأنه يأمل لرد الولايات المتحدة ***" ان ينتهي بنفس الطريقة التي انتهى بها الهجوم على بيرل هاربر – بتدمير النظام المسؤول عنه"*** [212] ، كما نوّه الكثيرون من مشاركيه . وهكذا فإن كيسنجر كان يشجع الحرب ضد الإسلام بمصطلحاتٍ لاموارية فيها ، وهكذا تم الإعلان عن حرب الحضارات ، مع كون الإسلام المستهدف الأول فيها .

306

ويضع بارنت وجافني سيناريو مستقبلياً مقنعاً بقولهم ***:" إذا كانت العولمة تؤدي إما إلى التسبب في خسارة بلدٍ ما ، أو إلى رفضه الكثير من مكونات التدفقات المرتبطة بتقدمها ،***

---

[212] Henry Kissinger, "Destroy the Network," *Washington Post,* 11 September 2001

فإن هناك احتمالات تكاد تكون مرجحه بإن الأمر سينتهي بالولايات المتحدة – عند نقطة ما – لإرسال قواتها العسكرية." [213]

وبعيداً عن الأهمية الاستراتيجية ، الجغرافية ، والجيوبوليتيكية ، والجيولوجيه (النفط) ، فإن سبباً آخر لغزو العراق كان رفضها "الارتباط" بالعولمة ، حيث أنه حافظ على اقتصاد مسيطر عليه حكومياً ، والذي سرعان ما جرى اقتلاعه وتفكيكه كواحدٍ من أول الإجراءات المتخذه بعد الاحتلال ! وكان أن تم الاستعاضة عنه ، تماماً كما حصل في روسيا، بالمافيا الرأسمالية .

خارطـة عالمية جديدة؟

في عام 2004 نشر بارنت كتابه " خارطة جديدة : الحرب والسلام في القرن الحادي والعشرين " والذي أصبح واحداً من أكثر الكتب مبيعاً . وينعكس تقسيم بارنت للعالم إلى بلدان " الفجوة " وبلدان " النواه " في كتابه هذا ، وتتضمن بلدان "الفجوة " في هذه الخارطة ، وكما رأينا ، معظم العالم الإسلامي بالإضافة إلى قلةٍ من بلدان أميركا الجنوبية ، ذات الأغلبية السكانية الكاثوليكية ، والتي تختلف أخلاقياتها عن الإنجيليكانيه الموالية لإسرائيل ، والتي تسود بين نخبة السلطة الأميركية .

ويعرف بارنت كيف يمكن له أن يقسم هذين النوعين من الدول : " في عصر العولمة نرسم خطاً فاصلاً بين هذه الأجزاء من العالم والتي تنشط

307

في دمج اقتصاداتها الوطنية في اقتصاد عالمي .. وأولئك الذين يخفقون في دمج أنفسهم في مجتمع اقتصادي أكبر وفي مجموعات الأحكام والقوانين التي تولدها.."[214] وهذا قريب إلى

---

[213] http://www.thomaspmbarnett.com/published/gts.htm

حد يثير الدهشة إلى رأي لورد بالمرستون المأثور في القرن التاسع عشر :" تجارة دون حكم حيث يمكن ، وتجارة مع حكم حيث يكون ضرورياً" ، ودلالة هذا أنه على البلدان الأخرى شراء(اعتناق) الرأسمالية الأميركية وتجارتها (بما في ذلك منظمة التجارة العالمية) ،وأخلاقيتها وقوانين وول ستريت بقضها وقضيضها ، وبخلاف ذلك يكون ذاك البلد خارجاً عن القانون أو إرهابيا ، ويستأهل أن يتذوق طعم سياسة الولايات المتحدة الإجهاضية وصواريخها من طراز كروز .. ولكن من الذي يضع القوانين ؟

ومرةً ثانية يبدو الأمر مشابهاً لمادة نظرية المؤامرة ، ولكن أمن الممكن أن يكون البنتاجون و وول ستريت ؟ وإذا ما أخذنا بمعطيات كتاب بارنت ، فسيتبدى لنا ان هذا فعلاً هو الوضع ... سلسلة من الاجتماعات تضم أعضاء ممثلين عن البنتاجون و وول ستريت ، انعقدت في عام 2001 بمكاتب الوسيط/المضارب في وول ستريت ، شركة كانتور فيتزجيرالد ، في الطابق 107 من مبنى مركز التجارة العالمي رقم 1 .. ويكتب بارنت خارطة البنتاجون الجديدة:

كان مشروع البحث الذي أجريه بمساعدة كانتور ، ينطوي على استكشاف الكيفية التي تعدل بها العولمة ، التعريفات الأميركية لأمنها القومي ، وفي المحصلة تعديل حسابات المرء حول إدارة المخاطر . وكانت ورش العمل التي أجريناها معاً قد جمعت أبطال الوزن الثقيل من وول ستريت ، وكبار رسميي الأمن القومي ، وخبراء بارزين من الأوساط الأكاديمية والخزانات الفكرية .. وقد دعي تآلفنا باسم مشروع مجموعات القوانين (الأحكام) الجديده.[215]

---

[214] , *The Pentagon's New Map: War and Peace in the Twenty-First Century*, Thomas P. M. Barnett Berkley Books, 2005, 25,26

[215] Ibid., 46

ومثل هذا التحالف فوق العاده بين وول ستريت والبنتاجون ، إنما يعنى بأنه عندما يتحدث وول ستريت ، فإن على العالم أن يصغي .

ومبدئياً ، كان بمقدور المتمولين العالميين وصفوتهم من مشجعي العولمة تحييد الرأي العام بتفادي ذكر وتسمية الأشياء بأسمائها ، ومبدئياً أيضاً كان من جاهر بمعارضة العولمة هم أولئك الذين قرأوا ما بين السطور ، أو من تضرر مباشرة من تأثيراتها ؛ ولكن أخيراً صدرت إشارات التحذير والذعرعن المنتفعين بالعولمة ومشجعيها ، وقرعت أجراس الإنذار من قبل أناس لا أقل من صوت مجلس العلاقات الخارجية ، أي مجلته الربعية ، فقد أبرز عددها الصادر في تموز/آب 2007 مقالةً رئيسيه كتبها كينيث إف. شيف ، وهو اقتصادي آخر في جامعة دارتموث ، وزميل مساعد متقدم للأعمال والعولمة في لجنة العلاقات الخارجية CFR ، والذي كان خدم في عداد مجلس خبراء الاقتصاد للبيت الأبيض من 2005 إلى 2007 مع محافظي بوش الجدد ، وإليكم بعضا مما كتبا :

- "خلال السنوات العدة الماضية ، برز معلم جديد مؤثر لاقتصاد الولايات المتحدة : إن نمو الدخل الحقيقي قد انحرف للغاية ، مع قلةٍ من ذوي الكسب المرتفع في وضع حسن ، بينما ركدت دخول معظم العاملين ، أو في حالاتٍ كثيرة تدنت .. وحتى خريجي الكليات والعاملين بدرجات ماجستير غير مهنية ، رأوا معدل مكتسباتهم النقدية الحقيقية ينخفض ، وبالنسبة لبعض المقاييس ، فإن عدم المساواة في الولايات هي أكبر اليوم منها في أي وقت مضى منذ عشرينيات القرن العشرين ."

- "من بين العاملين في سبع فئاتٍ تعليمية – لم يكمل الثانوية ، خريج ثانوية ، بعض التعليم في الكلية ، خريج كلية ، ماجستير غير مهني ، دكتوراه ، وإم. بي. إيه./شهادة في القانون جيه. دي./شهادة طبيه إم. دي.– لم يحظ أي منهم بأي نمو في متوسط دخله النقدي الحقيقي فيما كسبوه، بين عامي 2000 - 2005 ، سوى أولئك في الفئتين الأخيرتين من حملة شهادات دكتوراه ، أو درجات تخرج مهنية .

- العاملون في هاتين الفئتين يمثلون 3,4% فقط من القوة العاملة في 2005 ، بمعنى أن 96% من العاملين في الولايات المتحدة هم ضمن مجموعات تعليمية تدنت معدلات دخولها النقدية . "

309

- لقد أصبحت سياسة الولايات المتحدة أكثر حمائيةً لأن الجمهور الأميركي يصبح أكثر حمائية ، وهذا التحول في المواقف ناتج عن ركود أو انخفاض الدخول . فالدعم الجماهيري للارتباط بالاقتصاد العالمي موصول بقوة بأداء سوق العمل ، وبالنسبة لمعظم العاملين فإن أداء سوق العمل كان ضعيفاً .ط

- " للوهلة الأولى، يبدو هذا الارتفاع في الحمائية محيراً ، فالمكتسبات الاقتصادية من العولممة ضخمة ، ففي الولايات المتحدة ، وطبقاً لإحصائيات من معهد بيتر جي. بيترسون للاقتصاديات الدولية ، وآخرين ، أضاف تحرير التجارة والاستثمار على مدى العقود الماضية ما بين 500 بليون دولار وواحد تريليون الى الدخل السنوي .. واتفاقية الدوحة بخصوص التجارة العالمية الحرة في البضائع والخدمات يمكن لها أن تولد ، طبقاً لدراسات مماثلة ، 500 بليون دولار من الدخل الإضافي في الولايات المتحدة."

- "إلا أنه في كثير من البلدان ، وبالتأكيد في الولايات المتحدة ، فإن فوائد هذا التوحيد والاندماج قد تم توزيعها بلا مساواه – وهذه الحقيقة يتم الانتباه لها وتمييزها بشكل متزايد ، والأفراد يتساءلون ويسألون أنفسهم " هل العولمة جيدة لي ؟" وفي عددٍ متنامٍ من الحالات يصلون إلى نتيجة: لا .. إنها ليست كذلك ."

- صفقة جديدة للعولمة – الأجور تنخفض ، والحمائية ترتفع – مجلة " فورين أفيرز (الشؤن الخارجية - عدد تموز/آب 2007) :

إن العولمة بالنسبة لبقية العالم النامي قد جلبت "مشاغل أو مصانع التعب و العرق والحروب" .. ففي إندونيسيا فإن جميع عمال المصانع التي تنتج أحذية نايك NIKE يتقاضون أجراً في السنة ، مجموعه - لهم جميعاً - أقل مما تقاضاه مايكل جوردان للظهور في إعلانات هذه الأحذية . أما النخب الوطنية ، وهي طبقة 1% ، والتي تتعاون مع نهج العولمة فيكافأون على تبعيتهم وخضوعهم الذليل ، وبعد أن يستهلكوا ما تطلبه رغائبهم ، يودعون الباقي في مصرفٍ متعدد الجنسية ، ويستبدلونها بإشعارات مصرفية أو سندات خزينة ، أو نقود ورقية .. وبسبب إدراكهم بأن نقودهم في معظمها غير قانونية ، فإنهم نادراً ما استثمروا في اقتصاداتهم المحلية.

أما بالنسبة لـ 1,5 بليون مسلم ، أو إن شئت ربع سكان العالم ، فقصة العولمة حتى أكثر تعقيداً بكثير، حيث تكلفهم (العولمة) نفطهم ونقودهم ودماءهم.

310

الفصل الثاني عشر :

حربٌ إرهابية

في فصلٍ آخر من هذا الكتاب ، أوردنا ما قاله اثنان من الاستراتيجيين الأميركيين المنتمين إلى المؤسسة ، والذين كتبوا بأن الولايات المتحدة قد عينت نفسها إداري العولمة المتفرد ، لضمان جريان ، التدفقات الأربعة ، الضرورية للعولمة حتى تعمل . وهي : تدفق الأمن ، وتدفق النفط ، وتدفق الاستثمار ، وتدفق الأوادم (الآدميين) . وجرى القول بأنه كي تكون العولمة فاعلة فلا بد لهذه التدفقات الأربع أن تعمل معاً على التوازي ، فان تعطل أي واحدة منها سيعطل العولمة . وطبقاً لجافني وبارنت ، فإن المناطق الرئيسية لتدخلات الولايات المتحدة العسكرية والأمنية ، خلال النصف الأول من القرن الحادي والعشرين ستكون مناطق أواسط وجنوب غرب آسيا . وهذه المناطق – لكل الغايات والمقاصد – هي العالم الإسلامي ، ويكتبان بأنه على الولايات المتحدة أن "تصدر الأمن " إلى هذه البلدان ،

مكرر ص312

وحيث أن الشيوعية قد ماتت كقوةٍ حقيقية ، فيستبعد المؤلفان " حروب قوى عظمى " ولكنهما يريان ضرورياً في المستقبل المنظور تصدير " الأمن و الحروب " إلى المناطق الإسلامية في جنوب غرب آسيا ووسطها بوصفها أكثر مهام الأمن العالمي (الأميركية) جدية ، ونحن نشهد البداية لمحاولة توحيدٍ طويلة الأمد هناك ، محاولة ستنافس في النهاية مجهود " الحرب البارده" في أوروبا من حيث مركزيتها الاستراتيجية ." [216]

سواءً مع أحداث 11 أيلول أو بدونها ، فإن مهندسي العولمة كانوا قد قرروا ، وقبل 11 أيلول بوقتٍ طويل ، أن صداماً حضارياً مع الإسلام والمسلمين هو أمر محتوم ، وان حرباً

---

[216] http://www.thomaspmbarnett.com/published/gts.htm

طويلة الأمد تنير الحرب الباردة هي أمر واقع ، وأنه يترتب على المسلمين ان يغيروا ثقافتهم ، والذي يعني بالنسبة لهم ، اي المسلمين ، تغيير دينهم لتسويغ التعامل مع العولمة ، وبغير ذلك سيصبحون خوارج العولمة والنظام العالمي الجديد .

وإذا كان الأمر يقتضى - لتفعيل العولمة - أن تسود مجموعة القيم والأخلاقيات الغربية ، فإن هذا القرار الانفرادي لا هو بالديموقراطي ولا هو بالقرار المقبول لدى المسلمين ، وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فإن نهج العولمة الأميركية ذاته وصراعات حضاراتها مزروعة في هذا النظام العالمي الجديد ، ليس بسبب أن " الآخر " ، أي المسلمين ، قد اختاروا مثل هكذا صراع ، وإنما لكون دول النواة الغربية والولايات المتحدة مسؤولين عن وجود هذا الخلل في النظام ، وكثيرون هم الناس حول العالم ، ومعظمهم من ضمن البليون ونصف البليون مسلم ، الذين سيعارضون المادية عن طريق الاستعباد والامبريالية والحروب ، وكانت هذه هي القيم ذاتها المسؤلة عن شن الأمة الأميركية الفتية ، أكثر من مائتي حرب أو الإسهام فيها في فترة تاريخها القصير ، بمعنى أنها عملياً كانت في حالة حربٍ مستمرة . وأيضاً فإن المجتمع الأميركي ليس موضع حسد العالم ، حيث يلحظ العالم أن المجتمع الأميركي ومع تلك الوفرة كلها ... فإن 40 مليوناً من مواطنيه مصنفون رسمياً على أنهم فقراء ، ويرى العالم التباين في الثروة ، ويلاحظ أن الأميركيين هم من بين شعوب الأرض الأقل سعادةً ، وكان الآخرون راغبين في ترك الغرب وأميركا وحضارتهم وقيمهم دون تدخل ، إلا أن مبدأ بوش لم يترك مجالاً لذلك ، حيث جعل الأمر غايةً في الوضوح " إن لم تكن معنا فأنت ضدنا".

إنه الغرب إذن .. الذي يعرف ان أجندته هي التي ستقود إلى صراع حضارات ، وباشر حملته لتصنيع الرضى والقبول بصراع حضارات ، وخاصةً مع المسلمين ، وذلك في وقت أبكر بكثير من 11 أيلول .. إذ قبل سنوات عدة من 11 ايلول استهدف الإسلام كعدوّ ، حيث كتب صاموئيل هنتنجتون:

The underlying problem for the West is not Islamic fundamentalism. It is Islam, a different civilization whose people are convinced of the superiority of their culture and are obsessed with the inferiority of their power. The problem for

Islam is not the CIA or the U.S Department of Defense. It is the West, a different civilization whose people are convinced of the universality of their culture and believe that their superior, if declining, power imposes on them the obligation to extend that culture throughout the world.[217]

تكرار ص313

المشكلة إذن ، كما ورد في كتابه في تسعينيات القرن الماضي ، وكما ورد تأكيدها في مبدأ بوش ، هي قناعة اميركا بتفوق وعالمية قيمها ، لا بل والأسوأ من ذلك ، هو محاولة فرض هذه القيم من خلال الاستباق ، والتفرد ، وكما أوضحنا سابقاً ، فإن مجموعات قوانين العولمة قد استنبطت من كتاب وول ستريت المقدس ، وليس من كتاب الرب المقدس .

وفي مقال رئيسي في مجلة EIR الأسبوعية ، ومقرها واشنطن ، كشف ان ***:" معهد بحوث السياسة الخارجية FPRI - ويضم بعضاً من أبرز شبكات الجناح – اليميني الصهيوني في جهاز السياسة الخارجية للولايات المتحدة .. اذ لم تمض أشهر على مقالة هنتنجتون "صراع الحضارات" ، في عدد صيف 1993 من مجلة الشؤون الخارجية (Foreign Affairs) ، حتى أطلق ملتقى الشرق الأوسط (Middle East Forum) - والذي كان أنشىء كأحد أقسام FPRI في 1990 - ربعية الشرق الأوسط ، وهي مجلة كرست بقصد تعزيز فكرة الاسلام كعدو..."*** [218]

---

[217] Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations: Remaking of World Order*, Simon and Schuster,1996, 217-218

[218] http://www.larouchepub.com/eiw/public/2002/eirv29/eirv29no6.pdf

وتابعت EIR مقالتها : " إن معهد بحوث السياسة الخارجية FPRI ، وملتقى الشرق الأوسط MEF ، مسؤولان عن تزويد بحوث ، وشهادات وتعليقات "ذات مكانةٍ علمية" ، إلى كونجرس الولايات المتحدة ، والوكالات الاتحادية ، والخزانات التفكيرية ، ووسائط الإعلام المختلفة الوطنية والعالمية ، وجميعها تحمل نفس النغمة : الإسلام هو العدو ، وعلى أميركا مسؤلية المواجهة والقيام بالإجراء العسكري ضد أي وكل الأنظمة الإرهابية المزعومة ، الشرق أوسطيه والإفريقية، والتي هي في حالة حرب مع الغرب ".[219] ورئيس تحرير مجلة MEF ربعية الشرق الأوسط – هو مارتن كريمر من جامعة تل أبيب ، ومحررها الرئيسي هو باتريك كلاوسون ، مدير البحوث في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى التابع للوبي الصهيوني (إيباك) ، والذي أنشأه الصهيوني السوبر "مارتن إنديك" ، أما ستيفن إمرسون من معهد بحوث السياسة الخارجية FPRI فقد ألف كتاباً عنوانه " جيش محمد : نهوض الأصولية الإسلامية " ، كما أخرج فيلماً بعنوان : " الجهاد في أميركا " ، حيث أذيع على قنوات التليفزيون العام ، والذي كان بداية مرئيةً أكثر ، للحملة الصليبية ضد الإسلام .

وفي 1995 أعلن الأمين العام لحلف الناتو NATO ، أن الإسلام السياسي:"هو على الأقل في خطورة الشيوعية بالنسبة للغرب "؛[220] وطبقاً لهنتنجتون ، فإن أحد الأعضاء البارزين في إدارة كلينتون أشار إلى الإسلام باعتباره المنافس العالمي للغرب ..." خلال السنوات الخمس عشرة بين 1980 - 1995 . وطبقاً لإدارة دفاع الولايات المتحدة ، فإن الولايات المتحدة قد اشتبكت في سبعة عشر عملية عسكرية في الشرق الأوسط جميعها كانت موجهة ضد مسلمين ، ولا يوجد نموذج آخر مشابه لعمليات عسكرية للولايات المتحدة ضد أي شعب ينتمي لأي حضارة أخرى".[221] كما كتب صاموئيل هنتنجتون ، والذي يخلص إلى أنه

---

[219] Ibid.

[220] Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and Remaking of World Order*, Simon & Schuster, 1996. 215

[221] Ibid., 217

بالنسبة للغرب ، فإن المعضلة ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام ، والذي هو طريقة مختلفة في الحياة يؤمن المسلمون بتفوقها.

314

وقد خطأ هنتنجتون الرئيس كلينتون في مقولته أن لا مشكلة للغرب مع الإسلام ، وإنما - فقط - مع المتطرفين الإسلاميين العنيفين ***" فمن ناحية ، كان التناقض ، نتاج اختلاف ، وعلى الأخص من حيث فهم المسلم للإسلام على انه طريقة تسمو بالحياة وتوحد العقيدة والسياسة".***[222] وبمدى تعلق الأمر بهنتنجتون ، فإن الصدام بين الإسلام والغرب حتمي لا مفر منه ، " طالما بقي الإسلام هو الإسلام (وهو ما سيكون). " كما كتب هنتنجتون ***"وطالما بقي الغرب هو الغرب (وهو أمر يحتمل الشك أكثر) ، فإن هذا الصراع الأساسي بين حضارتين عظيمتين وطرق الحياة فيهما ، سيستمر في تحديد علاقاتهما في المستقبل ، وحتى كما سبق وحددها عبر القرون الأربعة عشر الماضية".***[223] وأضاف

---

[222] Ibid., 212.
[223] Ibid., 212.

هنتنجتون : " يخشى المسلمون ويغتاظون من القوة الغربية والتهديد الذي تشكله على مجتمعهم ومعتقداتهم ، فهم يرون الثقافة الغربية مادية ، فاسدة منحطة ولا أخلاقية ، كما يرونها أيضاً إغوائية ، وبذا تؤكد أكثر فأكثر الحاجة لمقاومة تأثيرها على تغيير طريقتهم في العيش . ***ويهاجم المسلمون الغرب بشكل متزايد ، ليس بسبب التزامه بعقيدة يشوبها نقص ، والتي هي مع ذلك "عقيدة كتابية " ، وإنما بسبب عدم التزامه أية عقيدةٍ بالمرة."*** [224]

According to Huntington, the clash between the West and Islam is a given. And “Whatever their political or religious opinions, Muslims agree that basic differences exist between their culture and Western culture. The bottom line, as Sheik Ghanoushi put it, is that our societies are based on values other than those of the West”[225]

Huntington acknowledges that most of the Muslim governments “lacked any basis for justifying their rule in terms of Islamic, democratic, or nationalist values”, but what worries him and the West are their studies which show that in the case

---

[224] Ibid., 213.

[225] Ibid., 214.

of these regimes' collapse, in "almost every country, in the mid-1990s, the most likely successor regime was an Islamist one".[226]

مكرر315

ومع أن البعث الإسلامي يعبر عن نفسه في السمات الاجتماعية والثقافية للمجتمعات الإسلامية ، وأن تعبيره السياسي عن الذات لم يبدأ سوى منذ فترة وجيزة ، إلا أنه كان التطور المنفرد الوحيد الأعظم أهمية في البلدان الإسلامية منذ سبعينيات القرن الماضي ، والأسلمة السياسية ، إن جاز التعبير ، وكما يحلو لهنتنجتون أن يسمي البعث الإسلامي أحياناً ، هو نتاج مناهج الحداثة ، ويتحدر المسلمون " المولودون ثانية " من " الشباب الجوالين المتأقلمين حداثياً " ، والذين تأتي صفوتهم من بين الطلبة وأصحاب الفكر ، "وقد وجدت إحدى الدراسات التي أجريت على قادة مجموعاتٍ إسلامية مصرية من ذوي التوجهات القتالية خمس سماتٍ رئيسية ، والتي تبدو نمطية للإسلاميين

315

في بلدان أخرى ، فهم شبان ، أغلبيتهم الساحقة في العشرينات والثلاثينات ، ثمانون بالمائة منهم إما طلبة جامعات أو خريجو جامعات ، وأكثر من نصفهم من صفوة الكليات ، أو من الفروع العلمية الأكثر تطلباً معرفياً وذات التخصصات الفنية كالطب والهندسة . وينتمي مايزيد على السبعين بالمائة منهم إلى الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة.. كما كانوا الجيل الأول - في عوائلهم - الذي يحظى بتعليم عالٍ . ***أما طفولتهم فأمضوها في مدنٍ صغيرة أو في مناطق ريفية ، ثم أصبحوا مقيمين في مدنٍ كبرى "***[227] والأصوليون الإسلاميون كما يقول هنتنجتون: ويقود النموذج الرأسمالي الذي يتبناه صندو***" على الأرجح يضمون عدداً***

[226] Ibid., 114

[227] Ibid., 113

كبيراً – غير تناسبي من ناحية تمثيلية – من أفضل الشبان المتعلمين واكثرهم ذكاءً في مجتمعاتهم" [228]، ق النقد الدولي – دائماً – إلى خلع المزارعين وعمال القطاع الزراعي من بيئتهم ودفعهم بكثافةٍ للهجرة إلى المدن للعمل بموجب النموذج الاقتصادي " إما أن تصدر ، و اما أن تموت " ، وحتى لا يموتوا ، فهذه " الكتل الجماهيرية المخلوعة حديثاً " ، تنجذب إلى الإسلام الذي يمنحها " هوية " كريمة " . والتناقض هنا هو أن النموذج الرأسمالي العالمي المفروض على الناس في كافة أرجاء المعمورة ، يغذي هذه الجماهير المخلوعة ، بالأسباب والمنطق لاكتساب هوية كريمة والتي يعتبرها النظام الرأسمالي مهددةً لوجوده ذاته.

وحكومات العالم الإسلامي في معظمها " غير ديموقراطية بشكل ساحق " ، وما لا يذكره هنتنجتون أن هذه الحكومات في معظمها إنما نصبت من قبل الغرب بعد عملية فك الاستعمار ، أو أنها أعينت إلى السلطة - من قبل الغرب - على نحوٍ منظور أو غير منظور ، وأنهم في معظمهم أيضاً لا يمكنهم البقاء دون معونةٍ كهذه ، فعندما هددت الانتخابات الديموقراطية واحداً من مثل هذه النظم في الجزائر ، تدخلت الحكومة العلمانية ؛ وبالمثل فإن الجيش في " تركيا الديموقراطية " تدخل لإجبار أربكان - وهو رئيس وزراء إسلامي - على التنحى . وتوضح آرمسترونج :***" أنه في حزيران 1990 ، حققت جبهة الخلاص الاسلامي انتصارات رئيسية في الانتخابات المحلية ، وعلى الاخص في المناطق المدينية (المدن) ، وكان نشطاء جبهة الخلاص في معظمهم شباناً ، مثاليين ، وجيدي التعليم ؛ وكان يعرف عنهم الأمانة والكفاءة في الحكومة .. ولم تكن جبهة الخلاص الإسلامي معاديةً للغرب، وقد تحدث زعماؤها عن تشجيع الروابط مع الاتحاد الأوروبي ، متطلعين إلى استثمارات غربية جديدة ، إلا أن حكومة الجزائر العلمانية التي أجرت الانتخابات ووعدت بالديموقراطية ، أطيح بها من قبل العسكر الذين دبروا انقلاباً ، وألغوا الانتخابات ، وأخمدوا الإصلاحات ، وألقوا بقيادة جبهة الخلاص الإسلامي وبأعضائها المنتخبين في السجن ؛ ولو أن انتخابات كهذه قد منعت بمثل هذا العنف والنهج غير الدستوري في***

---

[228] Ibid.

إيران أو باكستان ، لحدثت ضجة واحتجاجات عنيفة في الغرب .. ولكن ، بما أن الحكومة التي أحبطها الانقلاب كانت إسلامية ، كان هناك حبور وابتهاج في الصحافة الغربية." [229]

316

من الصحيح أن قيم الرأسمالية – في حقيقة الأمر – تختلف عن قيم المسلم الصادق، ويصبح هذا الاختلاف واضحاً إذا تسنى للمرء قراءة كتابات كارين آرمسترونج عن الموضوع ، فآرمسترونج ، وهي راهبة أصبحت باحثة في العقائد ، كتبت أربع كتبٍ عن الإسلام ، وبينت كيف أن الإسلام يختلف عن الديانات الآخرى من حيث أنه دين وطريقة حياة معاً ، وفي كتابها " الإسلام " كتبت تقول ***:"في الغرب الحديث ، جعلنا من الفصل بين الدين والسياسة هدفاً "*** [230] ، ولكن في الإسلام ،***"نظر المسلمون إلى الخالق من منظور تاريخي ، فكتابهم المقدس ، القرآن ، أعطاهم مهمة تاريخية ؛ فواجبهم الرئيسي هو خلق مجتمع عادل ، يعامل فيه جميع أعضاء المجتمع – حتى أضعفهم وأكثرهم قابلية للاستباحة- باحترام مطلق . وتمنحهم تجربة بناء مثل هذا المجتمع والعيش فيه أ لفة وحميمية مع السامي والمقدس ، بسبب أنهم انما يعيشون طبقا لإرادة الله ، فعلى المسلم تحرير التاريخ وتخليصه من الخطيئة ، وعنى هذا أن شؤون الدولة لم تكن ابتعادا عن الروحانية وانما كانت مادة الدين في ذاتها" .*** [231]وأضافت ***" أما إذا لم ترق مؤسسات الدول إلى المستوى القرآني ، وإذا كان قادتهم السياسيين قساةً أو مستغلين ، أو إذا أهين مجتمعهم من قبل اعداء من الواضح أنهم غير متدينين ، فإن المسلم أو المسلمة قد يشعر أو تشعر بان***

---

[229] Karen Armstrong, *Islam: A Short History*, Toronto, Random House of Canada, 2002, 182.

[230] Ibid., x.

[231] Ibid., xi.

إيمانه أو ايمانها بهدف الحياة النهائي وبقيمتها هو محل خطر .. ولذا كانت السياسة بالنسبة لهم ما يمكن للمسيحيين أن يسموه بالسر المقدس أو القربان المقدس .. وهي الحلبة التي فيها يستشعر المسلمون الخالق ، والتي تمكن السامي والمقدس من الأداء الفاعل في العالم." [232]

ومن الواضح أن هذا مختلفٌ بشكل ملحوظ عن مناهج الرأسمالية القائلة ، بأن فعل أي شيء أمر ممكن إذا كنت مستعداً لدفع الثمن ، أو قول كينز بأنه علينا التظاهر بأن اللعب العادل(الصح) هو المخالفة(الغلط) ، وأن المخالفة(الغلط) هي اللعب العادل(الصح) .. إنه لأمر مختلف عن ماهو متبع حالياً ، من أن النمو الاقتصادي مقدم على العدل.

وأشارت بحوث آرمسترونج إلى أن المدركات العامة عن المسلمين والإسلام ، هي ، في أغلب الحالات غير صحيحة ، وكثيراً ما تكون مرتكزة إلى تحيزات تاريخية مجحفه ، فالإسلام هو المنافس، وبالنسبة للبعض ، كان هو التهديد للغرب على مدى 1400 سنة ، بينما لم تشكل الشيوعية تهديداً سوى لفترة 70 سنة ما لبثت بعدها أن انطفأت . ومن بعض النقاط الأخرى التي نوهت بها : بقيت للإسلام صورة سلبية في الغرب ، والذي له تاريخ طويل من العداوة ضده ، على الرغم من كونه الديانة الابراهيمية الثالثة : ***" ولكن الكراهية القديمة تستمر و تزدهر على جانبي الأطلسي ، ولدى الناس القليل من التردد في مهاجمة هذه الديانة ، حتى ولو لم يكونوا يعرفون سوى القليل عنها."*** [233]**وتعتقد آرمسترونج بأنه يمكن تفهم السبب ، لأنه "حتى قيام الاتحاد السوفياتي ، لم تشكل أي حكومة أو أيديولوجيه،**

---

[232] Ibid.

[233] Karen Armstrong, *Muhammad: A Biography of the Prophet*, HarperSanFrancisco, 1993,,

مثل هذا التحدي المستمر للغرب ."[234] ، وعندما نشأ الاسلام في القرن السابع كانت أوروبا غارقةً في الظلام ، وبسرعة ، اكتسح الإسلام الكثير من العالم المسيحي في الشرق الأوسط وشمال افريقيا، وفي أقل من نصف قرن وطد نفسه من جنوب فرنسا حتى الصين . أما مشروع الفتوح الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فانتهى الى الفشل ، واستعاد المسلمون المناطق المحتلة عبر انبعاثٍ إسلامي ، وفي القرون التي تلت احتل الأتراك العثمانيون المسلمون أجزاء من شرق أوروبا.

ما يقلق الغرب أيضاً هو تركيبة الحضارات المختلفة سكانيا (ديموغرافيا الحضارات) ، ففي 1900 شكل المسلمون 12,4 بالمائة من سكان العالم إلا أنهم استمروا في التزايد : فبلغت نسبتهم 15,3 بالمائة في 1970 ، 16,5 بالمائة في 1980 ، 17,1 بالمائة في 1985 ، 19,2 بالمائة في عام 2000 ويقدر بأن تصل نسبتهم إلى 30 بالمائة في عام 2025 ؛ بينما عدد سكان الغرب المسيحي آخذ في التناقص : 26,9 بالمائة في 1900 ، 30,6 بالمائة في 1970 ، 30 بالمائة في 1980 ، 29,7 بالمائة في 1985 ، 29,3 بالمائة في 2000 ؛ ويقدر له أن يتناقص إلى 25% في عام 2025 وحسب هذه التقديرات فمن المتوقع أن يتجاوز عدد المسلمين في العالم أعداد مسيحيي العالم الغربي.

وابتداءً من سبعينيات القرن العشرين اكتسح البعث الإسلامي كل الأقطار الإسلامية تقريباً ، من مراكش على الأطلنطي وحتى الحدود الغربية للصين ، ومن نيجيريا في أفريقيا حتى كازاخستان في آسيا الوسطى ، إذ قرر المسلمون أن يعثروا على " الحل " ليس في أيديولوجيات الغرب الفاشلة .. ولكن في الإسلام . ولقد قبلوا الحداثة ولكن دون الثقافة والقيم الغربية ، فقلد أرادوا " العصرية والتحديث ولكن ليس بالضرورة التغريب " ، فالانبعاث الإسلامي " هو التيار الرئيسي وليس التطرف ، وهو عام متغلغل وليس بمعزول" [235]، كما كتب هنتنجتون الذي قدر ان الانبعاث الإسلامي يحمل أوجه شبه مع حركة " الاصلاح

---

[234] Ibid.

[235] Samuel P. Huntington, Simon & Schuster, 1997,110 , *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*

البروتستانتي ". حيث أن الروحية المركزية لكليهما هي الاصلاح الجذري ، والانبعاث الإسلامي يرى في نفسه أنه يقظة شاملة : سياسية ، واقتصادية ، وثقافية وفكرية.

" والمسلمون وبأعداد كبيرة ، كانوا يتوجهون إلى الاسلام في نفس الوقت ، كمصدر للهوية ، والمعنى ، والاستقرار ، والمشروعية ، والتطور ، والقوة والأمل ؛ وتلخص الأمل في شعار "الإسلام هو الحل " . [236]وكان العنصر الرئيسي في الأسلمة (التحول إلى الإسلام) هو تطوير منظمات اجتماعية اسلامية ، أما حملة بوش الصليبية ضد الاسلام – واذا وضعنا جانبا المزاعم غير الموثوقة - فقد استهدفت هذه المنظمات والمؤسسات ، عن طريق طلب تجفيف الأموال والصدقات لهم بإملاء من واشنطن ،

318

ودون أن يسمح بسؤالٍ أو جواب . وسبب ذلك على الأرجح ، هو اعتقاد واشنطن ، حالها في ذلك حال هنتنجتون ، أن هذه المسألة تشكل حجر الزاوية للمؤسسات السياسية الاسلامية في المستقبل ، إذ يقول هنتنجتون بأن ***" المنظمات الإسلامية أوجدت مجتمعاً مدنياً إسلامياً ساوى إن لم يكن قد فاق، المؤسسات الرسمية الإسلامية في البلدان الاسلامية "*** [237]، ***ففي مصر .. في أوائل تسعينيات القرن الماضي ، طورت المنظمات الاسلامية شبكةً واسعةً من المنظمات التي" .. زودت خدمات صحية ، وتعليمية وغيرها لاعداد كبيرة من فقراء مصر "*** . [238] ***وأثناء هزة 1992 الأرضية في القاهرة ، كانوا " في الشوارع خلال ساعات يوزعون الطعام والبطانيات "*** [239] ، وواشنطن بصفتها عميل لوول ستريت ولبنيان السلطة الرأسمالي غير المنظور ، تجفف التمويل إلى جميع مؤسسات المسلمين الدينية ، وليس لأن لهم في الواقع أي أنشطة إرهابية ، ولكن لأن هذه المؤسسات تعتبر بمثابة بنية تحتية

---

[236] Ibid., 109

[237] Ibid., 111

[238] Ibid., 112

[239] Ibid.

للصحوة الاسلامية والتي وصمتها واشنطن بالإرهاب ، " لتسهيل بيع الفكرة للآخرين" ، وجماعة وول ستريت هؤلاء وقرناؤهم في واشنطن ليسوا متدينين على أي نحو ، وإنما هم أوفياء لعقيدتهم المادية ، وللربا الفاحش ، وللجشع ، ولاستغلال الآخرين.

ومما كتبه هنتنجتون أن الاخوان المسلمين أداروا في بكور تسعينيات القرن الماضي ، في البلد الصغير الأردن (5 ملايين نسمة) ، بنية تحتية مكونة من: " مستشفى كبير ، وعشرين عيادة طبية ، وأربعين مدرسة إسلامية ، و120 مركزاً للدراسات القرآنية "؛ وعلى مقربةٍ في الجوار .. في الضفة الغربية وغزة ، أقامت المنظمات الاسلامية وأدارت ، اتحادات طلابية ، ومنظمات شبابيه، وجمعيات دينية واجتماعية وتعليمية ، بما في ذلك مدارس تتراوح بين مراحل الحضانة وحتى جامعة إسلامية ، ومستوصفات ودور أيتام ، وبيت للمتقاعدين ، ونظام من القضاة الاسلاميين والتحكيم ". كما لاحظ هنتنجتون أنه في بواكير ثمانينيات القرن الماضي ، كان عدد أعضاء كبرى المنظمات الاسلامية في اندونيسيا 6 ملايين ، والتي شكلت ، حسب رأيه ، " دولة رفاهٍ دينية ضمن دولةٍ علمانية ".[240] والتي كانت تزود خدماتٍ من المهد إلى اللحد.

إن الانبعاث الإسلامي يحدث ، وهو حركة فكرية ، ثقافية ، اجتماعية وسياسية عريضة تنتظم العالم الإسلامي بكليته ، وهذا البعث ، كما يلحظ جون إل. إيسبوسيتو ينطوي على اهتمامٍ متزايد بالالتزام الديني ، مثل الذهاب إلى المسجد ، والصلاة والصوم ، فضلاً عن المزيد من التأكيد على اللباس والقيم الاسلامية ، والزيادة في المنظمات الاسلامية ، البنوك ، وخدمات الرفاه الاجتماعي والمعاهد العلمية ***" وقد توجه كل من الحكومات ومعارضاتها إلى الإسلام ، لتعزيز سلطاتها وحشد الدعم الشعبي..."*** [241]ص 319

يلحظ المسلمون أن النظام العالمي الذي تحاول أميركا فرضه عليهم إنما ينتج الفقر والبؤس والتعاسه ، فهم يرون حشوداً من المشردين في شوارع المدن الكبيرة التي تشابه أحياء

---

[240] Ibid.

[241] Ibid., no.

القاهرة ودلهي الفقيرة ، وأظهرت دراسة اجتماعية مسحية عامة (GSS) نشرت في مجلة بيزنس ويك (16 تشرين أول 2000) أن النقود لا تشتري السعادة ، وان أسلوب الحياة الجديد وهزاته اللاحقة تسبب ازدياد التعاسه ؛ وطبقاً لتلك الدراسة - ومع أنها بينت زيادةً في الدخل الفردي بين عامي 1970- 1988 - فإن الاميركيين - وعكس المأمول - تناقصت سعادتهم ، وغطت النزعات الاجتماعية الجديدة بظلالها كافة المكاسب المادية ، ومع أن الدخل الإضافي قد يجلب سعادةً إضافية، الا أن وقع ذلك كان ضعيفا الى حد مذهل ، كما وجدت أن عوامل أخرى مثل النوع والوضعية المادية ، ذات تاثير أكبر ، كذلك بين كشف آخر للدراسة أن النساء يزددن تعاسةً أكثر من الرجال ، وأن الزيادة في حالات الطلاق والانفصال بين الأزواج له تأثيرات سلبية على بنيان الأسرة وسيكولوجية أعضائها ، وخلصت بيزنس ويك إلى أنه : " في الأدنى الأقل ، تفترض (الدراسة) أن أولئك الذين يظنون أن مكاسب الدخل وحدها كفيلة بضمان سعادة أكبر إنما يخدعون أنفسهم ، كما أنها تتضمن بعض الخصائص البينة للاقتصاد الجديد ، مثلاً ما يصاحب نوبات البطالة وتصاعد الفروق في الدخل من كلفٍ نفسيةٍ باهظةٍ " . فهل هذه هي الحداثة هل هذه هي مجموعات القوانين التي يشجعها وول ستريت والبنتاجون ونخب الصفوة الأميركية ، والتي يحاولون فرضها على العالم؟!

العناصر الخمسة لعلاقة الغرب بالمسلمين

في محاضرةٍ لي (للمؤلف) بكلية كيندي لدراسات الحكومة - هارفارد ، ألقيت بتاريخ 2008/3/18 ، عرفت العلاقة الأميركية الغربية مع المسلمين على أنها محكومة بخمسة عوامل هي :

- **الـــرب:** التضاربات (النزاعات ؟) الدينية .
- **الجغرافيـــا:** كون العالم الإسلامي على مفترق طرق بين قارات ثلاث.
- **الجيوبوليتكس:** السيطرة على يوراسيا جوهري لكل إمبراطورية.
- **الجيولوجيـــا:** النفط على وجه الخصوص.
- **العولمـــة:** حتى يتسنى للعولمة أن تعمل لا بد لها من تدفقين رئيسيين: أولهما تدفق النفط ، وثانيهما تدفق الاستثمار . وكلا العاملين واقع - على نحو حاسم - تحت سطوة من يسيطر

على دول النفط الاسلامية ، والتي تملك 70% من احتياطيات النفط في العالم ، في وقتٍ يجف فيه النفط في بلدان أخرى كثيرة.

العولمة بالنسبة للمسلمين

بعد مرور عشر سنوات على تأليفي كتابي عن العولمة ، أصوغ الآن تعريفي الخاص لها : "العولمة هي العملية التي تحول الامبراطورية الاميركية بواسطتها ، الدول القومية إلى جمهوريات موز في خدمة الامبراطورية ، مستخدمة بذلك – وحيث يمكن - مؤسسات عالمية (صندوق النقد الدولي ، ومنظمة التجارة العالمية ، البنك الدولي والأمم المتحدة) ، والقوة العسكرية عندما تقرر الامبراطورية وحدها لزوم ذلك" .

وفي القرن التاسع عشر كان مبدأ بالمرستون: " التجارة بدون حكم إذا كان ممكنا ، والتجارة بالحكم إذا دعت الضرورة " ، أما قراءتي لمبدأ بوش فهي :

" التجارة بدون حرب إذا كان ذلك ممكناً ، و بالحروب إذا لم تكن ممكنة"

ومن المثير للسخرية ، كما سأبين ، فإن العولمة كمصطلح يستخدم اليوم - وهي التطور الطبيعي للرأسمالية الغربية التي يرتكز اقتصادها إلى عامل النمو بوقودٍ من المخترعات الفنية - قد تحولت (أي العولمة) ، من محلية ، إلى إقليمية ، فوطنية ، ومن ثم إلى عالمية .

وقد ابتدأت الولايات المتحدة بـ13 ولاية ، إلا أنها واصلت التوسع باحثةً عن أسواق وموارد بأي وسيلة ، وتم تحقيق مثل هذه التوسعات عن طريق الشراء أحياناً ، مثل شراء لويزيانا والاسكا، وعن طريق الحروب ضد المكسيك للتوسع جنوباً وغرباً ، والتي ارتكبت خلالها جرائم الإبادة الجماعية ضد أهل البلاد الاصليين . ومع نهاية القرن التاسع عشر امتدت الولايات المتحدة من الأطلنطي إلى الهادي ، وبوجود ثورةٍ صناعية متسارعة باستمرار ، وكساد اقتصادي عميق ماثل(وشيك) ، كان على الولايات المتحدة البحث عن أسواق وموارد فيما وراء البحار ، فشن الرئيس ماكينلي حرباً ضد اسبانيا امتدت من كوبا المجاورة وحتى الفلبين القصية ، ودعت الموسوعة البريطانية هذه الحرب بفترة الاستعمار الاميركي ، ولم يكن جورج دبليو بوش الرئيس الأميركي الأول الذين يعلن حرباً استناداً لذرائع زائفة ، وشن ماكينلي حربه الأميركية/الاسبانية ، على أساس الادعاء بأن الاسبان دمروا المدمرة الاميركية يو. إس. إس. مين في ميناء هافانا، وهو ادعاء لم تتمكن التحقيقات اللاحقة من اثباته . وحقيقة الأمر كانت أن البارونات اللصوص كانوا بحاجةٍ

شديدة إلى حرب ، فتسارع الثورة الصناعية ، وفوائض الانتاج ، والبطالة ، والكساد ، والاضطرابات الاجتماعية ، كانت الأسباب الحقيقية لنشوب الحرب الأميركية/الاسبانية عام 1898 ، وأصبح العالم بمجمله لقمة سائغةً لأميركا الشركات والمتمولين العالميين المسنودين دائماً بامبراطورية غير رسمية حينذاك ، والتي تحولت تدريجياً لتصبح امبراطورية أميركية رسمية تدعى الآن العولمة.

ولقد تآكلت القوة الاقتصادية الأميركية الفائقة ، والتي كانت مسؤلة عن 50% من الناتج الصناعي العالمي بعد الحرب العالمية الثانية ، وأصبح بقاء الولايات المتحدة الآن

321

يعتمدعلى تدفق 3 بلايين دولارمن العملات الأجنبية لتمويل عجوزاتها وحروبها ، وقد قارب عجز ميزان مدفوعاتها في 2005 رقماً قياسياً بلغ 800 بليون دولار ، وللتعويض عن هذا العجز في القوة الاقتصادية لجأت الامبراطورية الأميركية بصورة متزايدة إلى عضلاتها العسكرية .

مكررة

in May 2003. The U.S. “should expect to put in the lion’s share of the security effort to support globalization’s advance because we enjoy its benefits disproportionately…As our consistently huge trade deficit indicates, we also tend to live beyond our economic means. Basically, we count on the rest of the world to finance our sovereign debt…there is not a whole

lot we should complain about this deal -basically trading pieces of paper for actual goods."[242]

For globalization to work, the world must operate on universal values. The problem is that these values are derived from the Gospel of Wall Street not from the Gospel of God, and the American empire is now imposing them on the world. In Barnett's new 2004 book titled, *The Pentagon's New Map,* he wrote:

The workshops we conducted jointly brought together Wall Street heavyweights, senior national security officials and leading experts from academia and think tanks…our joint venture was called the New Rule Sets Project.[243]

322ص

---

[242] http://www.thomaspmbarnett.com/published/gts.htm

[243] Thomas P. M. Barnett, *The Pentagon's New Map*, Berkley Books, 2005, 46

ولا تشن أميركا حملاتها الصليبية كي يعتنق المسلمون المسيحية ، وإنما كي تفرض عليهم "مجموعات القوانين الجديدة " ، حتى يبادلوا نفطهم بالورق ، وحتى يستمروا في تمويل عجز أميركا السيادي ، وإنها لإكرامية تأتي فوق ذلك بالطبع – إذا ما قرر المسلمون التوقف عن أن يكونوا مسلمين ، أو على الأقل – أن يغيروا الاسلام في الأماكن التي لا توافق فيها بين كتاب وول ستريت المقدس ، وبين الإسلام . وكثيرون هم المسلمون الذين أعجبوا ولا زالوا يعجبون بالشعب الأميركي ، ولكنهم ليسوا بالضرورة معجبين برأسماليتهم الجامحة . وإنهم ليدركون أن الرأسمالية الأميركية الأنجلوساكسونية لا نظير لها عندما يتعلق الأمر بخلق الثروة وتكديسها ، إلا أنهم يدركون كذلك ، أن لا نظير لها عندما يتعلق الأمر بسوء توزيع الثروة والظلم الاجتماعي ، ولاياريهم أحد عندما يتعلق الأمر برأسمالية السوق وتغليف الشر وتعبئته على أنه خير ، والخير على أنه شر .

323

الجيولوجيا : حروب النفط والموارد

A study conducted at the Massachusetts Institute of Technology in the early 1970s, which was published as “The Limits to Growth”, predicted that the growth-based economic

model, combined with capitalism's present consumption patterns and world population growth, is on a collision course with nature, which will take place in the middle of the twenty-first century. Many scientists and consultants, including myself, believe we are at a point where maximum oil production is about to be reached soon, and the decline of the Oil Age has already begun. America's occupation of Iraq was a war for resources, oil at the top of the list. In May 2001, Bush stated, "What people need to hear loud and clear is that we're running out of energy in America."[244] Addressing business people in New York on March 14th 2008, he commented on the $111 / barrel oil, that America had a bad energy policy and supply today cannot meet demand.

American former central banker Alan Greenspan wrote in his 2007 book titled, *The Age of Turbulence*: "I am saddened that it is politically inconvenient to acknowledge what everyone knows: the Iraq war is largely about oil"[245].

---

[244] http://reason.com/archives/2004/07/21/energy-independence-the-ever-r

[245] Alan Greenspan, *The Age of Turbulence: Adventures in a New World*, Penguin Group, 2007, 463

غير مترجم اول فقرة

وجميع الناس ربما يعرفون هذا ، ولكن ليس الشعب الأميركي .. بفضل إعلام الشركات . وما أن يتم الوصول إلى ذروة الطاقة الانتاجية للنفط ، فإن فقداناً خطيراً للتوازن بين العرض والطلب سيحدث ، مالم يتوفر وفي الوقت المناسب – بدائل للطاقة ، وهو ما نعتقد بأنه ليس ما سيحدث الآن . وأفضل تعبير عن مدى درجة الخطورة التي ستبلغها هذه الحال هو ما ورد في الدراسة التي أجرتها إدارة الطاقة في الولايات المتحدة في شباط 2005 ، والتي لا تدع مجالاً للشك في أزمة الطاقة الوشيكة للولايات المتحدة .

" إن بلوغ إنتاج العالم النفطي ذروته يجبه الولايات المتحدة والعالم بمعضلة غير مسبوقة في إدارة المخاطر ؛ ومع اقتراب الذروة ، فإن أسعار الوقود السائل والتقلبات السعرية ستزداد بشكل مفاجئ ومثير ، ومن دون تهدئة للوضع في الوقت المناسب ، فإن الأكلاف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ستكون غير مسبوقة ، وتتوفر خيارات تهدئة صالحة للتطبيق على كل من جانب العرض وجانب الطلب ، ولكن ...حتى يكون لها الوقع المطلوب ، فلا بد من إطلاقها مقدماً ، و قبل عقد من بلوغ الذروه ، وسيكون التعاطي

323

مع حالة وصول الإنتاج النفطي ذروته مسألة غاية في التعقيد ، تنطوي – حرفيا -ً على تريليونات الدولارات .. كما تحتاج سنين كثيرة من الجهود المكثفة .. مثلما ستحتاج التهدئة إلى عقدٍ من الزمان في الأقل ، من الجهد المكثف المرتفع الثمن .. كما سيكون تدخل الحكومات مطلوباً بسب أن التداعيات الاقتصادية والاجتماعية لبلوغ ذروة الانتاج النفطي - بدون ذلك التدخل - ستكون مضطربة." [246]

The first historical record of oil in Iraq was some 5000 years ago, and the last drop of oil will come from Iraq and the

---

[246] http://www.energybulletin.net/node/4638

Arabian Peninsula. Seventy percent of the world's oil reserves are under their Muslim lands and the percentage will continue to shift in their favor. Any wonder why the war for resources or the so called War on Terror is on Muslim lands. The reserves of Iraq from the existing eighteen fields alone are estimated at more than the total reserves of the United States, UK and all West Europe, India and China combined. But Iraq has an additional sixty-two undeveloped fields which will move Iraq to equal or exceed Saudi Arabian reserves. Iraq oil is also among the cheapest in the world to produce. So here we are: an empire, the most powerful country in history, running out of oil, professing unilateralism and preemption at its own will, preying the resources of a weak third world country. With bases in Iraq, the U.S. will control most of the oil reserves of the world, as well as project its imperial hegemony on who gets how much oil and at what conditions, as the gap between supply and demand narrows till it disappears fairly soon.

U.S. Energy Secretary Bill Richardson summed it up very well in 1999 when he said: "Oil has literally made foreign and security policy for decades."[247] Any wonder why the U.S. permanent establishment Comprising the financial community and the Military Industrial Complex brought into power "a war president", an oil man, the son of an oil man, Mr. Bush, assisted by a former CEO of a Texas based huge oil Services Company, a Mr. Cheney, and a Lady secretary of State/National Security Advisor whose name was christened on an oil supertanker and who sat on the boards of financial and multinational oil companies? A first class oil war team indeed!

War Mongering: Who Benefits From Wars?

A year after the invasion of Iraq, according to the Financial Times, Halliburton's revenues had increased by 80 percent and Bechtel's by 158 percent; between the first quarters of 2003 and 2004 Chevron Texaco's profits went up by 90 percent, and arms manufacturer Lockheed Martin stocks increased by 300 percent

[247] http://apps1.eere.energy.gov/state_energy_program/update/feature_detail.cfm/fid=8

between 2000 (the year George W. Bush was first elected) and 2004. We can then proclaim American moneyed interests and the American Military industrial complex as the winners- the one percent class that owns more than 80 percent of Americans. But who are the losers? They are the rest of Americans and peoples of the world. While these corporations were prospering, servicemen and their families were sinking deeper in debt. The front-page headline of USA Today read: "Pentagon sees risk in troops' loan debt: Payday lenders prey on military."

The newspaper wrote:

As many as one in five of the armed services are being preyed on by loan centers set up near military bases that can charge cash-strapped military families interest of up to 400% or more, a new Pentagon report has found.[248]

[248] http://www.usatoday.com/news/nation/2006-08-30-military-loans_x.htm

This boom, which benefited just a handful of corporations, was paid for by the blood of mostly poor Americans who form the majority of soldiers, and innocent Iraqis, Afghans, Palestinians, Lebanese and others, and was financed by unprecedented deficits. Highly decorated Marine, Major General Smedley Butler wrote:

War is a racket. It always has been. It is possibly the oldest, easily the most profitable, surely the most vicious. It is the only one in which the profits are reckoned in dollars and the losses in lives.[249]

Unfortunately the Western capitalist order which some are promoting as a universal order can hardly survive without wars. Defending the Kennedy administration's Bay of Pigs invasion, Secretary of State *Dean Rusk* told congress that the United States made 102 wars and interventions outside the United States in the 19th century alone. Former Harvard history

[249] Smedley D. Butler, *War is a Racket: The Antiwar Classic by America's Most Decorated General*, Feral House, 2003, 23

professor William Polk emailed me his testimony to congress in 2007 on Iraq, which was after General Petraeus' testimony last summer, in which former Harvard history professor Polk stated that the United States had been to war over 200 times in its short history.

Terror Mongering (War on Terror): Another Racket?

ابتداء ، دعني أبين بوضوح أن استهداف المدنيين الأبرياء تحت أي عنوان ومسمى " سواءً كان جهاداً ، أو حملة صليبية ، أو الاغتيال دون محاكمة ، أو الضررالمصاحب الذي لا مفر منه" ، يجب أن يدان بشدة ، سواءً تم الاستهداف من قبل أفراد أو مجموعات أو دول . ومع ذلك فليس هذا ما قال به أو مارسه قادة إسرائيل ، لا في الماضي ولا في الحاضر ، فاسحق شامير الذي أصبح رئيساً لوزراء إسرائيل ، والذي كان سابقاً رئيساً لمنظمة إرهابية اغتالت في 1948 وسيط الأمم المتحدة الكونت برنادوت ، يعتقد بأنه **" لا الأخلاقيات اليهودية ، ولا التقاليد اليهودية ، بإمكانها استبعاد الإرهاب كأحد وسائل الصراع."** [250]

وكان ليفي أشكول - وهو أحد رؤساء الوزارة في إسرائيل - كثيراً ما يشير إلى مناحيم بيغن بـ"الإرهابي " ، حيث رأس بيغن عصابة الأرجون الارهابية ، والتي قامت ، بين أعمال أخرى ، بنسف فندق الملك داود ، وكان بيغن على رأس قائمة الإرهابيين الأكثر طلباً " لدى بريطانيا" .

ولقد أطلق مدير سابق لوكالة الاستخبارات المركزية ، اسم الحرب العالمية الرابعة ، على " الحرب على الإرهاب " ، مفترضاً أن الحرب الباردة كانت هي الحرب العالمية الثالثة ، اما

[250] Encyclopedia Wikipedia, http://en.wikiquote.org/wiki/Yitzhak_Shamir

بعض المسلمين فيسمونها أحدث الحملات الصليبية ، مستعيرين عبارة جورج دبليو. بوش . ويشترك كل من جورج بوش وأسامه بن لادن في نقطتين : أولاهما أن كليهما فاحش الثراء ، كما ان كليهما مكلف من العناية الإلهية بمباشرة حملته ! وتزعم أميركا بأنها تشن حربا على الإرهاب ، إلا أن أولئك الذين يعارضونها فيدعونها بحرب إرهاب ، وعليه .. من ؟.. وما الذي يجب علينا تصديقه؟!.

ومع أن المجتمع الدولي ، ومن ضمنه معظم المسلمين ، قد ادانوا هجمات 11 أيلول ، فقد طلب العالم من إدارة بوش تعريف ماهية الإرهاب ، حتى يتمكن من الانضمام إلى حربه ضدها ، إذ أنه بدون تعريف فسيكون المطلوب منه(من العالم) قتال شبحٍ غير معرف . ولم تقبل إدارة بوش إعطاء مثل هذا التعريف لحرب عامةٍ ، تطلب – هي - من العالم الانضمام لها . إلا أن إدارة بوش - على ما يبدو - لم تكن وحيدة في ذلك ؛ ففي مقابلة مع ايمي جودمان أجرتها بتاريخ 2006/7/28 مع رئيس بعثةٍ سابق في العراق ، ونائب لمدير قوة العمل الخاصة بالإرهاب والتابعة للبيت الأبيض اثناء إدارة ريغان ، ويدعى إدوارد بك حيث صرح بالقول :

" في 1985 ، عندما كنت نائباً لمدير قوة العمل الخاصة بالإرهاب التابعة للبيت الأبيض أثناء إدارة ريغان ، سألونا ...أن نأتي بتعريفٍ للإرهاب يمكن استعماله عبر الحكومة بأكملها. We produced about six, and each and every case, they were rejected, because careful reading would indicate that our own country had been involved in some of those activities.[251]

مكررررر اخر فقرة 326

---

[251] http://www.democracynow.org/2006/7/28/national_exclusive_hezbollah_leader_hassan_nasrallah

هل بإمكاننا الافتراض أن هذا هو السبب وراء امتناع إدارة بوش عن تعريف الارهاب ؟... وفيما يلي رؤية مستشار سابق للأمن القومي ، هو زبنيو بريزنسكي كما وردت في مقالة في الواشنطن بوست (2008/2/28) تحت عنوان : كيف تسنى لتميمةٍ (لطلسم) من ثلاث كلمات (الحرب على الإرهاب) إضعاف مكانة أميركا؟!.

" ... إن غموض العبارة قد تم حسابه قصداً (أو غريزياً) ، من قبل أصحابها . لقد حفزت ظهور ثقافة خوف ، والخوف يحجب العقل ، ويؤجج العواطف ، ويسهل الأمر على الغوغائيين من السياسيين في حشد الجماهير لصالح السياسات التي يريدون اتباعها .. ومثل هذا الاتجار بالخوف ، مدعمٌ من متعهدي الأمن ، ووسائط الإعلام الجماهيرية وصناعة التلاهي .. يولد زخمه الخاص." [252]

هل أن الفلسطينيين الذين يقاومون الاحتلال إرهابيون.. ؟! أم أنها إسرائيل التي تمارس إرهاب الدولة ضد سكان مدنيين غير مسلحين في معظمهم.. ؟ هل كان ياسر عرفات إرهابياً ؟!.. فلم إذن منح جائزة نوبل للسلام.. ؟! هل كان رئيس وزراء اسرائيل الأسبق ميناحيم بيغن إرهابياً ؟ وإذا كان كذلك فلماذا منح هو أيضاً جائزة نوبل للسلام فيما بعد؟.. الإرهابيون في عيون البعض ، هم مقاتلون من أجل الحرية لدى آخرين ، وإرهابيو الأمس هم رابحو جائزة نوبل للسلام اليوم . ولكن من الذي يقرر؟

وحقيقة الأمر أن الأسباب الحقيقية لما يزعم بأنه حرب على الإرهاب كما يراها المسلمون ، ليست سوى مزيج من العوامل الخمسة التي سبق ذكرها ، ولكنها في الاغلب حرب من أجل الموارد في عالم العولمة .. ولكن هل أن أحداً يكذب علينا .. ويلف حرباً ظالمة وغير مقدسةٍ بعلم ، كي يسهل على نفسه بيع الصفقة لنا؟.. وكالة الأسوشييتدبرس أوردت في 2008/1/24 أن اثنتين من المنظمات الصحفية غير الربحية (مركز العمل لوحدة وسلامة الجمهور ، وصندوق العمل من أجل استقلالية الصحافة) ، قد وجدت أن الرئيس بوش

---

[252] Zbigniew Brzezinski, "Terrorized by 'War on Terror'", *Washington Post*, March 25, 2007, http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2007/03/23/AR2007032301613.html

وكبار رسميي إدارته قد أصدروا 925 تصريحاً زائفاً حول التهديد للأمن القومي من العراق ، في السنتين اللتين تلتا هجمات 2001 الإرهابية ، وخلصت الدراسة إلى أن التصريحات :

" كانت جزءاً تحت دعاوى وذرائع لا جدال في زيفها" [253]

هل من المسموح لنا تسمية هذه الأكاذيب المنسقة بالمؤامرة ؟ هل من المسموح لنا تسمية تواطؤ إعلام الشركات ضد حق الأميركيين في أن يعرفوا بالمؤامرة ؟ هل

327

سيعتبر أولئك الذين نسقوا الأكاذيب مسؤولين عن موت وتعاسة الملايين من العراقيين ، وعن مصرع 4000 جندي أميركي والتسبب في إعاقة أكثر من 000 100 أميركي ؟ أو هل بمقدور الإعلام إعطاء تغطيةٍ كافية لمثل هذا الكذب المتعمد لجر البلاد إلى الحرب؟ أوعلى الأقل تغطية تعادل تلك التي أعطيت لزلةٍ جنسيةٍ لرئيس سابق ، بموافقة شريكته الراشدة.

Israel: A Watch Dog Outsourced by Empires: The G of Geopolitics:

As a young student in elementary schools in Jerusalem, our history teacher taught us about the Balfour Declaration, the document in which Lord Balfour, the British Secretary, wrote to another British and global financier, Lord Rothschild,

[253] http://www.msnbc.msn.com/id/22794451/

promising to create a Jewish homeland in someone else's country which happened to be mine. To my young, inquisitive mind I wondered about the relationship between financiers and politicians, and how he who does not own a thing can give it.

Later, I was told that Palestine was given to the Jews by God, not Mr. Balfour, and I wondered if God was in the real estate business. If he was, that would have been the first sub-prime deal ever transacted, some 2000 years and look what such deals are doing now to your country. Here again God was invoked to bless an imperial act. Then, I was told that the evil done to Palestinians by giving their country to another people was a result of the evil of the Christian Europeans which was inflicted on the European Jews, a strange logic indeed. The prominent Zionist founding father David Ben Gurion, who also was Israel's first prime minister knew better. He said, as was quoted in the Mearsheimer-Walt study on the Israeli lobby of March 2006:

If I were a (Palestinian) Arab leader I would never make terms with Israel. That is natural: We have taken their country....We

come from Israel. But two thousand years ago, and what is that to them? There has been anti-Semitism, the Nazis, Hitler, Auschwitz, but was that their fault? They only see one thing: we have come here and stolen their country. Why should they accept that?[254]

The majority of Arabs and Palestinians are not impressed by the sophistry justifying the occupation of their lands even if it is presented as pseudo-scholarship. They are also not impressed by the hallucinations of end - timers who are supporting the Jews of Israel today to convert them or murder them at the end of times. What they see is a nation state that was created over their dead bodies and lands, with unparalleled financial backing from the United States (approaching 160 billion of U.S. tax payers money), and unlimited military and political cover including vetoing the World community

[254] Nahum Goldmann ,*The Jewish Paradox: A personal Memoir,* (translated by Steve Cox), Grosset & Dunlap, 1978, 99

resolutions forty-two times since 1972, protecting Israel's occupation and human rights excesses.

مكرررررررر

328

وإسرائيل ، هي الآن كما أعتقد ، إرث جيوبوليتيكي امبريالي - وليست نبوءة توراتية - وهي من صنع الامبراطوريات لتعزيز المخططات الامبريالية ، كما قصد لها أن تعمل كاسفين بين دول آسيا العربية ودول أفريقيا الغربية ، بالاضافة لقيامها بمهام حاميه عسكرية قوية ، يستدعى سكانها لشن حروب بالوكالة ، وللقيام بمهمة البلطجي ، نيابة عن الامبراطورية .

والفلسطينيون العرب الذين شكلوا 65% من سكان فلسطين عندما خلقت إسرائيل في 1948 ، قد تم - وبمنهجية - تطهيرهم عرقياً ، وهم الآن يعدون بالملايين بصفة لاجئين حتى هذا اليوم . وأما الفلسطينيون العرب الذين نجوا من الطرد ، فيعاملون كمواطنين من الدرجة الثالثة . وبين 1948 و1963 دمرت 531 قرية عربية بالكامل ، اما الترانسفير ، فهي الكلمة الإسرائيلية المقابلة للتطهير العرقي ، والذي هو السياسة الرسمية السائدة بين قادة إسرائيل ، وما يختلفون فيه ، يتعلق فقط بكيفية التطبيق . وتصادر الآراضي الفلسطينية ، وإذا بمستوطناتٍ جديدة تعيث في الأراضي المحتلة ، ويتم الانتقاص من إنسانية الفلسطينين بالقول والعمل . وفيما يلي بعضٌ مما قاله القادة الاسرائيليون عن الفلسطينيين :

قال مناحيم بيغن مرة إن ***" الفلسطينيين بهائم تمشي على سيقان " ، فيما أشار إليهم رئيس أركان الجيش الاسرائيلي السابق رافائيل إيتان على أنهم " صراصير مخدرة داخل زجاجة" ، وقال أيضاً "العربي الطيب هو العربي الميت". أما موشيه يعالون وهو رئيس***

أركانٍ سابق أيضاً فأشار الى التهديد الفلسطيني كسرطان يجري عليه هو علاجا بالكيماوي. [255]

كيف يمكن للمرء أن يكون أكثر عنصرية ؟

وحيث أن الفلسطينيين شعبٌ سامي ، أفلا يجوز لنا أن نسمي هذه التحقيرات اللفظية والعنصرية ، والإبادة الجماعية ، والتطهير العرقي ، والاعتداءات على حقوق الإنسان ضد الفلسطينين ، أفلا يجوز لنا وصفها بأنها شكل متقدم من أشكال العداء للسامية ؟.. وكيف يمكن لبلدٍ يرفع بيرق حقوق الإنسان أن يؤيد مثل هذه الممارسات ؟! أهو خداع أم نفاق أم ماذا ؟! لست الوحيد الذي أصيب بالدهشة! كيف يمكن للمضطهدين أن يتحولوا إلى مضطهدين؟

329

وانتقاداً للاحتلال الاسرائيلي للمناطق الفلسطينية ، ولفكرة حكم إسرائيل للفلسطينيين ، يقول الدكتور جوناثان ساكس ، الراباي البريطاني الرئيس:

" ليس باستطاعتك تجاهل أمرٍ تكرر 36 مره في الكتب الموسوية : " لقد تمّ نفيك لتعرف ما الذي يحس به المنفي " وأضاف " ولذلك فإنني اعتبر الحالة الراهنة لا أقل من مأساويه ، لأنها تكره إسرائيل لاتخاذ مواقف لا تتطابق في المدى البعيد مع أعمق مثلنا." [256]

(الجارديان ، 27 آب 2002)

---

[255] John J. Mearsheimer, Stephen M. Walt, *The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy*, Farrar, Straus and Giroux, 2007, 89.

[256] http://www.guardian.co.uk/news/2002/aug/27/wrap.chrisalden

George Soros in his book *The Crisis of Global Capitalism* argued that:

Capitalism and democracy obey different principles....The interests that are supposed to be served are different: In capitalism it is private interests, in democracy it is the public interest. In the United States, this tension is symbolized by the proverbial conflicts between Wall Street and Main Street.[257]

مكرر 330 the obstacles to change

وهذا يشكل رداً على السيد / تشيرتوف: لماذا تحبط المصالح الخاصة (وول ستريت) الجهود المبذوله(للصالح العام).

هل يمكن – إطلاقاً - للجهود المبذولة للصالح العام أن تتحقق ، إذا كان ممكناً أن يوقع سبعون سناتوراً ، شيكاً على بياض ، أو على محرمة ورق فارغة ، خلال 24 ساعة ؟ وكما ذكر كتاب "اللوبي الصهيوني" ، الذي شارك في تأليفه أحد أساتذة مدرسة جيه. إف. كينيدي لدراسات الحكومة ، الاستاذ ستيفن روزن ، وهو رسميٌّ سابق في إيباك ، موضحاً قوة إيباك لمراسل جريدة النيويوركر جيفري جولدبيرغ: بوضع ورقة محرمة أمام جولد بيرغ قائلاً :" خلال 24 ساعة يمكننا الحصول على تواقيع

[257] George Soros, *The Crisis of Global Capitalism: Open Society Endangered*, PublicAffairs, 1998, 111.

سبعين سناتوراً على هذه المحرمة ". [258]وكما تشهد سجلات السياسيين في واشنطن ، فسيكون من الخير لك أن تصدق السيد روزن .

وبعض من سناتورات (شيوخ) التوقيع على ورقة محرمة ، دافع عن التطهير العرقي ضد الفلسطينيين ، فقد أبلغ قائد الأغلبية في المجلس ريتشارد آرمي ، أبلغ هارد بولز كريس ماثيوز

330

أيار 2002 كان " راضيا في أن تستولى إسرائيل على الضفة الغربية بأكملها ". وأنه " صادف بأنه يعتقد بأن على الفلسطينيين أن يرحلوا " ، وقد صادف أيضاً أن الفلسطينيين يعتقدون بأن على آرمي واشباهه أن يذهبوا إلى الجحيم ، قبل أن يرحلوا هم عن بلادهم.

وبشكل عام ، يعتقد المسلمون والعرب الآن أن ديموقراطية دولار واحد للصوت الواحد الأميركية ، قد صممت لخدمة مصالح طبقة الواحد بالمائة من الأميركيين الذين يملكون أميركا ، ولهذا أجادل ، وخلافاً للسيد / تشيرتوف ، بأن واشنطن تعمل بشكل جيد جداً ، محققة ما صممت لتحقيقه من قبل المصالح الخاصة التي تخدمها ، ولقد تم مسخ الديموقراطية الأميركية ، إلى مجرد آلياتٍ تلقائية احتفظت بالشكل وليس الجوهر . وكما يقول وليام جريدر في كتابه " من الذي سيطلع الناس " :

The blunt message of this book is that American democracy is in deeper trouble than most people think.....At the highest level

---

[258] John J. Mearsheimer, Stephen M. Walt, *The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy*, Farrar, Straus and Giroux, 2007,10

of government, the power to decide things has gravitated from the many to the few.[259]

Probably, Indian writer Roy Arundhati's New York Speech in 2003 after America's occupation of Iraq speaks for what much of the Muslim world thinks of American democracy. She said:

Here we are, confronted with an Empire that has conferred upon itself the right to go to war at will .... and "Democracy" is its sly new war cry. Democracy, home-delivered to your doorstep by (cruise missiles). Death is a small price for people to pay for the privilege of sampling this new product: Instant-Mix Imperial Democracy (bring to a boil, add oil, then bomb) [260] .

The New American Century Project: Mission Impossible

---

[259] William Greider, Who Will Tell the People: The Betrayal of American Democracy Simon & Schuster, 1993, 11.

[260] http://www.commondreams.org/views03/0518-01.htm

In a 1941, a Life magazine editorial titled 'The American Century' written by Henry Luce, founder of TIME, who came from the same secretive Yale University's Skull and Bones society that George Bush the father and son came from as well, announced the goal of American world domination. He wrote:

We must accept whole-heartedly our duty and our opportunity as the most powerful and vital nation in the world and in consequence to exert upon the world the full impact of our influence, for such purposes as we see fit and by such means as we see fit. [261]

When Bush announced his new Doctrine he almost used the same words of Luce. *The New American Century Project* is a late edition of Luce's project. It is ironic that such day dreaming and an impossible imperial mission is becoming official U.S. policy.

---

[261] *LIFE* magazine, 17 February, 1941, 63

The United States is loosing its imperial prerequisites fast: On March 14, 2008 and as the dollar dropped to 1.56 against the Euro, the U.S. lost its place as the world's biggest economy to the Euro zone's 15 countries GDP. The dollar is heading to the loss of its status as the international reserve currency. America's project for Iraq's occupation failed to achieve its objectives. To the contrary, it almost bankrupted the United States, though Iraq is only 8 percent of the U.S. population and its economy is less than 3 percent of the size of U.S. economy. Perez's "New Middle East", design adopted stock, lock, and barrel by Bush neo-conservatism, has indeed produced a New Middle East that will not be to U.S. interests, as "the birth bangs" of Condoleeza Rice in Lebanon in 2006 clearly demonstrated. One of the world's leading historians, Eric Hobsbawn, was reported in the *Harvard Crimson* (October 20, 2005) as saying here at Harvard:

> The American empire may actually cause disorder, barbarism, and chaos rather than promote peace and order.

To Hobsbawn, this empire will almost certainly fail. He added:

> Will the U.S. learn the lessons [of the British Empire] or will it try to maintain an eroding global position by relying on a

failing political force and a military force which is insufficient for the present purposes which the current American government claims it is designed?[262]

Corporations, the micro-systems of the American empire, are facing sudden economic collapse as LTCM, Enron and others. A recent causality was Wall Street's financial house Bear Stearns which lost in less than one week 93 percent of its shares value (from 72 to 2 dollars/share!) in the 3rd week of March 2008. Empires nowadays come to their end by sudden death and economic heart attacks! The USSR is a recent example.

Muslims, Arabs, and much of the world would also like America to read the Bible to find out the best way to fight terror. Thousands of years ago Isaiah said that it is only if you sow justice that you will reap peace.

مكرر 331

---

[262] Lev Menand, "Leading Historian Says U.S. 'Empire' to Fail", *Harvard Crimson*, October 20, 2005, http://www.thecrimson.com/article/2005/10/20/leading-historian-says-us-empire-to/

مكرر 332

الفصل الثالث عشر

العالم الذي قال لا للمعلومالية

كتب وليام جريدر ، وهو مساعد مدير تحريرٍ سابق في جريدة واشنطن بوست ومؤلف أحد أكثر الكتب مبيعاً في قائمة جريدة النيويورك تايمز وهو كتاب " من سيخبر الشعب " ، كتب في كتابه الجديد :

"لدي أشياء قاسية اقولها عن وطني ، ففيما وراء الركود الاقتصادي والأزمة المالية ...نحن في مشكلةٍ أعمق مما

574

يفترض الكثير من الناس ، أو مما ترغب السلطات في الاعتراف به.[263]

ولست أرى طريقاً لطيفاً لقول ذلك ، فأميركا " كرقم واحد" قد انتهت ، فالولايات المتحدة تتجه للسقوط ، وهو قصاص شديد ، سيفرض على مجتمعنا تحولات مشوهه ومؤلمه ، كما سيوجه لطماتٍ مذله لكبريائنا الوطني ، وقادني تفكيري في هذه الاشياء إلى[264] ***الاستنتاج بأن أميركا في أزمة أعمق مما يعتقد بشكلٍ عام ، وبأن استعادة عافيتنا القومية سوف يقتضى تغيّراً كبيراً ..***

575

---

[263] William Greider, *Come Home, America: The Rise and Fall (and Redeeming Promise) of Our Country*, Rodale, 2009, 1.

[264] Ibid., 5.

تحولاً تاريخياً في طرائق عيشنا وعملنا وكذلك في الطريقة التي نحكم بها" . [265]

بعد أزمتي المكسيك وجنوب شرق آسيا في منتصف العقد الأخير من القرن العشرين ، وفي نهاية ذلك العقد ، على التوالي ، كتبت كتابي الأول المعنون :" إنجيل العولمة : هل يستطيع العالم أن يقول لا للمعلومالية ؟". وعرفت المعلومالية على أنها الاقتصاد المالي الجديد (الذي ظهر عقب إلغاء نظام بريتون وودز للصرف الثابت في (1971) ، والذي تعاضد مع الأدوات الجديدة لثورة عصر المعلومات ، وبشكل أساسي الحواسيب والاتصالات. وتجاوز هذا "الاقتصاد الجديد " الاقتصاد الإنتاجي الحقيقي ، وقد تمت صياغة العنوان الفرعي لكتابي بعد أن ألف شينتارو إيشيهارا كتابه "اليابان التي تستطيع أن تقول لا"

576

والذي دعا فيه اليابان لرفض رأسمالية الهيمنه التمويلية الأميركية ، والتي يتم دفعها للأمام في عربة العولمة ، وفي وقت لاحق ألّف بالاشتراك مع رئيس الوزراء الماليزي "آسيا التي تستطيع أن تقول لا" ، أما موضوع (إنجيل العولمة المقدس) كما عبّر عنه عنوانه الفرعي فكان رؤية "العالم الذي يستطيع أن يقول لا " لعولمة المعلومالية.

وفي ذلك الكتاب الذي نُشر في 1998 كتبت :

إن ثورة عصر المعلومات في القرن العشرين ، والثورات الموازية التي خلقتها ، هي ثورات جامحةٌ وقد تخرج عن السيطرة ، وإذا كانت ثورة القرن التاسع عشر (الصناعية) احتاجت إلى كسادين اقتصاديين في ذلك القرن ، وحربين عالميتين في القرن العشرين ،

577

وكسادين بعد الحربين على شكل هزاتٍ مرتدة ، فما الذي ستكون عليه الهزات المرتدة لهذه الثورة؟ وحتام ستستمر ؟ .. وهل الرأسمالية العالمية هي حقيقة النموذج الذي يستأهل النشر حول العالم تحت مختلف المسميات وعبر مختلف المؤسسات ؟ .. ما هو البديل وما هو

---

[265] Ibid., 197

مستقبل العولمة الاقتصادية ؟ .. لقد بدأ الكثيرون من الناس الجادين حول العالم يتناقشون بجد في هذه الأسئلة الخطيرة ، ونحن لسنا بحاجةٍ إلى مائة سنة أخرى من الهزات المرتدة والكوارث العالمية ، كي ندرك خراب النظام الحالي .. فالنظام العالمي الحالي يسوق العالم من كارثةٍ وطنيةٍ إلى أخرى ، فقد أطلقت ثورة النظام المالي العالمي قوى جديدة من عقالها ، ولا توجد الآن المؤسسات والقوانين الأصوليه

578

لتنظيم هذه القوى الجديدة ، أو لكبح جماح المتمولين العالميين الذي يمتطونها ، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى تدميرهم الذاتي .[266]

وفي الحقيقة ، فإن عدداً من هذه البيوتات المالية قد دمرت ذاتياً بعد انقضاء سنواتٍ قليلة على وضع ذلك الكتاب ، كأمثال بيرشتيرن ، ولهمان برذرز ، بينما حاق الإفلاس بأخرى مثل سيتي جروب ، وجولدمان ساكس ، حيث جاوزت موجوداتهم غير المجدية ، القروض التي تفشل في سداد أقساطها أو فوائدها في مواعيدها - بتجاوزات زمنية تراوحت بين 90 - 180 يوما – كما جاوزت رأسمالها أضعافاً ، إلا أنه تم إنقاذهم بأموال دافعي الضرائب ، ويا لمحاسن الصدف فقد ساعد في الموضوع كون وزير الخزانه هو السيد / هنري بولسون ، المدير التنفيذي السابق لجولدمان ساكس والذي تصدق

579

بعشرات البلايين من الدولارات ، من أموال دافعي الضرائب إلى رب عمله السابق.

وكان الدكتور مهاتير محمد هو الأول في قول " لا " كبيره للمعلومالية ، حيث أنه قام باتخاذ إجراءٍ ضد مبالغات وتجاوزات المضاربين ، ففي 1 أيلول 1998 ، وخلافاً لقيود صندوق

---

[266] Rex Abdulhay Y. Zalloum, *The Globalization Gospel: Can the World Say No to Infofinancialism?*, Bookstore, Inc., 1999, 15,16,21.

النقد الدولي وإدارة الخزانة للولايات المتحدة ، فقد أعلن عن ضوابط صرفٍ كاسحةٍ للعملات ، بما في ذلك سعر صرفٍ ثابت ، ونهاية لإمكانية تحكم خارجي في تحويل العملة الماليزية . وتعهّد بأن بلاده ستواصل الحفاظ على ضوابطها للصرف الأجنبي ، حتى لو تطلب الأمر وقوفها لوحدها ، وإلى أن يضع المجتمع الدولي نظماً لحماية الاقتصادات الانتاجية الوطنية ضد المضاربات . ولقد هوجم الدكتور مهاتير بحدّه

580

من قبل الإعلام الغربي ، لكن بلاده كانت الوحيده بين أمم جنوب شرق آسيا التي نجت من الدمار الذي شهدته هذه البلدان .. التي استسلمت لاشتراطات صندوق النقد الدولي.

في ظل إدارة كلينتون ، باشرت الولايات المتحدة وضعيتها المكتسبة حديثاً كقوة عظمى وحيده في عالمٍ أحادي القطبية ، وكانت تمارس ضغطاً شديداً لإجبار كافة الأمم على اعتناق إنجيل العولمة في التجارة الحرة ، والذي ينطوي على التقييدات ، والقيم والأخلاقيات الخاصة برأسمالية وول ستريت الأميركية ، والتي هي دائماً على تواطؤ مع صندوق النقد الدولي ومع البنك الدولي ، والتي تعمل كشبكة أمان لحماية قروض مصرفيي وول ستريت ، والتي بدورها ، وبالتواصل مع إدارة خزينة الولايات المتحدة

581

شكلت ما أصبح يعرف بـ إجماع واشنطن " ، و اجبر هذا الثلاثي جميع الأمم صغيرةً كانت أم كبيرة على اعتناق الرأسمالية المعلومالية الأميركية (أنجلورساكسون) بقضها وقضيضها ..وإلا؟ فأذرعة البنتاجون الطويلة كانت دائماً موجودة لأداء الواجب ، إذا وقع اختيار احدى الأمم على " إلاّ ".

وعندما أراد الرئيس الإندونيسي سوهارتو الأخذ بالمثال الماليزي ، اتصل به الرئيس كلينتون وطلب إليه الأخذ باشتراطات صندوق النقد الدولي كما لو كانت منزلةً من عند الله [267]!

وفي منتصف كانون ثاني (1998) زار وفدٌ من كبار الرسميين ، وفيهم وزير الدّفاع وليام كوهين جاكارتا ، وكانت رسالتهم إلى الرئيس الإندونيسي سوهارتو – مشفوعةً بمكالمةٍ هاتفية

582

فظة من (الرئيس) كلينتون - بسيطة : الاستقرار في إندونيسيا ، وهي بلدٌ من 198 مليون نسمة، هو أولوية حساسة للولايات المتحدة ، وذلك الاستقرار مرهون باتباع سوهارتو لوصفات صندوق النقد الدولي القاسية كما لو كانت من عند الله.

وادعى إعلاميو رأس المال " العبر قومي " ، وصندوق النقد الدولي بأن الفاسد سوهارتو وحكومته، هم المسئولون عن أمراض إندونيسيا . إلا أنهم يجدون من المناسب أن يتناسوا أن سوهارتو هو من صنع وكالة المخابرات المركزية ، والتي ساندته لتسنم السلطة على جثث ما لا يقل

583

عن 500,000 إندونيسي ، وكما يقال فان رقصة التانجو تحتاج اثنين لأدائها ، وكذا الصفقة الفاسدة فإنها تحتاج لطرفين ، وكانت الشركات المتعددة الجنسية والمؤسسات المالية الغربية - وهي في معظمها أميركية - هي الطرف الثاني الفاسد الذي قدم وعزز وأشرف على الفساد ، وكانت جميع العقود مع متعدّدي الجنسية أولئك ، وعن سابق معرفةٍ وقصد ، قد وضعت عبء مخاطر العملات على حكومة إندونيسيا ، وتدل خدمة الدين الاندونيسي (بالبلايين) كما هي موضحة في قوائم مجلة مايكل أو بيلينجتون : إيكونوميك انتيلجنس

---

[267] *Newsweek,* February 2, 1998, 38

ريفيو ، والتي تنشر في واشنطن العاصمة ، أن التلاعب بالعملات تسبب في أن تكرر إندونيسيا دفع دينها مرات ، وهو مثال صادق لما عناه مائير روتشيلد ، مؤسس سلالة روتشيلد بقوله: " اسمح لي بإصدار نقود أمة والسيطرة على هذه النقود ، وسوف لن آبه بعد ذاك فيمن يصنع قوانينها ."

584

وتوضح القائمة التالية (ببلايين الدولارات) النتائج التي أدى إليها تخفيض العملة الاندونيسية كنتيجة لمضاربات المتمولين " عبر القوميين " وقيود " إجماع وشنطن " :

السنة	بالدولار	بالروبيه	قيمة المدفوع لو حسب بروبيات 1996
1998	$17.5	140.125	$58.8
1999	$17.9	126.821	$53.2
2000	$18.8	180.482	$75.7
المجموع	$54.2	447.428	$187.7
اطرح مجموع النقود المدفوعة			-$54.2
الديون المدفوعة دون أن تحتسب			$133.5

وبالكلفة الفعلية للاقتصاد الاندونيسي ، فقد دفعت إندونيسيا بالروبيات ما يعادل 187,7 بليون دولار ، ولكن نظراً لتخفيض العملة الذي فرض على إندونيسيا من قبل الدائنين أنفسهم ، فقد سجل لحسابها 54,2 بليون دولار فقط، وكان الفرق ، لو لم تكن هناك مضاربات خارجية ، سيسدد كل الدين الإندونيسي : أصل الدين وخدمة الدين من فائدة وخلافه!.. ومن مجموع 282 شركه

586

سليمة حسنة الأداء ومسجلة في بورصة جاكرتا ، بقيت اثنتان وعشرون منها فقط على ما هي عليه بعد الهجوم على العملة الإندونيسية ، وتم كل هذا من قبل المضاربين عن طريق التحكم بعيد المدى ، وكان أن تم سلب ملاك 260 شركة ، ونهب ثرواتهم الشرعية ، كما تم دفع 50 مليون إندونيسي إلى ما دون مستوى خط الفقر .

وما كان يزوده صندوق النقد الدولي لإندونيسيا ، لا يعادل سوى جزء مما نهبته منها الأمم والمؤسسات العالمية الدائنة ، فقد سلمها صندوق النقد الدولي عام 2000 مبلغ 2,6 بليون دولار من مجموع 4,6 بليون دولار تعهد بها ، وذلك بسبب ما وصفه البنك الدولي " بأوجه قصور وفشل في الإصلاح والمشاريع " ، بمعنى فشل إندونيسيا في الاستجابة لكامل شروط صندوق النقد الدولي، وكانت القروض مربوطة إلى " إحراز تقدمٍ ملموس في الأداء السياسي " ، بما يعنى الخضوع الكامل

587

لسياسات إجماع واشنطن . وبشكل أساسي فإن إندونيسيا لم تخصخص بسرعةٍ كافيةٍ تحظى برضى صندوق النقد الدولي ، وبقيت المؤسسات المالية متعددة الجنسيات تطالب باستملاك النظام المصرفي الاندونيسي ، والذي كان سيصبح من بين أول جوائز الخصخصة ، وقبلت الحكومة إيقاف دعمها عن الطعام والوقود ، إلا أنها – أي الحكومة – أرادت ان تفعل ذلك على نحوٍ أبطأ ، كما قبلت بيع موجودات حكومية معينة ، ولكن ليس بأسعارٍ محروقة . وفي آذار 2002 بيعت حصة أغلبية لمصرف آسيا الوسطى للمضارب فارالون ، وقاعدته في الولايات المتحدة ، ودفع للحكومة 500 مليون دولار مقابل هذه الصفقة ، ولكنها ستفضي بالحكومة لدفع 700 مليون دولار سنوياً ، واعترف صندوق النقد الدولي بأنه ارتكب أخطاء خطيرة في أزمة أندونيسيا 1997 ، إلا أن إندونيسيا تُركت وحدها لتدفع ثمن أخطاء صندوق النقد الدولي .

588

ويعقد روبرت كوبر ، المستشار لدى رئيس الوزارء البريطاني ، مقارنة بين اشتراطات صندوق النقد الدولي اليوم ، وبين امبريالية الأنجلو- فرنسيين في القرن التاسع عشر ، عندما قرروا في 1875 تولي السيطرة المباشرة على مالية مصر لضمان سداد الديون ، فكتب قائلاً : ***" كم يختلف هذا عما فعله اللورد كرومر وآخرون في مصر؟... يبدو شبيهاً وإلى حدً لافتٍ بواحدٍ من برامج صندوق النقد الدولي المتشدد نوعاً ."*** [268]

مكرر اخر فقرة 589

ص590 -592مكرررررررر

وبالمقارنة ، وعندما نشرت مجلة فوربس لأول مرة قائمة أغنى أربعمائة أميركي في عام 1982 ، كان اثنان وثلاثون منهم فقط بليونيرية ، أما في عام 2007 فكان الأربعمائة جميعهم من فئة البليونير ، علماً بأن كثيرين آخرين من البليونيرية لم تؤهلهم ثروتهم بأن يذكروا ضمن القائمة ! وكان هذا يوم أصحاب ذوي المصالح النقودية في وول ستريت ،

---

[268] The New Empire", *Prospect Magazine*, October 2001

حيث جنوا نفوذهم عبر عمليات الإقراض والاقتراض ، وتصرفوا كما لو كانوا قناة تحويل ما تبقى من ثروةٍ لدى الجماهير إلى الطبقة النقودية (الثرية) ، والتي يدين لها رسميو واشنطن بمراكزهم وحيواتهم السياسيه .

وخلال السنة الأولى من اقتصاديات ريغان المحافظة ، وسياسته في تبسيط وإزالة العوائق التنظيمية أمام آليات السوق (deregulation) ، تجاوز الدين الفيدرالي حد تريليون دولار لأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة ، ثم مالبث أن تجاوز التسعة

593

تريليونات دولار ، وأدى هذا الاقتراض الجسيم على مستوى الاسرة وعلى مستوى الحكومة ، إلى تضخيم القطاع المالي على نحوٍ فلكي ، مباعداً أكثر فأكثر ما بين الاقتصاد المالي والاقتصاد الحقيقي، ومجهداً إياه بنفس نسبة التباعد مما أدى إلى انكساره.

ولعلّ ثورة المعلومات في القرن العشرين قد ابتدأت بصمت في أواخر خمسينيات ذات القرن ، عندما تعادلت أعداد ذوي الياقات البيضاء (الموظفين) ، مع اعداد ذوي الياقات الزرقاء (العمال) من العاملين ، لأول مرةٍ في التاريخ . وعندما دشن عصر فضاء الابداعات الفنية للاتصالات ، ومرةً أخرى ، وكما حصل في الثورة الأخيرة في القرن التاسع عشر ، خلقت التكنولوجيات الحديثة إمكاناتٍ محتملة جديدة للقدرات الإدارية ، والتي جعلت من غير المعقول

594

ممكناً ؛ ولكن ، وكما هو الحال في جميع الثورات ، فإنها أحياناً تحمل الثوار إلى أراضٍ غير موجودة على الخارطة. (غير مكتشفه بعد)

ولغرض منع تكرار حدوث كسادٍ عظيم ، قررت صفوة مخططي الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية ، بأنه إذا أريد لاقتصاد الولايات المتحدة أن يعمل بدون إجهاد ، أو بأقل ما يمكن من الإجهاد ، فإنه يحتاج إلى سعةٍ ومساحةٍ أكبر . واقترحوا رؤيةً لاقتصادٍ عالمي يجري تنفيذها بعد الحرب العالمية الثانية ، وخلقوا لها المؤسسات المالية اللازمة (البنك الدولي ، صندوق النقد الدولي ، وما أصبح يعرف بمنظمة التجارة العالمية)

595

اخر فقرة من 595-597 مكرررررررر

وقد أوجز إنجيل العولمة ذلك :

إن طبقة الواحد بالمائة تملك سلطة النقود ، وسلطة الاعلام ، وسلطة تسويق السياسيين والمشرعين ، وهذه الطبقة " تملك " بنيان السلطة العالمي ، وتجلس في قمة نظام المعلومالية الجديد ، وعبر سلطة ، وقوة العوامل الثلاثة (المال ، والإعلام ، والتسويق) يحكمون العالم[269]

598

من ص 599- 605 مكرررررررر

اول فقرة من ص 606 مكرر

It was judged that about $50 billion was needed to stop the free fall of the peso and restore economic order. Obviously the natural step was to sell them a U.S bailout package that had to go through the Congress. Wall Streeter Robert Rubin, who came from Goldman, Sachs & Co. to his job as secretary of Treasury joined Greenspan and Summers to devise a plan and

---

[269] Rex Abdulhay Y. Zalloum, *The Globalization Gospel: Can the World Say No to Infofinancialism?*, Bookstore, Inc., 1999, 19.

lobbied the plan with Congress. Wall Street was pushing hard, but Congress was in no hurry. Congressmen wanted to tie any aid with Mexican immigration. Besides, their voters were not sold on bailouts and committing taxpayer's money to such schemes. Richard A. Gephardt called Clinton and told him his $40 billion plan in loan guarantees could be considered dead and had no chance of passing in Congress. An emergency plan was worked out, this time without congress. The details of the plan were worked out on the night of January 31, 1995 ,and the plan was ready by first light on February 1, 1995. On February 1, 1995, Clinton called the congressional leaders to the White House and told them that he was going to sign an executive order for the new bailout plan and he expected their support. Since this plan was prepared and promoted to assist Wall Streeters, congressional leaders knew better than to oppose such a plan. They pledged support and had to leave the White House from the back door to evade reporters! Those congressmen approved behind closed doors what they could not approve in the open halls of the congress. And Clinton used executive instead of legislative powers to bailout the American financiers, not Mexico. Clinton's justification for

adopting the plan and signing the order was that the “risks of inaction are greater than the risks of decisive action. This is the right thing to do”.[270] The bailout package was made of:

وكانت حزمة الانقاذ تتكون من :

- 20 بليون دولار.. من صندوق حفظ توازن الصرف التابع للخزينة ، وكان جرين سبان ، قبل أربعة أيام من ذلك ، يعتقد أن هذا الصندوق إنما قصد به الدفاع عن الدولار ، أما الآن فإنه هو شخصياً وكل شخص آخر يعتقدون خلاف ذلك

606

- $4.5 billion of short-term credit to be provided by the Federal Reserve;
- $17.8 billion by the IMF;
- $10.0 billion short-term credit from other industrial nations;
- $1.0 billion from Canada; and
- $1.0 billion from Latin America.

What were the conditions attached to this aid package:

[270] http://govinfo.library.unt.edu/npr/library/speeches/22c2.html

- Mexico must surrender its policies regarding money supply, fiscal spending, future foreign borrowing and domestic credit to the IMF-U.S. conditions written as part of the bailout plan.
- Mexico must sell its best assets such as ports, railroads, petrochemicals, telecommunications etc. to raise $12 billion. Sales were to start immediately regardless of the fact that prices became depressed resulting from the crisis.
- Mexico must open its bank ownership to foreigners.
- Mexico must pledge to deposit all revenues from its oil at the Federal Reserve Bank of New York.

Mexican president Zedillo thought that these terms were extremely harsh, that he may be accused of surrendering Mexican sovereignty and that he was turning Mexico into "a colony of the United States". He was told that these were the conditions, period. Mexico had to sign the bailout agreement. The after-effects of this agreement in 1995 were:

- The economy was contracted by 7 percent
- VAT was increased to 15 percent

- Real income was reduced by 33 percent. Inflation for the year was 40 percent and salary increases were capped at 7 percent
- Interest rates were up from 15percent to 130 percent in a few months
- About 30 percent of all loans in the country became non-performing
- Eight of the countries eighteen major banks failed and the rest had to be bailed out by the government.
- Some leading industrial groups went bankrupt. A total of more than 8000 companies failed.
- Fuel prices were increased by 48.5 percent.
- Electricity rates were increased by 32 percent.
- The country that was made up of small farmers and was an exporter of food stuff when farmers were subsidized, now became an importer of food dependent on its northern neighbor - the United States.
- And one farmer's family who died due to the stress of having his land possessed by a bank as he failed to pay his loan -

brought his body to the bank in protest and said they could have his body as a payment!

- Crime rate increased substantially.
- Bancomer bank would have needed a parking lot for 75,000 cars for the non- performing car loans if they were repossessed.

And 10 percent of Mexico's GDP was paid as interest on the loans.

من ص 607 الى 612 مكرر

اول فقرة من 613 مكرر

ملاحقة (مطاردة أو استهداف) الصيغة اليابانية للرأسمالية.

ما أن بدأت حقبة ما بعد الحرب الباردة ، حتى اشتعلت حرب الصيغة الأنكلوساكسونية الرأسمالية ضد النموذج الياباني ، والآن ، وحيث أن الشيوعية قد ماتت ، لم تعد الصيغة اليابانية

613

للرأسمالية مقبولة لدى المتمولين الأميركيين ... فقد كانت منافساً وتهديداً خطيراً للرأسمالية العالمية التي كان متمولو إجماع واشنطن يحاولون نشرها عبر العالم . ولم تكن اليابان مجرد ثاني أكبر اقتصاد في العالم ، وإنما كما رأوها ، كانت مغلقةً بالنسبة لهم ، الأسوأ من ذلك ان اليابانيين كانوا ينشرون نموذجهم إلى اقطار آسيوية أخرى مثل كوريا وإندونيسيا وماليزيا وتايلند ، وبتبنيهم الماركة اليابانية للتنمية (للرأسمالية ؟!) ، أظهرت هذه الاقطار تطوراً مثيراً حتى أنهم وصفوا بالنمور . ومثلث آسيا حوالي 50% من النمو العالمي ، ومع موت الشيوعية ، أصبح لدى أميركا الآن الفرصة لنشر إنجيلها الخاص بالتجارة الحرّة ،

والذي سيمكنها من تحقيق رأسماليتها العالمية على نطاق العالم ، وكانت اليابان ونموذجها في التنمية يعترضان الطريق ، ولم يكن يسمح لأي شيء

614

بالوقوف في طريق المتمولين الأميركان للسيطرة على العالم عن طريق أسواق رأس المال والقوة الجباره للولايات المتحدة الأميركية ، وكان الأميركيون قبل قرنٍ ونصف مضت – قد نزلوا إلى الشواطئ اليابانية مبشرين بالتجارة الحرة ، ومطالبين اليابان بفتح أسواقها.

ولا بد أن يابانيي 1853 قد رأوا في أولئك الأميركيين على متن السفينة السوداء ، مخلوقاتٍ ضخمة وغريبة ، تتمنطق بالمسدسّات وتنتعل أحذية رعاة البقر ، وقد جاء كلاهما من عالمين مختلفين ، واحدٌ قديمٌ قدم التاريخ ، وقد طوّر حضارته الفريدة ، بينما الآخر بلدٌ جديد تم اكتشافه بمحض الصدفه . وقد جاء رعاة البقر أولئك من بلادٍ: القوة فيها هي الحقّ ، ليس فيها الكثير مما يمكن تسميته بالثقافة ، مع أن " خلطةً ثقافية " (كوكتيل ثقافي)

615

كان قيد التطور . ولقد اعتقد رعاة البقر هؤلاء بأن إبادة السكان الأميركيين الأصليين كان قضاء الله وضرورة ، غير أن ذلك كان قبل 150 عامٍ خلت ، أما الآن مع نهاية القرن العشرين فالأميركيون قادمون مجدداً ، ولديهم الآن ثقافتهم الخاصة بهم المبنية على النزعة الاستهلاكية وعلى الرغائب ، ولم بعودوا ينتعلون أحذية رعاة البقر ، بل يصنعون أزياءً تثير إعجاب العالم كله ، كما أنهم لا يحملون المسدسات ، حيث يتسلحون بالقذائف ذات الرؤوس المعلومالية ، والتي بمقدروها تدمير أي أقتصاد دون الحاجة لاستعمال الرؤوس النووية التقليدية . وفي هذه المرة يطلبون ليس التجارة الحرة فقط ، ولكنهم يريدون من اليابان أن تغير ثقافتها وطريقتها في الحياة ، أي أنهم يريدون من اليابان أن لا تكون اليابان

616

أسفرت دراسات " الحرب والسلام " التي أجراها – قبل الحرب العالمية الثانية – مجلس العلاقات الخارجية مع مخططي السياسة التابعين لوزارة الخارجية ، أسفرت عن رؤيةٍ لاقتصاد عالمي، ومبدئياً تم التعبير عن ذلك بـ" منطقة كبرى" والتي يقع ضمنها ، كما توصلت الدراسات ، ليس فقط جنوب شرق آسيا ، وإنما اليابان نفسها ، والتي يجب أن تكون جزءاً من العالم الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة ، وحتى قبل أن يقصف اليابانيون بيرل

هاربر ، وقبل دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية ، قرر المخططون أن الاقتصاد الأميركي – في الحرب وفي السلم – يحتاج إلى " متنفس " (مجال للحركة) خارج الولايات المتحدة ، وعرفت المذكرة رقم إي. بي. 34 "المنطقة الكبرى " على أنها " المتنفس " (مجال الحركة) والذي يتكون من نصف الكره الغربي، المملكة المتحدة ، وبواقي

617

الكومنولث والإمبراطورية البريطانية ، وجزر الإنديز الشرقية الهولندية ، والصين ، واليابان نفسها.

وقد تم الحكم (التقدير) بأن أسواق هذه المناطق وموادها الخام ، لازمةٌ لنظام ما بعد الحرب العالمية الثانية بزعامة الامبراطورية الأميركية . غير أن لليابان " منطقتها الكبرى" الخاصة بها ، التي قدّر صانعو السياسة اليابانية أنها حيوية للمصالح اليابانية القومية ، وكانت الخطة قد دعيت "منطقة شرق آسيا الكبرى للازدهار المشترك " ، وكان حس اليابانيين أن الصين ، والهند الصينيه، وتايلاند وبورما وماليزيا والفلبين وبعض جزر المحيط الهادي ، يجب أن تعمل تحت السيطرة اليابانية لضمان الاكتفاء الاقتصادي الذاتي . وهذا هو السبب في أن اليابانيين توجهوا إلى هذه البلدان – في عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين لصوغ منطقة اقتصادية واحده، بعد

618

أن مارست واشنطن ضغوطاً تجاريةً على اليابان ، وكان هذا ايضاً هو السبب في مراقبة الولايات المتحدة لليابان في تلك المنطقة .

وأدرك الأميركيون ، عند احتلالهم لليابان بعد الحرب العالمية الثانية ، وقصفهم المدن اليابانية بالقنابل النووية ، أن إعادة تصنيع اليابان كان أمراً ضرورياً ، طالما تم ذلك تحت سيطرة الولايات المتحدة ، وخاصةً بعد السيطرة الشيوعية على الصين . وقد قرر مخططو السياسة لدى وزارة الخارجية الأميركية ومجلس الأمن القومي ، بأن تصنيع اليابان ينسجم مع رؤية اقتصاد " المنطقة الكبرى " العالمي ، وإلى جانب ذلك ، بين مخططو السياسة – تحديداً – أن اليابان لا تشكل تهديداً طالما كانت واردات النفط إلى اليابان تقع – بطريقةٍ أو بأخرى – تحت السيطرة المباشرة للولايات المتحدة . وكانت الولايات المتحدة

619

هي من وضع دستور – ما بعد الحرب – الياباني ، وأشرف على تطوير وتنمية النظم السياسية والاقتصادية لليابان ، وكانت اليابان المفتقرة إلى جيش وإلى السيطرة على مواردها النفطية ، هي يابان بلا أسنان ، كما قدر المخططون الأميركيون ، وكان أن تم في وقتٍ لاحق ضم اليابان وأوروبا إلى الهيئة الثلاثية ، وهي الصفوة التي شاركت في تشكيل الاجماع حول السياسات العالمية .

كانت المشكلة مع اليابان أنها اليابان ، فقد كان لها ثقافتها الخاصة بها ، والتي طعمت بها الرأسمالية وأزاحت منها حوافها الحادة ، وأنتج هذا المزيج من الرأسمالية زائداً ثقافة اليابان الشرقية أو الآسيوية ، نسخةً معدلةً من الرأسمالية ، وكان لهذه النسخة بعض الفوارق والاختلافات عن الرأسمالية الأنجلو ساكسونية الفجه:

620

ص621-623 مكرررررررررر

وبعد انهيار نظام الحرب البارده ، أخذت كل من واشنطن وطوكيو تنظر إلى الأخرى بشكلٍ مختلف ، وشغلت طبقة جديدة

623

من الاقتصاديين " الرجعيين " المناصب الرئيسية في إدارة كلينتون ، وكان تفكيرهم أن النموذج الاقتصادي لليابان ليس مختلفاً فقط إنما يشكل تهديداً لرأسمالية أميركا العالمية .

فقرة غير مترجمة

والكتاب الأخير يحث اليابان على التعلق بآسيا والمشرق ، والتخلي عن روابطها بالغرب ، إذ يعتبرون مثل هذه الروابط غير طبيعية . فاليابان أمة من الآسيويين ذات دماء آسيوية ، كما دعا كازو أوجورا – عندما كان سفيراً لدى هانوي – اليابان

624

وجيرانها للدفاع عن القيم الآسيوية ، المشتملة على الانتظام والكدح وأسبقية المجموع على الفرد ، وتمت – في وقتٍ لاحق – ترقيته إلى درجة نائب وزير في وزارة الخارجية ،

مسئولاً عن دائرة العلاقات الاقتصادية الخارجية ، ودعا يوثاروكوباياشي ، الرئيس التنفيذي لشركة زيروكس ذلك "إعادة الآسينة " أي العودة إلى أحضان آسيا ، وصاغ شعار " اتركوا الغرب...ادخلوا آسيا" وهو عكس الشعار الياباني في 1850 والذي كان:" اتركوا آسيا .. ادخلوا الغرب " . أما رئيس الوزراء الماليزي فدعا إلى كتلة تجارية " آسيا فقط " ، أسوةً بـ " أميركا فقط " . حسب اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية NAFTA إغاظةً للأميركيين ، وكان النموذج يكتسب معتنقين جددا يومياً ، وكان نجمل ساكب خان ، ذي الثقافة البريطانية الأميركية أحدهم ، وكان سفيراً سابقاً لباكستان لدى العربية السعودية واليابان

625

وقد ألف كتاب " التجربة اليابانية وبناء الامة في جنوب شرق آسيا " . وهو يؤيد معادلة "الحكومة زائدا السوق " اليابانية. وهكذا ، تحوّلت اليابان إلى الشرق ، فقد كانت على كل حال وباستمرار تتعرض لقصف وسائل الإعلام الغربية على أنها عائق للتجارة العالمية ، كما كانت تتهم بأنها "قلعة اليابان" المغلقة أمام منتجات البلدان الأخرى ، كما طلب إليها خفض عجز ميزانها التجاري مع الولايات المتحدة . وكانت اليابان كلما ازداد عليها الضغط ، كلما تحوّلت إلى آسيا ، لكن الانتقال إلى آسيا أخذ يكتسب تسارعاً في 1995 ، بعد ارتفاع ضغوط الولايات المتحدة التجارية على اليابان، فقوت روابطها الاقتصادية والثقافية والسياسية مع آسيا بمعدلٍ متسارع ، وقد كان كل ذلك منطقياً للغاية ، إذ أصبحت الأمم الآسيوية لا مراكز تصنيع فحسب ، وإنما في كثير من الحالات ،

626

وبالائتلاف مع اليابان ، أصبحت أسواقاً كبيرة للمنتجات اليابانية. وبحلول العام 1997 كان الآسيويون يشترون من الصادرات اليابانية أكثر مما تشتريه الولايات المتحدة ، وأصبح لليابان الآن أكبر فائضٍ تجاري لها معهم ، إلا أن الولايات المتحدة كانت تراقب عن كثب.

لا تزعج الصفقات الإفرادية الخبراء الغربيين مثلما يزعجهم الاحتمال بأن النموذج الياباني للنمو ، والذي يقوده التصدير ، وتساعده حواجز الاستيراد ، سوف يتم تقليده عبر المنطقة بأسرها . وترحّب بعض الحكومات الآسيوية بالاختصاصيين اليابانيين لتقديم النصح والمشورة لهم حول كيفية تصميم وتنفيذ السياسة الصناعية ، فلوزارة التجارة الدولية والصناعة اليابانية ، خبراء يزورون الصين بانتظام ، لإسداء المعرفة في مسائل السياسة

الصناعية والتنمية الاقتصادية . ***" إذا كنا غير ناجحين في تعاملنا مع وزارة التجارة الدولية والصناعة الدولية اليابانية (MITI)*** ،

627

ففكر ما الذي سيعنيه هذا لنا من حيث التعامل مع الصين للسنوات الخمسين القادمة "[271]، حسب قول مارك فوستر . إذن ، المشكلة ليست اليابان وحدها ، وإنما تتمثل في خطر انتشار النموذج الياباني في آسيا ، بما في ذلك الصين ، إذ لاحظ الأميركيون أن اليابان كانت تتوسع في صادراتها الثقافية ، فقد جعل من محاولة اليابان دخول هوليوود مغامرة باهظة الثمن تتكلف عدة بلايين من الدولارات ، حيث أفصحت شركة سوني عن شطب 2,7 بليون دولار عن مغامرتها الهوليوودية المتعلقة بشركة أفلام كولومبيا ،غير أن اليابانيين الآن يتوسعون في هذه المنتجات الثقافية إلى آسيا، فقد مدّد التليفزيون الياباني العام بث برامجه من 105 دقائق إلى 12 ساعة يوميّاً ، كما بدأت الكتب الفكاهية اليابانية والفرق الموسيقية اليابانية تظهر في أماكن كثيرة من آسيا ،

628

كما بدأ اليابانيون ينافسون الأميركيين في نقل التكنولوجيا إلى البلدان الآسيوية ، وباشروا إيفاد مهندسي تصنيع يابانيين متقاعدين لتطوير صناعة قطع الغيار في آسيا ، متحملين 75% من رواتبهم ، كما افتتحت ميتسوبيشي مراكز بحوث في الصين ، وكان الصينيون سعداء برؤية هذه المنافسه بين اليابان والولايات المتحدة ، إلا أن الولايات المتحدة لم تكن كذلك ، إذ لاحظوا أن عدداً من رجال وزارة التجارة العالمية والصناعة اليابانية (MITI) يسدون النصح والمشورة الآن لحكوماتٍ خارج آسيا مثل روسيا وبولندا ، ومثل " عمل الإرساليات التبشرية " هذا ، ***كما نظرت إلية مجلة " بيزنس ويك " ، يمردون أن تلحظه***

---

[271] *Business Week,* April 10, 1995, 112

الصحافة الغربية " إلا أنه يمكن أن يكون له – في العقد القادم – تأثيرات جمه على الرأسمالية العالمية .[272]

629

وقد رأى إجماع واشنطن في نموذج الرأسمالية اليابانية تهديداً حقيقياً " لرأسماليتهم" ، وفيما مضى ، كانت الشيوعية هي التهديد ، أما الآن فإنه النموذج الاقتصادي الياباني ، والذي أخذ الآن موقع " الشرير " ، وإذا كان سيصبح لهذا الشرير " تأثير جم على الرأسمالية العالمية " في العقد القادم ، فإن وقت مهاجمته بقوة هو الآن وليس فيما بعد ، وطالما تم تنفيذ ذلك بأسلوب لا ينجم عنه أذىً غير مباشر للمتمولين الأميركيين ، ووقع العرض المرئي والعنيف لأول معركة في 1995 ، حيث كانت رحى المعركة من 1990 وحتى ذلك التاريخ دائرةً خلف الكواليس ، وأما الآن فقد تم تحريكها إلى خشبة المسرح الأمامية .

لم يكن عام 1995 عاماً مثالياً بالنسبة للتاريخ الياباني ، إذ أن بدايته واكبتها مشكلتان رئيسيتان ، الأولى مع الطبيعة ، والأخرى

630

مع الولايات المتحدة . وفي 1995/1/11 قابل كلينتون ، رئيس الولايات المتحدة الأميركية ، رئيس الوزراء الياباني في واشنطن ، حيث طالبت الولايات المتحدة اليابان بفتح اقتصادها ، والعمل بسياسة إزالة العوائق القانونية وخلافها من أمام الاقتصاد (Deregulate the Economy) ، وكانت تريد من اليابان تحسين عجزها التجاري مع الولايات المتحدة ، والذي بلغ 63,7 بليون دولار في 1994 ؛ وبعد ستة أيام من ذلك ، أي في 1995/1/17 ، ضربت هزة أرضية أقوى بعشر مرات من تلك التي أصابت لوس أنجلوس ، ضربت كوبي ، ولكن اليابان كانت ترى التعامل مع الطبيعة والكوارث الطبيعية ، أسهل عليها من

---

[272] *Business Week*, 1994 Special Issue, 32

التعامل مع تركيبة القوى في الولايات المتحدة . وكانت قناعة المتمولين الأميركيين والممثلين التجاريين للولايات المتحدة ، أنه قد لا يكون ممكناً توقع رضوخ اليابان لطلب الولايات المتحدة بإزالةٍ شاملةٍ وفورية للعوائق القانونية وخلافها من أمام التعاملات الاقتصادية (deregulation) ، وبدا ، بدلاً من ذلك أن سياسة

631

كيسنجر في الخطوة خطوة يجري الآن تطبيقها في المواجهة الاقتصادية مع اليابان ، حيث ستعمد الولايات المتحدة لطرح مطالب محدّدة تصرّ عليها ، وتمارس جميع انواع الضغط وحتى تحقيق الانصياع لهذه المطالب المتزايدة حبّه ..حبّه ، كما يجب عليها تغيير النموذج الياباني ، في اليابان نفسها ، ولكنها ستفعل ذلك بالقطعة أي تدريجياً ، وتم تحديد قطعة 1995 بأن تفتح اليابان سوق صناعة سياراتها وقطع غيارها للولايات المتحدة ، وبدا ذلك طلباً معقولاً حيث ان 3/2 من العجز التجاري متعلق بالسيارات ، وذهب اليابانيون في مجادلتهم للأميركيين حدّ القول بأن الأميركيين يشترون السيارات اليابانية لأنها تعجبهم أكثر ، كما أنها مصنوعة في الولايات المتحدة الأميركية ، أما اليابانيون فليسوا معجبين بالسيارات الأميركية ، وتأسيساً على ذلك وإذا كان الاميركيون أنفسهم يفضلون السيارات اليابانية فلماذا يتوجب على اليابانيين أن لا يفضلوها ؟ ولقد حاول بعض صناع السيارات الاميركيين بيع سياراتهم في اليابان مع إبقاء سكان السيارة (مقود السيارة) في الناحية اليسرى

632

كما هي الحال في الولايات المتحدة الأميركية ، في الوقت الذي تضع فيه اليابان السكان على الجهة اليمنى ، حيث أنهم يقودون سياراتهم على الجانب الأيسر من الطريق كما في بريطانيا ، إلا أن الممثل التجاري الأميركي أبدى عدم رغبته في سماع أي من هذا الهراء ، فالولايات المتحدة – كما قال – مصممة على فتح سوق صناعة السيارات الياباني وسوق قطع غيارها بالغاً ما بلغ الأمر ، وأعلنت الولايات المتحدة بأنها قد تلجأ لإيقاع عقوبات معينة ضد السيارات اليابانية ، بما في ذلك فرض تعريفات ، ومثل هذه الاجراءات ، في ظن ركيوهيكوناناو ، كانت " إجراءات أحادية الجانب تخالف الأحكام الدولية " ، وهي غير مقبولة من اليابان ، كما اعتقد الأوروبيون بأن تهديدات الولايات المتحدة هذه تنتهك مواد اتفاقية منظمة التجارة العالمية الموقعة حديثاً .

وفشلت المحادثات التجارية الأميركية التي انعقدت في 1995/5/5 ، وفي يوم الأحد الموافق 1997/5/7 عقد كلينتون اجتماعاً في البيت الأبيض ،

633

ضم روبرت روبن وزير الخزانة ، ومستشارين اقتصاديين رئيسيين ، وكان موضوع الاجتماع هو المحادثات التجارية مع اليابان ، والإجراءات التي ستستعملها الولايات المتحدة ، في حال لم تذعن اليابان ، وكان تقرر من فريق روبن/المتمولين ان سعر الصرف المرتفع جدّاً للين مقابل الدولار هو في الواقع الأداة التي يمكن لها إخضاع اليابان ، حيث أن يناً مرتفع القيمة جداً أمام الدولار ، سيسبب انخفاضاً حاداً في صادرات اليابان ، وسيؤثر سلباً وإلى درجة كبيرة على الاقتصاد الياباني، كما سيكون للتعريفات الأخرى ضد اليابان وقع إضافي . وكان كلينتون قد استفسر في ذلك الاجتماع عن رد فعل الأسواق المالية تجاه الحرب التجارية ، وفي وقت أبكر ، كان حتى مجرد التلميح بحرب تجارية ، يؤدي إلى انخفاض سعر الدولار وغوص الأسهم في وول ستريت ، وفي ذاك الوقت كان على واشنطن التراجع ، ولكن ، ماذا عن الآن ؟.. كان ذلك هو سؤال الرئيس ! وطمأن روبين الرئيس

634

بأن المتمولين وتجار العملات ، قد خفضوا الدولار بالفعل توقعاً للعقوبات ، ولا بد أن تلك كانت معلومات من الداخل حصل عليها المتمولون ، وبعد أربعين دقيقة ، اعطى كلينتون موافقته لأول مواجهة مفتوحة مع اليابان ، ومنحت اليابان وقتاً حتى نهاية حزيران 1995 للالتزام ، وإلا فستطبق العقوبات والتعريفات ، ولكن الضغط باتجاه السوبر ين (المرتفع جدا) كان أصلا قيد التنفيذ، وقبل عشر سنوات كان الدولار يساوي 240 ين ، والآن ، وعندما سُحب الين إلى 80 مقابل الدولار ، بدأ مؤشر نيكي يهوي إلى مستويات خطره . و فيما تحت 15,000 نقطة ، يصبح النظام المصرفي تحت تهديد عدم كفاية رساميل البنوك بالمعايير الدولية ، وبذا تهدد في قدراتها على الإقراض . واستمرت اللعبة : الين يحلق مرتفعاً ، ومؤشر نيكي يغوص منخفضاً ، وبقي الحال كذلك إلى أن أذعنت اليابان وقبلت شروط

635

الولايات المتحدة التجارية ، إذ لم تعد اليابان قادرة على تحمل المزيد من الضغوط . ومنذ سقوط جدار برلين هوت أسعار أسهم مؤشر نيكاي 60% بينما انخفضت أسعار الملكيات التجارية الأهلية بما يعادل النصف ، وحيث أن المصارف اليابانية تعمد إلى تبني سعر الشراء للعقار وليس قيمته السوقية الحالية ، فإن الكثير من ميزانيات الشركات لم تكن في واقع الأمر جيدة على النحو الذي بدت عليه ، كما أن مؤشر نيكي لم يحسّن من الأوضاع أيضاً ، ولكن حالياً فقد حصّلت طبقة الواحد بالمائة في الولايات المتحدة القطعة التي أرادتها من اليابان ، أما التمادي فقد يتسبب في أزمة اقتصادية عالمية غير قابلة للسيطرة مما يمكن أن يؤثر على المتمولين أنفسهم .

636

وبعد أن خضعت اليابان للمطلب الأميركية ، بدأ السحر الأميركي بتخفيف الضغط على اليابان خلال أيام من قبول اليابان لشروط الولايات المتحدة:

- تمت " مساعدة " نيكي صعوداً بـ+27 بالمائة ، من 14,295 في الوقت الذي قبلت فيه اليابان شروط الولايات المتحدة ، إلى 18,158 في 16 آب.

- تحرك الين وبشكل ملموس بلغ 25 بالمائة في عدة أشهر (قليلة) ، بمساعدة وتدخل من الاحتياطي الفيدرالي للولايات المتحدة . فبسعر 85 ين للدولار فإن شركات يابانية قليلة جدّاً استطاعت تحقيق أي ربح ، أما على سعر 90 ين للدولار فقد حققت الكثير من الشركات أرباحاً .

- وكنتيجة لسياسة الين المرتفع السعر جداً التي استخدمتها واشنطن في حربها التجارية ضد اليابان ، خفض الفائض التجاري العالمي لليابان بنسبة 23 بالمائة.

وكان درساً لقنه المتمولون الأميركيون بالتنسيق مع حكومة الولايات المتحدة لليابان ، ثاني أكبراقتصاد في العالم . وإذا كان من الممكن لسوروس وحده منازلة بنك إنجلترا ، فليس بغريب أن تهاجم حكومة الولايات المتحدة ، والمتمولون العالميون الاقتصاد الياباني ، على الرغم من ضخامة حجمه . ولكن عن مدى ضخامة الاقتصاد الياباني ، فيمكن إعطاء مثالٍ لتوضيح ذلك : تعادل موجودات مصرف سوميتومو الياباني لوحده حجم الناتج المحلي الإجمالي GDP لكوريا الجنوبية ، التي هي بالمرتبة الحادية عشره لأكبر اقتصادات العالم ، ومع ذلك فقد تمّ إخضاع هذا الاقتصاد الضخم!

638-637

وكانت آخر قطعة طلبها المتمولون العالميون وطبقة الواحد بالمائة الأميركية من اليابان ، هي إزالة حدود الصرف الأجنبي المستحقة في نيسان 1998 ، فبعض " التنقيحيين " الأميركيين المختصين باليابان يعتقدون بأن أسلوب الخطوة خطوة هذا مع اليابان لن يجدي ولن يؤدي إلى أن تتخلى اليابان عن نموذجها الياباني في الرأسمالية ، كما يعتقدون بأن اليابان تحتاج إلى كسادٍ مدمرٍ لتحقيق التغييرات المرغوبة . ويعتقد إيزوك ساكا كيبارا نائب وزير المالية أنه يمكن دمج وإشراك بعض مكوّنات الرأسمالية الأنجلوساكسونية ***"إلا أنني أعتقد أن اليابان – في النهاية – ستبقى اليابان".*** [273]ويعرف ساكاكيبارا كل أصناف الرأسمالية ، فهو مؤلف كتاب " ما بعد ألرأسمالية " ، ويجادل في كتابه (1990) بأن السمات

639

الخاصة لاقتصاد السوق الياباني غير الرأسمالي .. يجب الحفاظ عليها، وكان حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة ميتشيغان ، ودرس في هارفارد فيما بعد.

وفي 1997 اهتز القطاع المصرفي الياباني ، ولم يكن في الانصهار الاقتصادي الآسيوي أي عون .. فاليابان هي أكبر مقرضٍ لهذه الاقتصادات ، وفي 1997/11/24 أفلست شركة ياما إيشي سيكيوريتيز وتحت رعايتها 138 بليون دولار من الاستثمارات ، وأصبحت أضخم إفلاسٍ يحدث في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية ، وفي حوالي نفس الوقت تقريباً دعت كوريا صندوق النقد الدولي للمجئ وإعطائها وصفته القاسية ، وكانت كوريا قد بنيت طبقاً للنموذج الياباني ، وها هي الآن في قبضة صندوق النقد الدولي ، وقد

---

[273] *Newsweek*, Vol. 131, 25, 42

640

علّق دورن بوش على الآزمة الكورية وعلاجاتها في مجلة بيزنس ويك:

"تحتاج كوريا لفتح أقتصادها بشكلٍ كامل للمشاركة الخارجية ، فعلى المستثمرين الأجانب تسلّم الزمام (الاستيلاء) وإزالة الفوضى بموجةٍ من إنهاء الخدمات تأخرت كثيراً ، فلا الحكومة ولا مجتمع الأعمال الكوري بقادرين على تأدية المهمة...وعلى المقترضين الأجانب ، وصندوق النقد الدولي ، والولايات المتحدة وكل من يشارك في هذا أن لا يقبل بأقل من ذلك " .[274] إنه استيلاء كما طالب دورن بوش ، ولا شيء أقل ، فهل هذا هو ما ينتظر اليابان ؟

641

ما جهدنا في إثباته في هذا الفصل قاله رئيس الولايات المتحدة بيل كلينتون بأصرح عبارة تسمح بها لغة الدبلوماسية في إحدى المناسبات في البيت الأبيض يوم الجمعة 1998/4/3 ، والذي تمت تغطيتها من قبل رويترز وخدمات صحفية أخرى:

نحتاج إلى أن نتصرف مع اليابانيين باحترام ، ولكن بحزم في حثناً لهم على اتخاذ منحىً جرئ ، فعلى الناس (اليابانيون) ضمن الحكومة الدائمة هناك ، والذين تمتعوا بسلطاتٍ عظيمةٍ دائماً ، أن يدركوا بأن الاستراتيجيات التي خدمتهم في الماضي لم تعد مناسبةً للوقت الحاضر (رويترز ، 4 نيسان 1998)

وبلغةٍ غير دبلوماسية فإن عبارة " بحزم " تعنى أنه يجب على الولايات المتحدة ممارسة كل الضغط اللازم لإحداث التغيير الذي ترغب به الولايات المتحدة.

642

---

[274]"A Bailout Won't Do the Trick In Korea" *Business Week*, December 8, 1997, 26

وأيضاً ، وباللغة غير الدبلوماسية فإن " الحكومة الدائمة" أي الصيغة اليابانية من الرأسمالية ، والتي كانت مقبولةً في الماضي خلال حقبة الحرب البارده " لم تعد مناسبة " (أي لم تعد مقبوله) " في الوقت الحاضر " أي في نظام ما بعد الحرب البارده.

وهذا التصريح من لدن رئيس الولايات المتحدة " صادف توقيته انعقاد الاجتماع الآسيوي الأوروبي في لندن ، بحضور خمسة وعشرين قوة اقتصادية آسيوية وأوروبية ، و"مصادفة " أخرى حدثت في ذات اليوم الجمعة ، الثالث من نيسان 1998 من قبل شركة مودي لخدمات المستثمرين ، وهي إعلانها عن تنزيل مرتبة الدين السيادي الياباني من مستقر إلى سالب ، وحدث هذا ليابان تمتلك ثاني أكبر اقتصادٍ في العالم ، وهذا كلّه

643

حدث خلال ثلاثة أيام من تحرير اليابان لقطاعها المالي ، فيما أصبح يعرف بـ "انفجار طوكيو الكبير" ، وخلال ذلك الأسبوع من كوكتيل المصادفات هذا ، غطس مؤشر أسهم نيكي 7,3 بالمائة في المعدل ، كما غاص الين مسجلاً أدنى رقم وصله في سبع سنوات ، كنتيجة لتنزيل المرتبة الذي قامت به مودي . وحدث هذا التنزيل استناداً إلى رأي عاطفي لمؤسسة عرف عنها قربها من بيوتات السلطة المالية العالمية ، إلا أن تأثيرها غدا حقيقياً ، فهل سيستمر الطرق على رأس اليابان من قبل نظام المعلومالية العالمي إلى أن تتخلى عن نموذجها الاقتصادي الياباني ؟

من المثير للاهتمام ثانية ملاحظة أن إعلان مودي الثاني المسبب للصدمة حول اليابان ، جاء تقريباً في الوقت الذي كانت فيه أقطار اتحاد أمم جنوب شرق آسيا ASEAN تجتمع فيه في الفلبين في أواخر تموز 1998 ، وعشية

644

انتخاب رئيس وزراء اليابان الجديد ، وادعت مودي ومستثمروها الاهتمام حيال الاقتصاد الياباني ، كما أبدت قلقها حيال تحويل اليابانيين كمياتٍ ضخمة من وفوراتهم بعد تنفيذ إزالة العوائق (الانفجار الكبير) والذي – في الواقع – تم فرضه على اليابان.

وقد لوحظ في الربع الأول من 1998 أن الضراوة ضد النظام المالي الياباني تزداد حدة ، وكانت تشابه كوريا قبل سنتين من استلام صندوق النقد الدولي لها ، أو قبل إنقاذه لها ، وفي ذلك الوقت "اكتشفت " معلومات داخلية عما كان الكوريون يعرفونه طيلة الوقت : التعاون

بين الحكومة ، ودنيا الأعمال ، والمصارف على الطريقة الكورية . وقد حكم على اثنين من الرؤساء الكوريين ، ثم أطلق سراحهما بعد أن استنفذ الغرض من هذه الفضائح والمحاكمات .

645

والآن يتم فجأة الاكتشاف بأن وزارة المالية اليابانية المكروهه هي فاسده ، ويمارس ضغط هائل على أولئك الذين يقاومون إحداث تغييرات في النموذج الياباني للرأسمالية ، ووضع بعضهم قيد المحاكمة ، بينما انتحر البعض الآخر ، فهل ستكون اليابان فعلاً كوريا أخرى؟

قد يبدو السؤال ساذجاً ، إلا أنه قد راجت شائعات فعلاً ضمن الأسواق المالية العالمية بأن اليابان تطلب إنقاذاً من صندوق النقد الدولي ، مع استعمال سنداتها كضمان ، وطبعاً فإن هذا لم يحدث ، ولكن أن تطفو مثل هذه الشائعة على سطح التعاملات في الأوساط النقدية والمالية لأمر مستهجن ، كما أنه يعنى أن مثل هذه الدوائر المالية لا تعتقد أن مثل هذا الأمر مستحيل بعيد الاحتمال .

646

إن الأسس اليابانية تتعرض للهجوم على يد المعلومالية ، والتي لا تطيق سوى صيغة واحده من الرأسمالية . والمجموعة ذات التوجهات المجتمعية ، والرأسمالية اليابانية المحكومة بالجماعة لم تعد مرغوبة أو مقبولة ، وليس ذلك بسبب أن الأسس والمرتكزات اليابانية لا تعمل جيداً ، فهذه الأسس قد عملت طيلة الخمسين عاماً الفائته ، وأعطت اليابان أكثر نمو اقتصادي مدهش في هذا القرن ، وأتاحت لليابان ان يصبح ثاني أكبر اقتصادٍ في العالم حتى بعد الدمار الكلي الذي احدثته الحرب العالمية الثانية ، وقد خلقت أكثر أنماط الرأسمالية عدالةً بتوجهات مجتمعية ، آتت أكلها في انعدامٍ كاملٍ للبطالة ، ومعدلات نمو عالية معاً .

647

وبعد سنةٍ من الآزمة الآسيوية ، بدا وكأن إجماع واشنطن الخاص برأسمالية حرية السوق ، لم يعد مقبولاً على أنه نموذج آيديولوجية الأمر الواقع لنظام ما بعد الحرب البارده ، وحاولت أقطار عديدة – وبدرجات متفاوتةٍ – أن تقول لا للمعلومالية والنظام الذي تتزعمه أميركا ، ولم يعد مثل هذا النظام يؤخذ كما هو من قبل أي كان ، وهناك أقطار تختار التخلي عنه والانسحاب منه.

" إن الأزمة الآسيوية تدخل مرحلةً جديده ، عندما تقيم الأمم المطوقة جدراناً بينها وبين قوى السوق العالمية ، فرئيس الوزراء الماليزي مهاتير محمد يفرض ضوابط كاسحه على رأس المال ، ويُثبت معدلات صرف العملات ، ويطرد نائب رئيس وزرائه الإصلاحي ، بينما تضخ حكومة هونغ كونغ

648

12 بليون دولار في سوق الأسهم لتحبط المضاربين ، ولتخطط ضوابطها الخاصة المتعلقة برأس المال ، بينما يجعل الرسميون التايوانيون شراء الأسهم للمضاربة أغلى ، وتلغي كوريا بيع شركة كيا للمحركات ، بدلاً من قبول عطاءات متدنية ولكن واقعية لصانع السيارات المفلس ، كما ترفض اليابان السماح بإفلاس مصرفها الأكبر .. ولأشهر عديدة كان اليابانيون يحدثون ضجيجاً حول عمليات تنظيف قاسيةٍ في البنوك ، ولكن في الأسبوع الأخير تغيرت النبره ، فأولئك الذين يساندون عمل عُمرةٍ شاملة وجذرية للقطاع المصرفي هم " هواه" ، كما يقول وزير المالية كيشي ميازاوا ***"فليست لديهم اية فكرة عما سيحدث ويتبع ذلك من اضطرابات "*** .[275]

649

ويضيف نفس العدد من مجلة بيزنس ويك : ***" إن علامات الخطر في كل مكان : معظم أسهم الولايات المتحدة قد هبطت 25 بالمائة أو أكثر من رقمها القياسي الأعلى .. وتغوص آسيا أكثر في الكساد ، بينما هونغ كونغ وتايوان وماليزيا تجاهد لعزل أسواقها عن قوى رأس المال العالمي ، واليابان تتجه نحو ربعها الرابع من الانكماش .. وأميركا اللاتينية تتأرجح على حافة ركود آخر ، والشيوعيون (الشيوعيون !) على وشك استعادة قدرٍ من قوتهم في روسيا، تبعاً لتخفيض قيمة الروبل.."*** [276]

---

[275] *Business Week*, September 14, 1998, 34

[276] *Ibid.*, 25

الفصل الرابع عشر

الاقتصاد الشعبي

الهُوّه الأيديولوجيه بين الاسلام والرأسمالية

" قبل أن تصل الحملات الصيليبيه إلى القدس في تموز 1099 ، و قبل ذبحها الوحشي لـ40.000 من سكانها اليهود والمسلمين ، حيث عاش اليهود والمسيحيون والمسلمون من سكانها معاً تحت الحكم الإسلامي في وئام نسبي لمدة 460 عاماً " مقدمة 9

" إنني الآن أعتقد بأن الحملات الصليبيه كانت واحداً من الأسباب المباشره للصراع في الشرق الأوسط اليوم ، كما أنني أعلم بأن هذه عبارة مفزعة ، وانني لأرحب بالفرصة لاستجلائها بعمق" المقدمة – 14

كارين آرمسترونج – الحرب المقدسة – طبعة 2001 آنكو – نيويورك.

وكان أبراهام لينكولن قال مثل هذه قبل نحو 150 سنة مضت:

...corporations have been enthroned and an era of corruption in high places will follow, and the money power of the country will endeavor to prolong its reign by working on the prejudices of the people until all wealth is aggregated in a few hands and the Republic is destroyed.[277]

Another American President, Rutherford B. Hays, said only few years after Lincoln:

This is a government of the people, by the people, and for the people no longer. It is the government of corporations, by corporations, and for corporations.[278]

Hays knew best, as he himself was advanced to the presidency by corporations and spent his years in the White House serving corporations.

---

[277] U.S. President Abraham Lincoln, Nov. 21, 1864, (purportedly in a letter to Col. William F. Elkins), *The Lincoln Encyclopedia*, Archer H. Shaw , Macmillan, 1950, NY

[278] *Diary and Letters of Rutherford Birchard Hayes: Nineteenth President of the United States* (vol.4, chapter 45, edited by Charles Richard Williams, The Ohio State Archaeological and Historical Society

مكرررررررررر652-653

هذا ما كانت عليه أميركا الشركات ، وهذا ماهي عليه الآن ، والحال التي ستكون عليها أبداً طالما بقيت قيمها ، ونظمها ومناهجها ، إذ لن يكون بمقدورها سوى إنتاج نفس النتائج ، فهي بلادٌ للقلة ، الذين هم أصحاب قوة المال في وول ستريت ، ذوى المصالح المناقضة لمصلحة الأغلبية .

فالجمهورية الأميركية في واقعها قد صممت من قبل نفس القلة ، كما تم اختطافها من قبلهم، فالآباء المؤسسون ، والذين هم أنفسهم ملاك عبيد من كبار الاقطاعيين ، قرروا أن أولئك الذين لا يملكون لا حق لهم في التصويت ، ولكنهم عندها سارعوا للتشدق عن حقوق الانسان ، وتبع ذلك أن قرروا في الكونجرس ، أن الرجل الأسود يعادل ثلاثة أخماس رجل لأغراض التعداد والرقابة فقط ، ومع ذلك لم يمنحوه الحق في التصويت ، وكانت تلك هي أميركا الرأسمالية في ابهى صورها في ذات الوقت الذي كتب فيه آدم سميث نظرياته لخدمة راسماليي الاقطاع في زمانه.

وإذا تيسّر لك قراءة ما كتبه أحد الشعبيين الأميركيين قبل مائة عام ، فقد تظن انه إنما كتب اليوم ، إذ أنه قد وصف نفس أعراض أمراض الراسمالية الأميركية اليوم،

. Ignatius Donnelly said in his speech at the St Louis Populist Convention in 1896:

...we meet in the midst of a nation brought to the verge of moral, political and material ruin. Corruption dominates the ballot box, the Legislatures, the Congress, and touches even the ermine of the bench ... The newspapers are largely subsidized or muzzled; public opinion silenced, business prostrated, homes covered with mortgages, labor impoverished, and the land concentrating in the hands of capitalists ... The fruits of

the toil of millions are boldly stolen to build up colossal fortunes for a few, unprecedented in the history of mankind, and the possessors of those, in turn, despise the republic and endanger liberty. From the same prolific womb of governmental injustice we breed two great classes – tramps and millionaires.[279]

To change these results you must change the system that produces them. Some change in form but not in substance, so no change in ills occurred.

Populism in America

As early as 1816, Thomas Jefferson said: "I hope we shall crush in its birth the aristocracy of our monied corporations which dare already to challenge our government to a trial of strength, and bid defiance to the laws of our country".[280] Money power was not crushed in its birth. Instead, its

[279] http://historymatters.gmu.edu/d/5361/

[280] Thomas Jefferson, John P. Foley, *The Jeffersonian Cyclopedia*, Funk & Wagnalls company, 1900, 73.

influence continued to grow until it hijacked America. Wall Street, the seat of money power, acquired Main Street and turned American democracy into a plutocracy that steers mechanical processes of elections dominated by the money power's three Ms of Money, Media and Marketing of politicians and goods.

In 1829, the United States had 329 banks; in 1837, the number had more than doubled. Manhattan became the major money center and it handled 40 percent of the United States' foreign trade. The amount of loans between 1829 and 1837 went up about four times. Credit restrictions, crop failures and falling prices of cotton caused one panic and depression after another; typical of capitalism's cycles then and now. Every ten or twenty years, the 19th century would witness a new economic crisis, as in 1819, 1837, 1857, 1873, 1884, and 1893. The net losers were the farmers and working classes and the net beneficiaries were the very same few, the owners of money power.

The world's leading investment houses, such as the Rothschilds and Baring Brothers, neither solicited business nor stole one another's client. They wanted kings, governments and others to come to them, and they did. George Peabody, a

merchant who turned himself into merchant banker, left the United States for London to become the bridge for European capital to the United States. He chose Junius Morgan as his partner to be located in London, while Morgan's son Pierpont looked after the U.S. side of the business. The Morgans became the bridge that connected much of the European finance, especially British, to the United States.

Global money power was truly global before the word globalization became today's capitalism catchword. Europeans held in 1853 about $222 million in American securities. In 1857, European demand for U.S. products plummeted, while the Bank of England raised interest rates to stop the capital outflow to China and India. This caused a crash on Wall Street and the panic of 1857.

The period between 1862 and 1865 federal power was consolidated because it was easier for money power to control the few in Washington than the many throughout the states. Political power was transformed by Congress from the states to the federal government. Huge tracts of public land were encouraged. As the North was in need of workers and

consumers for its expanding industries, tariffs were imposed to protect the industry of the North from foreign competition, and a national system of federally chartered banks answerable to the Treasury was created. If wars are a blessing for the financiers, the ordinary people are those who will pay for them. A Bureau of Internal Revenue was created to help finance the Civil War, and income was taxed for the first time in August 1861, at 3 to 5 percent. The tax was phased out in 1872 and was re-imposed by 1914. Lincoln was pushed to implement these changes. Congress also passed a Conscription Act; requiring able-bodied men aged twenty to forty-five to serve in the army. Rich people were allowed to pay $300 as a substitute for this service. Many future robber barons and politicians did not serve in the army, and that included President Lincoln's son Robert, John D. Rockefeller, Andrew Carnegie, Jay Gould, Jay Cooke, Theodore Roosevelt Sr., etc. The Civil War was fuel and paid for by the poor then and now. Riots in the poor sections of towns erupted. People would shout: "Down with the rich" and

call the rich people "300 dollar men". Pushed to do the agenda of war by money barons, Lincoln told a friend: "If there is a worst place than hell, I am in it."[281]

By the time the civil war ended, national debt was $2.8 billion, and the economy started to contract. The farmers' interest was for money supply to remain as during the war, which tends to depress interest rates, and inflation would help them pay their loans, as their products' prices would be higher. Lenders of money, for exactly the opposite reasons, wanted tight money supply.

During the Civil War, the Federal government printed money to help cover part of the war cost. These bills were called green backs and were not covered by gold. Keeping the greenbacks or retiring them became an issue; farmers on the one side and bankers and the U.S. Treasury on the other. Much of the government debt came from the European well-known

[281] Goolrick, William K., and the Editors of Time-Life Books, *Rebels Resurgent: Fredericksburg to Chancellorsville*, Time-Life Books, 1985, 92-93

war financiers and those favored a gold standard and retiring the greenbacks. A new sectional conflict developed between the eastern bankers, foreign financiers, traders and the Treasury, on the one side, and the farmers/debtor class at the other end. The roots of populism can be found at this point in America's history.

The Republicans became the party that pledged itself, in 1868, to protecting the gold standard. The proponents of the gold standard and tight money supply claimed they were not after "tight" money but they wanted "sound" money, claiming that others were after "soft" money. Farmers' and workers' income was in steady decline. The contradiction between economic indicators of Anglo-Saxon capitalism and the real quality of life of the majority of people was obvious in the misery of farmers, having reached the point of starvation, in the occurrence of economic depressions, recessions, deflation and what else, at a time the indicators showed growth and prosperity. If true, that growth and prosperity was totally overtaken by the very few bankers and their cronies.

Much of the capital for financing the American civil war came from Europe. Two firms dominated this business of financing wars, and war indemnities and reparations. They were the Rothschild's and the Barring Brothers. The Barring Brothers financed the United States government for the Louisiana Purchase.

654

مكرر

655

مكرر

656

ولم يتم سحق قوة المال في مهدها ، وعوضاً عن ذلك استمر نفوذها في النمو إلى أن تمكنت من اختطاف أميركا ، واستحوذ وول ستريت مقر سلطة المال – على شارع العامة وحوّل الديموقراطية الأميركية إلى حكومة الطبقة الثرية ، التي توجه آليات الانتخابات المحكومة بعوامل السلطة الثلاثة المال، الإعلام والتسويق – للسياسيين والبضائع سواء.

مكررر اخر فقرة 657

مكرر 658

مكرر 659-664

في أيار 1873 انهار سوق فيينا ، وامتدت المشكلة إلى برلين وأمستردام وباريس ولندن ، وحدا ذلك بالمستثمرين البريطانيين إلى الامتناع عن شراء سندات المالية الأميركية ؛ وفي خريف 1873 وصلت المشكلة إلى الولايات المتحدة مسببةً واحداً من أسوأ فترات الكساد الاقتصادي في التاريخ الأميركي ، وعجزت بعض السكك الحديدية عن السّداد ، مما أدى إلى إفلاس العديد من البنوك . وفي 18 أيلول 1873 أفلس جيه. كوك وشركاه ، وهو المصرفي الرائد الخاص لحكومة الولايات المتحدة ، وتبع ذلك إفلاس سبعة وخمسون منشأة استثمارية ، في 20 أيلول أغلقت بورصة نيويورك أبوابها لأول مرةٍ في التاريخ ، وتماماً كما يحدث للأموال المسروقة

665

هذه الأيام ، والتي يمكن لها مغادرة البلد خلال ثانية باستخدام برنامج حاسوبي ، كان بمقدور أموال المستثمرين الأوروبين الاختفاء في ليلةٍ واحدة ، حيث سيكون التأثير الحاصل واحداً ، والفارق الوحيد بين الحال في 1873 والآن ، أنه في ذلك الوقت لم يكن هناك وجود لبنك مركزي ينظم تزويد النقد ، حيث تركت تلك المهمة للبنوك الخاصة كي تقوم بها مباشرة ؛ وفي الواقع كان جيه. بي. مورجان ، يقوم بدور المصرف المركزي غير الرسمي ، وقد قام باستيراد النقود من إنكلترا للتخفيف من الانكماش المفاجئ ، وخول الرئيس جرانت الخزانة أن تعيد ضخ 26 مليون دولار من الدولارات الخضراء (Green Backs) ، والتي كانت سحبت من التداول ، ومع ذلك دخل البلد في كساد استمر ست سنوات حتى دعي بالكساد الكبير ، إلا أن كساد 1929 كان أكبر بحيث سرق الاسم منه ، وفقد الآجانب 600 مليون دولار في الولايات المتحدة ، كما أوقف 327 مصرفاً

666

دفعاتهم بين 1873 و 1879 ، بينما اندثرت عشرة آلاف شركه.

وكانت الحكومة ضعيفة قصداً ، وأيضاً فاسدة وأداه لدفع مصالح البارونات اللصوص وإنفاذها ، أما الأحزاب السياسية والحكومة ، فقد وظفا كليهما لإجازة ما يريده البارونات اللصوص ، علناً في ذلك الوقت ، وبوسائل وطرق أكثر تطوراً وأفضل تغليفاً في هذه الأيام ، ولكن مع الحصول على نفس النتائج النهائية ؛ وكمثال فقد كان وكيل روتشيلد الأميركي هو أوغست بلمونت رئيس اللجنة الوطنية للديموقراطيين ، وكان قادة الأحزاب يتوسطون في عقد الصفقات ، بينما قبل المشرعون من كلا الحزبين الرشاوى نقداً ، أو على شكل

أسهم أو هدايا وامتيازات مالية ، من سكك الحديد والشركات ؛ وكان رئيس اللجنة الوطنية للجمهوريين وليام إي. شاندرلر ، يتقاضى عطايا من أربع شركات سكك حديدية في نفس الوقت ، وكان بعض أعضاء مجلس الشيوخ يتلقون مقدم أتعابٍ من كبريات مؤسسات الأعمال ، وقد ابتاع روثرفورد بي. هيمز حاكم أوهايو (والرئيس فيما بعد) من المتمول جيه. كوك أرضاً بسعرٍ يعادل المجانية ، ومن المثير للاهتمام أن هيز حصل على تبرعات كبيره من المجتمع المالي بمن فيهم دريكسل مورجان ، وتم تبرير هذه التبرعات الكبيرة على أنها ضرورية " لمستقبل " أعمالهم الجمعية ووسائلهم " ، ولدحر " مشجعي التضخم " .

وادعى المتولمون أن زيادة المعروض النقدي ، كما يرغب المزارعون إنما يعني التضخم ، وأثبتت إدارة الرئيس جرانت " أنها الأكثر فساداً خلال القرن ، بفضائح مالية لوثت كل عضوٍ في مجلس الوزراء تقريباً " كما كتبت جين ستراوس في

668

كتابها " مورجان ، رأسمالي اميركي " ، وأضافت :" لقد كان كلا النائبين للرئيس جرانت ، متورطين في عملية احتيال كريدت موبلييه (credit Mobilier) ، والتي اصدرت فيها شركة إنشاءات أقامتها شركة سكة حديد يونيون باسيفيك ، أسهماً لنواب في الكونجرس، أجازوا معوناتٍ فيدراليه حيث أشاحوا بوجوهم للناحية الأخرى .. إلى أن فضحت الترتيبات هذه ، على يد جريدة نيويورك صن ؛ كذلك تقاضى وزير البحرية رشاوى من مزودي البحرية ، وباع ابن وزير الداخلية عقود عمليات مسح ، اما وزير الحرب فتقاضى أموالاً على أساس تفاهمات تتعلق بمواقع الاتجار مع الهنود ، أما السكرتير الخاص للرئيس مكان متورطاً في فضيحة ويسكي ضرائبية ، بينما ساعد نسيب الرئيس جرانت ، جيه. جولد في التلاعب بسوق الذهب ". وأردفت قائلة " وحيث أنه لا توجد لدى الحكومة الفيدرالية سياسه مالية أو نقدية واضحة ، فإن زمام القيادة في المسائل - كان إلى حد كبير -

669

بيد العاصمة المالية للأمة – نيويورك " . ولذا كان وول ستريت آنذاك ، كما الآن ، مسيطراً على واشنطن ، عدا أنه تم تطوير أساليب تسويقية جديدة ، لتجميل دُمى وول ستريت هذه . كما أن بمقدور وول ستريت ، وبسهوله ، إعادة التخلي عنهم في أي وقتٍ يخرجون فيه عن الطاعة ، وبعد مضى قرنٍ من الزمان على ورطة نواب الرئيس جرانت

في الاحتيال عام 1872 ، كان على سبيرو تي. آجنيو ، نائب الرئيس نيكسون ، أن يستقيل عندما اتضح أنه تقاضى رشوةً من مقاولٍ محلي . وفي العادة فإن أولئك الذين يوفدون إلى واشنطن إنما يتم انتقاؤهم بخلفيات كهذه كي يمكن ابتزازهم لترك مناصبهم في أي وقت . وفي 2002 هاجم بوش الصغير الشركات ورؤساءها التنفيذيين الذين ينصبون على المستثمرين ، وفي اليوم التالي تبين أن بوش نفسه استلم قرضاً " طريّاً " من شركة " هاركن " لتمكينه من شراء أسهمها ، وقبل أسبوعين أو ثلاثة من انهيار أسهم الشركة ، باع أسهمه محققاً ربحاً بمئات

670

الآلاف من الدولارات ، وحدث هذا عندما كان بوش يجلس في مجلس إدارة تلك الشركة في ثمانينيات القرن العشرين ؛ وقد تبين في وقت متزامن ، أن نائب الرئيس بوش ، ديك تشيني ، استخدم أساليب محاسبيه مشبوهه لتضخيم أرباح (وقيمة أسهم الشركة) هاليبرتون عندما كان الرئيس التنفيذي لتلك الشركة .

لكن لم تقم أية حركة أميركية ، لا قبل الحرب الأهلية ولا بعدها ، بالتصدي لمظالم الرأسمالية المالية الأنجلوساكسونيه واصحابها من بارونات لصوص القرن التاسع عشر كما فعلت الحركة الشعبية ، ولم يثق حزب الشعب ، وهو الحزب المنبثق عن الحركة ، بأيّ من الحزبين الموجودين ، وكان لديه رؤاه الخاصة ، المختلفة جدّاً ، لأميركا مختلفة جداً . وكانت طريقة جديده ، وثوريه من حيث نظرتها إلى الأشياء ، بحيث ذهبوا إلى حد التحقيق في أسباب الفقر ،

671

فاكتشفوا قوة " التعاون والتنظيم " . وبعد انتخابات 1890 الوطنية ، كان لدى حزب الشعب عشرة نواب ، وخمسة شيوخ في الكونجرس ، وتكرر المزيد من الانتصارات في 1894 ، وكانت شعارات الحزب الشعبي هي: " أموال الشعب " ، " أراضي الشعب " ، " ثروات الشعب " ، " مواصلات الشعب " . وقدم الشعبيون ما هو أكثر من الشعارات ، إذ قدموا حلولاً لإعادة هيكلة الاقتصاد كي يصبح في خدمة الشعب ، وليس في خدمة القلة من بارونات المال الذين كان النظام مصمماً لخدمتهم ؛ وما أشبه الأمس باليوم ، حيث تحكم رجال المال والأعمال ، البارونات اللصوص ، وباشروا سيطرة فعالة على النظام الحزبي الأميركي شمالاً وجنوباً ، جمهوريين وديموقراطيين على حدّ سواء ، وجذف الحزبان بعيداً

عن المسائل الاجتماعية والاقتصادية ، إذ كانت سياساتهم بشكل أساسي إما إقليمية ، أو وطنية عنصرية (عرقية) .

672

أما الشعبيون فحوّلوا المناظرات العامة إلى المسائل الحقيقية ، و" بحيث أعطيت المسألة المالية الأولوية التي تستأهلها عن جداره" .. كيف تخلق النقود؟ وعلى أية أسس يتم دورانها ؟ .. من هم الذين يتقاسمون ثمار الازدياد في الانتاج الأميركي ؟ كيف يمكن للأميركيين ضمان حدّ دخلٍ أدنى لعيشٍ كريم ؟ هل يتوجب على الحكومة إصدار النقود مباشرة إلى الناس أم عبر البنوك ؟ هل تكون ذهباً ؟ أم فضةً وذهباً ؟ وكان لديهم أسباب مقنعة لطرح هذه الأسئلة ، ففي السنة الأولى للحرب الأهلية استلمت الحكومة الفيدرالية كمياتٍ ضخمةً من القروض من المجتمع المصرفي ، والذي غالباً ما يشار له بالمجتمع المالي الشرقي ، وحيث لم تتوفر كميات كافية من الذهب في ذلك الوقت، فقد تم التخلي عن معيار الذهب بهدوء ، كما أجاز الكونجرس إصدار

673

أوراق نقدية " كأداة وفاء قانونية " صادرة عن الخزينة ، وقد بلغ مجموعها عند نهاية الحرب حوالي 450 مليون دولار ، وبما أن حبرها كان أخضر اللون فقد سميت بـ" خضراء الظهر " . وبعد الحرب مباشرةً أراد المصرفيون وآخرون غيرهم من أصحاب التسهيلات العودة إلى معيار الذهب ، وحيث أنهم كانوا قد اشتروا سنداتٍ حكومية بعملةٍ تستهلك قيمتها خلال الحرب ، فقد تطلعوا إلى تحقيق أرباحٍ ضخمة عن طريق خفض ما يملكون من الذهب المقيمً بمستوى أسعار ما قبل الحرب ؛ كما طلبوا أيضاً تقليص حجم عرض النقد إلى مستواه فيما قبل الحرب ، وسحب أوراق النقد " خضراء الظهر " من التداول . وبهذه الطريقة يكون قد تم تعويض المصرفيين ضعف ما أنفقوه ، ويكون دافعو الضرائب قد تكبدوا دفع الفرق إلى مالكي السندات – ألا وهم القطاع المصرفي .

وأما الكونجرس صاحب المعروف والفضل الدائم على المصالح المالية ، والذي دائماً ما يعثر على التبريرات المقدسة لقضايا غير مقدسة ، مدعياً الدفاع عن

674

شرف الأمة ، فقد استرد الدفع بالذهب للمصرفيين ، كما قامت الحكومة بتقييد عرض النقد ثانيةً وكما هو مطلوب من المجتمع المصرفي ، وتلا ذلك كسادٌ حاد.

تشكل حزب " خضراء الظهر " المعادي للرأسمالية من طبقة المزارعين/المدنيين الذين رأوا في حركة الرجوع إلى الذهب بعد الحرب الأهلية مؤامرة قذره من قبل بارونات المال واقرانهم من الأجانب ، وطالبوا بالمزيد من الأوراق النقدية خضراء الظهر ، وإلغاء احتكار النقود من قبل بارونات المال ، وتخفيض الدين الفيدرالي ، وإنهاء الاستثمار الأجنبي في البلاد ، ووصم وليام آلن / حاكم أوهايو ، التشريع الأخير من قبل الكونجرس على أنه مؤامرة بين بارونات النقود/المال وعملائهم " لتجفيف دم الحياة للشعب الأميركي " . وطالب منتقدو وول ستريت

675

بأن تقوم الحكومة ببيع سنداتها إلى الجمهور مباشرةً وليس عن طريق اتحادات البنوك ، وأن يتم سداد الدين للبنوك بأوراق النقد خضراء الظهر ، وليس بالذهب أو الفضة ؛ وأدى انكماش سبعينيات القرن التاسع عشر إلى زيادة قيمة مديونية المصرفيين ، وعلى أية حال ادعى المصرفيون أن العودة للذهب ستكون عودةً إلى النقدية السليمة ، كما أنها ستحفظ لأميركا كينونتها وثقة المستثمرين الأجانب فيها ، وتمنع تضخماً " جامحاً " ، وربح " حزب خضراء الظهر " أكثر من مليون صوت في الانتخابات النصفية لعام 1878 .

وخلال كساد 1873-1879 ، أوجدت الاتحادات والاندماجات احتكاراتٍ قوية في مختلف قطاعات الاقتصاد ، كما قامت سكك حديدية بتوحيد ملكية منظوماتها المناطقية (الإقليمية) ، ونسقت

676

معلوماتها ، وحدت من المنافسة فيما بينها . وسيطر جون دي. روكيفيللر على النفط ، وأندرو كارنيجي على الحديد ، ومكن الكساد كليهما من الاستحواذ على المنافسين وتملكهم ، مقابل كسرٍ من الكلفة ؛ ولم تكن الوسائل التي استخدمت في تملك المنافسين فوق الشبهات ، فكان روكيفيللر يتجسس على منافسيه ، كما حرمهم من المواد الخام ، وتواطأ مع السكك الحديدية لتتقاضى أجور شحنٍ أعلى منهم ، ودفع الفارق له ؛ كما باع في مناطقهم بأسعارٍ

أقل من تكلفتهم لدفعهم إما إلى الإفلاس أو إلى بيع أعمالهم له . ومع انتهاء الكساد في 1879 ، أصبح يمتلك 90% من أعمال المصافي النفطية في الولايات المتحدة .

إن هذه ليست رأسمالية آدم سميث ، والتي رآها بعين خياله عندما تحدث عن اليد الخفيه لقوى السوق ، والتي

677

تحكم النشاط الاقتصادي ، فقد رأى بأن الشركات التي تحاول أن تنمو أسرع وأن تكسب نقوداً أكثر، سوف تكون محكومةً بالمنافسة التي ستضمن أن يحصل الجميع على أرباح متساوية ، وبذا لن يتمكن أحد منهم من الانفراد بالسيطرة أو احتكار السوق .

وفي كانون ثاني 1874 ، قمعت شرطة نيويورك وفضت تظاهرةً من آلاف المحجين المطالبين "بالعمل أو الخبز"، واعتقلت العشرات منهم . أما في قضية عمال مناجم الفحم الذين احتجوا على ظروف عملهم ومعيشتهم ، المماثلة لتلك في القرون الوسطى ، فقد استأجر مالك المناجم تحرياً سرياً لاختراق صفوف العمال الذين كانوا يحاولون تشكيل اتحادٍ فيما بينهم ، وكان أن طُبقت العدالة السريعة ، عندما باشر التحري الخاص دور المدعى العام والشاهد ، وتمّ إعدام عشرين من قادة العمال . وبعد أن خفضت سكك حديد بالتيمور وأوهايو

678

دخول عمالهم مرتين في 1877 ، قام العمال بإضراب ما لبث أن امتد بسرعة إلى خطوطٍ وصناعاتٍ أخرى ، فاستدعى الحكام رجال الميليشيا ، كما استدعى الرئيس هيز القوات الاتحادية لفض الاضراب أو " استعادة النظام " ، في الوقت الذي أشعل فيه العمال النيران في عربات وقاطرات السكك الحديدية ، بعد أن قتل رجال الميليشيا مئةً منهم وجرحوا المئات ، وتمّ إنهاء " الإضراب الكبير " بخاتمةٍ دموية .

وبعد انهيار 2001/2000 المعروف بانهيار دوت كوم (com.) ، خشيت وول ستريت حدوث كسادٍ كبير ، إذا لم تحدث حرب أوتشنّ الحرب المسماه بالحرب على الإرهاب ، وأوجدت الطبقة الحاكمة وطبقة المال إدارة أمن البلاد " وتشريع الوطني" استباقاً لحدوث

679

اضطرابات اجتماعية محتملة ، يمكن أن تنجم عن خرابٍ بنيوي في صلب نظام الرأسمالية المالية .

في مقاطعة لامباساس بولاية تكساس ، شكل المزارعون البائسون " فرسان الاعتمادية " (knights of Reliance) ، ثم أعادوا تسمية أنفسهم بـ " اتحاد المزارعين " ، واصبحت هذه الحركة التي تشكلت في 1877 ، تعرف بالحركة الشعبية ، وكانت دوافع الحركة هي الدفاع ضد شح النقود ، والمرابين ، والانكماش الاقتصادي . وقرروا تشكيل تعاونيات فيما بينهم تشتري لهم حاجاتهم بأسعار الجملة ، بينما تقوم بتخزين منتجاتهم ، ومن ثم بيعها بالاسعار المثلى ؛ كما ابتدعوا تدبيراً يمكنهم بموجبه تقديم مزارعهم وقطعانهم ضماناً للقروض التشغيلية . وكان أكبر هذه التعاونيات هي " تعاونية عموم تكساس".

680

وفي ربيع 1884 ، في ريف ميلام ، إلى الشرق من لامباساس ، انضم تشارلز دبليو. ماكون ، وهو طبيب ريفي شاب ، إلى الاتحاد ، وبالتعاون مع المؤسسين الأصليين أعاد تنظيم الحركة ، وقام دون تردد بشراء ما قيمته 100,000 دولار من المؤن من تجار الجملة ، ثم باع حصصاً من الأسهم إلى عائلات المزارع ، وجمع 20,000 دولار نقداً ، و200,000 دولار ضمانات إضافية من المزارعين ، لتأمين القرض التشغيلي ؛ وعندما حاول اقتراض رأس المال العامل لسداد تجار الجملة رفض طلبه من كل مصرفي ، وتمكن ماكونّ – فقط من خلال حملة لجمع الأموال شملت الولاية بكاملها - من تأمين 80,000 دولار . إلا أنه في السنة الثانية لم تتمكن التعاونية من النجاة والبقاء، وكان لا بدّ لها أن تنتهي .

681

وأراد المزارعون التصدي لنظام الحجز والرهن العقاري ، والذي كان بالنسبة لمزارعي الجنوب ، أبيضهم وأسودهم على حد سواء ، بمثابة نسخة معدّله من العبودية . وورد الوصف التالي في كتاب لورنس جودوين " وعد بالديموقراطيه – الحركة الشعبية في أميركا " :

"يتقدم المزارع ، بعيونٍ منكسرة ، وقبعته – أحياناً حرفيا- بيده ، يتقدم من التاجر بقائمة احتياجاته، فيقوم الرجل خلف الحاجز بالاطلاع على دفتر الحسابات ، وبعد غمغمةٍ متبادلة

، يتحرك إلى أرففه لاختيار السلع التي ستفي - على الأقل - بجزءٍ من احتياجات زبونه ، ونادراً ما حصل المزارع على المواد ، أو حتى على الكمية من مادة واحدة كما طلب ؛ ودون نقودٍ تبادلتها الأيدي ، وإنما مجرّد تدوينات مختصرة قام بها التاجر في دفتره ،

682

وبعد انقضاء أسبوعين أو شهر على ذلك ، يعود المزارع ، وتتكرر مراجعة دفتر الحسابات ، والغمغمة المتبادلة ، فالانتقاء الحريص للسلع ، ثم إضافة قيود جديدة إلى دفتر الحسابات ، ومنذ الربيع الباكر وحتى أواخر الخريف ، يستمر إعادة تمثيل هذا الطقس ، حتى يحل وقت الحساب والوفاء ، فيلتقي التاجر والمزارع في محلج القطن المحلي ، حيث ستحلج ثمار عامٍ من الكدح ، وتكيس ، وتربط ، وتوزن وتباع ، وفي تلك اللحظة يعلم المزارع ما جناه له قطنه .. ويبلغ المزارع، أن دينه المتراكم خلال العام يتجاوز الإيراد المستلم من محصول القطن ، وأن المزارع قد فشل في محاولته " السّداد " ... وبذا فإن التاجر المزوّد سيعلن عن نيته

683

إعانة المزارع عبر فصل الشتاء في حساب جديد ، وأنه ما على الأخير سوى توقيع سند رهن محصوله للسنة القادمة لصالح التاجر ، وبتوقيع الرهن يركب المزارع عربته ، صفر اليدين ، عائداً إلى البيت ، حاملاً معه المعرفة بأنه للسنة الثانية أو الخامسة أو الخامسة عشرة ، لم يتمكن من السداد.[282]

وتقارب الفائدة التي يتقاضاها التاجر 100 بالمائة ، وأحياناً 200 بالمائة ، وبما ان الإيراد الوحيد للمزارع مرهون للتاجر ، فإن كل حركةٍ للمزارع تصبح تحت سيطرة التاجر ، ولقد

---

[282] Lawrence Goodwyn ,, *Democratic Promise: The Populist Moment in America*, Oxford University Press, 1976, 23.

تسنى لي فقط بعد فهمي لهذا النظام ، أن أفهم كلمات أغنية للمغني تينيسي إيرني فورد ، والتي أصبحت شائعة خلال خمسينيات القرن العشرين ،

684

عندما كنت أدرس في إحدى كليات أميركا: " ستين طناً وما الذي تحصل عليه ؟ تتقدم في العمر يوماً .. وتغرق في الدين ... وأدين بروحي .. لدكان الشركة . "

وراء دفاع متمولي الشرق عن استقرار الأسعار كانت تكمن الإجراءات التي طلبوها ، إلا أن الأسعار لم تهبط فقط إلى ما دون مستوياتها قبل الحرب الأهلية ، وإنما استمرت في التدني ، فالقمح الذي كان يباع بـ 2,06 دولار للبوشل (Bushel) في 1866 ، أصبح يباع بـ 1 دولار في 1876 ، ثم بـ 0,80 دولار في 1880 ، وانحدر إلى 0,35 دولار في داكوتا في تسعينيات القرن التاسع عشر ، وبينما كان المزارعون يخضعون لمثل هذه الأسعار المتدنية جدّاً فقد رافق انحدارها معدلات فائدة ربوية قاربت أوزادت عن 100 بالمائة ، فالتاجر المزود يتقاضى 25 بالمائة إلى 50 بالمائة للمبيعات على الحساب ، و 30 بالمائة إلى 50 بالمائة إضافية تضاف نهاية الموسم .

685

وكان لدى ماكون والحزب الشعبي في مؤتمر الاتحاد الذي انعقد في سانت لويس ، كان لديهم خطة : فقد دافعو عن أن الديموقراطية بحاجة إلى نظام نقدي ديموقراطي يقضي على مركزية السيطرة على التسهيلات الائتمانية ، وبما يسمح لها بالتدفق إلى المنتجين الحقيقيين ، وبذا تنتشر الفرص والدخل على أوسع نطاق ممكن ؛ ويمكن تحقيق ذلك عن طريق إقراض الحكومة المباشر للمنتجين دون وسطاء (أي دون البنوك) ؛ وقاموا بوضع مخططٍ تفصيلي كامل أصبح يعرف بمخطط فروع الخزينة ، حيث تقوم وزارة الخزينة للولايات المتحدة ، بإقامة مستودعات وروافع فيدراليه في كل ولاية ذات محصول زراعي هام ، وبذا يتم إيجاد الآلاف من هذه المراكز المسماه بفروع الخزينة ، ويصبح ممكناً للمزارع أن يودع منتجه في فرع الخزينة .

686

ومن ثم يقترض مقابل محاصيله بسعر فائدة يتراوح بين 1 بالمائة و 2 بالمائة ، وله أن يبيع محصوله بالأسعار الجارية أو أن يقترض على قيمة أرضه ، ويمكن الدفع للمزارع

بالدولارات خضراء الظهر ، والتي طبعت دون تغطيةٍ بالذهب ، ولكنها الآن مغطاة بإنتاجٍ حقيقي ، كما يمكن الدفع أيضاً بشهادات إيداع أخرى قابلةٍ للتداول ويمكن الاتجار بها . وتجادل الخطة ، بأن هذه الكمية من النقود يمكن نظرياً سحبها بعد أن يسدد المزارعون قروضهم .

وكما جادلوا ، فإن القصد من قروض الأراضي هو وقف الانكماش برفع كمية عرض النقود إلى ما يقارب 50 دولاراً للفرد ، والذي كان مشابهاً لحصة الفرد من عرض النقود خلال الحرب الأهلية .

687

وواحد من أعظم مبادئ الشعبيين ثورية أنه يجب أن يكون للنقود غرض اجتماعي ، وليس أن تستخدم فقط لجمع المزيد من النقود ، وإلى ما قبل إجبار اليابان على تغيير نظامها الاقتصادي بضغطٍ من كلينتون ، كانت النقود في اليابان أداة ذات مهمة اجتماعية ، للحفاظ على تشغيل كامل دون بطالة ، ومدى الحياة .

ومن الواضح أن هذه كانت خطةً ثورية ، حيث تتخطى المصرفيين ، بالالتفاف حولهم في عملية الإقراض والتسهيلات ، وبذا تذهب مباشرة إلى مستخدميها . ونظام عادل كهذا لم يكن لينجح ، طالما كان للمصرفيين عملاؤهم في واشنطن ، وطالما كانوا يملكون سلطة المال .

ولقد تركزت دعاوى الشعبيين المالية على :

- ❖ تعريف النقود (المال) الذي كان سابقاً حكراً على مجتمع المال .
- ❖ علاقة القوة ما بين المصرفيين وكل شخصٍ آخر ، والعملة التي تربطهم وتوصلهم ببعض .
- ❖ لا أخلاقية النظام الحالي .

في عام 1894 ، نشر التكساسي هاري تريسى أطروحة كجزء من كتاب جيمس إتش. ديفس الشعبي : " تجلي سياسي " ، وفيه بحث مسائل اقتصادية محدثة وتأثيراتها التفاعلية ، مثل عرض النقود (الكتلة النقدية) وسرعة تداولها ، التضخم والانكماش ، فائض الإنتاج ونقص الاستهلاك وتوزيع الثروة على مجمل السكان .

689

وعن موضوع الخزائن الفرعية كتب قائلاً :***" وبموجب هذه الخطة يخزن المزارع إنتاجه ، يسلّمه إلى الصانع أو إلى المستهلك نفسه عبر وكيله المختار ، عوضاً عن أن يقوم المضارب بذلك ."*** [283]

وعندما أنقذت خزينة الولايات المتحدة بنوكاً تجارية بمنحها 47,000,000 دولاراً من التسهيلات بسعر فائدة 1% ، كتب بريسي :

"...الآن ... إذا كانت الحكومة قادرة على إقراض هؤلاء البنوك نقوداً بفائدة واحد بالمائة بضمانات، فلماذا لا تستطيع الحكومة إقراضها للناس مقابل ضماناتهم ؟ وإذا كانت الحكومة قادرة على جسر هوة شح سوق النقود للمصرفيين والحفاظ عليهم من التضحية بضماناتهم ، فلماذا لا تستطيع الحكومة

690

فعل نفس الشيء للناس ؟ فيا لها من مسخرة لحكومة ديموقراطية ، أن ينعم 4,000 رجل ، بسبب ثرائهم ، بميزات يحرم منها 65,000,000 من الناس " . [284]

ولقد جادل الشعبيون بأن النظام النقدي الأميركي كان ظالماً وجائراً ، وبدأوا بذات تعريف النقود ، حيث أوضح أحد أعضاء الكونجرس ، انتخب حديثاً من حزب الشعب : ***" نعرف النقود على أنها من صنع القانون .. مجرد تمثيل بسيط للقيمة ... مجرد أداة للتبادل وليست سلعة .. طبقاً لأي معنى صحيح ".*** [285] وكان تفسيراً لواحدةٍ من علل الرأسمالية

---

[283] Ibid., 369.

[284] Ibid., 371.

[285] Ibid.

الأساسية في أواخر القرن العشرين ، والذي لعبت فيه النقود – بصفتها سلعة – دوراً رئيسياً . وتابع مصلحون آخرون :" لم يعد الذهب يعتبر نقوداً

691

بأكثر من الورق ، وليس هناك ما يمكنه أن يكون نقوداً بالمعنى القانوني الكامل ، ما لم يتسن له سداد الدين دون احتمالية رفضه " [286] ، كما كتب محرّر " ذ أدفوكيت " ستيفن ماك لالين : ***" لم يعد هناك من سبب في ان تكون المادة التي يتكون منها الدولار ذات قيمة حقيقية تعادل دولاراً ، بأكثر مما تملكه عصا قياس اليارده من قيمةٍ حقيقية مساوية لقيمة القماش الذي تقيسه ، فالنقود – كما هو عليه الحال – لا تملك طولاً ولاسماكة ، وقيمتها الوحيدة تتمثل في حقيقة أنها بحكم القانون والعادة ، هي الوسيط الذي تسدد به الديون ، ويتم به تبادل الثروة ."*** [287] وختم ماك لالين بأن القيمة الحقيقية للعملة ، إنما تعتمد على ثروة البلد ، والتي يدافع عنها بإنتاجيته وليس بالقيمة الحقيقية للمعدن ، وأصبحت صحيفة ماك لالين في كانساس ، أكثر الصحف المقروءة في سهول أميركا الغربية .

692

كان الشعبيون مغتاظون من الفروقات غير العادله للنظام المصرفي الوطني ، ومن فساد المؤسسات في النظام الديموقراطي ، كما استاؤوا من التواطؤ الحاصل بين الرأسماليين والسياسيين ، والذي أضيفت بموجبه سلطة الدولة إلى سلطة الشركات لقمع العاملين من الناس ، ولا حظوا في وقائع عدة ، أن الرأسماليين كانوا المبادرين في بدء العنف لإيجاد سبب لوضع قوات الدولة ضد العمال ، كما حدث في نزاع 1894 بين شركة تينيسي للفحم والحديد وبين عمال المناجم ، حيث تم فضّ الإضراب من قبل الجند ، كما أحيلت بعض الإضرابات إلى المحاكمة ، بدعوى العمل ضد حكومة الولايات المتحدة.

---

[286] Ibid.

[287] Ibid.

693

بدأ وليام لامب اللعب بفكرة تجمع كبير بين المزارعين والعمال في المناطق الريفية والمدينية لإعادة هيكلة السياسة والمال الأميركيين ، وأراد بعض أعضاء الاتحاد الانضمام إلى " فرسان العمال" وإلى إضراب الجنوب الغربي الكبير في 1886 ، والذي وقعت فيه سلسلة من المعارك الصغيرة والرئيسية بين شرطةٍ مسلّحين ومضربين مسلّحين ، ففي فورت ويرث بولاية تكساس قام أكثر من 400 فرد من تكساس رينجرز و100 من نواب الشريف (شرطة) بأعمال الدورية في الشوارع ، وقد وجه الاتهام إلى الآلاف ، وأودع المئات منهم السجون ، كما قتل الكثيرون ، وقد أراد وليام لامب لاتحاد المزارعين أن يدعم الحركة العمالية ، وحسب تعريفه فالمزارعون عمّال ! وقد عبّر دبليو إل. فارمر قائد " فرسان العمّال " عن اشمئزازه من كلا الحزبين الجمهوري والديموقراطي ومن النظام السياسي بقوله:

" الجمهوريون سرقوا البضائع أما الديموقراطيون فأخفوها .. لدينا فائض إنتاج من الفقر ، والنساء حافيات الأقدام ، ولصوص ساسه ، وكذابون جماهيريون ، وليس هنالك من فرق بين السرقة المقننة وبين السطو على الطرق الخارجية .. وإذا استمعت للطبقات الأخرى فسيكون لك ثلاثة حقوق فقط ... أن تعمل ، وأن تجوع ، وأن تموت ." [288]

وسيطرت الخطب السياسية عقب كل اجتماعٍ فرعي للاتحاد ، كما أضاف قسيس الاتحاد الفرعي الرسالة الاجتماعية الجديدة إلى رسالة الإنجيل .

انعقد اجتماع مندوبي " اتحاد المزارعين " في آب 1886 قرب مدينة دالاس بولاية تكساس ، ووضعت لجنتهم مطالب

695

---

[288] Ibid., 76

كانت تجميعاً لمظالمهم منذ الحرب الأهلية ، وأرسلوا مطالبهم السبعة عشر إلى رئيس الاتحاد وكذلك الى حكومات تكساس والولايات المتحدة ، ومن بين هذه المطالب التي قدمتها اللجنة " تشريع يؤمن لشعبنا التحرّر من التعسُفات الشاقة والمخزية ، التي تعاني منها طبقاتنا الصناعية على أيدي رأسماليين متعجرفين وشركات متنفذة " ، إلا أن الطلب الأكثر ثورية فكان يتعلق بالمسألة المالية ، فبعد إذاعة مظالمهم ، حول الكيفية التي أساء بها مجتمع تكساس المالي معاملتهم ، عرضوا إقامة نظام مصرفي قومي يدار اتحادياً ، كما طلبوا أن يتم إصدار الكتلة النقدية من قبل الخزينة الاتحادية، وأن يقوم الكونجرس على تنظيمها . وفي هذا السياق كتب سي. فان وودوارد في " اصول الجنوب الجديد" :

696

"في هجومهم على النظام المصرفي الوطني ، كان الاقتصاديون الزراعيون يقفون على أرضٍ صلبة، في تأكيدهم وإصرارهم على أن الموسرين من الخاصة ، كانوا يمارسون سلطةً سيادية ، مثل سلطة تنظيم العملة القومية ، لمنافع خاصة ، بدلاً من تلبية احتياجات البلاد." [289]

وكان اتحاد المزارعين في الغرب ، يدفع بوشلاً واحداً من الذرة مقابل شحن بوشل واحد منها ، حتى لو كان الشحن إلى ولاية مجاورة ، بينما منحت الشركات الكبرى أجوراً خاصة ، مثل تلك للشحن من شيكاغو إلى لندن ، حيث كانت كلفة النقل أرخص عليهم مما كانت عليه كلفة المزارع في شحنه لمحصوله من ولايةٍ لأخرى ! وكانت الكتلة النقدية (أو عرض النقد) والنظام المصرفي برمته المسيطر عليه من

697

قبل المصارف التجارية الشرقية ، قد فشل في المحافظة على عرض النقد متطابقاً مع التوسع ، متسبباً في هبوط الأسعار ، وشح التسهيلات وفوائد ذات معدلات مرتفعة . وبدأ

---

[289] Comer Vann Woodward, *Origins of the new South, 1877-1913*, Louisiana State University Press, 1951, 186

الشعبيون بالدعوة لنظام وطني جديد وعملة وطنية جديدة ، تصدر عن الحكومة عوضاً عن صدورها عن المصارف الوطنية الخاصة ، كما كانت عليه الحال حينئذٍ . ***ولقد تحدثوا عن " رأس المال المتركز ، المتحالف مع السطوة المنفلتة (غير المسؤلة) للشركات " والتي كانت تشكل تهديداً لحقوق الأفراد وللحكومة الشعبية .إذ بينما تخترق شركات السكة الحديد كل محلّة بقضبانها الحديدية ، فإنهم يكبلون الناس بسلاسل حديدية."*** [290] [291]

وأعلن المرشح الرئاسي لحزب الشعب في خطاب :

" ... ليس علينا سوى الإشارة إلى سجلاتنا التشريعية والتي تخص ربع قرن – فكل صفحةٍ منها مثقلةٌ بتشريع يتوهج تحيزاً لصالح الطبقات الأخرى ، وأما عن الاتهام بأن سياستنا تنزع إلى مركزية سلطة الحكومة ، فما علينا سوى الإشارة إلى التجاوزات المخيفة للسطوة غير المسؤلة للشركات على أداء الحكومة." [292] ولقد قال ليونيداس لافاييت بولك في خطاب له في سانت لويس : ***" لقد حلّ الوقت الذي يجب فيه على الغرب العظيم ، والجنوب العظيم ، والشمال الغربي العظيم ، كي يتضامنوا ويشبكوا أيديهم وقلوبهم معاً ، ويزحفوا إلى صناديق الاقتراع ويعيدوا امتلاكهم لحكومتهم ويردوها إلى مبادئ آبائنا ، ويديروها لما فيه مصلحة الشعب."*** [293]

699

كانت الثورة الصناعية آخذة بالتسارع ، وبحلول عام 1890 أظهرت إحصاءات الولايات المتحدة الرسمية أن العوائد من الصناعة قد فاقت العوائد من الزراعة . وكانت الثورة

---

[290] Lawrence Goodwyn, *The Populist Moment: A Short History of the Agrarian Revolt in America*, Oxford University Press US, 1978, 114

[291] Ibid.

[292] Lawrence Goodwyn, *Democratic Promise: The Populist Moment in America*, Oxford University Press, 1976, 258.

[293] Lawrence Goodwyn, *The Populist Moment: A Short History of the Agrarian Revolt in America*, Oxford University Press US, 1978, 167

الصناعية مجلبةً لمشاكل واضطرابات خاصة بها ، ففي 1886 حصل ما يقارب 1600 إضراب ، وأنتجت عقود ما بعد الحرب الأهلية انكماشاً كبيراً ، وكسادين اقتصاديين ، وإفلاسات بنوك وعدم رضا وسخط شعبي، وفي هذه الفترة قدّم القطاع المصرفي ، الودائع غب الطلب ، والحسابات الجارية ، ودفعت هذه النقود الجديدة – أكثر - باتجاه التجريد ، حيث قبل الناس الآن النقود - كرقم وكحساب - في دفتر الأستاذ العام لدى البنك ، والتي يمكن استردادها بورقةٍ أخرى شيك شخصى أو حوالة (إذن صرف) . ومع حلول العام 1900 كان معظم الناس قد قبلوا هذه النقود الجديدة؟

700

اهتز النظام هزة تلو الاخرى .. كانت إحداها في 1893 والأخرى في 1895 ، وخلال هذه الفترة صعد نجم الشعبيين ، وأصبح المستثمرون يخشون ثورة سياسية ، أو أنهم خافوا من تضخم كبيرٍ منفلت ، فبدأوا في 1895 الفرار من النظام الأميركي ، وباشروا سحب نقودهم من المؤسسات المالية الأميركية مطالبين بالذهب ، مع تحويله عبر البحار- وبشكل رئيسي - إلى أوروبا ، ونضب ما تملكه الحكومة الفدراليه من احتياطيات الذهب بسرعة ، ومع هذه الحالة اليائسة لجأت حكومة الولايات المتحدة إلى جيه. بي. مورجان ، والذي نظم اتحاداً مصرفياً أعطى الولايات المتحدة 3,5 مليون أونصة من الذهب على سبيل الانقاذ ، وكان جيه. بي. مورجان وشركاه يتصرف كما لو كان البنك المركزي للحكومة ، وبعد أزمة المصارف في 1893 ، عرضت جمعية المصارف الأميركية في 1894

701

ما ادعوا بأنه إصلاح : خلق عمله قومية جديدة بضمانة غير مشروطة من حكومة الولايات المتحدة، ولكن (وهنا يكمن الخلاف مع عرض الشعبية) على أن يتم التوزيع من قبل المصارف التجارية .

المشكلة الأساسية مع حزب الشعب وحزب الإصلاح ، كما حللها لورنس جودوين ، كانت تتمثل في كيفية تنظيم عمال الشمال ذوى الغالبية الكاثوليكية ، وذوي الغالبية من مهاجرين مدينيين ، من قبل منظمي التحالف ، والذين هم من ذوى الغالبية البروتسنتيه الأنجلوساكسونية ! وقد افتقرت النظرية الاجتماعية التي أوجدها الاتحاد الشعبي إلى الجاذبية الكافية لدى أولئك الذين لم يلقنوا مبادئ الاتحاد ، وكان عمال الشمال ينضوون – بمهارة – تحت ظلال ماكينة الحزب الديموقراطي ، وكان على أحد ما في 1892 أن يطور

702

تحليلاً نظرياً أوسع ، لمخاطبة الفئات المتدينة من أصحاب معتقد العيش البسيط في أرجاء مدن أميركا ، ولم يكن منظمو الاتحاد في 1892 على دراية بكيفية مخاطبة عمال المدن ، إذ كان عليهم ترجمة ثقافة الشعبيين إلى أيديولوجيا ، حيث أن "الشعبية" كانت حقيقة آيديولوجية مختلفة عن تلك السائدة ، وكان حزب الشعب يملك القليل من الوسائل المؤسسية - هذا إن توفرت لديه أصلاً– لاجتذاب الملايين من عمال الصناعة . ولقد جلبت ديناميات السياسة إلى اللجنة القومية للحزب وسطاء سياسيين ، تفوقوا من حيث العدد على أيديولوجيي الحزب ، وكان الرئيس الجديد للحزب على المستوى القومي هيرمان توبينك من إلينوي ، و كان هو نفسه وسيطاً سياسيّاً متبدئاً ؛ ومن أجل نشر مبادئ الشعبيين لمدن الأمة ، تأسس اتحاد المواطنين الشعبيين القومي ، والذي لم يتمكن من إنجاز الكثير .

703

ينطوي إنشاء حزب قومي ثالث على الكثير من التعقيدات التنظيمية والتاكتيكية ؛ وكان ما شجع مؤسسي الحزب الثالث .. الحقيقة التي تذكروها من أن الحزب الجمهوري قد نهض من حزب مغمور قبل الحرب في 1854 - وخلال ست سنوات - قفز إلى السلطة القومية ، بسبب تحول الحزب الهوجيني إلى مفارقةٍ تاريخيةٍ ميئوس منها . وبدا الحزبان الرئيسيان كلاهما منطويان على مفارقةٍ تاريخية ، وكلاهما كان في قبضة سلطة المال ، وأدارا ظهريهما – كلاهما - لمصالح الشعب كذلك .

كان عدد المزارعين كنسبةٍ مئوية من مجموع عدد السكان في تناقصٍ مستمر ، بينما عمال المدن

704

في تصاعد . وكحركة ، أخذت الشعبية في الانحدار ، وعانى " الشعبيون " كثيراً من الركود والكساد وانخفاض أسعار المحاصيل ، وفي كساد تسعينيات القرن التاسع عشر فإنه لم يكن باستطاعة الكثيرين من المزارعين دفع الاشتراك السنوي في جريدة الشعبيين ، والذي كانت قيمته دولاراً واحداً .

وكان إعلام " الشعبيين " المحروم من عوائد الإعلانات ، والمعتمد على عوائد توزيع صحفهم (الشعبيين).. ضعيفاً ، ولذا كانت معظم الجرائد الإصلاحية تقوم على جهد رجل

واحد ، وكالمعتاد فإن التوزيع لم يكن بكافٍ ، حتى لتحمل مثل تكاليف التشغيل الضئيلة هذه ، و أخذت جمعية صحافة الاصلاح" بتزويد أعضائها بطبعة رخيصة من صفحتين ، والتي عادةً ما تتضمن آخر آيات "إنجيل" الحزب الثالث ، وتحت

705

إرشاد وتوجيه دبليو. سكوت مورجان من آركنساس ؛ ثم أصبحت الصفحتان هي الصفحات الداخلية من جرائد الشعبيين ذات الأربع صفحات ، وبلغ عدد مثل هذه الجرائد حوالي الألف في تسعينيات القرن التاسع عشر ، ولكن نظراً للخسائر ، فإن الكثير منها توقف عن العمل بسرعة . وكأنما لم تكن هذه الصعوبات المالية بكافية ، فهذه الجرائد ومحرروها كانوا محط اعتداءات بدنية ، وعلى سبيل المثال فإن مشغل " الحقيقة الحية " ، وهي جريدة في جرينفيل بولاية آلاباما ، قد حطم وبعثرت الأحرف الطباعية .

في 1892، وبعد سنةٍ من ذلك اشتعلت النيران في بيت محررها ، وعلى الرغم من ذلك لم يفته إصدار عدد واحد تلك السنة ، أما ثوماس جينز ، من جريدة "النصير الطلائعي" ببلدة كومانشي في تكساس ، فقد تلقى العديد من التهديدات والهجمات والتي امتدت لتطول عائلته ، بينما أطلقت النار على المحرر المساعد لجريدة " حامي الاتحاد " حيث قتل في تكساس .

706

وقد وصف لورنس جودوين محرري جرائد " الشعبيين " ، بأنهم الرعاة لهالةٍ من الأخلاقية والحساسية تجاه الانسانية . وبالنسبة لهؤلاء المحررين ، ما الذي كان أميركيا ؟ " ما الديموقراطية عندما يتمكن قادة الصناعة " العدوانيون من شراء المشرعين بأكملهم ، وإبقاء كونجرس الولايات المتحدة في عبودية دائمة للسادة (الارستقراطيين)

المتأنقين ؟ ما قيمة العمل الأمين عندما تدفع التركيبة التنظيمية الخالية من الرحمة للعملة(النقود) ، أسعار المنتجات الزراعية إلى ما دون كلفة إنتاجها؟ مافائدة الاقتصاد في العيش ، عندما تبتلع معدلات الفائدة العالية الأراضي الزراعية ؟ أو عندما تربح السكك الحديدية من شحن الذرة ، نقوداً اكثر مما فعل المزارعون في زرعه وقلعه؟ أين هي فضيلة المجتمع عندما دمّر المصرفيون ، وبيوتات العمولة ، وشركات روافع وصوامع الحبوب تعاونيات العون الذاتي للمزارعين ؟ أين كانت

707

الكرامة عندما اضطرت نساء المزارعين للسير حافيات ، بينما يقرر صاحب الحانوت(الدكان) ما الذي يمكن لأسرة المزارع أن تأكله أو لا تأكله ؟ أين هي الحرية عندما كان نظام حجز ورهن المحصول ، يتم فرضه عن طريق نظام تأجير المساجين للشركات ؟ ما الذي تعنيه الفضائل القديمة في أوضاعٍ كهذه؟" [294]

" وبالنسبة للشعبيين كانت ممارسات جيه. جولد الخالية من الرحمة سيئة بما فيه الكفاية ؛ وعندما ضمت إليها قوة الأسوشييتدبرس ، المملوكة لجولد ، لتمجيد قادة الصناعة في الصحافة العامة ، بدا وكأنه لا مراسي أخلاقية لأميركا بالمرة ، ما قيمة الرأي العام الديموقراطي عندما يتم تسخيف المصلحين الطيبين والسخرية منهم باستمرار .. من قبل محررين حسني الهندام ، يعتاشون من الدعم الإعلاني ، من رجال أعمالٍ مهتمين بمصالحهم الذاتية ؟

708

وفي التطبيق العريض الذي فضله " الشعبيون" ، فإن " سلطة المال " ذات دلالة رمزية أكثر من معيار الذهب ، والبنوك الخاصة الوطنية ، أو " الرأسماليين اللوردات ، من

---

[294] Ibid., 207

لومبارد ستريت او وول ستريت .. فسطوة المال فتاكة مخربة ، لأنها كانت تغير القواعد التي كان الأميركيون يتصرفون بموجبها سياسياً ." [295]

وفي 1893 ، سبب هلعٌ جديد في سوق الأوراق المالية ، أسوأ كسادٍ في التاريخ الأميركي ، نتج عنه إفلاسات بنوكٍ وأعمال ، وتسريح آلاف العمال ، ومزيد من الهبوط في أسعار المحاصيل الزراعية . ومع هبوط احتياطيات الذهب ، طلب الرئيس كليفلاند من روتشيلد الإنكليزي عبر وكيله أوغست بلمونت الصغير ، أن ينظم جمع 100 مليون دولار قرضاً للخزينة ، وأصر روتشيلد

709

على أن يتم سداد القرض الجديد بالذهب أو بالجنيه الاسترليني . وعبر ترتيبٍ مع جيه. بي. مورجان ، وقع عقدٌ فاقدٌ للشعبية – بين جيه. بي. مورجان وشركاه وبين الحكومة ، والذي عرضوا فيه على 112¼ – أي أعلى تقريباً بثماني نقاط عن السعر المقدم من تجمع روتشيلد - وكان أن باع مورجان جميع الصكوك خلال عشرين دقيقة .

ولقد أثار اشتراك روتشيلد مشاهد معاداة للسامية ، أحيت رهاب خشية الاجانب لدى اليسار واليمين عبر التاريخ الأميركي ، والتي تربط بصورة تلقائية مسائل النقود والإقراض باليهود ؛ وقد أمر وليام جينينجز برايان (1860-1925) - وهو احد مرشحي الحزب الديموقراطي للرئاسة - موظف المجلس أن يقرأ صك شايلوك ، ثم طالب " بأن تدار الخزينة لصالح الشعب الأميركي ونيابة عنه ، وليس نيابة

710

---

[295] Lawrence Goodwyn, *Democratic Promise: The Populist Moment in America*, Oxford University Press, 1976, 358

عن آل روتشيلد وغيرهم من المصرفيين الأجانب " . واشتكت " بوليتزر وورلد " من أن " مؤامرة وول ستريت " من قبل الأجانب الغرباء ، ومصاصي الدماء اليهود ، قد سلبت البلاد الملايين في عشرين دقيقة ، كما شجبت ماري إي. ليز ، وهي كاتبة تنتمي للشعبيين ، وكانت نصحت المزارعين " بان ينتجوا ذرةً أقل ، وسخطاً أكثر " ، شجبت كليفلاند بوصفه " عميل المصرفيين اليهود والذهب البريطاني " .

إنه لمن المدهش كم هو قليل ما تغير ، بين ظروف واحوال القرن التاسع عشر ، وظروف هذه الأيام وأحوالها ؛ فالتباين في الثروة مغروس في صلب النظام ، كما أن الصدع بين القلة الذين يملكون المال والطبقة العاملة لم يتغير الا قليلاً . وفي 1889 بينت مقالة بعنوان " مالكو الولايات المتحدة" أن أغنى 100 رجل في البلاد يحصلون على دخلٍ سنوي يتروا ح بين 1,2 مليون دولار

711

و 1,5 مليون دولار ، بينما 80% من الأسر الأميركية تحصل على أقل من 500 دولار في العام.

إن حلول الشعبيين هي أيديولوجيا أميركية أصيلة ، نبتت خارج صندوق الرأسمالية ، ولقد حاربتهم الرأسمالية بوحشية سراً وعلانية ، كما لو كانت مسألة حياة أو موت لمالكي سلطة المال . ولقد أراد " الشعبيون" تحويل ونقل معظم الميزات التي كان يتمتع بها مالكو قوة المال المميزون ، إلى الشعب ، ولقد أراد للحكومة أن تتدخل لصالح الأغلبية في الشارع العام ، ضد شرور الأقلية في شارع المال وول ستريت ، وليس – على العكس - و كما كانت عليه الحال ولا زالت.

الاقتصاد في الاسلام

712

إن دور المال (النقود) في المجتمع مختلف ، فهو ليست سلعة لعمل المزيد من المال ، وإنما أداة ذات مهمة اجتماعية . وخلق النقود هو شغل الحكومة – مباشرة - تجاه الناس ، دون تدخل المرابين الوسطاء . والخزينة ستقوم بالاقراض إلى الاقتصاد المنتج كشريكٍ في الأرباح والخسائر ، حيث مبدأ الفائدة – ببساطة – لا وجود له ، فتأمل ما الذي يمكن أن يفكر فيه سيتي جروب ، وجولدمان ساكس حيال هذا!

والحكومة نيابةً عن الشعب – تمتلك الموارد الطبيعية والمنافع العامة ، تأمل كيف يمكن لشيفرون أن يعجبها هذا ! هل من عجبٍ لماذا نظر رجال النفط :جورج بوش الأول والثاني هكذا إلى الإسلام .. عقيدة 1,5 بليون من الناس ، ربع سكان العالم ، والذين يكمن تحت أراضيهم 70 بالمائة من النفط!

713

وكحارس للرأسمالية العالمية، ارادت أميركا الحجر على هذه المبادئ بكليتها ، بعيداً عن الحياة العامة ، و حتى عن البحث والحديث فيها ، وافترضت أن بمقدورها عمل ذلك بشكل مناسب تحت لافتة العلمانية .

يعتبر الربا العمود الفقري للنظام المصرفي ، وقلب الرأسمالية ، والذي بدونه فلن يكون هناك رأسمالية ، فالإسلام ضد الربّا بقوة .. فالربا ليس غير قانوني فقط ، وإنما هو – بالإضافة إلى ذلك– إثمٌ عظيم ، وقد كان خطيئة كبرى في كل الأديان ، إلى أن قام الإصلاح البروتستانتي ، ببطء ولكن بإصرار ، بجعله قانونياً ، وأطلق بذلك عنان الرأسمالية المينية على الربا ، والإسلاميون الذين يدافعون عن تطبيق القيم الإسلامية إنما يعملون على تقويض الرأسمالية من أساساتها.

714

وإذا كان تقليص الدور الحكومي وما يسمى بالتحرر من روتين المعوقات الحكومية ، قد أودى بأميركا وأوصلها إلى حافة الدمار الاقتصادي ، فإن الإسلام يحتفظ بدورٍ أساسي للحكومة ، كونه يفترض فيها حماية الجميع .. والأغلبية وليس القلة.

وبعد 11 أيلول ، قال هنري كيسنجر في خطابٍ القاه في لندن ، إن قليلين هم الذين يدركون كم يختلف الاسلام عن الغرب . وتلك في الواقع عبارة صادقة ، فمالكو سطوة المال في الرأسمالية العالمية يفهمون الفرق ، وكذلك شأن عملائهم في واشنطن والصفوات الحاكمة ، وهذا الفرق هو السبب الحقيقي للهجوم الذي تشنه الرأسمالية حالياً ضد الإسلام ، والذي تم تمويهه على نحوٍ ملائم كحربٍ ضد الإرهاب .

715

وعلى كل حال فقد فهمت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (OECD) هذا الفرق ، حيث أجرت دراسة حول الرؤية الاقتصادية الفريدة للإسلام ، وكيف تختلف عن كلّ من الرأسمالية والاشتراكية ، وقد ذكرت الدراسة :

"المفاهيم الاسلامية مختلفة عن الرأسمالية بمعارضتها للتجميع المفرط للثروة ، كما تتناقض مع الاشتراكية بحمايتها لحقوق الملكية بما في ذلك ملكية وسائل الانتاج ، وفي مجتمع إسلامي حقيقي لايجوز له ان يكون ساحة تتصادم فيها المصالح وتتعارك ، لا بل مكاناً يمكن فيه تحقيق علاقاتٍ متناغمة ، عبر حسٍّ من تحمل المسؤوليات المشتركة ؛ وحقوق

716

الفرد يجب أن تتوازن بعداله في مواجهة حقوق المجتمع على اتساعه . (بأكمله) [296]

في أطروحة عن " النظرية السياسية الإسلامية للعراقي محمد باقر الصدر" كتب صاحب الأطروحة تي. إم. عزيز ، وهو أحد الدارسين الزائرين بمركز دراسات الشرق الأدنى التابع لجامعة كاليفورنيا في لوس آنجلوس (UCLA) عن المنظور الإسلامي في الاقتصاد السياسي:

مع انهيار الشيوعية في أوروبا الشرقية وفي قلبها ، الاتحاد السوفياتي ، يقع العالم ثانيةً تحت سيطرة الممارسات والقوانين الرأسمالية .. ودون مشاهدة أية سبل بديلة للتنمية الاقتصادية سوى ترك " قوانين السوق "

717

تلعب دورها في محلة السوق ؛ ولقد أصبحت يد السوق الخفية الآن مرئيةً أكثر من أي وقتٍ ، كعامل قرار وحسم في حيوات الأمم والآدميين . وكنتيجة ، تصبح المصلحة الذاتية لأعضاء المجتمع هي القوة الدافعة للاقتصاد ، و يصبح قانون العرض والطلب هو الآلية

المنظمة للاستغلاليين في المجتمع ، وحتى الاقتصاديين ، فيما كان يدعى بالكتلة الماركسية ، يشاركون في مثل هذا السلوك الاقتصادي ، كونه البديل الوحيد لعلاج أمراض اقتصادات أممهم .

وهذا ليس صحيحاً تماماً ، كما يقول الكثيرون من المفكرين والناشطين السياسيين الإسلاميين ، إذ يعتقدون أن الإسلام يزود الإنسانية

718

بحلولٍ لمشاكل نشأت عن نظم سياسية ، وقيم أخلاقية وضعية وغير كاملة من صنع الإنسان . وطبقاً لهؤلاء المفكرين والناشطين الإسلاميين ، فإن الإسلام إطار اجتماعي منزل من السماء ، يفترض فيه هداية الإنسانية إلى السلام والسكينة ، في كل مناحي الحياة ، في الطبيعة وما وراء الطبيعة . وواحدٌ من هؤلاء المفكرين والناشطين كان محمد باقر الصدر ، وهو عراقي أعدم لأنه قاد حركةً ثورية ضد نظام الحكم البعث في العراق عام 1980 .[297]

وسوف نلخص بإيجاز الرؤية السياسية الاجتماعية والاقتصادية للإسلام ، كما يراها الصدر وكما لخصها تي. إم. عزيز
719

دور الدولة الإسلامية

للدولة وحدها - في الإسلام - حق امتلاك الموارد الطبيعية ، ولذا فإنها تسيطر على جميع أوجه النشاط الاقتصادي ، وبناء عليه تتحكم الدولة في تدفق الثروة في المجتمع المسلم ، كما تحدد النسق الاقتصادي بطريقةٍ تجسد هدف الدولة الإسلامية ، والذي هو تحقيق المنفعة للمجتمع بأكمله.

---

[297] http://www.al-islam.org/al-tawhid/politicaleconomy/1.htm

والدولة مسئولة عن توفير الحد الأدنى من الاحتياجات للمجتمع كله ، فالتشرد والفقر في مجتمع وفرة ، هو أمر غير إسلامي أبداً ، بينما هو أمر ملازم للرأسمالية ولا تستغني عنه . ويتم تقسيم الموارد في الإسلام طبقاً للعمل والقدرة على الإنتاج ، ولكن أيضاً حسب الحاجة ، وهناك ثلاث فئاتٍ اقتصادية

720

معروفة في المجتمع ، الأولى منها هي الفئة التي تملك القدرة الذهنية و/أو القدرة البدنية والمادية لان تنتج اكثر من الاحتياجات ، وفئة أخرى هي التي بمقدورها أن تعمل بما يسد حاجتها ، وفئة ثالثة لا تملك لا القدرة الذهنية ولا البدنية لكي تعمل على نحوٍ منتج . وعلى الحكومة الإسلامية توفير حاجات الفئتين الاخيرتين وسدها ، إذ أن مهمة الحكومة هي رعاية رفاه رعاياها ، وهي تمتلك الموارد الاقتصادية التي تمكنها من تنفيذ البرنامج الاجتماعي الذي يؤمن عيش كافة المواطنين بكرامةٍ وكفاية .

ويمنع الإسلام الهدر ، ويعتبر أسلوب الحياة المترفة والباذخة هدراً ، ويوجه أنساق العمليات الانتاجية لإنتاج السلع التي تشبع حاجات المجتمع كله ، وتحقيق مستوى معاشيٍ 721

عادلٍ للمواطنين هو مهمة الحكومة ، ومهام الحكومة هي ضمان الازدهار والبحبوحة لكافة الناس.

النظام الاقتصادي في الإسلام:

وكما بين الصدر في كتاباته ، فإن نظام الاقتصاد الإسلامي هو جزء من النظرية السياسية العامة للإسلام ، والتي صممت لتوفير نظام اجتماعي اقتصادي مترابط طبقاً للمبادئ الإسلامية ، وهذه النظم الاجتماعية الاقتصادية سوف تحتاج دولةً إسلامية لتطبيقها ، والتي يجب أن تقوم ، بجهود المسلمين كافة . وفي الجوهر ، فإن هذه الأيديولوجية الإسلامية بالذات ، هي التي تسميها الرأسمالية الممثلة بالولايات المتحدة وحلفائها بمن فيهم عملاؤها من الدول الإسلامية والعلمانيين المسلمين ، تسميها

722

الأصولية ، وتقوم بمحاربتها تحت مختلف اللافتات ، والتي تدعى أكثرها شهرة .. ! الحرب على الإرهاب .

ويوضح الصدر النظرية الاقتصادية في الإسلام :

يتكون الهيكل الاقتصادي للدولة الإسلامية من ملكية خاصة وملكية عامة..ولأجل تبرير الملكية الخاصة والملكية العامة في الإسلام ، فإن على المرء أن يفهم الحقوق والالتزامات المترتبة للفرد وعليه ، وأن يفهم الدولة في الإسلام .[298]

وطبقاً للصدر فإن سلوك الإنسان يصنف إلى ثلاث أصناف من العلاقات: اجتماعية ، واقتصادية ودينية ، وهي

723

تنشأ من علاقات الإنسان الرئيسية: مع البشر الآخرين ، ومع البيئة ، ومع الله .[299]

وبما أن الناس ليسوا متساوين في قدارتهم البدنية والذهنية ، فمن الواضح أن يختلفوا في انتفاعهم بموارد البيئة ، وتبعاً لذلك ، كان بعض البشر راغباً في ظلم الآخرين لإرضاء جشعه وغروره (وكلاهما مصدره حب الذات) ، وحينذاك واجه المجتمع الانساني الظلم على شكل استغلالٍ اقتصادي.[300]

وهذا الصراع بين السلم الاجتماعي وغريزة الفرد في تعظيم فائدته ، كانت موجودة طيلة التاريخ ، وهذا الصراع التاريخي ،كما يجادل الصدر – هو بين فئتين : أولئك

724

---

[298] http://www.al-islam.org/al-tawhid/politicaleconomy/1.htm

[299] http://www.al-islam.org/al-tawhid/politicaleconomy/2.htm

[300] Ibid.

الأفراد الذين يسيطرون على الموارد البيئية (اقتصادية واجتماعية) ويبذلون قصاري جهدهم لحماية مصالحهم ، وبقية المجتمع التي تجهد لتعيش بسلام وتعاون ، ويعتقد الماركسيون أن أصل المشكلة بدأ مع قلةٍ من الناس يحكمون الموارد الاقتصادية . والرأسماليون من الناحية الأخرى يعتقدون أن مثل هذا الصراع الاجتماعي هو نتيجة لمحدودية الموارد الطبيعية في البيئة ، والتي ليست كافية لإشباع حاجات جميع الناس ، ولهذا فإن الصراع الاجتماعي سيكون دائماً موجوداً ومنتشراً .. وعلى أية حال فإن الإسلام يخالف وجهتي النظر كلتيهما ، ويعتبر الموارد البيئية كافيةً لإشباع حاجات الناس.

ونقطة البدء هي توجيه الطبيعة البشرية هي : كيف يمكن لغريزة

725

حب الذات أن توجه بالشكل الصحيح ؟ وما لم يظهر حلّ للتحكم في الرغائب البشرية ، وإزاحة إمكان استغلال الآخرين ، فسيبقى النظام الاجتماعي مرتكزاً إلى أسس مهزوزه. [301]

ويحدد الصدر عناصر ثلاثة للحلّ الإسلامي :

1. ***إنهاء كافة أشكال الظلم التي تتبدى في التوزيع غير العادل للموارد الاقتصادية***
2. ***تدريب و تهذيب " الطبيعة البشرية" لتحقيق السيطرة على غريزة حب الذات .***
3. ***استغلال الموارد الاقتصادية لسدّ احتياجات الإنسانية بأجمعها .*** [302]

النظرية الإسلامية في التوزيع :

726

---

[301] Ibid.

[302] Ibid.

إن نظاماً اجتماعيا إسلامياً عادلاً هو ذلك النظام الذي يتمتع فيه جميع المواطنين بمنافع ثروة الدولة، حيث الموارد الطبيعية ، والتي هي مصدر رئيسي للثروة ، مملوكة للدولة . وفيما تتمحور الرأسمالية حول رأس المال بصفته العامل المسيطر في دورة الانتاج ، نجد أن أهميته في النظرية الاقتصادية الإسلامية أقل بشكل كبير ، حيث تعتبره ثروة تم إنتاجها ، وليس مصدراً رئيسياً للإنتاج.

وتعرف المصادر الطبيعية على أنها الأرض ، والمواد الخام ، والمياه والموارد الأخرى مثل الأنواع الحية في الأرض والهواء والماء . والدولة هي المالك الوحيد للأرض وللموارد الطبيعية ، ولا يمكن نقل الملكية إلى فرد إلا عن طريق استثماره لعمله الشخصي ، وللمدى الذي يستمر فيه عمله ، وتنتهي الملكية

727

حال توقف استغلاله لتلك الأرض أو المورد الطبيعي وانتفاعه بها ، كما يتوجب دفع ضريبة أملاك مقابل استعماله الأرض أو المورد الطبيعي ، ولأغراض التطوير يمكن تملك الماء ، ويمكن للأفراد تحصيل اسبقية على الأخرين لقطعة أرض أو لمصدر للمعادن يشغلونه ، وإذا استثمر فرد عمله في تطوير مصدر مائي جوفي فإنه يصبح ملكاً له ، أما الموارد الطبيعية الأخرى فهي ملكية عامة ، ولكن يمكن لها أن تصبح ملكية خاصة عبر عمل المرء الخاص . المبدأ العام في هذا :

كل الثروة الطبيعية هي جزء من القطاع العام ، ويحصل الأفراد على الحقوق الخاصة باستخدامها على أساسٍ واحدٍ فقط ، وهو

728

العمل الموسوم بالتطوير (لهذه الموارد) بالعمل المباشر (للفرد بذاته) .[303]

---

[303] http://www.al-islam.org/al-tawhid/politicaleconomy/4.htm

وهكذا لا يستطيع الأفراد استغلال عمل الأفراد الآخرين لتملك أراضٍ واسعة ، وصناعات كبيرة مثل النفط و الغاز ، المرتكزة إلى موارد الدولة الطبيعية والمملوكة لها.

توجيه الطبيعة البشرية : الجشع ليس جيداً

عكس تعاليم كافة الأديان ، دافع كهنة الرأسمالية عن مقولة إن " الجشع جيد" (Greed is Good) ، أما بالنسبة للإسلام فإن الجشع شر ، فالديانات قد جاءت لتهذيب الحواف الحادة للطبيعة البشرية . ومع الإقرار بأن حب الذات

ؤو

هو غريزة ضرورية للبقاء ، إلا أن الأنانية المفرطة تجرح المجتمع ، كما أن التوزيع العادل للثروة، والقضاء على العلاقات الاقتصادية الظالمة في المجتمع الإسلامي ، هما المهمتان الرئيسيتان للنظام السياسي الإسلامي .

يقر الإسلام بأن العمل من أجل الربح الشخصي ، هو تجلّ لحب الذات الذي يدفع الإنسان للحفاظ على بقائه ، كما أنه أيضاً يزود الدافع للتعاطي مع المصاعب والتغلب على التحديات ، وهذه الغريزة إذا تركت مطلقة دون قيد من الأخلاق ، فإنها ستعبر عن نفسها بأشكال مختلفة من الظلم ؛ وقد جاءت الديانات - بما فيها الإسلام - لضبط هذه الغرائز . وعلى العكس من هذا في الرأسمالية ، فمثل هذه الغرائز لا ضابط لها .. وكما كتب ليسترسي. ثورو "ليست الرأسمالية بأكثر من مناهج عمليات وهي لا تضع للانسان قيودا تخبره ما الذي يجب عليه عدم القيام به" . وقد كتب ثورو أنه في الرأسمالية

730

حتى الجريمة ليست سوى نشاط اقتصادي يمكن للمرء القيام به ، إذا لم يمانع في دفع الثمن إذا ما قبض عليه.

والدين.. يعطي الإنسانية الحل الوحيد لهذه المعضلة الأساسية المتجذرة عميقاً في الطبيعة البشرية، ويتغلب الدين على مشكلة الطبيعة البشرية بتحديد العديد من مسارات التحكم في النفس ، و التي تنظم بشكلٍ صحيح أو توجه غرائز الإنسان صوب السلوك الاجتماعي المناسب ، وبكلمات أخرى ، فانه يضع حداً للتناقض بين مصالح المجتمع والمصلحة الخاصة . ***ولا يعترف الإسلام ولا يقر أية قيم يرجعها مجتمع إلى امتلاك الثروة الاقتصادية***

، فالغنى والنجاح الاقتصادي للفرد ليست علامات وجاهة اجتماعية ، ويطالب الإسلام الفرد أن يعتبر الثروة عبئاً

731

يرتب مسئولية على كاهل الثري لخدمة نفسه والآخرين ، وهي ليست سوى وسيلة لتحقيق أهداف الإنسانية . [304]

وهذا يتحدى ألف باء الاستهلاكية ، إحدى المحركات الرئيسية للرأسمالية.

قبل سنواتٍ قليلة مضت ، وضعت كارين آرمسترونج عدة كتبٍ عن الإسلام ، وكراهبةٍ سابقة ، قالت آرمسترونج بأنها كانت تقريباً جاهلةً تماماً بالدين الإسلامي ، وفي 1984 ، خلال عمل فيلم

732

عن الصوفية ، طريقة التأمل الباطني في الإسلام ، فقد بهرها تسامحه و تحمله للديانات الأخرى ***"وهي صفة لم أصادفها – بالتأكيد – في المسيحية ! وتحدى هذا كل شيء أخذته كأمرٍ مسلمٍ به عن الإسلام ، وبذا أردت أن أعلم المزيد."*** [305]

وإسلام هي كلمة عربية تعنى " الخضوع " أو " التسليم " ، " والمسلم هو الرجل أو المرأة الذي قام بإخضاع كينونته كلها لله ، ولطلبه أن يتصرف البشر - الواحد منهم تجاه الآخر - بالعدل والمساواة والتعاطف .. ولهذا ، كان العدل الاجتماعي هو الفضيلة الحاسمة في الإسلام ، وأمر المسلمون - كأول واجبٍ لهم - ببناء المجتمع (الأمة) الموسوم بالتعاطف

733

---

[304] http://www.al-islam.org/al-tawhid/politicaleconomy/6.htm

[305] Karen Armstrong, *Muhammad: A Biography of the Prophet*, HarperSanFrancisco, 1993, 14.

العملي ، والذي منه التوزيع العادل للثروة . وكان هذا أكثر أهمية من أية تعاليم مبدئية أخرى تتعلق بالله."

وطبقاً للورقة 52148 : " الغرب : الرأسمالية ، التقدم والمسيحية " من جامعة كوينز لاند المركزية :

لقد نوقشت الصلة بين المسيحية والرأسمالية لأكثر من نصف قرن ، عندما نشر عالم الاجتماع ماكس ويبر " الأخلاقيات البروتستانتية وروح الرأسمالية " في عام 1904 ، وجادل ويبر بأن "الإصلاح الديني " في أوروبا هو حركة القرن السادس عشر التي تحدت هيمنة الكنيسة الكاثوليكية وشهدت ظهور العقائد البروتستانتية الجديدة ، مثل اللوثرية ، والكالفانية

734

والميثوديستيه ، والتي كانت شرطاً مسبقاً لنمو الرأسمالية الحديثة .

وكانت كاثوليكية ما قبل "الإصلاح الديني" - من حيث المبدأ - ضد الربح ، وكانت معارضة بشكلٍ خاص للربا ، والذي هو إقراض النقود مقابل ربحٍ ودون مخاطرة .. وكل الديانات الإبراهيمية الثلاث: اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام منعت الربا.

وطبقاً للعهد الجديد : لوقا 6 : 34,35

- حتى الخطاة يقرضون الخطاة غير مترجم اخر فقرة

735إلى 736

وطبقاً للقران

اخر فقرة 736

وأضافت ورقة جامعة " كوينز لاند المركزية :

وبالرغم من ذلك ، هنالك بعد آخر للرابط بين الدين وصعود الرأسمالية ، وهو ما يدعى عموماً "أخلاقية العمل لدى البروتستانت" ، وفي 1963 طور إي. بي. ثومبسون فكرة ويبر أكثر ، ليطرح فكرة أن البروتستانتيه قد غيرت الطبقات العاملة في أوروبا بأشكال

أساسية ، كما جادل بأنه لم يكن من الممكن اجبار المجتمعات الفلاحية القروية على التكيف مع الرأسمالية الصناعية ، ومع عمل المصنع .. فأوروبا ما قبل الرأسمالية ، كان لديها قوة عمل غير منظمة وغير منتظمة ، والتي كانت بحاجةٍ إلى التنظيم ، إذا كان يرجى للرأسمالية أن تتطور ...إذ كان توجّه

737

المجتمع ما قبل الصناعي نحو "المهمة" Task .. ولم يكن العمل يحسب على أساس وقتٍ معلومٍ ومحدد .. وقد بذل الغرب قصارى جهده لفرض هذه الثقافة الجديدة.. وكثيراً ما أخذ المبشرون الأطفال لادخالهم إلى المدارس ، ليس لأنهم كانوا يرغبون كثيراً في تعليمهم ، وإنما لإتاحة الفرصة لهم لاكتساب عادة النظام ، والتي هي ضرورية كي يصبحوا جزءاً من عالم الرأسمالية الحديث.

الثمن هو قوة السلطة.

29 أيلول 2008

738

بعد سنوات عديدةٍ من النمو السريع للمداخيل وللناتج ، يبقى القليل من الشك في أن تباطؤاً اقتصادياً من عيارٍ ما هو الآن قيد التشكل في العالم ؛ وفي حالاتٍ كثيرة ، فإن هذا التباطؤ يأتي مصحوباً بتضخم ، أما ما هو حجم التهديد الذي يشكله هذا التضخم ، فيبقى مطروحاً للتساؤل ، إلا أنه تبقى لدينا اللعنة المزدوجة – الركود والتضخم . ويمكننا أن نأمل في خلاص منهما ، إلا أن هذا قد لا يكون واقعياً ، فمن المتنبأ به لهذا التباطؤ العالمي أن يكون كساد (انكماش أكثر خطورة للناتج القومي الإجمالي GDP يمكن له أن يستمر عقداً من الزمن أو أكثر) . وضمن بلدان منظمة الدول الأوروبية للتعاون الاقتصادي (OECD) فإن معدلات التضخم لم تصل

739

حدود رقمٍ ذي خانتين بعد ، ولكن من المحتمل حدوث ذلك قريباً ، إلا أن البلدان النامية أكثر مدعاةً للقلق ، حيث غالباً ما يكون التضخم أعلى من 10% سنوياً ، وهذا التضخم سيتم تصديره إلى دول منظمة التعاون الأقتصادي الأوروبية OECD ، كما يجادل ثوماس

بوكاري (www.worlddaffairsmonthly.com) . وهكذا ، يمكننا أن نرى أن الارتفاع في كلفة المنتجات والخدمات يصبح الهم الأكبر في ذهن كل شخص ، فالثمن هو السلطة (القوة)

هل هناك من مخرجٍ من هذه النبوءة الاقتصادية المحزنة المؤلمة ؟ ومن المحير ، أن هذا ما كانت عليه الحال قبل 500 عام خلت ، وكانت أوروبا حينذاك تتلهف للحصول على التوابل من الهند والشرق الاقصى ، إلا أنه كان عليها دفع أثمان مرتفعة للتجار " الوسطاء" العرب ، الذين كانوا يتاجرون مع الهند

740

والشرق الأقصى ، ثم ومن حيث لا يدري أحد ، ظهر العالم والمستكشف البرتغالي فاسكودي جاما (1460-1524) ، والذي غير العالم وإلى الأبد في عام 1497 ، باكتشافه لطريق الهند ، بإبحاره جنوباً من أوروبا والدوران حول القارة الإفريقية . وأدى اكتشاف دي غاما هذا إلى إنهاء دور العرب كوسطاء ، وسمح لأوروبا بشراء السلع مباشرة من المزودين الآسيويين بأسعارٍ أرخص . حارماً بذلك التجار العرب من عمولتهم ، وبدأ بعد ذلك الاقتصاد العربي بالتدهور.

لقد منع نمط الحكم الفردي الآسيوي تقدم البلاد ، ولذا ولمدة خمسة قرون كان الغرب قادراً على التمتع بالسلع الآسيوية بأسعار رخيصة ، ولكن السلعة الأكثر أهمية في أيامنا الحاضرة هي النفط ، حيث

741

لا تطور أو نمو اقتصادي بدون البترول ، وكان سعر برميل النفط في 1999 رخيصاً لحد 9 دولارات ، بينما لامس سعر البرميل حد 147 دولاراً في 2008 ، لذا يجب أن يكون واضحاً أن المطلوب وبسرعة هو فاسكودي غاما آخر ، والغرب بحاجة أو أنه لا بد له من البضائع الرخيصة ، وفي هذه المرة فإن العرب ليسوا وسطاء - على أية حال - وإنما المالكون . مالكو حقول النفط ، وفي غياب فاسكو دي غاما ،اختارت الولايات المتحدة والغرب "القاعدة كبديل" ، فالغرب يريد ويحتاج أعداداً غفيرة من نمط "القاعدة" في الشرق الأوسط وأواسط آسيا ، وطبقاً لبعض التقارير ، تريد الولايات المتحدة الأميركية بناء سبعة

وخمسين من القواعد في العراق وحده ، والسؤال المهم ما هي أعداد "القاعدة" التي ستكون هناك حاجة لها كي تعدل فاسكودي جاما واحداً ،

742

أوبك وليس الغرب هو من لديه النفط، وكائناً ما كانت كمية الحفر التي نقوم بها ، فإن عرض النفط سوف لن يعادل الطلب ولذا ، ستستمر أسعار النفط بالارتفاع .

743